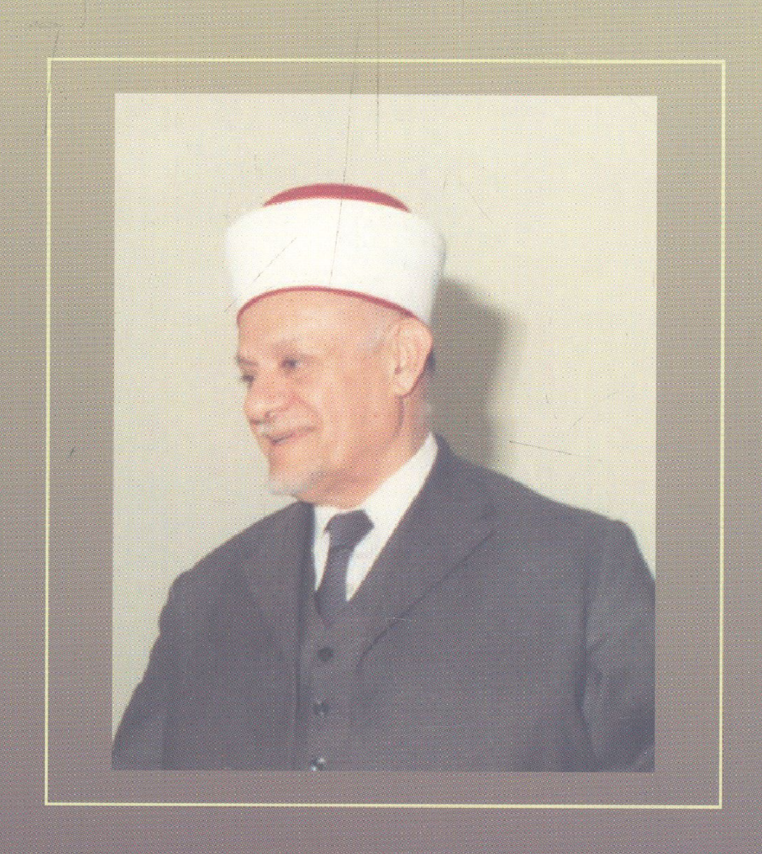
كتاب الشهر ١٢٤
سلسلة كتب ثقافية
تصدرها وزارة الثقافة
المملكة الأردنية الهاشمية
٢٠٠٧

المذكرات والرحلات
للشيخ إبراهيم القطان



تحقيق :
أ. د. صلاح جرار
كايد هاشم
ريم القطان

2007

المذكّرات والرّحلات

للشيخ إبراهيم القطّان (١٩١٦ - ١٩٨٤م)

• سلسلة كتاب الشهر

تصدر عن:

وزارة الثقافة

عمان - الأردن

المذكّرات والرّحلات

للشيخ إبراهيم القطّان

(١٩١٦ - ١٩٨٤م)

تحقيق

الأستاذ الدكتور صلاح جرار

ريم القطان

كايد هاشم

• المذكرات والرحلات للشيخ إبراهيم القطان (١٩١٦ - ١٩٨٤)

• تحقيق: الأستاذ الدكتور صلاح جرار، ريم القطان، كايد هاشم
• الطبعة الأولى ٢٠٠٧
• سلسلة كتاب الشهر رقم ١٢٤
• الناشر: وزارة الثقافة
عمان – الأردن
شارع وصفي التل
خلف جبري المركزي
ص. ب ٦١٤٠ – عمان
تلفون: ٥٦٩٦٢١٨/٥٦٩٩٠٥٤
فاكس: ٥٦٩٦٥٩٨
Email: info@culture.gov.jo

• تصميم الغلاف: يوسف الصرايرة
• الطباعة: مطبعة السفير ٤٦٥٧٠١٥

المملكة الاردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٦/٥/١٣٦٢)

٩١٠,٩٢

المذكرات والرحلات للشيخ إبراهيم القطان ١٩١٦ - ١٩٨٤/ إعداد وتحقيق صلاح جرار، ريم القطان، كايد هاشم._ عمان: وزارة الثقافة، ٢٠٠٦
ج٢( ) ص.
ر.إ: (٢٠٠٦/٥/١٣٦٢)
الواصفات: /أدب الرحلات//الشعر//الرحالة//التراجم/

• تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

فهرس المحتويات

القسم الأول
المذكرات

القسم الثاني
الرّحلات

القسم الثالث
الملاحق

مقدّمة

الأستاذ الدكتور صلاح جرار

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد النبيّ الأمين وعلى آله الطّاهرين وأصحابه والتابعين، وبعد؛

فإنَّ تحقيق ما دوّنه أسلافنا وعلماؤنا من السيِّر والمذكرات والمُشاهدات والرّحلات لّما ينبغي أن ينهض به أهل العلم والبحث والنّظر، من تلامذتهم والّذين يقبِسون من عِلمهم. ولعلّ من فنون الآداب التي حظيت بنصيب وافر من جهود أُدباء الأردنّ وكتّابه وعلمائه، فنّ السيِّر والمذكرات وتدوين الرّحلات؛ من سير الكُتّاب السياسيين والدبلوماسيين والعسكريين والأدباء الأردنيين ومذكراتهم المنشورة:

- الملك عبد الله بن الحسين، **مذكرات (ضمن الآثار الكاملة للملك عبد الله بن الحسين)**، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٣/ والمطبعة الهاشمية، عمّان، ١٩٧٠.
- فايز الغصين، **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى (١٩١٥ – ١٩١٦)**، دمشق، ١٩٥٦، وطُبع الجزء الثاني منه في جريدة **القبس** الدمشقية ١٩٣٥ – ١٩٣٧، ويتناول السنوات من ٥ كانون الأول ١٩١٦ إلى ٣٠ أيلول ١٩١٨.
- الأمير زيد بن الحسين، **مذكرات الأمير زيد: الحرب في الأردن ١٩١٧ – ١٩١٨**، سليمان موسى، مركز الكتب الأردني، عمّان، ١٩٩٠.
- هزاع المجالي، **مذكراتي**.
- حسين روحي، **الرحلة الرابعة (من وثائق الثورة العربية الكبرى)**، تحقيق: د. صلاح جرار، مطابع القوات المسلحة الأردنية، عمان، ١٩٩٧.
- عوني عبد الهادي، **أوراق خاصة**، مركز الأبحاث (منظمة التحرير الفلسطينية)، بيروت، ١٩٧٤.

- أكرم زعيتر، **بواكير النضال: من مذكرات أكرم زعيتر ١٩٠٩ — ١٩٣٥**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٤.
- محمد سعيد العاص، **صفحة من الأيام الحمراء: مذكّرات القائد سعيد العاص ١٨٨٩ — ١٩٣٦**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٨.
- صالح الشرع، **مذكرات جندي**، مكتبة المحتسب، عمّان، ١٩٨٥.
- عبد المنعم الرفاعي، **الأمواج (صفحات من رحلة الحياة)**، وزارة الثقافة، عمّان، ٢٠٠١.
- ضياء الدين الرفاعي، **من حقيبة الذكريات**، عمّان، ١٩٩٠.
- جمال الشاعر، **سياسي يتذكّر: تجربة في العمل السياسي**، دار الريّس للكتب والنشر، لندن، ١٩٨٧.
- جمال الشاعر، **دفاتر العمر**، دار سندباد، عمّان، ط١، ٢٠٠٢.
- أحمد الطراونة، **رحلتي مع الأردن**، تحرير: عامر صلاح طهبوب، جريدة الدستور، عمّان، ١٩٩٧.
- محمد نزال العرموطي، **خواطر وذكريات**، دار مجدلاوي، عمان، ٢٠٠١.
- عبد السلام المجالي، **من بيت الشعر إلى سدّة الحكم**، عمّان، ٢٠٠٢.
- فالح الطويل، **مدارات الذاكرة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٢.

ومن الأُدباء والكتّاب والصحافيين الذين دوّنوا سيرهم أو جوانب منها ومن ذكرياتهم:

- الدكتور محمد صبحي أبو غنيمة، **من الأيام**، تقديم: نصوح بابيل، دمشق، ١٩٤٠.
- شكري شعشاعة، **ذكريات**، وزارة الثقافة، عمّان، ١٩٩١، وأُعيد نشره عام ٢٠٠٢، وقد سبق نشره في مطبعة الاستقلال العربي، عمّان، ١٩٤٥.
- يعقوب العودات (البدوي الملثم)، **رسائل إلى ولدي خالد**، دار المعارف بمصر (سلسلة إقرأ)، ١٩٧٠، وأعادت نشره وزارة الثقافة، عمّان، ٢٠٠١.

- عيسى الناعوري، **الشريط الأسود (اعترافات)**، دار المعارف بمصر، ١٩٧٣.
- حسني فريز، **مع رفاق العمر (خواطر وسيرة ذاتية)**، رابطة الكتّاب الأردنيين، عمان، ١٩٨٢.
- عبد القادر الصالح، **ذكريات**، عمّان، ١٩٨٥.
- جمعة حمّاد، **رحلة الضياع**، مطابع المؤسسة الصحفية الأردنية (الرأي)، عمّان، ١٩٨٦.
- إبراهيم العجلوني، **أحزان مسيحية: سيرة ذهنية وجدانية**، دار أزمنة، عمّان، ١٩٩٥.
- إحسان عباس، **غربة الراعي — سيرة ذاتية**، عمان، دار الشروق، ١٩٩٦.
- سليمان موسى، **ثمانون: رحلة الأيام والأعوام**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٢.
- عرفات حجازي، **خمسون عاماً صحافة - رحلة الفكر والقلم**، دار الصباح، عمّان، ٢٠٠٥.

ولئن كانت العشرات من المؤلَّفات في هذا الميدان قد رأت النّور إلاّ أن هنالك العشرات أيضاً من هذه الكتب ما زالت حبيسة الأدراج والخزائن الخاصّة، تنتظرُ من ينفض عنها غبار الزّمن، لما لها من قيمة تاريخية واجتماعيّة ومعرفيّة، ومن هذه المخطوطات على سبيل المثال لا الحصر:

- عودة القسوس، **مذكرات عودة القسوس**، مخطوطة في مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية.
- الدكتور حنا القسوس، **ترجمة الدكتور حنا القسوس** (أول طبيب أردني في القرن العشرين).
- حسين الطراونة، **أوراق حسين باشا الطراونة**.
- عارف العارف، **مذكرات حياتي**.
- محمد الشريقي، **مذكراتي ١٩١١ - ١٩٥١** (ذكره سليمان الموسى في كتابه **وجوه وملامح**، ج١، ص٧٩).

- عيسى الناعوري، **مذكرات حياتي.**
- روكس بن زائد العزيزي، **المذكرات، والحلقة المفقودة في تاريخ الأردن - الحرب العالمية الأولى.**
- أحمد يوسف، **ترجمة حياتي.**

أما مذكّرات الرحلات فقد تعددت وتنوعت إسهامات المؤلّفين في بابها، ومنها على سبيل المثال أيضاً:

- محمد تيسير ظبيان، **مشاهداتي في ديار الإسلام: الحبشة المسلمة**، منشورات جريدة الجزيرة، دمشق، ١٩٣٧.
- علي سيدو الكردي، **من عمّان إلى العمادية أو جولة في كردستان الجنوبية**، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٣٩.
- عبد الله التل، **رحلة إلى بريطانيا**، مطبعة دار الأيتام الإسلامية، القدس، ١٩٤٧.
- الملك عبدالله بن الحسين، **رحلة الملك عبد الله إلى إسبانيا**، دوّنها موسى عبّود، مكتب الترجمة الإسبانية العربية، تطوان، ١٩٤٩.
- يعقوب العودات (البدوي الملثم): **الناطقون بالضاد في أميركا الجنوبية**، مجلدان، دار ريحاني، بيروت، ١٩٥٦.
- ماجد ذيب غنما، **كنت في مراكش**، دار النشر والتوزيع والتعهدات، عمّان، ١٩٥٦.
- ماجد ذيب غنما، **يوميات أندلسية**، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمّان، ١٩٧٨.
- فوز الدين البسومي، **حكايات عن الأرض والإنسان**، دار الشبيبة، بيروت، ١٩٧١.
- فوز الدين البسومي، **رحلة إلى برلين**، وزارة الإعلام في ألمانيا الشرقية، ١٩٧٢.
- محمود سيف الدين الإيراني، **ملامح من الغرب**، دائرة الثقافة والفنون، عمّان، ١٩٧٣.
- عيسى الناعوري، **مذكرات بلغارية**، دار فيلادلفيا، عمان، ١٩٧٤.
- عيسى الناعوري، **في ربوع الأندلس**، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ١٩٧٨.

- عيسى الناعوري، رحلة إلى إيطاليا ١٩٦٠ – ١٩٦١، حررها وقدم لها: تيسير نجار، دار السويدي، أبو ظبي، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٤.
- عصام حماد، رسائل وصور من بعيد، الدار الأردنية للثقافة والإعلام، عمّان، ١٩٨٦.
- روكس بن زائد العزيزي، رحلة إلى الأندلس، نشرها في مجلة الضاد بحلب على ثلاث حلقات سنة ١٩٨٨.
- محمود الشريف، الأرض المتمردة: صور من فيتنام، مطابع الدستور، عمّان، ١٩٩٥.
- سليمان موسى، مشاهد وذكريات، المؤسسة الصحفية الأردنية، عمّان، ١٩٩٦.
- أمجد ناصر، تحت أكثر من سماء: رحلات إلى اليمن، لبنان، عُمان، سورية، المغرب وكندا، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٢.
- أمجد ناصر، خبط الأجنحة (سيرة وأدب رحلات)، وزارة الثقافة، عمّان، ٢٠٠٣

ولقد كان من بين ما ألّفهُ المرحوم الشيخ إبراهيم القطّان مجلّدان: أحدهما يتناول جوانب من مذكّراته وسيرته الشخصيّة، والآخر يصف مُشاهداته في بعض الرّحلات التي قام بها إلى دولٍ عربيّة وإسلاميّة وأوروبيّة. وينطوي هذان المجلّدان على قيمة علميّة كبيرة، فإنّ الأولَ منهما يرصد التحوّلات الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة في الأردنّ منذ ما قبل تأسيس الإمارة فيها، على يدِ المغفور له الملك عبدالله بن الحسين، إلى نهاية دراسته في الأزهر أواخر الثلاثينيات. وأمّا الثاني ففيه تسجيل لمُشاهدات الشيخ وانطباعاته إزاء ما جرّبه ووقعت عليه عيناه في دولٍ زارها، ولدى شعوب اختلطَ بها، مُحاولاً عقد مُقارنات بين أحوالهم وأحوال العرب، ومنبِّهاً إلى الجوانب الإيجابيّة لدى تلك الشّعوب مما يمكن الاستفادة منه.

وقد نوّه إلى أهميّة مذكّرات الشيخ القطّان وضرورة نشرها كلٌّ من الأُستاذ روكس بن زائد العُزيزي في مقالته التي نشرها في المجلّة الثّقافيّة التي تصدرها الجامعة الأردنيّة (العدد العشرون، سنة ١٩٩٠) عن الشيخ القطّان، والدكتور عبد الهادي التازي في كلمته التي ألقاها في ندوة تأبين الشيخ القطّان التي عقدها المجمع الملكيّ لبحوث الحضارة الإسلاميّة (مؤسسة آل البيت) ضمن أعمال المؤتمر الخامس للمجمع سنة ١٩٨٥.

الشيخ إبراهيم القطّان :

في المقدّمة التي كتبتها ابنته ريم بعنوان أبي الشيخ إبراهيم القطّان ما يُغني القارىء كثيراً في معرفة شخصيّة الشيخ: أباً وقاضياً ومعلّماً وسفيراً ووزيراً، حيث كَشَفَتْ عن روح سمحة؛ وسعة صدر؛ وحبّ للأصدقاء وعمل الخير؛ وعُمق في الرؤى الفكريّة؛ ونقاء في السريرة والضمير، وغير ذلك، ممّا يعدّ نموذجاً يستحقّ التأمُّل والاقتداء، فضلاً عن كون هذه الكلمة قد خطّت بقلم فلذة كبده، التي وَصَفَت بعبارات شفّافة ورقيقة ودافئة حنان والدها وصبره وحبّه للقريب والبعيد والغنيّ والفقير على حدٍّ سواء.

وفي الاستهلال الذي قدّم به نجله إياد – رحمه الله – لهذا الكتاب محاولة لكشف جوانب أخرى من شخصيّة الشيخ وروحه وفكره، بالإضافة إلى جوانب من سيرته مثل سجنه ودراسته وصداقاته، وغير ذلك. وفي الاستهلال نفسه أورد الأستاذ إياد القطّان ما كتبهُ المرحوم الأستاذ حسني فريز، صديق المرحوم الشيخ عن سيرة الشيخ وكما عرفه، وفي ما كتبه الأستاذ فريز فائدة كبيرة في ما يتّصل بصفات الشيخ من سعة صدر؛ وقوّة حافظة؛ وحبّ الناس؛ ودقّة علميّة؛ وإخلاص في العمل.

وعندما تأتي الكتابة عن الشيخ من أقرب الناس إليه وأكثرهم لصوقاً به: ابنته ريم؛ وابنه إياد؛ وصديقه حسني فريز؛ وصديقه الشيخ عبد العزيز الخيّاط، فهي بلا شكّ تُغني عن كلّ كتابة، فهؤلاء جميعاً أعرف الناس بروحه وخصاله وطباعه وخصائص شخصيّته، وهم شهود عيان وقفوا على دقائق وتفاصيل لا سبيل إليها إلّا من خلالهم.

غير أن ثمّة جوانب من سيرة الشيخ لا مناص من التنويه بها، وذلك لصلتها بموضوع هذا الكتاب، كالحديث عن مولده ونشأته وتعليمه ووظائفه ومؤلّفاته، وغير ذلك، مما تشتمل عليه هذه المقدّمة.

مولده ودراسته ووظائفه :

يقول الشيخ إبراهيم القطّان في مذكّراته إنّه لا يعرف تاريخ ميلاده على وجه الدقّة، لكنّه يحصره بين سنتي ١٩١٣ و ١٩١٥ : وولدت في سنة ثلاثة عشر وتسعمائة وألف أو ١٩١٤ أو بعدها بسنة، لا أدري لأنّ أحداً لم يسجّل تاريخ ولادتي، ولم يكن في القرية دائرة تسجّل المواليد ولا جهاز حكومة منتظم. والطّريف في الأمر أن القرية التي يتحدّث عنها هي عمّان. أمّا أبناء الشيخ فيرجّحون أنه وُلد سنة ١٩١٦.

وأكمل دراسته الإعداديّة في عمّان، وفي سنة ١٩٣١ تعرَّف على الشيخ محمد الخضر الشنقيطي ولازمه أربع سنوات، ودَرَسَ عليه العلوم الشرعيّة واللغويّة. ثم نصحهُ الشيخ الشنقيطي بأن يُكمل دراسته في الأزهر الشريف، فانتسب إليه سنة ١٩٣٥، وحصل على الليسانس في الشريعة سنة ١٩٣٩، ثم نال شهادة العالميّة والتخصُّص في القضاء الشرعيّ سنة ١٩٤١.

ولمّا عاد إلى عمّان سنة ١٩٤١ عُيِّن رئيساً لكتَّاب المحكمة الشرعيّة، ثم قاضياً لمحكمة الكرك الشرعيّة بين سنتي ١٩٤٢ و ١٩٤٧، ثم نُقِلَ إلى وزارة التربية والتعليم مفتشاً للعلوم الدّينيّة واللغة العربيّة حتى سنة ١٩٦١ حيث عُيِنٍّ مديراً للشرعيّة.

وفي سنة ١٩٦٢ عُيِّن قاضياً للقضاة ووزيراً للتربية والتعليم حتى سنة ١٩٦٣. وبعد ذلك عمل محامياً حتى سنة ١٩٦٥، التي عُيِّن فيها رائداً لسمو الأمير الحسن بن طلال بدرجة سفير في وزارة الخارجية، وفي سنة ١٩٦٧ عُيِّن سفيراً للأردنّ في المملكة المغربيّة حتى نهاية آذار ١٩٧٣، وكان في الوقت نفسه سفيراً غير مُقيم في موريتانيا.

وفي تموز ١٩٧٣ عيِّن سفيراً للأُردنّ في الكويت حتى نهاية آذار ١٩٧٤. وعمل بعد ذلك مُحاضراً في كلية الشريعة في الجامعة الأُردنيّة في موضوع مقارنة الأديان، وفي سنة ١٩٧٥ عُيِّن سفيراً للأردنّ في باكستان وسفيراً غير مُقيم في ماليزيا.

وفي أوائل حزيران ١٩٧٧ عُيِنٍّ قاضياً للقضاة، وبقي في وظيفته إلى أن وافاه الأجل سنة ١٩٨٤.

وكان – رحمه الله – عضواً في مجمع اللغة العربيّة الأُردنّي؛ ومجمع اللغة العربيّة في القاهرة؛ ومجمع اللغة العربيّة في بغداد؛ والمجمع الملكيّ لبحوث الحضارة الإسلاميّة (مؤسسة آل البيت) في عمّان؛ ورابطة الكتَّاب الأردنيين؛ وجمعيّات أُخرى. ونال عدداً من الأوسمة في الأردنّ والمملكة المغربيّة (١).

(١) ترجم لهُ محمد أبو صوفة في كتابه من أعلام الفكر والأدب في الأردن، ص ٣٢٣ – ٣٢٧ (مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٣)، ومحمد المشايخ في كتابه الأدب والأدباء والكتَّاب المعاصرون في الأردن، ص ١٠٤ (مطابع الدستور، عمان، ١٩٨٩)، وروكس بن زائد العُزيزي في مقاله: سماحة المغفور له الشيخ إبراهيم القطّان كما عرفته: جاراً وصديقاً وزميلاً، المنشور في المجلة الثقافيّة، الجامعة الأردنيّة، العدد (٢٠)، كانون الثاني ١٩٩٠.

آثاره ومؤلَّفاته :

لم تحُل الوظائف التي تنقَّل الشيخ إبراهيم القطّان فيها، والمشاغل الكثيرة التي تقاسمت وقته وجهده، دون توفّره على العِلم والنّظر والبحث في مختلف الميادين الدّينيّة والتاريخيّة والأدبيّة والقانونيّة والتربويّة وسواها، مما تمخَّض عنه عشرات المؤلَّفات التي نُشر بعضها وما زالَ بعضها الآخر مخطوطاً.

ومن مؤلَّفاته المنشورة :

١.**الإمام الغزالي: المعلّم والمربّي**، مستلّة، منشورات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة.

٢.**عثرات المنجد في الأدب والعلوم والأعلام**، دار القرآن الكريم، الكويت، ١٩٧٢.

٣.**تيسير التفسير**، (أربعة أجزاء)، راجعه وقام بضبطه والإشراف على طباعته: عمران أحمد أبو حجلة، عمّان، ط١، ١٩٨٢.

٤.**بطولات عربية من فلسطين**، (بالاشتراك مع عيسى الناعوري)، المطبعة الوطنية ومكتبتها، عمّان، ١٩٥٦، وصدر كذلك في طبعة أُخرى عن مطبعة الاستقلال العربي، عمّان، ١٩٥٨.

٥.**مخازي الولّي الشيطاني الملقب بالتجاني الجاني**، المطبعة الوطنية، عمان.

٦.**رسالة حيّ بن يقظان** للفيلسوف المشهور ابن طفيل، قدَّم لها وعلَّق عليها: إبراهيم القطّان، مكتبة الاستقلال، عمان.

وإلى جانب ذلك شارك الشيخ القطّان في تأليف أكثر من ثلاثين كتاباً مدرسيّاً في الدين الإسلامي والقواعد العربية والقراءة لمراحل الدراسة الابتدائية والإعدادية والثانوية، منها:

١. **المبتكر لتعليم القراءة العربية**، (بالاشتراك مع روكس بن زائد العزيزي)، مع ملحق المرشد، الناشر: الشركة الصناعية للوراقة والقرطاسية المحدودة، عمّان.

٢. **مبادىء الإسلام:** للصف الرابع الابتدائي، ط. الصفدي وخلف وشركاهم، عمّان.

٣. **مبادىء في الدين الإسلامي:** للصف الأول الإعدادي، (بالاشتراك مع عبد الحميد السائح وإبراهيم صنوبر وعلي حسن عودة)، المطبعة الاقتصادية، عمان، ١٩٦٢.

٤. **نهج الإسلام:** للصف الثالث الإعدادي، (بالاشتراك مع عبد الحميد السائح وعلي حسن عودة وعلي مصطفى صبري)، مطابع دار الأيتام الإسلامية الصناعية، القدس، ١٩٦٦.

٥. **نهج الإسلام** (الجزء الثالث): للصف الأول الثانوي، (بالاشتراك مع علي حسن عودة وعلي صبري وجمال عابدين)، مطابع دار الأيتام الإسلامية الصناعية، القدس، ١٩٦٦.

٦. **مبادىء في الدين الإسلامي:** للصف السادس الابتدائي، (بالاشتراك مع عبد الحميد السائح وإبراهيم صنوبر وعلي حسن عودة)، مطابع القوات المسلحة الأردنية، عمّان، ١٩٦٦.

٧. **نهج الإسلام:** للصف الثاني الثانوي (بالاشتراك مع عبد الحميد السائح وعلي حسن عودة وعلي مصطفى صبري)، مطابع دار الأيتام الإسلامية الصناعية، القدس، ١٩٦٤.

٨. **القواعد الوافية:** للصف الثاني الثانوي، (بالاشتراك مع علي حسن عودة وفائز علي الغول وعيسى عطاالله)، دار الطباعة والنشر، عمّان، ١٩٦٨.

وأمّا مؤلَّفاته المخطوطة، فمنها:

١. مجلَّدان يضمّان عدداً من المحاضرات والمقالات والتراجم.

٢. مجلَّد يضمّ منتخبات نثرية (نحو ألفي قول وكلمة ومثل).

٣. مجلَّد يضمّ منتخبات شعرية (نحو خمسة آلاف بيت شعر من مختلف العصور).

٤. مجلَّد يضمّ المحاضرات التي ألقاها في الجامعة الأردنية في موضوع مقارنة الأديان.

٥. مجلّد يضم خُطَب الجمعة التي ألقاها خلال توليه منصب قاضي القضاة (١٩٧٧ – ١٩٨٤).

٦. رسائل شخصية.

٧. مذكّراته (في مجلّد).

٨. رحلاته (في مجلّد).

هذا الكتاب:

قدّم الشيخ إبراهيم القطّان لمذكّراته بمقدّمة لطيفة تحدّث فيها عن ولادته في عمّان وتعلّقه بها وعن حبّ الأوطان والحنين إليها، وبيّن فيها أنّه كتب هذه المذكّرات وأعاد ترتيب ما كان سجّله من خواطر عندما كان سفيراً للأردن في المملكة المغربيّة (١٩٦٧ – ١٩٧٣).

وأوّل ما تناوله في مذكّراته الحديث عن عمّان واستعراض تاريخها القديم، وبعض ما سجّله الرحّالة والسيّاح خلال زياراتهم لها، متوقفاً عند أهميّتها التاريخيّة والتجاريّة منذ ما قبل الفتح الإسلامي، ومروراً بالفتح الإسلامي ووصولاً إلى القرن التاسع عشر، ويتوقّف بصورة خاصّة عند رحلة بيركهارت السويسري سنة ١٨١٢ ويعرّف به وبسيرته. ثم يستعرض الشيخ القطّان بعد ذلك قصة مجيء الشركس إلى عمّان سنة ١٨٧٨ حيث استوطنوها وعمروها، ثم مجيء الشيشان سنة ١٩٠٥ إلى الأردن، ثم يتحدث عن التركمان والبهائيين. وكان الشيخ بذلك يرصد التحوّلات الاجتماعية والاقتصادية في عمّان. ويتحدث بعد ذلك عن آثار عمّان، ثم بداية توارد الناس عليها، متخذاً من ذلك مدخلاً مناسباً للحديث عن مجيء أجداده من الشام إلى عمّان واستقرارهم فيها. ولا ينسى الشيخ القطّان أن يعرض لحدث مهم هو وصول الخط الحديدي الحجازي من دمشق إلى عمّان سنة ١٩٠٢. ثم يعرض لقيام الحرب العالمية الأولى ومجيء الأمير عبدالله بن الحسين إلى عمان وتأسيس الإمارة. وعند حديثه عن تشكيل أول حكومة لإمارة شرقي الأردن برئاسة رشيد طليع يوم ١١ نيسان/ إبريل سنة ١٩٢١، يعرّف الشيخ القطّان برئيس الحكومة وعدد من أعضاء حكومته تعريفاً وافياً، ومنهم أحمد مريود والشيخ محمد الخضر الشنقيطي وعلي خلقي الشرايري وحسن الحكيم.

ويتخذ الشيخ القطّان من تعريفه بالشيخ محمد الخضر الشنقيطي مدخلاً للحديث عن علاقته به، وأن الشنقيطي كان شيخه، وأنّه علّمه اللغة والنحو والفقه وغيرها، وأنّه هو الذي حضّه على إكمال تعليمه في الأزهر الشريف.

كما وقف الشيخ القطّان في هذه المذكّرات عند أبرز الأحداث السياسية مثل عصيان الكورة سنة ١٩٢١، والثورة السورية في بلاد الشام سنة ١٩٢٦، ومعركة الخضر، وكيف دفعت الثورة السورية بكثير من العائلات السورية للقدوم إلى عمّان والإقامة بها، بالإضافة إلى عدد هائل من الثوار اللاجئين. ويتحدّث كذلك عن الزلزال الذي أصاب عمّان سنة ١٩٢٧ والأضرار التي نجمت عنه. وفي أثناء ذلك كان يعرّف بعدد من القيادات والزعامات التي لعبت دوراً كبيراً في الأحداث، مثل فؤاد سليم وسعيد العاص والشيخ بدر الدين الحسني والدكتور خالد الخطيب. كما وصف لنا زيارة قام بها إلى البتراء، ثم تحدث عن فتنة التيجانية التي وقعت في دمشق ووصلت إلى عمّان سنة ١٩٣٤.

وتشتمل مذكّرات الشيخ القطّان حديثاً مستفيضاً عن دراسته في الأزهر الشريف (١٩٣٥ – ١٩٣٩)، وتحدّث في أثناء ذلك عن نظام التعليم في الأزهر وانتقده مثلما انتقد أداء بعض الشيوخ فيه، وعرّف بعدد منهم، كما وصف لنا النشاط الأدبي والثقافي في القاهرة وما كان يحضره من المجالس والمنتديات. ثم حدّثنا بعد ذلك عن قصة دخوله الوزارة سنة ١٩٦٢. وانتهت مذكّراته التي بين أيدينا عند هذا الحدّ.

أمّا رحلاته – وهي القسم الثاني من هذا الكتاب – فإنها تشتمل على وصف لبعض الأسفار التي كان بعضها في مهمّات رسميّة، وتضمّ هذه الرحلات رحلة إلى الكويت ولمحة عن الساحل الشرقي لجزيرة العرب سنة ١٩٥٣، ورحلة إلى الجزيرة العربية والخليج العربي سنة ١٩٥٤، ورحلة إلى المغرب الإسلامي العربي (١٩٥٩ – ١٩٦٠)، ورحلة إلى الأندلس سنة ١٩٦٠، ورحلة إلى مصر وبلاد النوبة سنة ١٩٦٠، ورحلة إلى ألمانيا الغربية سنة ١٩٦٤، ورحلة إلى اليمن سنة ١٩٦٤، ورحلة إلى إندونيسيا سنة ١٩٦٥، ورحلة إلى الهند غير مؤرخة.

ويلاحظ القارىء لهذه المذكّرات والرحلات أن الشيخ القطّان لم يسرف في الوقوف على تفاصيل حياته الشخصية، لكنّ كلّ ما تحدّث به عن نفسه وتجربته وآبائه إنما جاء

في سياق وصف الأوضاع العامّة في البلاد، ولئن دلّ ذلك على تواضعه الشديد إلاّ أنّه يدلّ من ناحية أُخرى على أنّ الشيخ القطّان يدرك تماماً أن المذكّرات هي "ما يرويه صاحبها عن تجاربه الشخصية باتصالها بالعالم الخارجي بما فيه من شخوص وأحداث وأوقات" (كما يقول الدكتور عصام سخنيني في بحثه **مكانة السيرة الذاتية والمذكرات في المعرفة التاريخية** المنشور في كتاب أدب السيرة والمذكّرات في الأردن، منشورات جامعة آل البيت، الأردن، ١٩٩٩، ص٦٢)، وأن المذكّرات أكثر التصاقاً بالشهادات التاريخية، وأن كاتب المذكرات هو شاهد عيان على الحقيقة التاريخية (نفسه، ص٦٢). ولذلك نجد الشيخ القطّان يحدّثنا في مواضع من مذكّراته عن مشاهداته لقصف الإنجليز لعمّان إبّان الحرب العالمية الأولى، ويحدّثنا عن مشاهداته لموكب الأمير عبدالله بن الحسين عند وصوله إلى عمّان، وغير ذلك.

ويضفي الشيخ القطّان على مذكّراته ورحلاته من مشاعره وحسّه عندما يعلّق على الأحداث التاريخية والتحولات الاجتماعية التي عاصرها وشاهدها، فلا تمرّ فرصة إلاّ ويعبرٌ فيها عن تفاؤله بزوال الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، ويعرب فيها عن اعتقاده بأن صاحب الحق يجب أن لا ينتظر من يعيد له حقه أو ينصفه إن لم يبادر هو بنفسه إلى انتزاعه وعند ذلك سيعترف به الناس ويقبلونه. وفي ما فعله الإنجليز بالأمّة العربية لم يفوّت الشيخ فرصة واحدة للقول بأن الإنجليز كاذبون ومخادعون.

وظلّ الشيخ في ما دوّنه يدعو إلى أخذ العبرة من الماضي ومن تجارب الأُمم الأُخرى، فمما قاله: "لو أن العرب في ذلك الوقت حزموا أمرهم وواصلوا الحرب ضدّ فرنسا لما كانت تستطيع أن تتمركز في سوريا، ولا استطاعت انجلترا أن توطد الأمور لليهود في فلسطين ... فإذا لم نعزم أمرنا ونجمع قوانا ونحشد كلّ ما نستطيع ونحارب إسرائيل، فإنها بعد مدة ستبتلع كلّ ما جاورها من البلاد، وتتحكم تحكّماً فعلياً في هذه المنطقة، فهل فهم زعماؤنا هذا يا ترى؟!".

وتمثّل هذه التعليقات، وهي كثيرةٌ في مذكراته ورحلاته، آراء الشيخ ورؤاه ومواقفه الوطنية الصادقة.

كما تكشف مذكراته ورحلاته عن كثير من الآراء المستنيرة في مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والتربوية والدينية والاقتصادية، ويتضح ذلك من نقده لخطباء المساجد وأئمة الدين ونظم التعليم، وعلماء الأزهر – في زمنه – لجمودهم وعدم محاولتهم التجديد والتقدم، وكذلك نقده لعالم الشام ومحدّثها بدر الدين الحسني.

وممّا يدلّ على أن الشيخ – رحمه الله – كان صاحب فكر منفتح ومستنير قوله عن المرأة الكويتية عند رحلته إلى الكويت: "وحالة المرأة متأخرة جداً، يرجى في النهضة الحديثة أن تأخذ مكانها في المجتمع وتسترد حقوقها". ومن الأمثلة الدالة على ذلك أيضاً ما قاله في حديثه عن حفل الغداء الذي حضره الرئيس الإندونيسي أحمد سوكارنو إبان زيارة الشيخ لإندونيسيا لحضور المؤتمر الإسلامي سنة ١٩٦٥؛ فقد تحدّث الشيخ أنه أعقب الغداء حفلٌ فيه موسيقى وغناء، وأن سوكارنو نفسه قام ورقص وغنى ودعا ممثل كل بلد مشارك أن يغني شيئاً من أغاني بلاده، فيقول: "وبعد ذلك جعل سوكارنو يطلب من الضيوف أن يغنوا بعض أغاني بلادهم، فقام أولاً سفير ألمانيا، ثم تبعه عدد كبير من السفراء والضيوف، إلاّ نحن العرب فإنه لم يقم واحد منّا، وكلنا ننظر إلى بعض بشيء من الجمود والخجل المصطنعين، وتمنيت لو أني أعرف شيئاً من الغناء لقمت، ولكن مع الأسف". ثم يضيف معلّقاً: "كلّ هذه الوفود الموجودة قام عن كل وفد ممثل وتبرع بالغناء بكلّ رحابة صدر، وبدون تزمت، إلاّ العرب، نحن العرب، فقد بدا موقفنا شاذاً غريباً، ولا أدري لماذا كل هذا التزمت الذي لا لزوم له، وهذا الوقار المصطنع؟! ولا أستطيع تعليل هذه الظاهرة، لعل ذلك لأن الموجودين كانوا من طبقة المشايخ، ولا أدري لو أن نوعيتهم اختلفت ماذا سيكون موقفهم، وإنما الذي ألاحظه من تصرّفاتنا، أننا غير أحرار في تفكيرنا وحديثنا وتصرّفنا مع الغير، ويغلب علينا الجدّ والتزمت واصطناع الوقار في أغلب الأحيان".

لقد دلّت هذه المذكّرات والرحلات أن الشيخ – رحمه الله – كان بعيداً عن التزمّت واصطناع الوقار داعياً إلى التحرر من ذلك كلّه.

ولذلك بدا لنا الشيخ في هذا الكتاب مصلحاً اجتماعياً وأديباً وعالم آثار وسياسياً وفقيهاً، ودلّ هذا الكتاب أنه كان على ثقافة واسعة في مختلف ميادين المعرفة ولا سيّما الأدبية والتاريخية منها.

وفي وصفه لرحلاته نجد الشيخ القطّان يركز على المظاهر الإيجابية عند الشعوب المتقدمة مقارناً أحوالهم بأحوالنا ومنتقداً أوضاعنا وداعياً إلى أن نُصلح من شأننا، ومن الأمثلة على ذلك أنه عندما زار ألمانيا سنة ١٩٦٤ زار مدرسة نموذجية لها مدير مقطوع اليدين، فيعلق الشيخ على ذلك قائلاً: "تصوّروا إنساناً يداه مقطوعتان يعمل مديراً لمدرسة نموذجية، ولو كان هذا الرجل عندنا لرمي في داره ومات جوعاً". ومن ذلك تعليقه على قول أحد الألمان بأنّ ضيق الوقت مشكلة عندهم، فقال الشيخ له: "تعال إلى بلادنا وخذ وقتاً قدر ما تريد، فإن الوقت عندنا لا قيمة له، وهو من أرخص الأشياء في بلادنا".

ولا بدّ من كلمتين أخريين، الأولى: أنّ لغة الشيخ في هذا الكتاب بليغة وناصعة، كيف لا وهو الذي ألَّف عشرات المنجد و تيسير التفسير، ودرس على الشيخ محمد الخضر الشنقيطي أول ما درس كتب النحو واللغة والفقه ثلاث سنوات قبل أن يلتحق بالأزهر. والثانية: أن الشيخ يجمع في مذكّراته ورحلاته بين الماضي والحاضر ويحلم بمستقبل أفضل للأمة.

عمّان في ٨ رمضان ١٤٢٦هـ،

الموافق ١١ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٥م

صلاح جرار

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد فهذه لمحات أكتبها في أوقات الفراغ، وبذكريات أحببتها وقد كنت دونتها
أسجل فيها بعض ما عشت في هذه الحياة، وما وصل إليّ من أخبار، وأعرض إلى
تاريخ هذه البلدة عمان، التي ولدت فيها، وأول أرض مس جلدي ترابها. فأكتب
موجزاً منه، وإنما لخواطر تسنح لي لعلها تبقى بعدي وتبقى ذكرى، فإن الإنسان
في هذه الدنيا مسافر رحلته قصيرة، وإن طال به العمر. والسعيد من عمل شيئاً
يخلد به ذكره، ويبقى من بعده أثره. وما المرء إلا حديث بعده كما قال
ابن دريد رحمه الله:

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

ولقد ولدت في عمان، وعشت فيها، وأمضيت أيام الصبا في واديها. والمرء
بعد أن يشب ويكتهل في موطن من المواطن يصبح جزءاً منه، مشدوداً إليه
أينما ذهب، متعلقاً به أينما تحول، مولعاً بتلك المعاهد، لا يستطيع أن [illegible]
يعيش بغيره، ولا يطيب له المقام إلا به. مهما تحول في هذه الأرض ذات الطول
والعرض. ومهما التقى من أناس، ووجد من أصحاب. ومهما خالط من البشر
وعاشر من الناس، فإنه لا يزال يحن إلى دياره، ويتشوق إلى أرضه وترابه،
ويتنسم ريحها وأخبارها، ولو أنه عاش في أجمل بلاد الله، ولقي فيها
كل ترحاب، وعاشر فيها خيرة الأصحاب، فإن حنينه دائماً إلى مسقط رأسه
وملعب صباه، ومدرج طفولته … وملتقى رفاقه وأترابه:

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

وقد قدر على رجال أن يهجروا بلادهم مكرهين، أو طلباً للرزق، وعاشوا في
بلاد جميلة، وأصبح لبعضهم فيها ملك وجاه وسلطان، ولكنهم مع كل هذا
ظلوا يذكرون بلادهم ويحنون إلى مواطنهم. ومن ذلك ما سجله التاريخ عن البطل العظيم
والمغامر الكبير، صقر قريش عبد الرحمن الداخل، فإنه ترك الشام مكرهاً وهرب
منها ناجياً برأسه من العباسيين، وهو في سن الصبا وأول الشباب، وتشرد مدة
أربع سنوات يجوب الفيافي والمدن والصحارى والقفار، حتى وصل إلى الأندلس، وأسس

في هذه الأيام كتب الله علي التنقل والرحلات، وذلك أمر أحبه. فقد دعيت
لزيارة ألمانيا مدة شهر كامل في شهر حزيران من سنة ١٩٦٤ وكانت رحلة
ممتعة زرت فيها خمس جامعات: هي جامعة بون وجامعة ميونخ، وجامعة
برلين، وجامعة هامبورج، وجامعة هايدلبرج. وقد اجتمعت في
هذه الزيارة بنخبة من أساتذة الجامعات والطلاب، ورجال الأعمال
واستفدت فوائد جمة. وكتبت بعد زيارتي هذه أقترح في معهد
جوته في بلادنا بيئة [illegible] وبعض الطلبة [illegible] عن ألمانيا وشعرت
وزرت بعض المدن الحديثة التي انتشرت في تلك المواقع الجميلة
الساحرة، وسأحكيها عندما أبدأ هذه الذكريات.

وبعد تلك الزيارة بأربعة أشهر هيأ الله لي زيارة إلى اليمن
وذلك أن الجامعة العربية أرادت أن تبعث بعثة تطلع على أحوال
الجنوب العربي وتدرس مشاكله وترى ما استطاعت ما يجري هناك من
أحداث لم تشاهدها من الخارج أو تعرفها من بعض المكاتب. ولم ترد
أن تكون هذه الهيئة الذاهبة إلى هناك سياسية أو لها أية صفة
سياسية فبعثت مندوبين من جمعيات الهلال الأحمر في العالم العربي لعقد
اجتماع في القاهرة وعين عدد من المندوبين وبعد أن اجتمعنا في مقر
الجامعة العربية قرر المجتمعون أن ينتخب أربعة أعضاء منهم إلى اليمن
وهناك يطلعون أو يحاولون أن يطلعوا على ما يجري في الجنوب
العربي من أحداث، ووقع الاختيار على مندوب الأردن، ومندوب
الجزائر واسمه السيد محمد الزكي [illegible] من أهل تلمسان، والدكتور
يحيى [illegible] من الجامعة العربية، والدكتور جلال [illegible] عن الهلال الأحمر
في الجمهورية العربية المتحدة. وذهبنا من القاهرة إلى صنعاء على متن
طائرة من طيران المتحدة، وكانت المسافة خمس ساعات متواصلة

أبي الشيخ إبراهيم القطّان
.. وشيء من الذكريات

بقلم : ريم إبراهيم القطّان

بقيت صورة الصفحة الأولى من مخطوط مذكرات والدي الشيخ إبراهيم القطّان – رحمه الله– ملتصقة بذاكرتي لسنوات؛ منذ وقَعَ نظري عليها، صدفة، حينما كنت أبحث عن أحد كتبي في مكتبة والدي في الرباط في مطلع السبعينات.

وكانت المذكرات هي أول ما بحثت عنه يوم بدأت بترتيب أوراق والدي عقب وفاته، وفيها آثار الشيخ المخطوطة من الكتب والمؤلفات، وعشرات من الدراسات والمقالات والخواطر والمحاضرات والأحاديث.

وتولّى شقيقي إياد – رحمه الله – البدء بتنقيح بعض ما اتفقنا على الشروع بنشره، وفي مقدمة ذلك المذكرات؛ وقام بنشرها في جريدة الرأي عام ١٩٩٨ في ثلاث عشرة حلقة، ولقد لاقت إقبالاً كبيراً، وطالب الكثير من الأصدقاء والقراء بالإسراع في نشرها في كتاب. فاقترحت على إياد الذي لم يكن لديه متسع من الوقت للقيام بهذه المهمة، أن يتولى الأخ كايد هاشم إعداد المذكرات للنشر لما أعرفه فيه من اهتمام بآثار والدي. وبعد وفاة إياد تابعت والأخ كايد المهمة، وأضفنا للمذكرات مجموعة من النصوص التي دوّن فيها والدي بعض رحلاته في البلاد الشرقية والغربية، ورأينا بعد ذلك أن نخرجها محقّقة وفق الأصول، فتفضّل الأخ والصديق الأُستاذ الدكتور صلاح جرار، أُستاذ الأدب الأندلسي في الجامعة الأُردنيّة والمحقّق والباحث المعروف، مشكوراً، فلبّى رغبتنا بمراجعة المخطوطة، وقام بتحقيقها وكتابة مقدمة ضافية لها.

وكنت أتمنى لو أن الأقدار أتاحت لشقيقي المرحوم إياد أن يُسهم معنا في هذا العمل، ويودع كتاب المذكّرات والرّحلات ما كنا نتذاكر به حول محتواه، وهو الأديب والمفكر والكاتب والأكثر تشبعاً بروح مَنْ كتبها، كما أنه الأقرب بفكره إلى والدي وشخصيته الإنسانية والعلمية. ولكن مشيئة الله – عزّ وجل – قضت برحيل إياد قبل أن يتم ما أخذه على عاتقه.

إن أكثر ما يلفت الانتباه في المذكرات أن الشيخ جعل من تاريخ حياته خطاً رفيعاً ضمن الخط العريض الذي سكب فيه ما وعى من تاريخ عمان وأناسها، وهو الذي عاصر أطواراً مهمّة من التشكُّل الحديث لهذه المدينة بعد أن عادت إلى مسرح الأحداث باختيارها عاصمة للأردن .. فعمان هي "بطل" مذكرات الشيخ.

وأترك للقارىء الكريم أن يجول بنفسه مع المذكرات، وأن يستطلع ما فيها من عوالم ورؤى وانطباعات وخلاصات تجارب، وأكتفي هنا ببعض مما عرفته عن والدي في مراحل وأحوال مختلفة من حياته، لعل في ذلك ما يلقي بصيصاً من ضوء على هذا الجانب أو ذاك من سيرة الشيخ الإنسان والوالد والمربي، وما يعين القاريء على تصوّر هذه الشخصية في حياتها ومسلكها، فتكتمل أجزاء من الصورة - مع ما جاء في المذكّرات، وما أورده شقيقي إياد في الكلمة التي ألقاها في ندوة تأبين والدي التي عقدها المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) ضمن أعمال مؤتمره السنوي الخامس (١٩٨٥م) . وفي هذه الكلمة — التي جعلناها مُستهلاً للمذكرات - نصوص من ذكريات صديقين مقربين للشيخ هما معالي الشيخ الدكتور عبد العزيز الخياط أمد الله في عمره، والمرحوم الأديب الشاعر حسني فريز .

وإذ أذكر والدي فإنني أذكر بيتاً كانت وما تزال تسوده المحبة، ويخيم عليه الهدوء، والمرح، في جو من التهذيب والاحترام، والولع بالعلم، والاستئناس بالفنون الراقية. وأول معالم هذا البيت الذي تربينا فيه نحن الأبناء الستة، مكتبة ضخمة تضم أعظم أمهات كتب التراث الأدبي العربي كـ: **الأغاني وصبح الأعشى وتاج العروس والشوقيات** وغيرها كثير . ثم مكتبة موسيقية من محتوياتها مجموعة كبيرة من اسطوانات فيروز وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب. وفي زاوية أخرى من البيت "بيانو" اشتراه والدي خصيصاً لنتعلم العزف عليه نحن البنات الأربع، وأحضر لنا مُدرِّسة فاضلة كانت تعلمنا العزف وأصول الموسيقى.

كانت "السماحة" ليست فقط لقباً اقترن باسم والدي، بل أسلوباً له في الحياة، وفي التفكير، و في تربيتنا وتنشئتنا. وكان في تسامحه ومسامحته قدوة لكل من عرفه . لم

يكن من أولئك الآباء الذين لا ينفكون عن كيل النصائح وإعطاء المحاضرات فيما يصح وما لا يصح، بل كان يرفق في القول فلا تشعر بأن الكلام نصيحة وتوجيه يثقل على السمع والقلب، بل تنساب العبارات رقيقة حنونة وتقع في النفس موقعاً جميلاً .

وكان الدرس الأروع الذي علمنا إياه : الصدق ثم الصدق، الصدق مع النفس أولاً، والصدق مع الآخرين . ومن هذا العنوان تتفرع دروسه لنا في حب البحث عن الحقيقة، فأحببنا العلم والقراءة والمعرفة والاطلاع . وعلمنا التواضع وحب الخير للناس جميعاً واحترامهم، وكنا نراه يحترم الصغير قبل الكبير، لا فرق في ذلك عنده بين كون الإنسان من أصحاب الشأن أو من البسطاء . ومثل ذلك حرصه على صلة الرحم والمودة ، فكان يحرص على اصطحابنا معه لزيارة جميع الأقرباء في الأعياد .

أما حبّه للعلم فقد تجلّى في أحد جوانبه في اهتمامه بأن نكمل جميعاً دراستنا الجامعية، ولم يكن في جوهر هذا الاهتمام ليُعنى بما نحرزه من الدرجات وما نبلغه من أرقام في العلامات، بل كان يرى أن التفوق هو في مقدار الإفادة من العلوم التي ندرسها، وأثر ذلك في توسيع مدى التفكير والنظر المتوازن في شؤون الحياة واكتساب المفاهيم والقيم السلوكية العالية . ولا أذكر أنه سأل أي واحد منا ولو بالتلميح عن درجاته في المدرسة أو الجامعة، وكان يلحظ تقدمنا الدراسي في أحاديثنا عما تعلمناه، ومن خلال أسئلتنا له عن أشياء درسناها.

ولذلك أقول إن هذه الطريقة جعلتنا على الدوام، وفي مختلف مراحل دراستنا، من الناجحين، نسير سيراً هادئاً مطمئناً بعيداً عن أجواء التنافس اللاهث والخوف من الامتحانات والعلامات والعقاب، فنجد في الأب الهادئ الرحيم والأم الحنون ما يوفر لنا كل أسباب السكينة والأمان والنشاط.

لقد أمضى والدي – رحمه الله – سنوات طويلة من حياته في الحقل التربوي (١٩٤٧ – ١٩٦٣م)، متنقلاً بين عدد من المهام والوظائف في وزارة التربية والتعليم .. فمن مؤلّف للكتب المدرسية إلى مفتش للمدارس والمعلمين .. إلى غير ذلك من المهام حتى أصبح وزيراً للتربية والتعليم.

وأذكر أننا كنا في البيت نلحظ كثرة أعبائه في العمل التربوي أيام كان مفتشاً، رغم

أنه لم يكن يتذمر أو يفصح عن شكوى . وكانت طبيعة هذا العمل تتسم بكثرة التجوال بين مدن المملكة وقراها للتفتيش على المدارس والاطلاع على أحوالها، وبسبب عدم وجود فنادق في المدن أو القرى التي كان يزورها، كانت أكثر العائلات تتسابق على استضافة المفتش في بيوتهم المدة التي تقتضيها مهمته . هكذا امتدت صداقات والدي إلى جميع أنحاء المملكة.

ومن جهة أخرى كان منزلنا مفتوحاً لجميع المراجعين الذين يقصدون والدي لأمور تتعلق بأبنائهم في المدارس، أو لنقل أو تعيين وما إلى ذلك . ولم تكن كثرة الزوار من المراجعين لتضايق "الشيخ" أو تضايقنا، فقد كان الأمر بالنسبة لنا وفي كل الأوقات من الأمور العادية التي يوجبها الواجب تجاه الناس أو هكذا كان "الشيخ" يُشعرنا.

وحينما أصبح والدي وزيراً للتربية والتعليم (١٩٦٢ – ١٩٦٣م)، لم نشعر قط بأن شيئاً قد تغيرَّ في حياتنا اليومية ... حتى السيارة التي امتلكها في هذه الفترة لم يكن يسمح للسائق بأن يوصلنا بها إلى المدرسة، بل بقينا نذهب ونعود سيراً على الأقدام كما غالبية الطلبة والطالبات في المدارس الحكومية . وكان عندما يزور المدارس التي ندرس فيها ويدخل الصفوف التي نحن بها لا يلتفت إلينا ولا يعيرنا أي اهتمام، بل يسأل بقية الطالبات ويستمع لهن، ولا يذكر لنا في المنزل شيئاً عن الزيارة أو عن ملاحظاته خلالها.

من صفاته التي تعد عجيبة في هذا الزمان أنه كان شديد الوفاء لأصدقائه، وهذا يظهر على سبيل المثال – من خلال علاقته بالمرحوم الأديب الشاعر إبراهيم المبيضين – كما سيرد في كلمة شقيقي إياد – وغيره من الأصدقاء الذين عرفهم على امتداد حياته ، ولم يكن الوفاء من جانب واحد فقط، فلقد استمر إثنان من أصدقائه الأوفياء الشيخ الفاضل المرحوم علي حسن عودة، والمؤرخ الجليل الأستاذ سليمان موسى، في مواظبتهما على زيارتنا والجلوس في مكتبة الشيخ صباح اليوم الأول من عيد الفطر وعيد الأضحى من كل عام .. إلى أن أقعد المرض الشيخ علي حسن عوده.

والصفة العجيبة الأخرى التي أشار إليها صديقه المرحوم الشاعر حسني فريز هي عدم الشكوى حتى وهو في أصعب الظروف وأحرجها .

وعلى كثرة المزعجات التي تمر بالإنسان في حياته ... لم نسمعه قط يشتم أحداً أو يقول كلاماً فيه معنى الشتم أو الانتقاص من قدر أي شخص - حتى إزاء الذين أساءوا إليه أو حاولوا ذلك . ولم نره يوماً يتأفف من وضع هو فيه أو حال آل إليه.

وكانت إقامتنا في المملكة المغربية من أجمل الأوقات التي أمضيناها معه حينما كان سفيراً للأردن هناك (١٩٦٧ – ١٩٧٣م)، حيث أتيح له وقت كافٍ للكتابة والبحث والتأليف، وحيث تعمقت علاقاته وصداقاته مع العلماء والأدباء المغاربة الذين كانوا من خيرة الأصدقاء.

وفي الرباط – مقرّ عمله – كان لديه من الوقت ما يكفي، كذلك، للقيام بالرحلات الداخلية، وممارسة هوايته المحببة في التصوير الفوتوغرافي، لما تتمتع به البلاد المغربية من طبيعة خلابة ومناظر ساحرة ومعالم وآثار وأجواء أندلسية جميلة.

وقد ذكرت بعضاً من هوايات والدي المحببة .. وأضيف هنا هوايته الأثيرة في مشاهدة مباريات كرة القدم والمصارعة. وهواية أخرى كانت أيضاً من أمتع هواياته هي لعبة "البريدج"، وقد كوّن مجموعة كبيرة من الأصدقاء في المغرب الذين كانوا يهوون هذه اللعبة، وبعضهم من الفرنسيين الذين لا يعرفون العربية ولا الإنجليزية، ولكن جمعتهم "بالشيخ" الهواية. وقد وضع في ما بعد، وعندما انتقل سفيراً إلى باكستان، رسالة تشتمل على إرشادات وتعليمات – باللغة العربية – لمبادئ البريدج وطريقة لعبها، وما يزال حتى الآن كثير من المبتدئين في هذه اللعبة بالأردن يستعينون بتلك الرسالة التي ألّفها "الشيخ".

وبعد أن أمضى في السلك الدبلوماسي نحو ست سنوات سفيراً في المغرب، وسنة واحدة سفيراً في الكويت (١٩٧٣ – ١٩٧٤م)، ونحو سنتين سفيراً في باكستان (١٩٧٥ – ١٩٧٧م)، عاد إلى عمان، وكانت فرحتنا كبيرة بعودته، إذ التأم شمل العائلة من جديد .. وعاد والدي إلى العمل في حقل القضاء، وهو الحقل الذي بدأ فيه قاضياً في الكرك وانتهى قاضياً للقضاة . ولكنه لم يبتعد عن ميدان التربية والتعليم، وعن دنيا العلم والبحث، فبقي عضواً في مجلس التربية والتعليم، وعضواً في مجامع اللغة العربية في كل من القاهرة وبغداد وعمّان، وأيضاً عضواً في مجلس المجمع الملكي لبحوث

الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) منذ تأسيس المجمع، وكان يواظب على حضور جلسات مجالس هذه الهيئات وندواتها ومؤتمراتها إلاّ في الحالات التي يحول بينه وبين الحضور حائل لا سبيل إلى إزالته وهي حالات قليلة. وبقي على مواظبته إلى أن داهمه المرض في شهر آذار من عام ١٩٨٤م، حيث أجريت له عملية جراحية نُقل على أثرها إلى لندن لاستكمال العلاج بالأشعة . وأمضينا معه هناك أنا وشقيقتي سحر مدة شهرين عانى خلالها الكثير من الآلام بعد كل جلسة أشعة، ولكن لسانه – رحمه الله – لم ينطق بكلمة شكوى قط، ولم نره أبداً يظهر تألماً، بل كان كعادته مستبشراً راضياً يشيع المرح بيننا. وكان يطالع في هذه الفترة كتاب "**روضة المحبين**" لابن قيم الجوزية، وكان قد بدأ بكتابة بعض التعليقات حول الكتاب إلا أنه لم يتمّها. كما كان قد بدأ بتأليف كتاب في موضوع مقارنة الأديان، بعد أن جمع المحاضرات التي ألقاها في الجامعة الأردنية حول هذا الموضوع، وكان قد ألقى تلك المحاضرات على مدى فصلين دراسيين بعد تقاعده من السفارة الأخيرة في الكويت . وقد سمعته مراراً يقول إن الوظيفة الوحيدة التي تمنّى البقاء فيها ما عاش هي التدريس في الجامعة لأنها "أنبل الوظائف" .

ويطيب لي في ختام هذه الكلمة أن أوجه باسمي واسم عائلتي والأخ كايد هاشم، أجزل معاني الشكر والتقدير إلى كل من ساهم معنا في إخراج هذه الأجزاء من آثار الشيخ وأعماله الفكرية، وأخصّ بالشكر الأستاذ الدكتور صلاح جرار الذي كانت عنايته بإخراج كتاب المذكّرات والرحلات إلى الملأ مثالاً لوفاء العلماء السّاعين إلى الخير بنشر النافع المفيد من آثار السلف، كما أشكر وزارة الثقافة على مبادرتها في طباعة الكتاب وإصداره ضمن سلسلة "كتاب الشهر"، ومطبعة السفير على اهتمامها بإخراج الكتاب في حلّة أنيقة. جزاهم الله جميعاً خير الجزاء.

ريم القطّان

حياة رجل : مواقف وذكريات(•)

بقلم : إياد إبراهيم القطّان

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛

سيدي سموّ الأمير حسن المعظم – يا خير صديق للسلف والخلف.

العلماء الأجلاء المشاركون في المؤتمر السنوي الخامس للمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ١٩٨٥.

السيدات والسادة المدعوون.

أنقل إليكم تحية عائلة الشيخ إبراهيم القطّان – رحمة الله عليه – وأنقل لكم عرفان عائلته وامتنانها بهذا الشرف الرائع والتقدير العظيم لذكرى صديقكم وزميلكم.

كما أود أن أعبّر عن شكري وامتناني لشرف الوقوف بين يديكم وأنا أغرف من بحر الحب واللطف قطرات أنثرها حولي لعلي أوفيه بعض حقه ولن أوفيه كلّ حقه.

وأبدأ بالفقرة الأولى من مقدمة مذكرات الشيخ إبراهيم القطّان والتي عثرنا عليها بين أوراقه بعد وفاته:

(أعوذ برب الفلق من شرّ ما خلق)(١)..

"الحياة حفل كبير .. يصل إليه البعض متأخراً، ويتركه البعض قبل أن ينتهي، بينما يبقى البعض الآخر حتى بعد انصراف غالبية المدعوين . وفي الحفل تتركز الأضواء على بعض النجوم، بينما نجد الكثيرين ينزوون بعيداً عن عيون الناس، فلا

(•) نصّ الكلمة التي ألقاها المرحوم إياد القطّان (١٩٤٣ - ٢٠٠١) نجل الشيخ في ندوة تأبين والده، التي عقدها المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) ضمن أعمال المؤتمر الخامس للمجمع سنة ١٩٨٥.

(١) سورة الفلق، ١، ٢.

يشعرون بأحد، ولا يشعر بوجودهم أحد، ولكن الكل يستوون عندما تُطفأ الأنوار، وتهدأ الموسيقى، وينصرف الجميع عائدين من حيث أتوا ! ".

"الشيخ" هو اللقب الذي عرفناه به منذ أن عرفنا بأننا أحياء! وإذا قال واحدنا "الشيخ" فإن هنالك شيخاً واحداً فقط تتشكل صورته فوراً في ذهننا. ولأنه كان طويل القامة وممتلىء الجسم دون سمنة، وكان يمشي دائماً بهدوء بينما تلحقه أطراف جبته على مسافة قدم أو قدمين خلفه بفعل امتلائها بالهواء؛ فقد كانت دائماً وما زالت حتى الآن الصورة التي تتشكل في مخيلتي فور ذكر كلمة "الشيخ" هي صورة شيخ يطير بهدوء تكاد قدماه تلامسان الأرض دون أن تتحركا. لا يمكن أبداً أن أتخيله يمشي. فقط يطير بهدوء – تلك هي الصورة الثابتة دائماً في خيالي.

ولأنه كان مغرماً إلى حد كبير بالجلوس تحت "العريشة" في ليالي الصيف في بيتنا القديم بينما نتحلق حوله ويزداد عددنا تدريجياً بمجيء الجيران وأصدقائهم وأصدقائنا حتى تصبح جلساتنا خلايا نحل طنانة، ولأنه كان دائماً في الوسط يضحك ويتحدث ويجيب ويراقب ويسأل، فإن الصورة الوحيدة التي تقفز أمامي دائماً إذا ما ذكر "حديث الشيخ" هي تلك الصورة الصيفية الآمنة المطمئنة.

لا توجد صعوبة أبداً في وصف الشيخ أو الحديث عنه أو سرد مواقفه وسلوكياته، فالحديث عنه ووصفه وسرد الذكريات عنه كاف لأن يملأ عدة مجلدات، ولكن الصعوبة الحقيقية التي كانت تواجهني دائماً هي في الدخول إلى الشيخ ... إلى داخله وتفتيح زهراته الخجولة واحدة واحدة لأرى ما فيها. هذه كانت وستبقى مهمة صعبة جداً.

وكانت ما زالت الصعوبة في الدخول إلى الشيخ صعوبتين : الأولى هي أننا جميعاً اعتدنا على "الشيخ" إلى حد الإدمان!! فهو "الشيخ" – شيء بديهي جداً أن يكون هناك "الشيخ"، وإذا أراد أي منا أن يصفه فما عليه إلاّ أن يقول : "الشيخ"، ويفهم الجميع ماذا يعني، وهذا هو سر الصعوبة في وصفه لأننا لم نعتد على وصفه، بل إننا لم نتمرن على ذلك !!

أما الصعوبة الثانية فقد كانت تتمثل في صمت "الشيخ" الكامل عن الحديث عن نفسه . فقلائل جداً هم الذين يعرفون بأن الشيخ كان خجولاً جداً إلى حد الإفراط .

ذلك الشيخ المهيب الذي يطير بهدوء ويجلس دائماً في الوسط بينما يستمع إليه الجميع وهو يتكلم في أي مجلس وعلى كل مستوى.

كان شيخاً خجولاً جداً في الحديث عن نفسه وعن أحاسيسه ومشاعره. الدخول إلى ذات "الشيخ" واكتناه جوانبها وفتح أبوابها كان مشروعاً قائماً بذاته أرسلني في جولة طويلة بين كتاباته وذكرياته وذكريات أصدقائه وذكريات أقاربه وذكرياتي معه. جولة كانت نتيجتها ما أضعه بين يدي السامع والقارىء من إشعاعات "سينية" تحاول أن تعكس بعض جوانب روح الشيخ العظيم.

ولا أدعي معرفة كل شيء عن "الشيخ" – فقد كنا نحن أفراد عائلته دائماً نشعر بأننا جزء من عائلة له هي أكبر وأشمل وتنتظم في دائرتها المئات من الناس الذين كانوا يشعرون بأنهم إخوانه وأخواته وبنو عمومته.

(١)

في بعض أوراقه التي عثرنا عليها بعد وفاته، يوجد "كراس" صغير ربما كان الكراس الوحيد الذي عاش خلال فترة عصيبة مر بها "الشيخ" في بدايات حياته وقبل بضعة أشهر من التخرّج من جامعة الأزهر، وفي ذلك الكراس سجَّل "الشيخ" على صفحة من صفحاته ذكرى صعبة أليمة لم يذكرها لنا طيلة حياته إلاَّ لماماً، ولكن فقرة صغيرة في تلك الصفحة تكشف لنا جانباً عجيباً من جوانب شخصية الشيخ . فلنذكر لدى قراءتنا لتلك الصفحة أن "الشيخ" الشاب كان يركب القطار في حراسة مشدَّدة والقيد الحديدي يلف معصمه وجنود "الإنجليز" يبحلقون فيه وهم يشهرون أسلحتهم في وجهه . ولنذكر أنه كان في طريقه الى معتقل "صرفند" الشهير في فلسطين بتهمة التحريض على الثورة ضد المحتل ... ولنقرأ :

"تحركنا من القاهرة يوم الأحد في ٢٧ يوليو/ تموز ١٩٤١م الساعة الثالثة . وصلنا القنطرة الساعة السادسة وكانت أول مرة نرى فيها القنال ومنظره كان جميلاً، وجلسنا بدائرة الجوازات لنحو الساعة العاشرة مساءً ... تأشير الجوازات ... وصعدنا القطار وجلسنا ننتظر إلى أن تحرك القطار حوالي الساعة ١٢:٣٠ إلى أن أصبحنا في العريش ... وسار القطار إلى خانيونس وهناك سُلِّمنا ... وذهبنا عند الساعة العاشرة

والنصف إلى غزة ودخلنا غزة واخترقنا شارعها من أوله إلى آخره ذاهبين إلى دائرة البوليس، وهناك جاء الشيخ نعمان الخزندار يهرع هو وأقاربه ومكثنا نحو أربع ساعات ... وهناك شممنا رائحة الاعتقال وأُخبرنا بأنا ذاهبون إلى عكا إلى معتقل المزرعة.

فكتبت ورقة وأرسلتها بوساطة الشيخ نعمان أخبرت بها أهلي بأني ذاهب إلى عكا ... فُتشت أغراضنا وكتبنا تفتيشاً دقيقاً ... تحركت بنا السيارة الساعة الثالثة من غزة ذاهبين إلى عكا وكنا نمر بين البساتين والجنات والبيارات ونشاهد من تلك المناظر ما يسر الناظرين ويبهج القلوب ... وصلنا حيفا عند الساعة السابعة والنصف والشمس تكاد تسقط في البحر وقد نفد بنزين السيارة فوقفت بنا وذهب أحد الذين معنا وأتى بالبنزين .... تحركنا من حيفا مع المغرب إلى عكا فوصلنا نحو الساعة الثامنة والنصف ودخلنا المزرعة ... رجعنا إلى حيفا وأودعنا السجن وبتنا تلك الليلة في نومة كانت مع التعب الذي لحقنا في غاية الراحة والسرور . وأصبحنا هناك ولم يكن معنا فلوس حيث أخذوها منا وأُودعت في الأمانات وطلبنا الفلوس فما أمكن اعطاؤنا إياها ورجونا بعض أبناء العرب من البوليس بأن يأتي لنا بأكل من فلوسنا أو منه فلم يعبأ بنا ولم يلتفت إلينا . وكان من جملة الحرس معنا إنجليزي فأخرج جنيهاً وأمر بأن يُشترى لنا فطور وأكلنا إلخ ..." .

هذه قطعة نثرية رائعة في وصف رحلة سياحية من القاهرة إلى معتقل "صرفند" (لم يكتمل الوصف فقد توقف الشيخ عن الكتابة عن الرحلة، وهنالك بضعة صفحات مقصوصة من الكراس) – ولم يعكر صفو تلك الرحلة السياحية سوى القيد الحديدي في معصم الشيخ ، ورائحة الاعتقال والتعب المضني في سيارة البوليس ، ومعاملة الأخوة العرب لإخوتهم . أما الرحلة فقد كانت جميلة جداً مليئة بالمعرفة الجديدة وبالمناظر الخلابة.

هذه صورة لروح إنسان قد دخل في مصالحة نهائية بينه وبين الوجود من بدايات حياته وحتى قبل أن تعركه الأيام، وقبل أن يرى منها ما يراه كل "نجم" تتسلط عليه الأضواء في حفلة الحياة . هذه المصالحة الأخوية بين الشيخ والحياة بحلوها ومرها، وهذا البحث الفطري عن جمال الحياة هو زاوية ساطعة من زوايا روحه – رحمه الله

– رافقته منذ طفولته وحتى مماته وطبعت حياته وتصرفاته وأفكاره كما طبعت حياة محبيه وأقربائه وأصدقائه.

والصورة هنا هي صورة إنسان وُلد وهو يشعر بأن الشرّ طارىء على الخير وليس لازماً ولا هو بندٌ له . الشر إزاحته ممكنة فقط إذا ما انطلقنا من منطلق الخير – بل إن تجاهل الشر ومد يد الخير هو بحد ذاته إلغاء للشر . هكذا ولد ذلك الشيخ وهكذا عاش وهكذا مات وهكذا بقي بعد مماته ... فإلى رحمة الله يا شيخ.

(٢)

لم يكتب الشيخ مذكرات بالمعنى المتعارف عليه لمفهوم المذكرات، وإنما كتب ما أسماه "لمحات" من ذكرياته كانت أشبه ما تكون بالأرض المزروعة بقطع الماس الخام، تسير فيها فيلمع شيء عن بُعد فتذهب إليه فيلمع شيء آخر فتمد إليه يدك فيجذب نظرك في الطرف الآخر حجر آخر وهكذا . وهو يقول عن تلك "اللمحات":

"وبعد؛ فهذه لمحات أكتبها في أوقات الفراغ، ومذكرات أهذبها وقد كنت دونتها أسجِّل فيها بعض ما وعيت في هذه الحياة، وما وصل إليَّ من أخبار، وأعرض إلى تاريخ هذه البلدة "عمّان" التي وُلدت فيها، وأول أرض مسَّ جلدي ترابها، فأكتب موجزاً منه. وإنها لخواطر تسنح لي لعلها تبقى بعدي ويُستفاد منها؛ فإن الإنسان في هذه الدنيا مسافر رحلته القصيرة، مهما طال به العمر . والسعيد من عمل شيئاً يخلّد به ذكره، ويبقى من بعده أثره. وما المرء إلا حديث بعده كما قال ابن دريد – رحمه الله :-

" وإنما المرء حديث بعده   فكن حديثاً حسناً لمن وعى "

وكان من تلك الماسات التي لمعت أمامي وتفتحت زهرة لازوردية تتلألأ في ذكرى الشيخ قصة طريفة كانت مفتاحاً في مخيلتي لسر عجيب ولعلاقة صداقة مميزة بين الشيخ وبين إنسان غريب الأطوار خفيف الظل ذي شاعرية، صداقة طويلة جداً، حميمة جداً، كان الشيخ فيها دائماً المضيف اللطيف الذي يصر على تقديم القهوة بنفسه، ثم يوصله إلى باب البيت الخارجي وهو يُظهر له العطف والاحترام .

عشت سنوات طويلة أرى تلك الصورة تتكرر مرة أو مرتين كل أسبوع وأتساءل في

نفسي عن أسرارها، حتى قرأت مذكرات الشيخ بعد وفاته وهذا ما وجدت فيها : "في (عام ١٩٢٣م) ذهبت لأول مرة إلى الشوبك في جنوب الأردن . وذلك أن والدي كان يعمل في الجيش، وكان قائداً لمخفر الشوبك، فذهبت لزيارته وكل غرضي أن أتعرف على بلادي، فقد نشأت وأنا أحب الأسفار والتنقل" .

"ولم تكن الطريق سهلة إليها، فالقطار لم يكن يصل إليها، وإنما يجب أن آخذ القطار الذاهب إلى معان، وقبل الوصول إلى معان هناك محطة اسمها "عنيزة" هي أقرب نقطة إلى الشوبك، ومنها لا يوجد إلّا ركوب الخيل، ولذلك أخبرت والدي بأني سأحضر في يوم معين فأرسل لي فرساً مع جندي انتظرني في المحطة، ولما وصل القطار المحطة نزلت وأخذت طريقي إلى الشوبك على ظهر الفرس، الذي استغرق نحو أربع ساعات ونصف، ووصلت مساءً، وفي اليوم الثاني جعلت أتجول في ذلك المكان الغريب حقاً، فهو عبارة عن قلعة كبيرة يحيطها سور عظيم لا يزال موجوداً، وجميع جوانبها أودية تحيط بها، وهي في مكان مرتفع، وفي داخلها بئر ماء عميق ينزل إليه الإنسان في طريق ملتوية، ودرجات مريحة، وفي قاع البئر بركتان من الماء الصافي العذب، ينبع من داخلها؛ فلو حوصرت القلعة مدة مهما طالت فإن الماء متوافر فيها دائم لا ينقطع . وهذا لا يوجد في القلاع الأخرى .... " .

" تجولت فيها وكان يسكنها جميع أهل الشوبك، فكانت قرية كبيرة غريبة، وفيها المخفر للجنود، وفيها مدرسة لها معلم واحد كان من أهل الكرك، ومن الذين درسوا في الأزهر . تعرفت عليه وإذا به شاعر وأديب، له دراية جيدة في النحو والصرف والأدب واللغة، ويكتب خطاً جميلاً جداً، وهو على غاية من المرح وخفة الروح ؛ فلما أنست به جعلنا نتذاكر اللغة، والنحو، والشعر، فقال : أين درست ؟ هل أنت أزهري ؟ . فقلت له: لا وإنما أدرس في عمّان . فقال : ومن الذي يدرِّسك ؟ . فأخبرته عن أستاذي . فقال : يجب أن تذهب إلى الأزهر وتكمل دراستك وتحصل على شهادة، ذلك أضمن لمستقبلك. فسألته عن الأزهر والدراسة فيه وكيفية الوصول الى القاهرة؛ فشرح لي نظام الأزهر، وحالة الدراسة، فوعيت ذلك وصممت على ذلك، ولكن لم أتكلم مع والديّ في الموضوع وتركته للظروف".

"جعلت أتجول في القلعة، وأصحب الأستاذ في أوقات فراغه، فتنزل إلى الوادي الذي تطل عليه القلعة، فإذا به وادٍ خصيب، وبه غابة من الزيتون، وأشجار من التين الممتاز والعنب وأنواع الفاكهة".

"وبجانب الوادي قرب غابة الزيتون قبر عليه قبة لأحد أمراء المماليك لم أعد أذكر اسمه. وصرنا نتجول ونخوض شتى الأحاديث . وكانت تلك الزيارة لي فتحاً جديداً عرفت فيها ذلك الجزء من بلادي، وتعرفت على الأستاذ إبراهيم المبيضين الذي فتح لي آفاقاً جديدة، وأنار لي الطريق بحديثه عن الأزهر وسهولة الدراسة فيه، ولم أكن أعرف عنه شيئاً مطلقاً . وكان تمهيداً لذهابي للأزهر".

وينتهي حديث الشيخ هنا ليفتح لي فتحاً جديداً فيصقل تلك الماسة الخام التي كانت على أرض الماس في روحه العظيمة فإذا هي جوهرة يخطف بريقها البصر لقصة وفاء عمرها خمسون عاماً لصديق العمر، ذلك المعلم الكركي الخفيف الظل الذي لازم الشيخ ولازمه الشيخ فلم نفتقده أسبوعاً واحداً طالما كان الشيخ في عمّان.

(٣)

أعود لقصة السجن الذي قضى فيه الشيخ عدة أشهر مباشرة بعد تخرجه من الأزهر. وهي قصة غريبة عجيبة لم أعرف عنها أية تفاصيل إطلاقاً طيلة حياة الشيخ ليحكي لي تفاصيلها. وكنت قد سمعت عن سجن الشيخ أول ما سمعت من جدتي رحمها الله، ولم أتجاوز الثانية عشرة من عمري.

وكان عليَّ أن أذهب في رحلة طويلة بين أصدقاء الشيخ وخلانه حتى عثرت على ضالتي حينما وجدنا بين أوراق الشيخ رسالة عمرها خمسة وأربعون عاماً بتوقيع فريق من زملاء الشيخ في أيام الدراسة منهم المرحوم عبد الرزاق بدران والدكتور خالد مطيع الأسير. وكانت الرسالة بخط وتوقيع معالي الدكتور الشيخ عبد العزيز الخياط . وفي الرسالة تهنئة للشيخ بخروجه من السجن وعودته لأهله سالماً .

وقلت لنفسي "وجدتها أخيراً" ، فما هي إلاَّ بضعة أيام حتى كنت أجلس إلى معالي الدكتور عبد العزيز الخياط ليقص علينا قصة السجن، ويقول :

من ذكريات
الشيخ الدكتور عبد العزيز الخياط (*)

"كنا شلّة في القاهرة تتكون من : الشيخ إبراهيم القطان، والأستاذ عبد الرزاق بدران، والأستاذ جواد بدران، والأستاذ محمد سيادي المراد – من حماة، والدكتور عبد الرحيم بدر، والدكتور خالد مطيع الأسير، وأخيه الشيخ الدكتور عادل مطيع الأسير، والأستاذ يوسف مشاري – من الكويت، والأستاذ يوسف الزواوي – من ليبيا، ومعالي الأستاذ حسن الكايد، وأنا وقد كنت أصغرهم سناً . وكان هناك العديد من الأصدقاء والزملاء الذين كانوا يترددون علينا ويشاركوننا جلساتنا ورحلاتنا ومنهم من انضم إلى شلتنا".

"وقد اتفقنا جميعاً على نظام صارم للّقاء وقضاء أوقات الفراغ في نشاطات ممتعة ومفيدة وسمينا هذا النظام "بالخميسيّات"، واتفقنا على اللقاء ليلة كل خميس، لمدة ثلاث ساعات، في بيت أحدنا حيث يُحضِر كلٌّ منا معه تلخيصاً لكتاب جيد قرأه أو مقال مفيد صدر في إحدى المجلات الثقافية فيعرضه على بقية الشلة ثم نتمرن على الخطابة وعلى إلقاء الشعر، وكثيراً ما كنا نقوم بقراءة بعض الفصول في تمثيليات مشهورة لكتّاب عالميين وعرب بقصد التمرن على القراءة الجيدة واللفظ الواضح المعبِّر، وكانت تتخلل تلك الجلسات والمساجلات "قفشات" الأصدقاء ودغدغاتهم البريئة ".

"وكنا نقضي يوم الجمعة في رحلات إلى المعالم الأثرية والسياحية مثل الأهرامات والقناطر الخيرية وغيرها . أما بقية الأسبوع فقد كانت مخصصةً للدراسة والتحصيل مع ما يتخللها من حضور المحاضرات والندوات الثقافية التي كانت تعجّ بها القاهرة في عصرها الذهبي في الثلاثينات والأربعينات".

" وكان من أطرف النشاطات التي قمنا بها تأسيس "جماعة أنصار الفول" التي كان من أهدافها تشجيع الطلبة على احتمال حياة الضنك والعوز، وذلك عن طريق إبراز مزايا الغذاء الرئيسي لطلبة الأزهر وهو "الفول" . وقد تم وضع نظام تأسيسي

(*) له ترجمة في كتاب من أعلام الفكر والأدب في الأردن لمحمد أبي صوفة، مكتبة الأقصى، عمّان، ١٩٨٣.

لهذه الجماعة وانتخاب هيئة إدارية تم تطويرها فيما بعد إلى أن أصبحت دولةً قائمة بذاتها لها حكومتها ووزراؤها وشعراؤها ومراسمها وتقاليدها ".

ويستطرد معالي الدكتور عبد العزيز الخياط فيقول : " وبسبب حداثة سني وحداثة عهدي بالجماعة فقد تم تعييني راوية لشعر رئيس حكومة أنصار الفول . وكان لنا نشيد حماسي أذكر منه هذه الأبيات :

ألا يا محب الفول أصغ لقولتي   فقد عاد هذا الفول موضع فتنتي

فول فؤول فاحترس من تشاؤم   فإن اسمه يقضي بحسن المظنة

أرى قدرة الفوال يعبق ريحها   فيخذلني صبري وتضعف قوتي

(أما بقية هذه القصيدة الحماسية ومعها قصائد أخرى فهي مع معالي الدكتور الشيخ عبد العزيز الخياط فخذوه بها) .

"وقامت الحرب العالمية الثانية والتي أعطى قيامها للشباب العربي بريق أمل في التخلص من الاستعمار الأجنبي، وتحركنا كطلبة عرب للمشاركة في حالة الغليان التي كانت قد بدأت تعم الوطن العربي . وكانت الطريقة الوحيدة المتاحة لنا هي كتابة وتوزيع المناشير ضدّ الإنجليز. وكان من كتاب المناشير الشيخ مصطفى السباعي والشيخ إبراهيم القطان والشيخ مشهور ضامن والشيخ هاشم الخازندار الذي كان يقوم أيضاً بطباعتها . أما أنا – أي الشيخ عبد العزيز الخياط – فقد كان عليَّ توزيعها بالاشتراك مع الشيخ إبراهيم القطان ".

"وكان آخر منشور بعنوان : "إن يمت فوزي فكلنا فوزي" وكان قد أُشيع بأن فوزي القاوقجي قد قُتل . وقد وزعنا المنشور في الأزهر نفسه".

"وكان من عادة الشيخ مشهور ضامن أن يخبىء المناشير في داخل فراشه وقد نصحته بأن يخرجها من مخبئها ثم قمنا بإحراقها حتى لا تقع في أيدي الوشاة، ولكن الوشاة كانوا "أشطر" منا، فداهمت بيوتنا قوات الشرطة في إحدى الليالي وقبضت على سبعة منا هم: الشيخ مشهور ضامن، وإبراهيم القطان، ومصطفى السباعي، وهاشم الخازندار، ويوسف مشاري، وفارس حمدان، وعبد الحي دويك . وساق رجال الشرطة

الشباب السبعة الى "التخشيبة" التي احتوت على كل أنواع المجرمين والسكارى واللصوص . ولم تكن إدارة السجن مسؤولة عن تقديم الطعام، وتبرعت أنا والشيخ عبده هاشم بجمع التبرعات وشراء الطعام للفرسان السبعة حتى تم استدعائي من قبل أهلي في فلسطين لمرض ألمّ بوالدي – والذي اكتشفت فيما بعد بأنه كان خدعة من عائلتي لإبعادي عن المشاكل . وبقي الشيخ عبده هاشم وحده يشتري الطعام ويوصله للمساجين ويأخذ الرسائل منهم حتى تم نقلهم إلى سجن صرفند ".

ويسكت معالي الدكتور عبد العزيز الخياط ليكشف لي سر صداقة طويلة جداً وعميقة جداً قامت على الوفاء لشيخين زميلين من زملاء الدراسة لما قدماه لسجين لم يكن يملك ثمن الطعام.

وقد توسط بعض المسؤولين وشيوخ العشائر لدى الإنجليز فخرج المساجين السبعة من سجن صرفند بعد عدة أشهر من السجن – لاقوا فيها ما لاقوه من قسوة المستعمر وجلفه وصلفه.

(٤)

ويأخذنا الحديث عن أيام الدراسة في الأزهر إلى فكر "الشيخ" نفسه عن الدراسة والتدريس والتربية والتعليم . ولو سألني سائل أن أصف فكر "الشيخ" عن هذه كلها بكلمة واحدة لقلت فوراً "التيسير" فقد عانى "الشيخ" بنفسه معاناة شديدة من وسائل التعليم القديمة ورأى ما رآه من صعوبات وتعقيد وترهيب وتعذيب من تلك الوسائل، وقد أفرد لفكره التربوي والتعليمي صفحات عديدة في مذكراته لا يتسع المجال هنا لذكرها بالتفصيل، ويمكن لقارئها أن يستخلص منها دروساً عظيمة في الفكر التربوي والتعليمي بشكل عام وفي فكر الشيخ بشكل خاص، من أهمها ثلاثة دروس تشكل المحاور الثلاثة الرئيسية ليس فقط لفكر الشيخ التربوي التعليمي بل أيضاً لأسلوبه ونهجه في الحياة وهذه المحاور الثلاثة هي :

أولاً : التيسير في الشكل والمضمون.

ثانياً : التبسيط في النهج والأسلوب.

ثالثاً : الفائدة المباشرة بعيداً عن الحشو والخلط.

هذه المحاور الثلاثة لفكر الشيخ التربوي التعليمي هي التي سار عليها أيضاً في حياته وعلاقاته مع الناس ومع الحياة . وإني لأذكر جيداً تلك الكتب التعليمية المبسطة التي شارك في تأليفها وما زالت صفحات كاملة منها عالقة في ذاكرتي لبساطتها وغياب الحشو والتعقيد منها .

(٥)

حينما اتصل بي المسؤولون في "المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية" يطلبون مني إعداد ورقة عن حياة الشيخ إبراهيم القطان – رحمة الله عليه – اندفعت بحماس شديد فكتبت عشرات الصفحات عن مواقفه وذكرياتنا معه، ولكنني حينما ذكرت نهجه في "تيسير" الأمور راجعت نفسي وقررت أن أختصر بقدر الإمكان، وكنت قد ذهبت في جولة بين أصدقاء الشيخ وزملائه أجمع أخباره وذكرياتهم معه، ولكنني رأيت أن أطلب من واحد من أصدقاء العمر أن يكتب ما يراه هو كتلخيص شامل لرأي جميع الأصدقاء فذهبت إلى الأستاذ الكريم حسني فريز وقلت له: "أنت كاتب لامع، وصداقتك مع الشيخ عمرها نصف قرن تقريباً فأعطنا ملخصاً يرضي جميع الأصدقاء وهذا ما كتب :

سيدي الشيخ إبراهيم القطّان الإنسان(*)

بقلم : حسني فريز

"هذا الفتى إياد فيه من عبقك في العلم والحلم . قال لي حدّث الناس عن أبي فصداقتكم تمتدّ إلى أربعين عاماً، وها أنا أنظر إلى سهول الشيخ الوارفة البديعة الثمار فأراني مسروراً بها وحزيناً لبعد راعيها، فأتمثّله يتبسم أو يتكلم وأسمع ذلك الصوت الذي لا يمكن المبالغة في حسن أثره وتأثيره في نفس السامع فإن له جرساً خاصاً حين يتكلم، إنه حنون، ولا يزال صوته حلواً في خيالي محبباً في سمعي" .

"الشيخ العالم الأديب الذواقة ذو أسلوب في الكتابة حتى ليُظن بأنه من الكلام الدارج وهو من السهل الممتنع شأنه في رسائله ومقالاته وفي تيسير التفسير الذي ليس له نظير ..." .

" والشيخ العالم إذا صوب الخطأ احتفظ بالأسلوب العلمي، مثال ذلك أن من الممكن أن يوجد الرجل العارف بعلوم اللغة والتاريخ فيكتب عشرات المنجد، لكن الذي لا يوجد هو الرجل الذي يصوب الخطأ المقيم المقعد كالهنّةِ اليسيرة فيقول: خطأ والصواب كذا ..."

"إن الإعصاب وسعة الصدر والأصالة في اللطف لم تسمح له أن تندّ عنه كلمة خارجة عن المجال العلمي والأسلوب المهذب" .

"والشيخ إنسان متفرد في حبه ولطفه، فإنه ليمر بالرجل العادي الذي رآه في بيت صديق أو في حالة من أحوال القضاء، فيسلم عليه، ثم يدعوه باسمه ولو أنه كان قد عرفه قبل عشرين عاماً . وهذه ليست قوة حافظة فقط ولكنها قوة الحب للإنسان" .

" والشيخ لا يمل العمل، فقد والله تفقّدنا المدارس معاً في لوائي الكرك ومعان مدة خمسة عشر يوماً في سيارة جيب ومقاعدها عريانة غير مريحة لتلك المسافات

(*) حسني فريز (١٩٠٧ - ١٩٩٠م): ترجمته في معجم أدباء الأردن (الجزء الأول: الراحلون)، ص٥٣ - ٥٥، وزارة الثقافة، عمّان، ٢٠٠١.

والمدة . وظل في تلك الرحلة مثله في أولها أنيساً ولطيفاً، ولم يشكُ من التعب وقد شكوت. وكان ذلك في عام ١٩٤٦م أو ١٩٤٧م" .

" ونحن أصدقاء الشيخ العلمانيين، لم تند عن ألسنتنا الألفاظ التي نستعملها حين نكون في غير صحبته، ولم يكن ذلك منا خوفاً من غضبه، ولكن كان تصرفنا عفوياً ومحبة له واحتراماً" .

"وقد أطلق المرحوم الأديب عبد الحليم عباس لقب (الأرمن) على شلتنا بسبب انتهاء أسماء الكثرة بألف ونون . والسادة المواظبون على اللقاء هم – مع حفظ الألقاب: المرحوم الشيخ إبراهيم القطان، والمرحوم محمد طوقان، ومحمد عودة القرعان، وحمد الفرحان، وعبد الوهاب المجالي، والدكتور أحمد أبو قورة . ولكثرة أعمال الدكتور عبد السلام المجالي كان أقل مواظبة وكاتب هذه السطور" .

"كان الشيخ عطر الله ثراه قليل الكلام، حاضر البديهة، عف اللسان، حلو الفكاهة، لا يتبجح، بل إن تواضعه معروف بلطفه وعونه، وإنه لا يتحدث حتى عن أعماله الفكرية فإنني لم أسمع منه عن كتابه عشرات المنجد إلاَّ حين أهداني نسخة منه، ولم أسمع منه أنه ماض في تفسير القرآن الكريم إلاَّ عندما بحثنا في اختيار اسم للكتاب (تيسير التفسير) " .

"وكان الشيخ لا يشبع إذا أكل، ولا يستطيع الطعام أن يخدعه فيكثر منه !! وطالما اجتمعنا على طعام شهي وأحياناً يكون نادراً ما يُطهى، لكن الشيخ أول من يرفع يده عن المائدة وينأى عنها، وذات يوم دعينا إلى طعام قل أن يطبخه الناس إلا بكميات قليلة، فلما رأيته استهولته ورفعت صوتي محذراً نفسي وغيري أنَّ الإكثار منه يمرِّض . ولما ذقته واستمرأته وقعت في شرك الإكثار ونتائجه !! " .

"وكان الشيخ إنساناً، وكان الشيخ معتدلاً في كل الأحوال التي عرفته فيها . وكان في أيام الشباب مثله في أيام المشيب : أنيساً لطيفاً ينأى عن الجدل وعن كل ما يدني من الخصومة، وينصبّ جهده على الأمور الجوهرية، وكان دقيقاً في نظره للأمور وفي عمله الرسمي. وكان صارماً في تطبيق القانون دائباً في تيسير العمل لإيصال صاحب الحق إلى حقه بأفضل ما يمكن من السرعة . وفي الأمور الأخرى كان سهلاً لا يستطيع أن يخيب الآمل" .

هذا هو الشيخ في نظر أصدقائه ومحبيه.

إن أحسن ما يميز صداقة الشيخ عمقها وطول مدتها، فلم يكن للشيخ صداقات سطحية أو قصيرة . ومتى ما ابتدأ إنسان صداقته مع الشيخ فإنه يستمر صديقاً وفياً له . فصداقة الشيخ لها تاريخ بداية وليس لها تاريخ نهاية، حتى إننا نحن أبناءه وعائلته درجنا على "إدمان" أصدقاء الشيخ.

وصداقة الشيخ مع البيت الهاشمي ربما تكون أطول صداقة في هذا البلد، فهي تمتد أكثر من ستين عاماً، فقد عرفه جلالة المغفور له الملك عبدالله بن الحسين حينما عُيّن سماحة العلامة المرحوم الشيخ محمد الخضر الشنقيطي قاضياً للقضاة عام ١٩٢١م؛ إذ كان الشيخ إبراهيم القطان آنذاك تلميذاً مواظباً لدى الشيخ الشنقيطي، واستمرت هذه الصداقة العظيمة مع هذا البيت المالك العظيم حتى توّجت بصداقة فريدة عميقة يملؤها زخم الفكر والعمل بين سمو الأمير حسن المعظم وبين الشيخ إبراهيم القطان – رحمة الله عليه – لتجسّد هذه الصداقة أجمل وأقوى الجسور بين الأمير العربي وبين المثقف العربي ولتجعل منها نموذجاً رائعاً للوفاق الذي حمل رايته هذان العظيمان، وكلنا إيمان بأن هذه المسيرة الخيرة ماضية الى الأبد في حماية هذا البيت الهاشمي العظيم، وفي ظل صاحب الجلالة الملك المعظم وفي رحاب هذه النهضة الفكرية الرائعة بقيادة سمو الأمير حسن المعظم . وقديماً قالت العرب : إذا كان الملوك علماء صار العلماء ملوكاً ...

بقيت لدي ملاحظتان مهمتان أختم بهما هذه الكلمة :

الأولى : لقد تركت الإشارة إلى مواقف الشيخ – رحمة الله عليه – الإسلامية وخدماته العظيمة للمسلمين والإسلام لا تجاهلاً لها معاذ الله وإنما خوفاً مني عليه أن لا أوفيه حقه فيها، فمكاني أنا في هذا المجال لا يعطيني من زخم العلم وبلاغة التعبير ما يخولني صلاحية التقييم والعرض، فأنا أترك هذا المجال راضياً مطمئناً لأهله بارك الله لهم فيه وزادنا من علمهم وقدرهم وجهدهم فيه.

أما الملاحظة الثانية فهي في تجسيد موقف الشيخ – رحمة الله عليه – من أهمية إعداد المرأة في الإسلام وتثقيفها وتعليمها، والذي يتمثل في ذلك الإنجاز الذي يجب أن

لا يبقى مجهولاً والذي قامت به ابنة الشيخ ابراهيم القطان وشقيقتي العزيزة "ريم" في إخراج الجزء الرابع من كتاب تيسير التفسير بعد وفاة الشيخ – وقد تطلب منها جهوداً مضنية يومية وليلية بلا توقف لأكثر من عام حتى اكتمل هذا الصرح الفكري على أحسن وجه.

وأنا أغتنم هذه الفرصة لأخاطبها من على هذا المنبر ولأوجه لها بالنيابة عن عائلة الشيخ وعنكم جميعاً عميق شكرنا وامتناننا، فشكراً جزيلاً يا "ريم" وتحية لكم جميعاً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

القسم الأوّل

المذكّرات

بسم الله الرحمن الرحيم

(أعوذ برب الفلق من شرّ ما خلق) ..

الحياة حفل كبير .. يصل إليه البعض متأخراً، ويتركه البعض قبل أن ينتهي، بينما يبقى البعض الآخر حتى بعد انصراف غالبية المدعوين.

وفي الحفل تتركز الأضواء على بعض النجوم، بينما نجد الكثيرين ينزوون بعيداً عن عيون الناس، فلا يشعرون بأحد، ولا يشعر بوجودهم أحد، ولكن الكل يستوون عندما تُطفأ الأنوار، وتهدأ الموسيقى، وينصرف الجميع عائدين من حيث أتوا !.

بسم الله الرحمن الرحيم

- ١ -

هذه المذكرات

وبعد؛ فهذه لمحات أكتبها في أوقات الفراغ، ومذكرات أهذبها وقد كنت دونتها أسجل فيها بعض ما وعيت في هذه الحياة، وما وصل إليّ من أخبار، وأعرض إلى تاريخ هذه البلدة "عمّان" التي وُلدت فيها، وأول أرض مسّ جلدي ترابها، فأكتب موجزاً منه. وإنها لخواطر تسنح لي لعلها تبقى بعدي ويُستفاد منها ؛ فإن الإنسان في هذه الدنيا مسافر رحلته القصيرة، مهما طال به العمر. والسعيد من عمل شيئاً يخلّد به ذكره، ويبقى من بعده أثره. وما المرء إلا حديث بعده كما قال ابن دريد – رحمه الله -: (١)

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

ولقد وُلدت في عمّان، وعشت فيها، وأمضيت أيام الصبا في واديها . والمرء بعد أن يشب ويكتهل في موطن من المواطن يصبح جزءاً منه، مشدوداً إليه أينما ذهب، مغرماً به أينما تحوّل، مولعاً بتلك المعاهد، لا يستطيع أن يعيش بغيره، ولا يطيب له المقام إلا به، مهما تجوّل في هذه الأرض ذات الطول والعرض، ومهما لقي من أناس، وجدّد من أصحاب، ومهما خالط من البشر وعاشر من الناس، فإنه لا يزال يحن إلى دياره، ويتشوق إلى أرضها وترابها، ويتنسم ريحها وأخبارها، ولو أنه عاش في أجمل بلاد الله، ولقي فيها كل ترحاب، وعاشر فيها خيرة الأصحاب، فإن حنينه دائماً إلى مسقط رأسه وملاعب صباه، ومدرج طفولته، ومراتع رفاقه وأترابه : (٢)

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينـه أبـداً لأول منـزل

وقد قُدّر على رجال أن يهجروا بلادهم مكرهين، أو طلباً للرزق، وعاشوا في بلاد جميلة، وأصبح لبعضهم فيها مُلك وجاه وسلطان، ولكنهم مع كل هذا ظلّوا يذكرون بلادهم ويحنون إلى موطنهم، وذلك ما سجّله التاريخ عن البطل العظيم والمغامر

---

١) من مقصورة ابن دريد بشرح التبريزي، (تحقيق: الدكتور فخر الدّين قباوة، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩٤، ص ٧٤).

(٢) البيت لأبي تمام (ديوانه: ص ٢٩٩)، ضبط معانيه: إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١).

الكبير صقر قريش عبد الرحمن الداخل، فإنه ترك الشام مكرهاً وهرب منها ناجياً برأسه من العباسيين، وهو في ميعة الصبا وأول الشباب، وتشرَّد مدّة أربع سنوات يجوب الفيافي والمدن والصحاري والقفار حتى وصل إلى الأندلس، وأسَّس ملكاً عظيماً، وأصبح ينافس المنصور العباسي في المُلك والأبهة والعظمة، وسارت بذكره الركبان، ودعا من بقي من أهله وعاش ملكاً عظيماً مرهوب الجانب عزيز المقام.

ومع هذا كله ما فتىء يذكر الشام وطنه الأول، ومنبته ووقع صباه، ويحن إلى تلك المعاهد، ويتشوق إلى مكان ذكرياته، وقد نأت عنه وبعد عنها، فيقول: (٣)

أيها الراكب الميمم أرضاً	أقرَ من بعضي السلام لبعضي
إن جسمي كما علمت بأرضٍ	وفؤادي وما عليه بأرضِ
قدر البين بيننا فافترقنا	وطوى البينُ عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالفراق علينا	فعسى باجتماعنا سوف يقضي

ويقول: (٤)

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة	تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى	وطول ابتعادي عن بنيَّ وعن أهلي
نشأت بأرض أنتِ فيها غريبة	فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

فإنه لم يقنع بكل ما حصل عليه من ملك وسلطان، فما فتىء يردد آهاته إلى وطنه الأول، وحنينه وشوقه إلى ذكر الصبا ومراتع الآرام، ويعاوده حنينه إلى بلاد الشام، وأنشأ كثيراً من الأبنية والقصور وسماها على ما كان يعهده في الشام، وأودعها ما اجتلبه من الشام من النوى المختارة، والحبوب الغريبة، حتى نمت بيمن الجد وحُسن التربية وأصبحت أشجاراً أثمرت بغرائب الفواكه التي انتشرت بأرض الأندلس.

وهذا أمير الشعراء أحمد شوقي، وقد قُدِّر له أن يعيش فترة في الأندلس مبعداً عن بلاده، وتجوَّل في رحاب الحمراء، وطاف في أركان تلك الديار وتغنّى بها وأشاد بجمالها

---

(٣) أُنظر الأبيات في كتاب: الحلة السيراء، لابن الأبّار القضاعي، ٣٦/١ ، (تحقيق: حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣).

(٤) المصدر نفسه: ٣٧/١.

وأمجادها، ولكنها لم تلهه عن موطنه، ولم تسله عن دياره، فقال بيته المشهور الذي سارت به الركبان وأصبح محفوظاً يردده كل إنسان : (٥)

وطني لو شغلت بالخلد عنه   نازعتني إليه بالخلد نفسي

وتلك غريزة في الإنسان، وطبيعة لا يستطيع التخلّي عنها مهما بلغ به الأمر، ومهما حصل على عزّ وجاه ومال في أرض غير أرضه ووطن غير وطنه .

وها أنذا أكتب هذه اللمحات، وأعيد ترتيب ما سجّلته من خواطر وأنا أعيش سفيراً للمملكة الأردنية الهاشمية في المغرب العربي، في مدينة الرباط الجميلة الهادئة، الحالمة على شاطىء المحيط الأطلسي، كأنها بستان أينما توجهت، فيها رأيت الأشجار والحدائق والزهور والماء والغابات، ولا تقع عينك فيها إلا على منظر جميل، ولا يصادفك إلا ما تشتهي من حور عين في جنة نعيم. وأنا مسرور في عملي فيها، مرتاح في مقامي، وقد تعرفت على كثير من الأصدقاء من أهل هذا البلد الطيب، ولا أفضّل على عملي هذا أي عمل آخر، وعندي من الوقت ما أستطيع فيه أن أقرأ وأكتب، وما أمضي به جزءاً مع الصحب والأهل. ومع هذا كله فإني أحنّ دائماً إلى عمان موطني الأول ومنبت أهلي، ومراتع صباي، ودار الأهل والأصدقاء الأول، أتوق إلى أحاديث الصحاب، وجلسات العشيات بين الأهل والجيران، مع ما فيها من مشاكل واضطراب، وحرب ومخاوف، فلا أفضل على المعيشة فيها أية بقعة أخرى، وما ذلك إلاّ لأنها أول منزل لي ومكان مآربي السالفة، وملتقى أحبابي وإخواني وأصدقائي .

وأعتبر هذه الحرب وتلك الاضطرابات أموراً عابرة سوف تنجلي، وسوف نحرر بلادنا بفضل مقاومتنا، وجهادنا المتواصل، وعزيمتنا الصادقة، ونخلّصها من أولئك الأشرار الأنذال، اليهود الغادرين، الخادعين الكذابين الضالين المضلين، فإنهم انتهزوا فرصة ضعفنا وتفككنا فجمعوا أمرهم، وحشدوا لنا كل ما استطاعوا من مال وقوة، ودعاية مريضة في العالم بأنهم شعب مسكين آمن مسالم موادع يريد أن يعيش في بلاده في أمن وسلام، وجاؤونا بالسلاح والقوة يبطشون ويقتلون ويدمرون القرى والمنازل،

---

(٥) الشّوقيات (من قصيدته في معارضة سينيّة البحتري)، ٢/٤٥، (مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٦١).

ويصيحون ويبكون ويقولون إن العرب سوف يقتلونهم ويبيدونهم، ويخادعون الناس ويكذبون، وما هي إلا فرصة اختلسوها ونجحوا مؤقتاً، ولكننا سنعيد قوتنا، ونوحد صفوفنا، ونخلّص بلادنا منهم إن شاء الله كما خلّصناها سابقاً من الصليبيين، وإني لمؤمن بهذا كل الإيمان وإن النصر لنا ولو بعد حين، وما النصر إلا من عند الله .

- ٢ -
عمّان

عمّان بلدة قديمة قِدَم التاريخ، فهي من أقدم المدن في العالم، وذلك بفضل مكانها وحُسن جوها، وغزارة مياهها، وجودة مناخها وتربتها. وإن بقايا أبنية ما قبل التاريخ الواقعة على تلال عمّان التي أصبح بعضها من أجمل الأحياء في الدنيا، لتدلّ على درجة الحضارة التي بلغتها في تلك العصور العريقة في القدم، ومن هندستها يظهر ما بلغ إليه القدماء من فن التحصين، إذ إنَّ مداخل تلك الأبنية قد شيدت بشكل يجعل الكتف الأيمن عُرضةً للعدو المهاجم، وهو الكتف الذي لا يقيه الترس، عُرضةً لسلاح المدافعين.

ولا يُعلم بالضبط من هم سكان الأردن في عصور ما قبل التاريخ، ولكن ما لا جدال فيه أن الساميين قد غزوا هذه البلاد، واستوطنوها منذ عصور قديمة جداً. وجزيرة العرب كانت وطن الأمم السامية القديمة، ومنها هاجروا لضيق أرضهم، وما كان يتوالى عليهم من جدب وقلة أمطار أو حباً بالفتوح والتوسع إلى بلاد الشام والعراق ومصر.

أسَّست القبائل السامية التي نزحت إلى الهلال الخصيب "العراق والشام" دولاً لعبت دوراً عظيماً في التاريخ. من هذه القبائل : الفينيقيون الذين توطنوا سواحل الشام وأصبحوا أمة بحريّة شقت سفنها عباب البحار حتى الجزائر البريطانية، والأنباط الذين أسَّسوا دولتهم المعروفة في جنوب الأردن وشمال الحجاز ومركزها البتراء، وبسطوا سلطانهم على البلاد المجاورة إلى أن وصل حكمهم في يوم من الأيام إلى دمشق وحكمها أحد ملوكهم.

وكان في الأردن عدد كبير من الحيوانات الضارية، ويقال إن الفيلة كانت تعيش في بلاد الشام والعراق مدَّة من الزمن، وبقيت الى عهد قريب . وقد ذكر المتنبي، الأسد، في قصيدته المشهورة، وإنه كان قرب بحيرة طبريا، وذلك حيث يقول: (١)

أمعفر الليث الهزبر بسوطه ... لمن ادَّخرت الصارم المصقولا

---

(١) شرح ديوان المتنبي، لأبي البقاء العكبري، ٢٣٧/٣ (دار المعرفة، بيروت).

ورد إذا ورد البحيرة شارباً ورد الفرات زئيره و النيلا

ويقول المؤرخون إن الأسود ظلت في الأزرق حتى أوائل القرن الثامن عشر، وروي إن الامبراطور ديسبوس ٤٤٩ إلى ٥٢١م أتى بكمية كبيرة من الفيلة من إفريقيا وأطلقها في الحدود الشرقية يرهب بها البدو.

وفي سنة ١٨٤٧م شاهد أحد السيّاح على شواطىء بحيرة طبريا أثر براثن الوحوش الضارية كالأسد والنمر، ولكنه لم يميزها جيداً . وفي عام ١٩٠٢م شاهد سائحان أثر أقدام دببة في الغابة بين البتراء والشوبك.

ولا يزال في الأردن إلى الآن عدد قليل من الفهود الصغيرة، وعدد وافر من الضباع والذئاب. وقد اصطيد التمساح في نهر الزرقاء سنة ١٨٧٨م . وكانت جلعاد شهيرة بالريحان والمُر المكاوي، وكانا قديماً يُحمّلان إلى مصر على القوافل العربية حيث يُستعملان عقاقير للتحنيط.

وكانت البلقاء وقصبتها عمّان كما يقول المؤرخون، ولا تزال، من أغنى البلاد الزراعية، يُضرب بجودة قمحها ومحاصيلها المثل ؛ فقد ذكر ذلك قديماً ياقوت في معجم البلدان(٢) عند الكلام على عمّان، وتغنى حديثاً السائح السويسري بيركهارت(٣) بثروة هذه البلاد الزراعية فقال على لسان أحد الأعراب : "أنت لا تجد بلداً كالبلقاء بخرافها ومعزها" . وسأتكلم فيما بعد على موجز من رحلات بيركهارت وما وصف فيه عمّان وما جاورها عندما زارها سنة ١٨١٢م.

والبلقاء هي منطقة عمّان وما جاورها ما بين نهر الزرقاء إلى نهر الموجب . وبما أن هذه البلاد واقعة بين الشرق والغرب فقد تعاقب على حكمها أمم كثيرة كالبابليين والآشوريين والفرس واليونان والرومان، ومن ثم العرب وبقيت عربية إلى الآن، وإلى الأبد إن شاء الله.

في عام ٣٣٤ قبل الميلاد زحف الإسكندر من مكدونيا إلى آسيا وابتدأ بفتوحاته

---

(٢) معجم البلدان، ياقوت الحموي، ١٥١/٤ (ط. دار إحياء التراث، بيروت).

(٣) رحلات بيركهارت في سورية الجنوبية، ج٢، ترجمة: أنور عرفات، ط. دائرة الثقافة والفنون، عمّان، ١٩٦٩.

المشهورة ولقي نجاحاً لا مثيل له، وبعد أن تغلب على داريوس المشهور في الكتب العربية بـ "دارا" كما قال الشاعر:

دار الزمان على دارا وقاتله   وام كسرى فما يؤويه إيوانُ(٤)

وبعد أن تغلّب على داريوس في واقعة أسس عام ٣٣٣ ق.م اكتسح بلاد الشام، وقاومت غزة مقاومة عنيفة، فقد كان يدافع عنها جند من الأنباط كما قيل، ولكنه فتحها أخيراً وسار منها إلى مصر وأخضعها . وكما يذكر المؤرخون أن الاسكندر مرَّ على الجزء الشرقي من الأردن، ولكن بطليموس جاء من بعده وافتتح هذا الجانب وأصبحت هذه المنطقة تحت حكم اليونان، واصطبغت البلاد بصبغة يونانية بحتة، وتأسس في زمنهم ما يسمى " الديكابولس " أي المدن العشرة وهي : "فيلادلفيا" عمّان، ودمشق، وبيسان "سيثابولس"، وفحل "بِلاّ"، وجرش "جراسا"، وأم قيس "جَدرا" ، وفيق "هبوس" وهي في منطقة الجولان، وتل شهاب "رفانا"، وقنوات "كناثا" بجبل الدروز، وبيت راس "كابيتولس"، ودرعا "أدرعى" أو أذرعات كما وردت في شعر امرىء القيس: (٥)

تنورتها من أذرعات وأهلها   بأعلى حضرموت

وبصرى "أسكي شام". وهي كما ترى أكثر من عشر مدن، ويجوز أنها أُسِّست في البدء على أن تكون عشر مدن ثم زيدت من بعد، ولا يزال تاريخ الديكابولس عندما أصبح اتحاداً مركزياً مجهولاً.

وقد كان لكل واحدة من هذه المدن شيء من النفوذ على ما جاورها من الأرض، وإن الخرائب التي حول عمّان لتدل على أنها كانت ملحقات لها، وإن أكثر هذه المدن موجودة في الأردن، وإن الأردن تعتبر أكبر متحف للآثار القديمة لما فيها من المدن والقصور والهياكل والقلاع من مخلفات الأمم القديمة السالفة، وفيها ما هو فريد من

---

(٤) من قصيدة أبي البقاء الرندي الأندلسي التي مطلعها:

لكلّ شيء إذا ما تمّ نقصانُ   فلا يغرّ بطيب العيش إنسانُ

(أنظر: نفح الطيب، لأبي العبّاس المقرّي، ٤٨٦/٤، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨).

(٥) شرح ديوان امرىء القيس، لأبي جعفر النحّاس (ت ٣٣٨ هـ)، تحقيق: الدكتور عمر الفجاوي، وزارة الثقافة، عمّان، ٢٠٠٢، ص ٥٤، وفيه:

تنوّرتها من أذرِعاتِ وأهلُها   بيثرب أدنى دارها نظرٌ عالي

نوعه لا مثيل له في العالم وهي البتراء، وهي من أجمل وأروع الآثار، وهي من مخلفات الأنباط الدولة العربية التي بقيت مسيطرة على جنوب الأردن وجزء من شمال الحجاز. و(الأنباط) وصل نفوذهم إلى دمشق وجبل الدروز، وبقيت مملكتهم إلى سنة ١٠٦ ميلادية، حيث هاجمهم الرومان، ودمروها، بعدما لعب الأنباط دوراً في التاريخ في مدّة تزيد على ستمائة سنة.

وفي عهد الرومان كان لهذه المدن استقلال ذاتي، فكان لكل مدينة وما جاورها مجلس وإدارة خاصة يخولانها الحق في إصدار النّقد على أن تتآزر في الدفاع والتجارة، ومقابل هذه الحقوق والامتيازات التي كانت تتمتع بها المدن هذه كان عليها أن تقبل بمراقبة الحاكم الروماني لسورية في إدارتها السياسية والقضائية، وأن تدفع ضرائب الامبراطورية، وأن تقدم خدمة عسكرية عند الحاجة، وأخيراً أُضيفت مادة أخرى إلى هذه الشروط، وهي أن تضع صورة القيصر على النقود .

وقد كانت المدنية والثقافة اليونانية في تلك المنطقة على غاية من الرقي، وقد أنجبت تلك البلاد عدداً من الشعراء والخطباء والفنانين العظام .

ظلت الأردن هادئة في أيام الرومان، وفُتحت الطريق بين بصرى والعقبة في عهد تراجان، ولا يزال آثار الطريق باقية إلى الآن، وفي وادي الموجب نصبٌ يرجع تاريخه إلى عام ١١٢م يحمل اسم الامبراطور تراجان. وقد نُقلت العاصمة إلى بصرى، وبقيت البلاد يتداولها القادة الرومان، ويتغلّب الفرس عليها أحياناً إلى عهد الامبراطور جستنيان، ففي عهده حدث وباء الطاعون فقضى على عدد كبير من السكان.

وفي أواخر عهد جستنيان دب الانحلال في الامبراطورية بالرغم من توسعها في إيطاليا وافريقيا وإسبانيا، وأسباب ذلك كثرة الحروب وبذخ الامبراطور وتناقص عدد السكان، فاضطربت موازنة الدولة وقلّت مواردها، وترك جستنيان الامبراطورية ضعيفة مهلهلة، وجاء بعده أباطرة ضعفاء كانوا السبب في سرعة تدهور الامبراطورية واضمحلالها.

وقد استغل الفرس هذه الفرص فأخذوا يغزون الولايات الشرقية إلى أن تبوأ العرش الامبراطور هرقل (٦١٠ الى ٦٤١م) فأوقفهم عند حدهم ؛ ففي عام ٦١٣م زحفت جيوش

كسرى أبرويز ملك فارس غرباً فاستولت على سورية ثم فلسطين، وفي عام ٦١٤م احتلت القدس وذبحت تسعين ألفاً من المسيحيين، واستولوا على مصر كذلك. وكان هذا في أول ظهور الإسلام والنبي (عليه السلام) في مكة قبل الهجرة. وفرح مشركو مكة بغلبة الفرس على الروم وشمتوا بالمسلمين ولقوا أصحاب النبي وهم فرحون، وقالوا: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، وقد ظهر إخواننا أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب، وانكم إن قاتلتمونا لنظهرنَّ عليكم، فأنزل الله تعالى قوله : (الم . غُلبت الرومُ في أدنى الأرضِ وهمْ من بعدِ غَلَبِهم سيغلبون . في بضع سنين، للهِ الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ ويومئذٍ يفرَحُ المؤمنون بنصر الله ينصرُ من يشاءُ وهو العزيز الرحيم. وعدَ اللهِ لا يُخلفُ اللهُ وعدَهُ ولكنَّ أكثَرَ الناس لا يعلمون). صدق الله العظيم . (سورة الروم) (٦)

فخرج أبو بكر عند نزول هذه الآيات إلى المشركين فقال: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا ؟ فلا تفرحوا، فوالله لتظهرنَّ الروم على فارس كما أخبرنا بذلك نبينا (صلى الله عليه وسلم). فقام إليه أُبيٍ بن خلف ؛ فقال: كذبت. فقال له أبو بكر: أنت أكذب يا عدو اللهِ، اجعل بيننا أَجلا أُراهنك عليه، على عشر قلائص مني، وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غَرِمتَ، وإن ظهرت فارس غرِمتُ إلى ثلاث سنين. فراهنه، ثم جاء أبو بكر إلى النبي فأخبره، فقال له (عليه السلام) : زايده في الخطر ومادّه في الأجل. فخرج أبوبكر، فلقي أبيّاً فقال : لعلك ندمت. فقال: لا، تعال أزايدك في الخطر، وأمادّك في الأجل فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين. قال أبيّ : قد فعلت. فلما هاجر أبو بكر طلب أبيّ من ابنه كفالة إن غُلب فكفل به ابنه عبد الرحمن، فلما أراد أبيّ الخروج إلى أحد طلبه عبد الرحمن بالكفيل فأعطاه كفيلاً، ومات أبيٌّ من جرح في الموقعة . وظهرت الروم واستردت بيت المقدس، وكان ذلك في السنة السابعة من وقت نزول الآيات الكريمة . فأخذ أبو بكر الجمال من ورثة أبيٍّ وجاء إلى النبي (عليه السلام) فقال له : تصدق بها. وكان ذلك قبل تحريم القمار كما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي .

---

(٦) سورة الروم، الآيات: ١/٦.

وجاء هرقل إلى القدس بعد استردادها، وكان حديث ظهور الإسلام قد تفشى، وسأل هرقل: هل يوجد أحد من بلاد النبي العربي، وصادف أن كان أبو سفيان مع جماعة من قريش، فاستدعوهم لمقابلة الامبراطور، فحضروا بين يديه، وسأله عن النبي وعن وضعه الاجتماعي، ومن الذي اتبعه من الناس، وعن أخلاقه وسيرته، فأجابه أبو سفيان عن أسئلته بأمانة تامة ولم يخف عليه شيئاً فأعجب هرقل بحديث أبي سفيان، وسأله هرقل: هل ترك أحد من أصحابه دينه بعد أن أسلم ؟ فقال أبوسفيان : لم يحدث أن ترك أحد الدين. وسأله : هل غدر النبي بأحد أو رجع عن عهد قطعه لأحد؟ فقال أبو سفيان: لم يحدث ذلك أبداً، وإنما نحن الآن معه في هدنة، وكان ذلك بعد صلح الحديبية، ولا أدري إن كان سيغدر بنا أم لا . قال أبو سفيان : لم أستطع أن ادخل شيئاً في حديثي ضد محمد سوى هذه الجملة .

وخرج أبو سفيان من عند الامبراطور، وجاء بعد ذلك إلى مكة وحدث الناس بما لقي من الامبراطور وكيف سأله وأجابه.

ولكن هرقل ما لبث أن عاد إلى دمشق، ولم يهنأ بهذا الانتصار طويلاً، ولم ينعم باسترجاع مجد الامبراطورية، فإنه قبل وفاته شهد بأم عينيه تسرب ثلثي بلاده إلى أمة جديدة برزت من الصحراء العربية، فترك البلاد مودّعاً لها الوداع الأخير، والدموع في عينيه، إلى غير رجعة. وفي هذه الفترة بدأت بلاد الشام والعراق في عهد جديد، بل طلع على العالم نور من مكة والمدينة أضاء الكون، وأنار العالم، وذلك هو الفتح الإسلامي .

-٣-

الطرق التجارية

كانت الأردن منطقة مهمة جداً في التاريخ القديم، ولا سيما الضفة الشرقية منه، فهي نقطة متوسطة بين الشرق والغرب، تشقها الطرق التجارية المهمة التي يعتمد عليها الناس في العالم القديم. وقد كانت البضائع الهندية تُنقل بحراً إلى عدن ومنها تُحمل براً إلى الشمال مارةً في تيماء ومدائن صالح التي كانت بيد الأنباط، وكان بين مدائن صالح والبتراء طريقان: الأولى تمر من تبوك وجبال حسما قاطعة جبل رم تلك المنطقة الجميلة الخلابة العجيبة. والأخرى تسير محاذيةً لساحل خليج العقبة إلى العقبة. ولا يزال يوجد إلى الآن على طول الطريق خرائب وآثار نبطية وقبور ونقوش نبطية يرجع عهدها الى القرن الثاني الميلادي .

ومن العقبة كانت تتشعّب الطريق إلى شعبتين: الأولى تخترق وادي عربة مارة بغرندل إلى البتراء. والثانية تخترق وادي إثم "اليتم"، ثم إلى الكويرة وتمر بالحميمة، ثم إلى البتراء، ومن البتراء كانت الطريق إلى غزة أو إلى مصر مارة بوادي عربة ووادي الفينان، وخربة النحاس وعين حزب .

وطريق أخرى كانت تتجه شمالاً من شرقي الشوبك والطفيلة فتمر بالقرب من ضانا وبصيرة، ثم تقطع غور المزرعة عند اللسان إلى القدس، أو أنها تقطع غور الصافي إلى الخليل أو بئر السبع. ومن الكرك كانت الطريق الرئيسية تمرّ على أم الرصاص ومادبا حيث اكتشفت آثار نبطية فيها. وكان بين البتراء وتدمر طريق للقوافل معبدة تمر من معان والجفر وباير والأزرق إلى قصر برقة .

وقد كانت الطريق الصحراوية الشرقية معلومة عند القدماء، فقد استعملها الآشوريون والبابليون في زحفهم غرباً. وقد سار قمبيز الفارسي وبطليموس سوتر (٣٢٢-٢٨٣ قبل الميلاد) من غزة إلى البتراء ومنها إلى الجوف أو تدمر إلى العراق. وكان الأنباط محتكرين للنقل على القوافل من الجنوب والشرق إلى حدود النصف الأول من القرن الأول للميلاد، وذلك لأن الطرق البحرية قلما كانت تُستعمل في ذلك الحين، لجهل الناس فعل الرياح الموسمية، فقد كانت الرحلة في البحر بطيئة وخطيرة

جداً إلى أن اكتشف (هبالوس) سرّ هذه الرياح في تسيير السفن حوالي ٤٥م .

وكانت عدن ميناء عظيمة على الساحل الجنوبي لجزيرة العرب، والوجه ميناء للسفن التي كانت تسير في البحر الأحمر، ومنها كانت تُحمل البضائع إلى البلاد الأخرى مارة بالبتراء. لذلك كانت البتراء مركزاً هاماً ترد إليها القوافل من كل هذه الطرق، فأدى ذلك إلى ثراء الأنباط وازدهار بلادهم مدّة طويلة من الزمن .

وكان على الخليج العربي مرفآن يخرج منهما طريقان مهمتان تتجهان غرباً مجتازتين للبادية هما: ميناء "جرها" تمرّ في حائل والجوف والبتراء، أو تمرّ بتيماء وتبوك ثم العقبة. والأخرى المحمرة ومنها الطريق رأساً إلى البتراء .

وكانت بُصرى مركزاً مهماً جداً وتتصل بالأردن بطريقين: إحداهما قديمة تمرّ في درعا وبيت رأس وأم قيس إلى طبرية. والأخرى وهي الطريق الرومانية وتتجه جنوباً إلى المفرق وخربة السمراء ومنها إلى خو ومنها على طول وادي الزرقاء، ثم من الرصيفة إلى عمّان عن طريق ماركا. وبقيت عدة أنصاب على تلك الطريق إلى عهد قريب وعليها الإشارات بين الرصيفة وعمّان .

وكانت هنالك طريق بين عمّان والقدس عن طريق السلط تخترق وادي شعيب، وهي نفس الطريق المعبدة المستعملة الآن.

وطريق إلى العقبة تمر بالربة وذات راس، ونجل والشوبك إلى البتراء، ثم إلى الصدقة والكويرة إلى العقبة، ومنها تتفرع إلى فرعين: الأول يقطع سيناء، والآخر يتجه شمالاً إلى رفح.

هذه خلاصة موجزة عن الطرق التجارية في الزمن القديم، وهي التي جعلت أهمية كبرى لتلك المنطقة. وقد اهتم الرومان ببناء القلاع والحصون فيها لحماية الأراضي والطرق فعمّ الرخاء مدّة من الزمن، وكثرت الأراضي المزروعة، وازدهرت التجارة .

وكانت عمّان من المراكز الرئيسية المهمة، وحصناً ذا أهمية كبرى منذ الأعصر الغابرة. وقد أدرك الرومان قيمتها باعتبارها نقطة دفاع عن منطقة البلقاء التي تتوسط هذه المنطقة جميعها.

نزحت بعض القبائل اليمنية من بلادها وذلك إثر سيل العرم الذي هدم سد مأرب ورحلت الى الشمال، فسكنت قبائل منها الحجاز، وتجاوز بعضها حتى وصل الأردن والعراق وسورية؛ فكان الغساسنة في سورية والأردن، وكان المناذرة في العراق، وكان قدومهم حوالي القرن الرابع للميلاد. وكان الرومان والفرس يستثمرون وجودهم ليحرسوا لهم الحدود من العرب الذين يأتون من الجزيرة .

وقد بلغ الغساسنة أوج مجدهم في عهد الحارث الذي كان من القوة بحيث كانت كلمته تذهب تشريعاً يُعمل به من سورية إلى الجوف، ويُنسب بناء القسطل وقصر الزرقاء إلى هذا الملك. وقد يكون هو الذي بنى قصر المشتى، وحمام الصراخ في البلقاء، وأذرح والجرباء ومعان. وكان من شعراء الغساسنة البارزين النابغة الذبياني وقد أشاد بذكرهم بشعره، وذكر مواقع نزولهم في الجولان وغيرها من سورية. وكذلك كان حسان بن ثابت الأنصاري يزورهم فيحتفلون به ويكرمونه ويجزلون له العطايا، وكان يمدحهم بقصائد جمّة من أشهرها قوله: (١)

للّه در عصابة نادمتهم	يوماً بجلق في الزمان الأولِ
بيض الوجوه كريمة أحسابهم	شم الأنوف من الطراز الأول
يسقون من ورد البريص عليهم	بردى يصفق بالرحيق السلسلِ

وكان آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم الذي أسلم وجاء إلى مكة في زمن عمر بن الخطاب، ثم ارتد وعاد إلى بلاده ومات فيها وقصته مشهورة .

(١) شرح ديوان حسّان بن ثابت، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص ١٨٢.

- ٤ -

الفتح الإسلامي

طلعت جموع المسلمين لفتح الشام وقد قسمهم الخليفة إلى أربعة ألوية، وعقد كل لواء على قائد من قواده : لواء دمشق على يزيد بن أبي سفيان، ولواء الأردن على شرحبيل ابن حسنة، ولواء حمص على أبي عبيدة عامر بن الجراح، ولواء فلسطين على عمرو بن العاص. وسار كل لواء في جهته ثم اجتمع الجميع في اليرموك، وجاءهم خالد بن الوليد مدداً لهم من العراق، وبعد أن انتهت معركة اليرموك بالنصر العظيم وأتموا فتح الشام قُسِّمت هذه الجيوش إلى خمسة أجناد هي: جند دمشق، جند الأردن، جند فلسطين، جند حمص، جند قنسرين. وكل جند منها يجمع كوراً، وسُميت بذلك لأن جند كل موضع كانوا يقبضون أُعطياتهم فيه.

وكانت الجزيرة، وهي التي بين النهرين: نهر الفرات ونهر دجلة، كانت مع جند قنسرين ومركزها حلب، فأفردها عبد الملك بن مروان، وجعلها جنداً مستقلاً.

ولم تزل قنسرين وكورها مضمومة إلى حمص حتى كان يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبج جنداً مستقلاً. ولما استخلف الرشيد أفرد قنسرين بكورها فجعلها جنداً، وأفرد العواصم .

والشام بحدودها المعروفة التي هي من الجنوب الحجاز، ومن الشرق العراق، ومن الشمال جبال طوروس على حدود تركيا، ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط، هذه بحدودها هي الأرض المقدسة، كما وصفها وحدّدها لنا مجير الدين الحنبلي في كتابه الأنس الجليل(١) (٧٠٠ هـ = ١٣٠٠م) .

وقد ورد ذكر عمّان في أوائل الفتح الإسلامي وانها لا تزال مأهولة، ففي عام ٦ من الهجرة أوفد النبي (صلى الله عليه وسلم) رسولاً إلى فروة بن عمرو الجذامي عامل الروم على عمّان فاعتنق الإسلام، وأرسل مع مسعود بن سعد الجذامي بغلاً

---

(١) مجير الدّين الحنبلي، عبد الرحمن بن محمد العليمي، كان حيّاً سنة ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م، واسم كتابه: الأُنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ط. مكتبة المحتسب، عمّان، ١٩٧٢.

أشهب وفرساً وحماراً وأقمصة كتانية وعباءة حريرية هدية إلى النبي . وقد قبل النبي الكريم الهدية، وكافأ مسعوداً بإثني عشر أوقية من الذهب وكتب إلى فروة كتاباً. ولما بلغ الرومان إسلام فروة وإرساله الهدية إلى النبي حاولوا اقناعه ليرتد عن إسلامه فأبى فسجنوه، ومن ثم صلبوه على ماءٍ يُقال له عفرى. ويُقال إن فروة هذا كان عاملاً على معان وليس عمّان .

وبقي اسم عمّان يتردّد في كتب التاريخ والرحالة والجغرافيين وكتب الأدب، وعلى لسان الشعراء:

فقد مرَّ بها الشاعر الأحوص المشهور، ويظهر أنه أقام بها فلم ترق له الإقامة فيها فاستوحش وحنَّ إلى المدينة، فقال: (٢)

أقول بعمان و هل طربي به ... إلى أهل سلع إن تشوقت نافعُ
أصاحِ ألم يحزنك ريح مريضة ... وبرق تلالا بالعقيقين لامعُ
وإنّ غريب الدار مما يشوقه ... نسيم الرياح والبروق اللوامعُ
وكيف اشتياق المرء يبكي صبابةً ... إلى من نأى عن داره وهو طامعُ

وذكرها الخطيم العُكلي وهو أحد لصوص العرب، فقال: (٣)

أعوذ بربي أن أرى الشام بعدها ... وعمّان ما غنّى الحمام وغرّدا
فذاك الذي استنكرت يا أم مالك ... فأصبحت منه شاحب اللون أسودا
وإني لماضي العزم لو تعلمينه ... وركّاب أهوالٍ يُخَاف بها الردى

وقد ذكرها المقدسي محمد بن أحمد بن أبي بكر في كتابه : **أحسن التقاسيم**(٤) عند الكلام على طريق الحج، فقال: "إن الطريق التي توصل إلى تبوك تبدأ من عمّان وبعد استراحة ليلتين يبلغ المسافر معان ... إلخ " ..

(٢) طبقات فحول الشعراء، لابن سلّام الجمحي، ٢/٦٥٩ — ٦٦٠ (شرح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٤).

(٣) معجم البلدان، لياقوت الحموي، ٤/١٥١.

(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، لمحمد بن أحمد المقدسي، حرّرها وقدّم لها: شاكر لعيبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٢٣٠.

مع أن عمّان لم تكن على طريق الحج في ما أدركناه من أول هذا القرن، في زمن الأتراك، فقد كانت الطريق تمرّ من شرقي الزرقاء إلى زيزاء إلى معان. ويجوز أنها كانت من طريق عمّان ثم تحولت فيما بعد ... وذكرها ياقوت وقال عنها في معجمه(٥) إنها قصبة البلقاء واشتهرت تلك المنطقة بجودة حبوبها، وقال إنها أخرجت عدداً من العلماء (٦٢٦ هـ) ، وقال إن تلك المنطقة تتعرض أحياناً لموجات من المحول وقلّة الأمطار مما يضطر أهلها لتركها والتحول عنها .

ويجوز أنها بقيت مأهولة إلى أوائل القرن السابع الهجري ثم هُجِرت بسبب المحل، فقد ذُكرت في أيام الأيوبيين (٥٧٩ هـ) ، وأن العادل والي حلب وتقي الدين والي مصر جمعا جيوشهما في دمشق بأمر من صلاح الدين وخرجت مارة بالزرقاء وعمان وزيزاء واللجون والربة وحاصروا الكرك، وذلك في شهر آب ١١٨٤م. وبعد أن دخلوا الكرك وأحاطوا بالقلعة ورموها على أسوارها قصد تهديمها، جاءهم خبر زحف ملك القدس على شرقي الأردن، فرجع صلاح الدين بجيوشه ولم يستطع فتح قلعة الكرك.

من هذا الكلام يظهر أن عمّان وتلك المنطقة كانت ما زالت مأهولة، وأنها كانت تحت حكم الأيوبيين ولم يصلها الصليبيون . وبعد ذلك لم تذكر إلاَّ عرضاً، فنجد أن الظاهري في كتابه زبدة كشف الممالك ص ٤٦ (٨٧٢ هـ = ١٤٦٧م) (٦) ذكر إقليم البلقاء ولم يذكر عمّان فقال: "أما مدينة السلط فهي لطيفة وبها قلعة ولها أقاليم، وهي من معاملة دمشق أيضاً، وأما مدينة عجلون فلها قلعة وإقليم يشتمل على عدة قرى وهي جبال وأودية، وهي أيضاً من معاملة دمشق، وأما مدينة حسبان فلها قلعة خربة، وإقليمها البلقاء تشتمل على نيف وثلاثمائة قرية بأرض مستوية، وهي أيضاً من معاملة دمشق" .

فلم يذكر عمّان وقال إن حسبان هي مركز البلقاء. فيجوز أن عمّان في ذلك التاريخ كانت مهجورة خالية من السكان، ولا أدري بالضبط متى هُجرت، وأكثر هذه القرى التي ذكرها الظاهري لم يعد لها أثر إلاَّ ما يُرى من أكوام من الردم والحجارة والأتربة، وآثار للبيوت والآبار .

---

(٥) معجم البلدان، لياقوت الحموي، ٤/١٥١.

(٦) زبدة كشف الممالك، غرس الدّين الظّاهري، باريس، ١٨٩٤، ص ٤٦.

- ٥ -

عمّان في القرن التاسع عشر

بقيت عمّان ما شاء الله لها خالية من السكان، يجري فيها نهر صغير على جانبيه بعض الأشجار والنبات، ويأتي البدو ليسقوا مواشيهم، وينزلون في ذلك الوادي أياماً قلائل في الربيع.

وقد زارها في أوائل القرن التاسع عشر رحالة مغامر سويسري الأصل اسمه بيركهارت(١)، زار تلك المنطقة في سنة ١٨١٢، وكتب عنها كتاباً مفصلاً مع مسح لكثير من المعالم المشهورة المهمة في جرش وعمّان والبتراء، ووصف لحالة البلاد في أيامه، والحالة الاجتماعية، ومن وصفه وكتاباته يتبين أن عمّان كانت لا تزال خالية من السكان إلى ذلك التاريخ .

وفي كتابه يعتبر اللواء الشمالي من الأردن حتى سيل الزرقاء جزءاً من حوران، وقد كتب فصلاً رئيسياً في رحلته عن الحياة الاجتماعية في هذه البلاد خلاصته : أنه يمدح الضيافة الشائعة بين السكان كأهم مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية والتقاليد التالدة، ويقول: إن الضيف يُقدم له ثلاث وجبات يومياً . وأهم الأصناف من الطعام ما تألف من اللحم والبرغل والكشك . كما يُقدم يومياً مدٌّ من الشعير لحصان الضيف . ولا يُنتظر المُضيف شيئاً من الضيف مهما بلغ من الفقر . ويذكر أنه أعطى ولداً فقيراً بضعة قروش بعد أن أكرمته أمّه إكراماً شديداً على فقرها، ولما غادر المكان علمت أم الولد بأن ابنها أخذ بضعة قروش من الضيف فلحقته تلح وترجو أن يقف لتعيد إليه نقوده، ولكنه أسرع بجواده دون الالتفات إليها، وهو يُقدر لها هذه الأريحية .

ويقول : إن الثروة للفرد كانت تقدَّر بما يملكه من الفدادين والخيول والأغنام، كما يذكر أن سعر غرارة القمح في السنين العادية خمسون قرشاً، فإذا كانت الغرارة تتسع ١٠٠ كيلو غرام فيكون سعر الكيلو من القمح خمسة فلسات . ويذكر أن ثمن الشعير نصف ثمن القمح وأن ثمن البقرة أو الجاموسة سبعون قرشاً وثمن البعير ١٥٠ قرشاً .

---

(١) أُنظر: رحلات بيركهارت في سورية الجنوبية، ج٢، ترجمة: أنور عرفات، دائرة الثّقافة والفنون، ١٩٦٩.

ويقول : إن الزراعة تعطي في السنوات العادية ٢٥ ضعفاً من القمح والشعير يعطي ٥٠ ضعفاً .

فيتبيّن من كلامه كيف كانت الحالة من الرخص والرخاء والبساطة . ويصف عرساً في قرية مسيحية فيقول : أُحضرت العروس من قريتها التي تبعد مسيرة يوم بين قريباتها وصاحباتها ومعها جملان مزيّنان بالشراريب والأجراس. واستقبلتها نساء قرية العريس بالزغاريد وقرع الدفوف. وكان شباب القرية يطلقون النيران من الطبنجات والبنادق القديمة. ثم انسحب العريس إلى عين تبعُد عن القرية عشر دقائق حيث اغتسل ولبس ثياباً جديدة وعاد إلى القرية يمتطي جواداً عليه سرج مزركش ويحيط به شبان القرية، وكان بينهم اثنان يقرعان الدفوف وبعضهم يطلق الطلقات النارية إلى أن وصل المركب إلى بيت شيخ القرية ، فترجلٍ العريس وحمله شخصان على سواعدهما مع الغناء وهتافات الفرح والابتهاج، ثم أُجلس العريس على مقعد عالٍ إلى غروب الشمس بين دعابات أصدقائه وطرائفهم . ثم حُمِل إلى الكنيسة حيث أجرى خوري الروم مراسيم الزواج . وكان أبو العريس قد ذبح عدداً من الخراف قُدمت للغداء والعشاء، ثم حُمل طبقان إلى مضافة الشيخ مملؤان باللحم والبرغل وخُصّ الشيخ بطبق خاص. وفي السهرة قدم الحاضرون البارات(٢) نقوطاً للعريس. وكان الناطور كلما تقدم أحد من الحاضرين بنقوطه، يعلن ذلك المبلغ على رؤوس الأشهاد حامداً شاكراً . ولما انتهت السهرة انسحب العريسان إلى منزلهما . وهذه العادات لا تزال في القرى إلى يومنا هذا مع قليل من التغيير .

ويذكر (بيركهارت) مظالم الدولة وشدّتها في جمع مختلف الضرائب والأتاوات والخاوات، وأنها كلها كانت تنصب على الفلاح المسكين، وكثيراً ما كان هذا الفلاح يضطر إلى مغادرة قريته إلى قرى أخرى أملاً في أن يجد في شيخها الرحمة والنزاهة. لذا كان قلّ أن يموت فلاح في القرية التي وُلد فيها. وكثيراً ما كان الفلاح المظلوم يهجر بيت الحجر والمدر إلى بيت الشعر فيعيش حياة البادية متمتعاً بحريته وبعيداً عن مظالم الدولة. وقد سأل الرحالة فلاحاً: لماذا لا تزرعون الأشجار في قراكم ؟ فقال:

(٢) البارات: عملة مفردها (بارة)، وهي وحدة من فئات النّقد العثماني، وهي أصغر الوحدات النّقديّة (تاريخ الإدارة العثمانية في شرق الأردن ١٨٦٤ – ١٩١٨، لأحمد صدقي شقيرات، ص ٧١، عمان، ١٩٩٢).

نزرع للأغراب أو الأعراب ؟ أي السكان الذين قد يخلفونهم في أماكن إقامتهم التي هجروها، والأعراب الذين يترددون على المياه في الربيع والصيف ويستبيحون ما تصل إليه أيديهم. ثم ذكر أنواع الضرائب التي كان يدفعها الفلاح فتثقل كاهله، وهي : الميري وهو ما يُدفع للباشا . ونفقات طعام الجنود . والخاوة التي يدفعها الفلاح للعربان. وضريبة الطوارىء .

ويذكر أن المسيحيين يعيشون في البلاد في أمن وسلام هم والمسلمون، وذكر ذلك كل الرحالة الذين زاروا بلادنا، وكذلك عن اليهود بأنهم يعيشون متمتعين بكامل حريتهم. وقد أطال الحديث عن اليهود وأحوالهم، واختلاف جنسياتهم وما ينشأ بينهم من الحسد، وجشعهم وسوء تصرفهم لجمع المال . ويقول: إن اليهود المتمسكين بدينهم يقضون النهار بكامله في المدارس أو الكُنس حيث يتلون العهد القديم (التوراة) والتلمود وكثير منهم يحفظونها عن ظهر قلب . وهم جميعاً يستطيعون كتابة اللغة العربية، إلاَّ انني لم أجد أحداً منهم حسن الخط. ويبدو أن تعليمهم على نفس مستوى تعليم المسلمين الذين يظن العالِم الديني منهم بأنه بلغ أوج المعرفة حينما يجد نفسه قادراً على تلاوة القرآن بكامله، مع سرد بضعة آلاف من الأحاديث النبوية، ولكن لا اليهود ولا المسلمون ولا المسيحيون في هذه البلاد عندهم أدنى فكرة عن ذلك الانتقاد الذي يمكن أن يرشدهم إلى تفسير أو تفهم منطقي لكتبهم المقدسة . إن الأسئلة التي وجهتها إلى العديد من أكابر الحاخامين بخصوص الصحراء التي تاه فيها بنو إسرائيل مدة أربعين سنة، ذهبت عبثاً، ووجدت أن معرفتي الضئيلة بجغرافية فلسطين وتقسيمها بين الاثني عشر سبطاً كانت تفضل معرفتهم .

ويقول: يتمتع اليهود هنا بحرية دينية مطلقة ... إلاَّ أن سلوكهم ليس حكيماً كما يجب أن يكون، فهم يبيعون النبيذ والكونياك لجنود البلدة علناً، وفي أعراسهم يقومون بعرض خطير جداً لثرواتهم، ففي هذه المناسبات يخترقون شوارع المدينة "طبريا" في موكب فخم، حاملين أمام العروس أدوات المائدة الفضية أو الذهبية التي أهدتها لها الجالية بأجمعها تقريباً، والمؤلفة من صحون كبيرة وقدور وفناجين قهوة وما شاكل ذلك. ويحتفلون بالعرس في بيت العريس سبعة أيام بلياليها .

وحفلة الزفاف لرجل دخله السنوي يبلغ خمسين جنيهاً تكلف في الغالب أكثر من ستين جنيهاً، وهم يتزوجون في سن مبكرة جداً ...

يوهان بيركهارت(٣)

وُلد يوهان لودويغ بيركهارت في لوزان عام ١٧٨٤م من أصل ألماني، ووجّه والده همّه إلى تثقيفه، فأرسله إلى مدينة نيوشاتل حيث أتم دراسته الثانوية، ثم إلى جامعة ليبزج وغوتنكن في ألمانيا لإتمام دراسته الجامعية.

واشتهر يوهان بيركهارت بين طلاب الجامعة بدماثة الخلق وسعة العلم، والابتعاد عن حياة الصخب والسمر التي اعتاد الطلاب الألمان أن يقضوها في الخمارات ومجالس الأنس والطرب، واتصل بعالم فذ من علماء الألمان وهو يوهان فردريخ بلومنباخ، وكان أستاذا في الطب وواسع الاطلاع في الانثروبولوجيا (علم الإنسان) ، وأخذ عنه الكثير مما وسّع أفقه وزوده بكمية وافرة من المعرفة.

سفره إلى لندن :

وقد طلب من أستاذه أن يزوّده بكتاب إلى صديقه السير جوزيف بانكس البحاثة الجغرافي الانكليزي أحد مؤسسي الجمعية الجغرافية الملكية في لندن، فأعطاه ما طلب، ورحل بيركهارت إلى إنكلترا سنة ١٨٠٦م وهو يبلغ من العمر ٢٢ عاماً ، ليعرض خدماته على الجمعية الجغرافية الملكية.

وبقي في إنكلترا زهاء ثلاث سنوات، متنقلاً بين لندن وكمبردج يدرس خلالها اللغة الإنكليزية والمجتمع البريطاني، حتى صدرت إليه التعليمات بالسفر إلى الشرق الأوسط أولاً، فدهش بادىء ذي بدء لأنه كان يعد نفسه للسفر إلى إفريقيا لاكتشاف مجاهلها؛ فأخذ يدرس اللغة العربية والفلك والطب في مدة ستة أسابيع يواصل الليل والنهار، ويروض نفسه على حياة التقشف والاقتصار على الخضر في الطعام، ثم سافر إلى مالطة في آذار ١٨٠٩م.

---

(٣) له ترجمة في الأعلام، للزركلي، ٨/٢٦٤ (دار العلم للملايين، بيروت، ط٩، ١٩٩٠). وانظر في التعريف به مقدمة الجزء الثاني من رحلاته، ترجمة: أنور عرفات، دائرة الثقافة والفنون، ١٩٦٩، ص ٦ – ١٣. وقد اعتمد الشيخ القطان على هذه المقدمة في ترجمة بيركهارت.

التنكر بزي مسلم هندي :

بقي في جزيرة مالطة زهاء سبعة أسابيع ليتعلم اللغة العربية على قدر الاستطاعة، وليجيد التنكر كتاجر مسلم هندي، ويهيء نفسه لزيارة سوريا . ووصل أنطاكية وتعرض لمأزق حرج، ولكنه نجا من ذلك باستعماله اللغة العربية، وذهب منها إلى حلب وحط رحاله فيها واتخذ لنفسه اسم "الشيخ إبراهيم" المسلم التاجر الرحالة الهندي، وعكف على دراسة اللغة العربية حتى أتقنها وعرف منها ما لا يعرفه فقهاء اللغة في زمانه .

وصار يجتمع بعلماء حلب وقضاتها ويحادثهم باللغة والفقه والتفسير ويشرح لهم ما غمض من آيات الذكر الحكيم .

وقام بيركهارت خلال هذه المدة برحلات طويلة في سوريا ولبنان زار فيها تدمر وبعلبك وحوران ودمشق، مدوّناً كل صغيرة وكبيرة، ثم زار طرابلس الشام وفلسطين وما فيهما من مخلّدات التاريخ، ثم مرَّ بصحراء سيناء برفقة بعض القوافل البدوية حتى وصل إلى القاهرة في أيلول من عام ١٨١٢م وقد وطد العزم على اكتشاف مجاهل ليبيا وخاصة منطقة فزان . ثم على قطع الصحراء الكبرى والبحث عن منابع نهر النيجر .

دراسة الآثار المصرية :

لم يستطع أن يقوم بالرحلة إلى منابع النيجر، فأكب على دراسة الآثار المصرية . وما حلّ عام ١٨١٣م حتى كان قد زار كل وادي النيل الى شمال ولاية دنقلة في السودان فاحصاً على عادته كل ما يقع عليه بصره .

وبقي بعد ذلك عاماً كاملاً في بلدة اسنا يحاول تنظيم رحلة النيجر، ولكنه لم يجد إلى ذلك سبيلا ؛ فقرر أن يؤجلها إلى ظروف أكثر ملاءمة . وعبر صحراء مصر حتى وصل إلى بلدة سواكن في تموز عام ١٨١٤م وهو يتنكر مرة أخرى بزي تاجر سوري، ثم عبر البحر الأحمر إلى جدة حيث أصيب بالحمى والإفلاس في آن واحد، إذ لم تصل إليه النقود التي كان يأمل في تحويلها من مصر على يد تاجر في جدة . ولم يكن أحد ليصدق كلام هذا الرجل ذي الملابس المهلهلة الذي كان يدعي دون انقطاع أن الدراهم التي كان ينتظرها لا بد وأن تصل بعد أيام . فبقي على أسوأ حال، مريضاً يعضّه الجوع بنابه ويهزأ الناس بحاله حتى كاد يهلك.

الاتصال بقائد الحملة المصرية :

وما لبث أن انتشر خبر الشيخ إبراهيم وما هو عليه من ضيق اليد وسوء الصحة، وبلغ ذلك مسامع قائد الحملة المصرية وهو آنذاك في الحجاز يحارب الوهابيين، وكان قد سمع في القاهرة الشيء الكثير عن المدعو الشيخ إبراهيم الرحالة وعلمه وأدبه وفضله وحُسن معاملته، فرق لحاله وطلب إحضاره وأعزه ودفع له ببعض المال ليستعين به على أموره .

وطلب بيركهارت من قائد الحملة أن يسمح له بزيارة مكة وأداء فريضة الحج، ولم يكن يجهل القائد أن الشيخ إبراهيم كان في الواقع مسيحياً، ودخول غير المسلمين مكة ممنوع، (ولكنه) قبل طلبه وقال له على شرط أن يجتاز امتحاناً في الدين الإسلامي أمام اثنين من العلماء، وقبل بيركهارت هذا الشرط عن طيب خاطر، وأدى الامتحان أمام عالمين حجازيين اللذين قررا بعد ذلك أن الشيخ إبراهيم متضلّع في الدين، عالم فقيه . وسمع قاضي مكة بخبره فدعاه إلى العشاء في داره، فصلى معه وتلا خلال ذلك آيات من الذكر الحكيم بلغة لا تشوبها شائبة، ثم أدى مناسك الحج على أحسن ما يكون، ولم يخل بشرط من شروطه، ثم زار المدينة المنورة وما حولها، ثم عاوده المرض فاضطر إلى العودة إلى القاهرة ماراً بينبع فوصل القاهرة وهو في أشد الحالات من المرض والإعياء والتعب.

تنظيم المذكرات عن رحلاته :

وعندما استعاد صحته عكف على إعادة النظر في مذكراته عن رحلاته، وكانت ملأت المجلدات تمهيداً لتقديمها على هيئة رسائل إلى الجمعية الإفريقية، التي صارت تسمى "الجمعية الجغرافية الملكية"، وقد نُشرت كل هذه الكتب بعد وفاته وهي:

(١) الرحلات في صحراء النوبة .

(٢) الرحلات في سوريا والأراضي المقدسة، وهو ما أخذنا ما كتبناه هنا عن بلادنا.

(٣) الرحلات في بلاد العرب .

(٤) الأمثال العربية .

(٥) ملاحظات حول البدو والوهابيين .

وكلها غنية بالمعلومات الجامعة عن البلاد العربية والشرق الأوسط في ذلك الزمان.

وكان بيركهارت قد اشتهر صيته وذاع خبره، واعترف البعيد والقريب بعلمه وأدبه، يقدم العون والنصح والإرشاد لكثير من البحاثة الأثريين الذين وفدوا إلى مصر مثل سولفت وبلزوني، ويقوم بإعداد العدة لرحلة النيجر التي كانت لا تزال معلقة ولا يزال هو يعقد النية على القيام بها .

وبينما هو على هذه الحال إذ ظهر الطاعون في القاهرة وخشي هو على صحته التي قد أضناها السفر المتواصل والحميات التي لم يستطع التخلص منها، فرحل إلى السويس ومنها إلى صحراء سيناء وأخذ يتنقل من موضع إلى آخر حتى زال خطر الوباء، فعاد إلى القاهرة في أواسط عام ١٨١٦م وقد وطد العزم على القيام برحلة إلى النيجر، إلا أن الأقدار شاءت غير هذا؛ إذ أُصيب بالزحار والقافلة على وشك الرحيل فتوفي في ١٥ اكتوبر من عام ١٨١٧م ودُفن في مقبرة إسلامية في القاهرة وله من العمر ٣٣ سنة .

وقد كُتب على قبره: "هو الحي الباقي .

هذا قبر المرحوم إلى رحمة الله تعالى الشيخ الحاج إبراهيم المهدي ابن عبدالله بيركهارت اللوزاني ... تاريخ ولادته ١٠ محرم ١١٩٦ من الهجرة، وتاريخ وفاته إلى رحمة الله بمصر المحروسة في ١٦ ذي الحجة سنة ١٢٣٢ هـ الموافق ١٨١٧م ."

رحالة من الطراز الأول:

وقد أقرّ كل من عرفه أنه كان رجلاً يجمع في نفسه كل ميزات رحالة من الطراز الأول، فقد اتصف بالجرأة والإقدام والحذر الشديد وشدة الملاحظة واحترام التقاليد والعادات المحلية والانسجام في البيئة التي يعيش فيها . وقال من عرفوه إنه كان رجلاً فاضلاً عالماً كريم النفس، مغرماً بالناس، شديد العطف على الفقراء والمساكين، محباً للعمل مخلصاً لأصدقائه ومعارفه .

وليس أدلّ على هذا من أنه أوصى بمجموعته الفنية من المخطوطات العربية التي

جمعها خلال إقامته في الشرق الأوسط إلى جامعة كمبردج حيث تلقى مبادىء اللغة العربية؛ ومن كتبه ورسائله التي تفيض بحبه العظيم للعرب والتقاليد العربية، تلك التقاليد التي انسجمت مع طبعه، حيث أعجب بالشرق حتى اتخذه وطناً، وتشرّب عاداته وطباعه وطلب أن يكون مثواه الأخير في أرض الشرق العربي .

زار بيركهارت بلادنا وكان في شهر حزيران ١٨١٢م في السلط، وقال: نزلت في السلط في بيت أحد معاري في حيث استُضفت بسخاء طوال مدة إقامتي في هذا المكان .

تقع بلدة السلط على منحدر تل تتوّجُهُ قلعة وتحيط به من جميع جوانبه جبال شديدة الانحدار، وهي المكان الوحيد المأهول في مقاطعة البلقاء وسكانها مستقلّون تماماً، وقد حاول باشاوات دمشق عدة مرات التغلب عليهم ولكن محاولاتهم باءت بالفشل . ويتألف سكانها من نحو أربعمائة عائلة مسلمة وثمانين عائلة مسيحية تابعة للكنيسة الشرقية، وهم يعيشون سوية بمودة وبمساواة تامتين، ويتألف المسلمون من ثلاث عشائر : الأكراد والعواملة والقطيشات . ولكل من هذه العشائر حيّها المستقلّ في البلدة .

وقد وصف البلدة وواديها وعيونها، وزراعتهم وتجارتهم، وقال عن المسيحيين إنهم لا يراعون صلواتهم وصيامهم بدقة، ومع أن هذا وقت الصوم الكبير بالنسبة للروم الأرثوذكس فإنني أشاهد يومياً أكثر المسيحيين تمتعاً بالاحترام، يأكلون اللحم والسمن.

ويقول : إن طعام أهل السلط ولباسهم يعتبر أدنى نوعاً ما مما اعتاد عليه فلاحو سوريا الشمالية، فلباسهم وخاصة لباس النساء، يقارب لباس البدو، كما ان لغتهم تسودها اللهجة البدوية الأصلية، والنفقات العامة التي يتكبدونها تنحصر في استضافة المسافرين، ويوجد لهذا الغرض أربع مضافات: ثلاثة منها للمسلمين وواحدة للمسيحيين، وكل من يدخل هناك يعيش كما يجب على أن لا يطول بقاؤه مدة غير معقولة، ودون أن يبيّن الأسباب لمثل هذا التأخير .

ويُقدم للغريب مهما كانت صفته فطور وغداء وعشاء مع كثير من فناجين القهوة . ويُذبح خروف أو عنزة لذوي المكانة من الضيوف، وفي هذه الحالة يشترك بعض الأهالي معهم في تناول العشاء . وكل مضافة لها قيم يمسك الحسابات ويموّن المطبخ من المخزون

المشترى بالمبلغ المشترك . وقيل لي إن كل عائلة ذات مكانة تدفع حوالي خمسين قرشاً في السنة لقيم المضافة . ويبلغ مجموع هذه الإسهامات ألف جنيه استرليني تنفق على الضيوف. ولو قامت الحكومة بهذا العمل لاغتصب أكثر من ثلاثة أضعاف هذا المبلغ للقيام بإكرام الضيوف. وبالإضافة للمضافات تكون كل عائلة مستعدة دائماً لاستقبال أي من معارفها الذين يفضلون بيتها على المضافة العامة .

وعلى ضوء هذه العلاقات المتبادلة، يمكن أن يُدرَك بسهولة أن أهالي السلط هم أصدقاء للبدو المجاورين، لأنهم يخشونهم من جهة ويجدون المأوى عندهم من جهة أخرى. ويستطيع السلطيون أن يجمعوا حوالي أربعمائة بندقية قديمة ذات زناد وأربعين إلى خمسين حصاناً .

وتكلّم على أوشع وضريحه والعادات المتبعة في تقديم النذور له، وقال : دُعيت للاشتراك في تناول وجبة من لحم الخروف الذي قدمه متوسل استجاب النبي لصلواته، وكان هناك جمهور كبير، وقضينا يوماً ساراً للغاية تحت شجرة سنديان رائعة تقع بجانب الضريح مباشرة . وكانت زوجات وبنات المدعوين حاضرات واشتركن في الحديث بحرية . ووصف الضريح، ومكانه، وعادات العرب وكيف يحترمونه، ويقدمون له البخور والبارات ...

عمّان – يقول : وجدت من المستحيل عليّ في السلط أن أحصل على دليل يقودني إلى عمّان، فقد كانت البلاد في حالة حرب أصبح السفر خلالها خطراً جداً؛ إذ إن بني صخر كانوا في حالة حرب مع العدوان ومع حكومة دمشق وعرب الرولة الذين يتفرعون من عشيرة عنيزة . وكنا نسمع يومياً عن مناوشات تجري بين الأطراف المتنازعة وخاصة قرب نهر الزرقاء .

ولما كانت عمّان تعتبر نبعاً شهيراً فقد كان الفريقان المتخاصمان يترددان عليها بكثرة. ومع أن أهل السلط هم الآن في حالة سلم مع بني صخر لأنهم عقدوا معاهدة بهذا الخصوص في يوم وصولي، إلا أن موقفهم تجاه عرب العدوان والرولة كان حيادياً يتصف بالاعتدال.

وفي إحدى المرات أحضرت الرولة أربعة رجال مسلحين لكي يصحبوني للمكان سيراً

على الأقدام . ولكن حينما كنّا على وشك الانطلاق، بعد غروب الشمس جاءت نساؤهم إلى مكان مسكني مولولات ووبخن أزواجهن بقسوة بلغت حد الجنون لتعريض أنفسهم للهلاك مقابل بضعة قروش . ولما أخفقت في عدة محاولات أخرى في أن أجد دليلاً يذهب معي إلى عمان، غادرت السلط منفرداً مساء اليوم السادس من تموز وتوجهت راكباً الى الفحيص حيث كان القسم الأكبر من السلطيين يخيمون هناك للقيام بأعمال الحصاد .

الفحيص: مدينة خربة، وعلى مقربة منها ينبوع، ويوجد بقايا بناية ذات أقواس يقيم فيها المسيحيون أحياناً الخدمة الدينية . ومن نقطة قرب مكان يدعى الخندق يأخذ البحر الميت الذي شاهدته لأول مرة اتجاهاً جنوبياً غربياً .

لقد حالفني الحظ في الفحيص فوجدت دليلاً كان منذ خمس سنوات في خدمة موسى (وهو الاسم الذي انتحله الرحالة م. ستزن لنفسه) ولأنه كان على معرفة حسنة بجميع البدو، وأقام علاقات صداقة معهم، فقد تعهد بأخذي إلى عمان مع فارس آخر.

في اليوم السابع من تموز انطلقنا قبل طلوع الشمس، وبعد مغادرتنا الفحيص عبرنا بلاداً جبلية وعرة واجتزنا حرشاً كثيفاً من أشجار السنديان . وبعد ثلاثة أرباع الساعة وصلنا إلى أرض الحمّر . ثم يصف الطريق إلى عمّان وأنه مرَّ بتلال وخرب كثيرة قال عنها: ومن الواضح أن البلاد بمجموعها كانت تلقى عناية فائقة وذلك لتهيئة وسائل المعيشة لهذا العدد الكبير من القرى . وفي ثلاث ساعات ونصف الساعة دخلنا وادياً فسيحاً وصلنا منه في نصف ساعة إلى خرائب عمّان التي تقع على مسافة تقرب من ستة عشر ميلاً انكليزياً من شرقي السلط وشرقيها الجنوبي . فواضح من كلامه أن عمّان إلى ذلك التاريخ كانت غير مأهولة .

تقع البلدة على طول ضفاف النهر المدعو (ميّة عمّان) والذي ينبع من بركة على بعد مئات من الخطوات من طرف البلدة الجنوبي الغربي.

وقد وصف عمّان وعمل لها مخططاً، ووصف جميع ما فيها من آثار وصفاً مفصلاً وقال: إنني أشعر بأن الوصف السابق لعمّان مع أنه يعطي تقريراً موجزاً عن جميع الخرائب الرئيسية، لا يزال ناقصاً جداً. والرحالة الذي لا تصحبه قوة مسلحة لا يستطيع أبداً أن يعطي بيانات مرضية تماماً عن الآثار القديمة في هذه البلاد المهجورة.

لقد لاحظ أدلائي بعضاً من روث الخيل الطري قرب جانب الماء، الأمر الذي أرعبهم كثيراً لأنه يدل على أن بعض البدو كانوا يحومون حول المكان، وقد ألحوا عليّ بالعودة حالاً. ولما رفضوا انتظاري فترة وجيزة فقد مضوا راكبين بينما كنت لا أزال منهمكاً في كتابة بضع ملاحظات عن المدرج . أما أنا فقد صعدت تل القلعة بسرعة وقمت بزيارة خاطفة لخرائبها ثم جريت بفرسي عدواً ولحقت بهم على بعد نصف ساعة من البلدة . وحينما أنَّبتهم لجبنهم أجابوني إنني حتماً لا أستطيع أن أتصور أنهم يعرّضون أنفسهم لخطر السلب أو فقدان خيلهم مقابل الاثني عشر قرشاً التي اتفقت على إعطائها لهم، وذلك بسبب نزوة مضحكة تدفعني لتدوين معلومات عن الحجارة . وكثيراً ما كنت اضطر أن استسلم لمثل هذا النوع من التفكير . إلا أن البدوي الأصيل لا يتخلى عن صاحبه بهذه الصورة، ولهذا فإن كل من يرغب في التجوّل في هذه النواحي واستخلاص ملاحظات دقيقة يُحسن صُنعاً إذا أخذ معه عدداً من الفرسان يكفي لتأمينه من خطر أي فريق جوّاب من اللصوص .

ثم زار **مادبا** وتكلّم عنها كلاماً مفصلاً هي ومنطقتها، وقلعة **الزرقاء**، وجميع الخرائب التي في هذه المنطقة . وكلها خالٍ من السكان كما تقدّم .

وقال: إن أفضلية مراعي البلقاء على مراعي سوريا الجنوبية بأجمعها هي السبب في التنازع على التصرف بها . وعند البدو مثل يقول : "مثل البلقا ما تلقى" . ولذا فإن لحوم البقر والضان في هذه المنطقة تفضل لحوم جميع المناطق الأخرى .

ثم زار **الكرك والطفيلة والشوبك ووادي موسى**، ووصف كل ما مرَّ عليه وصفاً رائعاً دقيقاً، ولا سيما الكرك حيث مكث فيها مدة، و**البتراء** وعمل لها مخططاً وتكلم عليها بتفصيل. وكذلك زار **معان والعقبة**، ومنها ذهب إلى مصر، ولكنه عانى متاعب ومصاعب لا يقوى عليها رجل غيره .

والحقيقة أنه يُقدر غاية التقدير على اجتياز هذه الأماكن ونفوذه منها . ولنستمع إليه كيف يصف سلوكه تجاه البدو : "أما بالنسبة لسلوكي تجاه البدو فقد حاولت دائماً وبكل وسيلة ممكنة أن تكون علاقاتي حسنة مع رفاقي، مهما كان مركزهم، وقلما فشلت في محاولتي هذه . وقد وجدت بالتجربة أن اصطناع وجه رزين، والتحدث بحكمة بينهم،

لا يحسب لهما أي حساب عندهم في ترويج وجهة نظر الرحالة . وعلى العكس من ذلك فقد كنت أطمع في أن التقي بالزميل المرح، ولهذا فقد كنت أمزح معهم كلما وجدت لذلك سبيلا . وتبينت انه بتوجيه اهتمام قليل لطرف تفكيرهم ومجادلاتهم يمكن أن تدب فيهم روح الدعابة بسهولة . ومع ذلك فإن هذا النوع من السلوك يجب أن يراعى فقط في الأماكن التي ينوي المرء أن يمكث فيها بضعة أيام أو نحو زملائه المسافرين معه، أما في حالة المرور خلال مخيمات البدو بسرعة، فمن الأفضل للرحالة أو المسافر أن لا يكون ثرثاراً وخاصة في المضارب التي ينزل فيها ، بل عليه أن يصطنع محياً عابساً متجهماً".

فهو في كلامه هنا يظهر الرجل المحنك المتزن العارف بالأمور الدارس لأخلاق الناس، ولهذا فقد اجتاز كل ما مرّ به من مصاعب ومتاعب .

وقد زار بلادنا كثير من الرحالة الأجانب، ولكن لم يزرها أحد مثل بيركهارت، ويجوز أن يكون آخر من زارها وهي خاوية، لأن الحياة بدأت تدب فيها من جديد في أواخر القرن التاسع عشر كما سيأتي .

بدء الحياة من جديد في عمّان

مجيء الشراكسة

بقيت عمّان ما شاء لها الله أن تبقى خالية من السكان، ينزلها البدو في أيام الربيع والصيف ويوردون مواشيهم وإبلهم على عين الماء التي تنبع في واديها، إلى أواخر القرن التاسع عشر حيث جاءها جماعة من الشركس مهاجرين من بلادهم في ققفاسيا؛ إذ أجبرهم الروس على ذلك بعد حروب طويلة دامت بينهم.

يقول المؤرخ الروسي بيرجي: "إن إخراج الشراكسة من ققفاسيا تبرير إداري وحربي يعتبر ابتداؤه من تصديق قرار لجنة ققفاسيا في اليوم العاشر من آذار سنة ١٨١٢م، ولتنفيذ هذا القرار حشرت الجيوش الروسية قبائل الناتوخاي والقبرطاي وعشائر الأبزاخ والشابسوغ والأُبخ في السواحل ثم حملتهم على البواخر الذاهبة إلى تركيا جبراً".

وهذا منطق القوة؛ فإن الشركس دافعوا عن بلادهم دفاع الأبطال وجاهدوا جهاداً طويلاً، ولم يتوانوا في القتال، ولكن الروس كانوا أكثر منهم وأقوى فغلبوهم وطردوهم من بلادهم قهراً وظلماً وعدواناً، واستولوا على بلادهم في ققفاسيا الشرقية والغربية على البحر الأسود وبحر قزوين .

نزل هؤلاء اللاجئون من الشراكسة في الروملي، ومكثوا فيها الى سنة ١٨٧٧م حيث توغل الروس في الأراضي التركية فأرغموهم على الهجرة مرة ثانية فهاجروا إلى بلاد الشام وتفرقوا في سورية والأردن وفلسطين. وكان الشابسوغ أول من هاجر من تركيا على ظهر إحدى البواخر، ولما صارت الباخرة في عرض البحر اندلعت فيها النيران فاحترق نحو سبعمائة نفس منهم، ومن نجا منهم نزل في مدينة عكا. ثم حُملوا إلى نابلس حيث مكثوا قرابة عام، ومنها جاءوا إلى عمّان حيث أعطتهم الدولة العثمانية بعض الأراضي يفلحونها ويعيشون فيها.

فيكون حلولهم في عمّان نحو سنة ١٨٧٨م، فاستوطنوا عمّان، ووجدوها مكاناً جميلاً، ذات مياه عذبة، ومناخ طيب، وأرض عذيّة، وتربة صالحة للزراعة، فشرعوا يبنون الأكواخ أولاً، وبعضهم نزل في مدرج عمان الروماني، والبعض بنى بيوتاً بسيطة، وأعجبتهم جداً، وشرعوا في فلاحة الأرض واستثمارها.

وفي عام ١٨٨٠م هاجر إلى الأردن جماعات من قبيلتي القبرطاي والبزادوغ، فنزل القبرطاي في عمّان، واستوطن البزادوغ قرية وادي السير على بعد ١٢ كيلو متراً إلى الغرب من عمّان، والتي قد اتصلت بعمّان الآن وأصبح البناء متواصلاً على طول الطريق.

وفي عام ١٨٩٢م قدم جماعات أخرى من القبرطاي إلى عمّان ونزلوا في سفح الجبل المطل على رأس العين، وسمي ذلك الحي بحي المهاجرين، وهو السفح الشرقي من جبل عمّان.

وفي عام ١٩٠١م وفد إلى الأردن عائلات أخرى من القبرطاي والبزادوغ فنزلوا في قرية ناعور التي كانت خربة لا سكان فيها، وهي على بعد ١٥ كيلو متراً من عمّان . وكان آخر من قدم من الشراكسة إلى الأردن في عام ١٩٠٩م بضع عائلات من القبرطاي فاستوطنوا قرية الرصيفة شمالي عمّان.

الشيشان

في عام ١٩٠٥م جاء مهاجرون آخرون من قفقاسيا ولكنهم يختلفون عن الشركس في لغتهم ومذهبهم، فإنهم مسلمون سنيون أيضاً، ولكن مذهبهم على مذهب الإمام الشافعي، بينما الشراكسة على مذهب الإمام أبي حنيفة، ولغتهم تختلف اختلافاً تاماً عن لغة الشركس.

هاجر هؤلاء القوم من الأناضول إلى الأردن وسكنوا في الزرقاء وصويلح، والسخنة على مقربة من الزرقاء. وكان لهم زعيم ديني كبير اسمه الشيخ عبدالله يقدّسونه غاية التقديس، ولما توفي دفن في مقبرة الزرقاء، وقد أدركت زوجته وأولاده، ورأيت كبار الشيشان يزورون قبره جماعات ويتلون عنده الأدعية وآيات القرآن الكريم.

وهم متمسكون بدينهم على غاية من الاستقامة والتدين والورع. وعلى وجه الإجمال التربية عند الشركس والشيشان ممتازة، الصغار يوقّرون الكبار ويجلّونهم، ويكونون في حضرتهم في غاية الأدب، ولهم عادات طيبة يتبعونها مع آبائهم وكبرائهم .

والبنت لها الحرية التامة في استقبال الشباب في بيت والدها إلى أن تتزوج، فإذا ما تزوجت انصرفت إلى خدمة زوجها وبيتها، وتكون زوجة مخلصة مثالية، والطلاق عندهم نادر جداً، وغالباً ما يُفرد غرفة للبنت وتجلس فيها تعزف الموسيقى، والآلة المحببة عندهم الأوكورديون، وتظل تعزف منفردة أو إلى من يزورها من الشباب، ووالدها وإخوانها لا يعترضون على ذلك. وكان عندهم عادة في الزواج أن الشاب عندما تعجبه فتاة وتوافق هي على الزواج منه يتفق معها على موعد في ليلة من الليالي ويخطفها ويضعها عند أحد وجوههم أو المختار، وبعد ذلك تجري المفاوضة على المهر بعد أن يوافق والدها . وبقيت هذه العادة مدة بعد مجيء الملك عبدالله ومن ثم أصدر أمراً بإلغائها لأنها كانت تسبب بعض المشاكل أحياناً.

وإذا كانت العروس من بلدة أخرى؛ فيذهب وفد من الرجال والنساء في اليوم المعين ليحضروا العروس، وتأتي في موكب حافل في عربة تجرها الخيل، والشباب أمامها يتسابقون على ظهور الخيل، والشركس خيالة مهرة في ركوب الخيل وفرسان ممتازون. ويصنعون علماً مزركشاً وفيه كثير من الزخرفة، ويحمله أحدهم ويجري فيه ويلحقه الباقون ويأخذون في المسابقة والذي يسبق يأخذ ذلك العلم ويحتفظ به.

وعند مدخل البلد الذي فيه العريس يقف عدد من الشبان الأشداء ويضعون حواجز لمنع الخيل من المضي في طريقها إلى البلد، ويمسكون بعصي طويلة يضربون فيها الفرسان، فالذي يستطيع أن يقفز بفرسه من على هذه الحواجز يكون قد نجا بجلده، والويل لمن يحرن حصانه أو لا يستطيع القفز فإنه يناله من الضرب بهذه العصي ما يمزق جلده هو وحصانه.

وتبدأ الحفلات في بيت العريس مدة سبعة أيام، ويسمونها بلغتهم "فنطزية"، ويرقصون رقصاً جميلاً رجالاً ونساءً على نغمات الأكورديون، والباقي يصفقون تصفيقاً متواصلاً طوال الليل. ومن عادة الآباء أنهم يأخذون مهر ابنتهم كاملاً ولا يعطونها شيئاً، ويأخذ العريس زوجته إلى بيته وتنتهي الاحتفالات.

وقد قلّت هذه الاحتفالات الآن، وانتهى ركوب الخيل بعد مجيء السيارات. وقد تزوج كثير من شباب العرب من بنات الشركس واختلطوا اختلاطاً كبيراً، حتى أن معظم الشباب اليوم لا يجيدون لغتهم، ويتكلمون اللغة العربية ويقرأون ويكتبون فيها . وكذلك تزوج بعض الشباب الشركس من الفتيات العربيات.

والشركس والشيشان مزارعون من الطراز الأول، وبيوتهم نظيفة جداً، فإنك إذا دخلت بيت أي مزارع شركسي في أية قرية تلمس النظافة والاتقان والترتيب في البيت على بساطته.

وعندما سكنوا في عمّان ووادي السير وغيرها من القرى وبدأوا يفلحون الأرض، جعل البدو يعتدون عليهم، ويحاولون أن يرعوا الزرع أو يأخذوا بعض المحاصيل، وكانت تقوم بينهم المشاكل، وغالباً ما يُقتل من الطرفين بعض القتلى ولا سيما أيام الحصاد، وقد أدركت هذا، ومن ثم يقوم العقلاء من الطرفين ويحاولون تسوية الأمور بينهم.

وقد صمدوا للبدو صموداً عجيباً وأوقفوهم عند حدهم. وقد انتهت هذه المشاكل عندما تأسست الدولة العربية، وحلّ الأمن، وأصبح كل إنسان يعرف حدّه. وحتى البدو فإن قسماً كبيراً منهم أصبح يمارس الزراعة وصاروا يعرفون قيمة الأرض، وفائدة الزراعة، وتحضّر قسم منهم وسكن المدن ...

لا يعرف الشركسي العمل في التجارة مطلقاً، ونادراً ما تلقى تاجراً منهم، ويعملون في الصناعات التي تمس الزراعة من تصليح المحاريث، أو الحدادة لعمل ما يلزمهم في دورهم وآلاتهم الزراعية، وغير ذلك، فانهم مزارعون أو أصحاب أملاك يؤجرونها، وبعضهم أصبح غنياً من بيع الأراضي عندما ارتفع سعرها. وكذلك الشيشان، ويعملون في الجيش، والوظائف الحكومية.

التركمان

التركمان شعب تركي يقطن آسيا الوسطى. ذكره المقدسي في مؤلّفه أحسن التقاسيم(١). احتفظوا بوثنيتهم مدة، ثم كان لهجراتهم نحو الغرب أثر في لغتهم

---

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٤٠ – ٢٥٨.

وخلقتهم. ولم يتمكنوا من إقامة دولة خاصة بهم، وتفرقوا في إيران وخوارزم وبخارى وأفغانستان، وأصبحوا مسلمين.

ويوجد في ضمن جمهوريات روسية الآن جمهورية تركمانستان السوفيتية الاشتراكية التأسيسية (مساحتها ٤٨٦٢٠٠ كم٢. وسكانها حوالي ١،٥٠٠،٠٠٠ نسمة) في وسط آسيا. تمتد حدودها الجنوبية الى أفغانستان وإيران وبحر قزوين. عاصمتها: اشخباد. وتمثل صحراء كاراكورم ٩٠٪ من مساحتها، حيث تُرعى الإبل وأغنام كراكول. وتُنتج الواحات وأودية امودرايا ومرجب، القطن والحرير والنبيذ والفاكهة. ويوجد مصايد أسماك في بحر قزوين، وثروة معدنية تشمل البترول والايودين والبروين والأوزوكريت والأملاح.

والتركمان كما قدمت شعب مسلم يتكلم التركية. كان القسم المسكون من تركمانستان يكوِّن جزءاً من مقاطعة مارجيانا الفارسية القديمة. دخل تحت النفوذ العربي في القرنين الثامن والتاسع، ثم آل لخوارزم ثم المغول (القرن ١٣) فالأوزبك (القرن ١٥) ثم خانات خيوة (حوالي ١٨٠٠) ثم غزته روسيا (١٨٦٩ – ١٨٩٥م).

على إثر هذا الغزو تفرق كثير من التركمان في البلاد ويعيش قسم كبير منهم في إيران وأفغانستان.

هاجر قسم ضئيل منهم إلى سوريا سنة ١٨٧٠م فنزل بعضهم في أنطاكيا، والبعض الآخر في حمص ودمشق والقنيطرة، ثم هاجروا إلى حيفا . وفي عام ١٨٧٤م جاء قسم منهم الأردن فنزلوا في قرية أم الرمان على طريق جرش القديمة من أرض البلقاء، ثم عاد قسم منهم إلى تركيا، وبقي عدد من العائلات في أم الرمان.

وقطن بعض منهم في اللجون شمالي الكرك، ولكنهم تركوها بعدما أبادت الملاريا عدداً كبيراً منهم. وبعضهم سكن في الحمَّر قرب صويلح. والموجودون في الأردن الآن اصبحوا عرباً وذابوا بين السكان.

البهائيون

البهائيون نسبة إلى مرزا حسين علي الملقب بهاء الله (١٨١٧ – ١٨٩٢م) ، والذي تولى من بعده ابنه عبد البهاء بهائي (١٨٤١ – ١٩٢١م) واسمه عباس أفندي.

والبهائية مذهب ديني أسسه بهاء الله المتقدم ذكره على إثر مذهب البابية، نسبة إلى الباب: وهو ميرزا علي محمد الشيرازي الذي أعلن أنه نبي، وسمى نفسه باب الدين ١٨٤٣م. وأحدثت تعاليمه ضجة كبيرة أدت إلى سجنه، فقد ادّعى أنه خليفة موسى وعيسى ومحمد، وأنه نقطة التقاء الأديان السابقة، وأن الأديان الثلاثة صادقة تتمشى مع تقدم الإنسان، وإن عُرضت فيها الحقائق على صور مختلفة تتلاءم مع استعدادات الناس. وقد كان ميرزا علي مسلماً ثم أحدث هذا المذهب وأعفى تابعيه من جميع تكاليف الدين الإسلامي، وعمل كتاباً مستغلاً فيه كثير من القرآن، ومن تعاليم الديانات الأخرى، واستمد كثيراً من تعاليم الصوفية، والقنوصية، والشيعة.

وعندما تولى الشاه الجديد الحكم سنة ١٨٤٨م، ثار أتباع الباب، فأُخمدت ثورتهم، وقُتل منهم كثيرون، وأُعدم الباب في تبريز سنة ١٨٥٠م . واشتد القمع بعد سنتين على إثر محاولة اغتيال الشاه، وانتقل البابيون ١٨٥٣م إلى استانبول، ثم إلى أدرنه وقبرص. وفي سنة ١٨٦٨م كان لقسم من البابيين مركز في عكا، تحت زعامة بهاء الدين منشئ البهائية التي حلت محل البابية.

وخلاصة مذهب البهائية أن الله يعرِّف نفسه للإنسان بوساطة الأنبياء الذين يظهرون على مر الأجيال، مثل إبراهيم، موسى، داود، عيسى، محمد، والباب، وبهاء الله.

يعتقد البهائيون بوحدة الأديان، وبضرب من التربية العالمية، والسلام في الأرض، وبالمساواة بين الرجل والمرأة، وينشدون لغة عالمية، ويؤكدون على بساطة المعيشة، ومعونة المنكوبين من إخوانهم في الإنسانية. انتشر المذهب في القرن العشرين، ولكن هذه التعاليم هي نظرية، فإني لم أجد أحداً من البهائية في الأردن فقيراً أو يعيش حياة بسيطة، فإن أغلبهم يعمل في صياغة الذهب، والتجارة والزراعة، وعلى غاية من الثراء والانكماش على أنفسهم.

وعباس أفندي الذي يلقب "عبد البهاء" وتولى السلطة الروحية بعد والده وتولى زعامة البهائية، أنعم عليه بلقب سير فارس من جانب الإنجليز سنة ١٩٢٠م لتقديمه لهم خدماته في الحرب العالمية الأولى.

في عام ١٨٧٩م اشترى السيد عبد البهاء عباس أفندي قطعة من الأرض في قرية العدسية في غور الأردن الشمالي، على مقربة من الحمة. وفي عام ١٩١٠م قَدِمَ عدد من الأسر البهائية من إيران وعمروا تلك الأرض، وفلحوها، وأصبحت مزرعة نموذجية. وبعد وفاة عبد البهاء عباس عام ١٩٢١م آلت تلك المزرعة إلى ابنته.

وأصبحت هذه المنطقة من العدسية جنة يافعة فيها من كل فاكهة زوجان، وأُقيمت في مدخلها بناية ضخمة، في الطابق الأرضي منها مدرسة لأولاد المزارعين، وفي الطابق العلوي قاعة كبيرة تُعقد فيها الاجتماعات العامة، ويُستقبل فيها الضيوف، وبعض الغرف للنوم والاستراحة.

وهي مقسّمة إلى قطع لكل فلاح قطعة خاصة به يزرعها، فيها فيلا مفروشة بأحدث أنواع الأثاث، وتلفون وراديو، وجميع وسائل الراحة الحديثة. ولهم مختار يتولى شئونهم، وينظم لهم تسويق إنتاجهم، ويعيشون فيها بأرغد حال. وأهم ما تنتجه هذه المزارع: البرتقال والليمون وجميع أنواع الحمضيات، والموز والرمان، وغيرها من الثمار، وجميع أنواع الخضار. وعندهم مدرسة لأولادهم.

ودخلهم منها جيد جيداً، فقد زرتها عدة مرات لتفتيش المدرسة، وأحياناً كان يأتينا ضيوف من العالم العربي فكنت آخذهم إلى ذلك المكان فكانوا يعجبون من جمال هذه المزرعة وحُسن تنسيقها، وما فيها من خيرات.

وكانوا يستقبلون الضيف بكرم، ويقومون بأحس ضيافة، ويحضرون مختلف أنواع الأطعمة، والفواكه الموجودة، ويقدمون أفخر أنواع الشاي، ولم أذق بحياتي ألذ من الشاي الذي يصنعونه، وكذلك عندهم رمان لم أر أجود منه.

وقد سألت مرة أحدهم وأنا في مزرعته، وكانت مساحتها ٧٥ دونماً، كم تدرّ عليه في السنة، فقال أربعة آلاف دينار أردني.

وأما الآن فلا أدري ما هي حالة تلك المزرعة والمزارعين، فقد أصبحت على خط النار بين اليهود والعرب، والحرب دائرة في تلك المنطقة، وأظن أن كثيراً من أولئك المزارعين قد تركوا أرضهم وغادروا البلاد، فإن اليهود بعد حزيران ١٩٦٧م ركّزوا

نقمتهم على منطقة الغور، يقصفونها بالمدافع ومختلف الأسلحة قصداً منهم في تهديم الاقتصاد الأردني، وإجبار المزارعين على ترك أراضيهم، وقد هُجر كثير من المزارع، وتلف محصولها، ومات الشجر، والناس خوفاً على أرواحهم لا يستطيعون أن يغامروا بأرواحهم، وذلك من كيد اليهود ومكرهم، ولا يحيق المكر السيء إلاَّ بأهله، وإنَّا للفرج منتظرون، مهما طالت الحرب. ومهما مكر اليهود وتجبروا فإن مصيرهم الزوال والنصر لنا بإذن الله، وما النصر إلاَّ من عند الله.

خلاصة موجزة

سكن البشر عمّان منذ العصر الحجري واستمرت الحياة فيها حتى سكنها العمونيون وأطلقوا عليها اسم "ربة عمون".

ثم خضع العمونيون للكلدان والفرس، إلى أن فتحها الاسكندر المكدوني وأسكن فيها جالية يونانية، واستُعمرت هذه المنطقة جميعها وأُسس فيها ما يعرف بـ "الديكابولس" وازدهرت ازدهاراً عجيباً، ثم كانت من نصيب بطالسة مصر، وأشهرهم بطليموس فيلادلفيوس (٢٨٥-٢٤٧ ق.م) الذي بنى فيها هيكل الزهرة لعبادة الشمس باسم الإله "زفس"، ولذلك أطلق عليها اسمه فعرفت باسم فيلادلفيا.

وفي سنة ٦٥ ق.م امتد حكم الأنباط العرب إلى البادية السورية بما فيها فيلادلفيا "عمّان"، ثم احتلها الفاتح الروماني بومبي فاحترمها وأبقى لها امتيازاتها . وفي سنة ٣٠ ق.م نزعها هيرودس من الأنباط وجعلها من أملاك الامبراطورية الرومانية، ثم دخلتها المسيحية وأصبحت مركزاً "لأبرشية فيلادلفيا". وبقيت في أيدي البيزنطيين حتى احتلها الفرس سنة ٦١٤م وأقاموا على الهيكل الروماني الذي أُنشئ فوق المعبد العموني على جبل القلعة، القصر الساساني المعروف بإيوان كسرى الذي حوّله العرب فيما بعد الى قصر أموي لا يزال موجوداً إلى يومنا هذا.

ولما سكنها العرب الغساسنة فإنهم غيروا اسم فيلادلفيا إلى الاسم القديم وعرفوها باسم عمّان.

فتحها العرب في خلافة عمر بن الخطاب، وكانت مزدهرة في العصرين الأموي والعباسي، وبقيت تذكر في التاريخ وترد على ألسنة الرحالة والمؤرخين إلى القرن السابع الهجري، حيث ذكرها ياقوت في **معجم البلدان**(١). ثم لم تعد تذكر بعد ذلك إلاّ عرضاً، وهُجرت وبقيت ما شاء الله لها أن تبقى مهجورة إلى سنة ١٨٧٨م، حيث استقرت بها بضع عائلات من الشركس.

---

(١) معجم البلدان، ياقوت الحموي، ١٥١/٤ (ط. دار إحياء التراث، بيروت).

آثار عمّان(٢)

في عمّان آثار عديدة أهمها: القلعة الواقعة على هضبة مستوية تحيط بها الأودية من جميع جوانبها، وهي تشبه (قلعة) الكرك، طولها ٩٠٠ متر وعرضها ٤٠٠ متر، وترتفع عن مركز المدينة بـ (١٣٣) متراً ، محاطة بسور على أسس يونانية ورومانية بأبراج يرتفع كل منها نحو عشرة أمتار، ولا يزال أحدها قائماً في الناحية الجنوبية وقد زُينت حجارته بما نُقش عليها من الزهور، ويوجد من الجهة الجنوبية من القلعة أعمدة ضخمة مُلقاة على الأرض من جراء الزلازل التي اجتاحت المنطقة على مدى العصور، وهي أثر هيكل هرقل، هذا بالإضافة إلى وجود قصر من العصر الأموي، وقد تم مجدداً إنشاء متحف ضمن ساحات القلعة يحتوي على ما يهم المهتمين بالآثار القديمة من مختلف العصور التي مرت بعمّان.

الأثر الثاني المهم هو: المدرج الروماني الذي يعتبر من أكبر المسارح الموجودة في المنطقة، ويرجع تاريخ بنائه إلى زمن الامبراطور تراجان في أول القرن الثاني الميلادي، وقد نُحت في الجبل، واختير له مكان مناسب، وبُنيت مقاعده بشكل يقي المتفرجين من أشعة الشمس شطراً طويلاً من النهار. كما أُخِذ لتوزيع الصوت اعتبارات فنية ما بين الساحة السفلى ودراسات الأوضاع الطبيعية والدرجات العليا.

وفي أعلاه مقصورة خاصة لجلوس الحاكم أو الشخصية المرموقة في ذلك الزمن، وله فتحات ومداخل ومخارج فنية متقنة غاية الإتقان. ويتسع هذا المدرج لأكثر من عشرة آلاف متفرج.

وقد كنا نلعب عنده ونحن صغار ويسميه العوام "درج فرعون" كعادتهم بنسبة كل أثر قديم إلى فرعون.

وفي أول تشكيل الإمـارة كان الملك عبدالله – رحمه الله – يقيم الاحتفالات فيه، وكم شهدنا من الخطباء والشعراء والمتكلمين يلقون خطبهم وأشعارهم فيه، ولا أنسى

---

(٢) يُنظر كتاب: جولة بين الآثار، للشيخ حمزة العربي (١٣١٥ – ١٣٨٢هـ/ ١٨٩٣ – ١٩٦٢م)، تحقيق: الدكتور تركي أحمد المغيض، مطبوعات اللجنة العليا لإعلان عمّان عاصمة للثقافة العربية، ودار الكندي، إربد، ٢٠٠٢، ٢/ ١٤٦ – ١٧٩.

المرحوم الشيخ سعيد الكرمي(٣) قاضي القضاة وهو بطوله الفارع، ولحيته البيضاء، يلقي شِعره من على ذلك المدرج ...

وهناك آثار كنيسة على سيل عمّان، وكان تحتها مدخل مبني عليه قنطرة ممتازة ينفذ منها الداخل إلى سيل عمّان. وكان على سيل عمّان قنطرة لعبور الناس عليها، لأن أيام الشتاء كان يفيض النهر فلا يستطيع أي إنسان المرور إلاّ من على القنطرة.

وبجانب جبل القلعة إلى الغرب جبل الطهطور الذي أصبح الآن يسمى جبل الحسين. والطهطور حجارة تنصب على قبر الميت. كلمة دارجة أو انها جاءتنا من لغة أخرى، ويُقال أن أوريا الحثي قُتل هناك، ولذلك يقال لذلك المكان طهطور أوريا الحثي.

وكان على سيل عمان عدة طواحين قديمة تدور على الماء، لطحن القمح والحبوب أدركنا اثنتين منها ...

جغرافية عمّان

تقع مدينة عمّان على خط طول ٣٢ درجة شمالاً وخط عرض ٣٧ درجة شرقاً. وتشكل ضمن مساحتها التنظيمية مجموعة من الجبال والسهول والأودية مساحتها ١٠٠ كيلو متر مربع، تتفاوت ارتفاعاتها عن مستوى سطح البحر ما بين ٧٠٠ متر إلى ١٠٠٠ متر.

وهذه الطبيعة الطبوغرافية أعطتها صفة مميزة لوضعها المناخي وذلك بتفاوت درجات الحرارة وكمية الأمطار التي تهطل بين مناطقها المختلفة وطبيعة ونوعية الرياح وتشكيلاتها، بالإضافة إلى تكوين جيوب ثلجية، ومواقع قابلة للانجراف مما يؤثر بشكل عام على نوعية الموقع وقابليته للإعمار.

وإن مناخ عمّان بشكل عام جزء من مناخ حوض البحر الأبيض المتوسط تنطبق عليه صفة الاعتدال صيفاً باستثناء الموجات غير العادية التي تهب من مختلف الاتجاهات فتؤثر تأثيراً ملموساً على طبيعة المناخ.

---

(٣) ألّف عبد الكريم الكرمي كتاباً سمّاه: الشيخ سعيد الكرمي: سيرته العلمية والسياسية – منتخبات من آثاره، ونشره في المطبعة التعاونية بدمشق سنة ١٩٧٣.

وفي فصل الشتاء تتراوح درجات الحرارة ما بين درجة مئوية واحدة إلى ١٥مْ وفي الصيف ما بين ٢٧مْ – ٣٢مْ.

تربة المدينة زراعية حمراء وخاصة الواقعة في الجزء الغربي منها والتي تشمل جبل الحسين، وجبل عمّان الجديد، واللويبدة، وامتداداتها، وعلى أعماق متفاوتة توجد طبقة الصخور المختلفة الصلابة، والتي قد تغيب في مواقع محددة . أما الجزء الشرقي منها فتكاد تكون التربة رملية صلبة وصخرية منحدرة.

- ٨ -

توارد الناس على عمّان

بعد أن عمَّر الشركس عمّان، وأصبحت قرية مأهولة أخذ التجار والصنّاع يتواردون عليها من البلدان المجاورة، من السلط، ونابلس، ودمشق، والحجاز، وغيرها، وبدأت الحياة تدب في عمّان وتأخذ شكل القرية، ولكنها بطيئة جداً.

وكان من جملة التجار الذين استهوتهم هذه القرية الجميلة واجتذبتهم جدّي المرحوم الحاج إبراهيم بن عبدالله بن إبراهيم بن عبدالله القطّان. ولا أذكر التاريخ الحقيقي لموعد حلوله فيها، ولكن ما سمعته من والدي وأعمامي أنه جاء إلى عمّان إثر مجيء الشركس، وبعد أن عمروا عمّان بسنوات قليلة.

كان جدّي – رحمه الله – تاجراً يتجول في البلدان العربية فيخرج من دمشق التي هي مسقط رأسه ومنبته وبلد أجداده وأجداد أجداده والتي يسكنها أهله وعشيرته الذين جاؤا من الحجاز مع الفاتحين الأول واستوطنوا دمشق. وتشهد على ذلك دارهم التي هي تحت القصر في قبر عاتكة المعروفة في كتب التاريخ بـ "أرض عاتكة"، وعاتكة هذه هي عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي العظيم(١). فهذه الدار التي لا تزال إلى الآن يسكنها أبناء عمنا والتي هي وقف تشهد بأن أجدادنا يسكنون دمشق منذ الفتح الإسلامي الأول، لم يتحولوا عنها، وكذلك لهم غيرها أماكن عديدة وقفت على الذرية منذ سنين طويلة.

فكان الحاج إبراهيم تاجراً متجولاً في البلدان العربية يجوب البلاد من دمشق إلى بغداد، إلى نجد، إلى الحجاز، يسعى في طلب الرزق ليعيل زوجته وأولاده ووالديه وإخوته الصغار، فقد كان مسئولاً عن أسرة كبيرة، حيث إنه أكبر إخوانه وقد شاخ والداه وعجز أبوه عن العمل، فكان يسافر ويبعد في السفر ليكسب أكبر قدر ممكن ليعيل هذه الأسرة الضخمة.

---

(١) أنظر: رسائل ابن حزم الأندلسي، ٢/ ٦٦، ٦٨، ١٢٠، ١٤٤ (تحقيق: الدكتور إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨١).

وفي إحدى رحلاته وأسفاره ساقته الأقدار لأن يجتاز بعمّان فتروق له، وأعجبته جداً، فحط فيها أياماً يختبرها، فأعجب به كبار القوم من الشركس، فصمم على أن يجعلها مقر عمله، فذهب إلى دمشق وابتاع ما استطاع من البضائع وحملها وعاد إلى عمّان ففتح فيها متجراً. وعندما انتهى العام وجد أن مرابحه كانت جيدة واستراح من تعب السفر وعناء التنقل في الصحارى والقفار، ولم تكن وسائل النقل في تلك الأيام مريحة، ولم يكن الأمن متوفراً في غالب البلاد، فجمع ما ربحه وذهب إلى دمشق ليقضي وقتاً طيباً مع عائلته وبين والديه وذويه وأصحابه وخلانه.

وبعدما استراح قليلاً بين أُسرته جمع ما يحتاج (إليه) من البضائع والأمتعة التي يتاجر بها وكانت كلها من الأقمشة والملابس، وبعض المأكولات التي يحتاجها البدو في تلك المنطقة، وجعل يزاول عمله. وعمّان قرية صغيرة عدد سكانها في ذلك الوقت لا يتجاوز بضع مئات، وفيها شارع واحد إذا تجاوزنا وسميناه شارعاً، وكان متجره قرب المسجد، فكان يصلي الصلوات الخمس في المسجد، وكان كبار الشركس يجتمعون في المسجد أيضاً، فحصلت بينه وبينهم ألفة، ثم زادت العلاقة بينه وبينهم فأصبح المرجع لحل مشاكلهم ولا سيما ما كان يقع بينهم وبين البدو أحياناً من خصومة ودماء، فكان يسارع إلى حل المشاكل، واشتهر في ذلك عند الشركس والبدو وأجمع الجميع على حبه وإجلاله . وكان كريماً جداً ينفق على الضيافة والمحتاجين بدون حساب.

فلما رأى أن أموره استقرت، وعمله أصبح ناجحاً، قرر أن يأتي بأسرته من دمشق، واستأجر منزلاً بجوار الشركس، وأحضر عائلته المكوّنة من زوجته وأبنائه الأربعة : ياسين والدي، وعبد الكريم، وحمدي وجودت، وابنتيه مكية وزاهية. وترك والديه وأخواته في دمشق وخصص لهم نفقة تكفيهم، ورافقه أخوه الأصغر منه وهو خالد. واستقر نهائياً في عمّان، وأخذ يزاول أعماله، وعقد صداقات طيبة مع كبار مشائخ السلط، فقد كانت السلط مركز الحاكم وفيها القائمقام، وعمّان تابعة لها، وكانت داره مثل المضافة لا تخلو من وليمة أو عدد من الضيوف، فلم يكن في عمّان فنادق وكل من يمر فيها يتحتم عليه أن ينزل عند أحد التجار، وبما أن عمّان قرية حديثة فلم تكن فيها مضافات كما هو الجاري في بقية البلدان والقرى في الأردن في ذلك الزمان، ومجتمعها خليط من الوافدين ليس بينهم تلك الروابط الموجودة في القرى الأخرى.

لم يكن نفوذ الحكومة في عمّان وما جاورها سارياً، والبدو كان لهم السيطرة والحكم، ولم يكن لهم قانون يردعهم، ولا حاكم يرهبهم، فكان منطق القوة، وشريعة الغاب هي النّافذة . والشركس أهل زراعة ومواش، فكان يكثر تعدّي البدو عليهم ولاسيما أيام الحصاد، ووقت زراعة الخُضر الصيفية، وكان يحدث بعض الجرائم، فكان جدي يتدخل في الموضوع وغالباً ما يحله على وجه مُرضٍ للطرفين، فكان موضع احترام الجميع، وصارت الأمور على ذلك مدة من الزمن . وقد حدث مرة أن خطف أحد البدو طفلين ذكراً وأنثى، وقامت قيامة الشركس وبدأوا يستعدون لمعركة كبيرة، وجاء بعض كبارهم وأخبر جدي في الحادث، فطمأنهم بأنه سيحضر الطفلين، وركب فرسه، وذهب إلى مضارب البدو وأحضر الطفلين سليمين وسلمهما إلى أهلهما وكانت فرحة كبرى، وحسم الخلاف، ومن عجائب الصدف أن هذين الطفلين عندما كبرا تزوج الفتى الفتاة، وكانا زوجين سعيدين.

وكان من عادة التجار أن يتخذ كل تاجر أحد وجهاء البدو يكون له صديقاً وحامياً له من تعديات البدو، وطبعاً فإن التاجر يكرمه ويقدم له بعض الهدايا من الألبسة والطعام . وهذا البدوي مكلف بحمايته، وبتحصيل ديونه من البدو، وتأمين مطالبه . وذلك لضعف نفوذ الدولة في تلك الأيام، فقد كان في عمّان مدير ناحية وشاويش وبعض الجنود، لا يستطيعون أن يحموا أنفسهم عند اللزوم.

كانت البلاد في حالة فوضى بعد انسحاب إبراهيم باشا من البلاد الشامية في سنة ١٨٤١م، وأصبحت البلاد بدون حكومة، وبقيت هذه الفوضى إلى سنة ١٨٥١م حيث شرعت الحكومة التركية في تنظيم إدارة جديدة في تلك المنطقة، فعملت عجلون سنجقاً تابعاً لمتصرفية نابلس، وعينت له قائمقاماً . وكان هذا السنجق يشمل نواحي الكورة وبني جهمة والسرو والوسطية وبني عبيد في الشمال، وكانت حدوده في الجنوب تمتد إلى نهر الزرقاء. وأما الرمثا ومقاطعتها فقد ألحقت بسنجق حوران . وكان الغور بكامله إلى الشونة الشمالية تابعاً لقائمقامية طبريا.

وبقيت البلقاء فوضى مدة من الزمن إلى أن جاءت الدولة التركية بحامية من الجنود، ووضعوها في قلعة السلط التي كانت لا تزال في حالة جيدة من زمن السلطان بيبرس، وكان لهذه الحامية مفعول جيد في تهدئة الحالة في تلك المنطقة.

وفي سنة ١٨٩٢م عينت الدولة التركية متصرفاً في الكرك، وجعلته مربوطاً بوالي دمشق، وكانت متصرفية الكرك تضم أقضية معان والطفيلة ومديرية ناحية تبوك.

وكانت منطقة عجلون تتبع متصرف حوران قبل ذلك مدة من الزمن، ومنطقة البلقاء التي تمتد من الزرقاء إلى الموجب تتبع متصرف نابلس، وبقي هذا الحال إلى سنة ١٩٠٥م حيث تبدلت الإدارة فجعلت البلقاء وعجلون تابعتين لمتصرف الكرك، ومن هنا بدأت هذه المنطقة تشكل وحدة بذاتها، ولكن مع كل هذا التبديل بقيت البلاد في حالة فوضى وسيطرة الدولة فيها قليلة جداً . وبقي البدو يعيثون الفساد في البلاد، ويغير بعضهم على بعض ينهبون ويقتلون ويسلبون إلى زمن قريب جداً، حتى تأسست الحكومة الأردنية تحت قيادة الأمير عبدالله بن الحسين، وقويت وصدرت الأوامر المشددة بإبطال الغزو، والضرب على أيدي البدو، ومنعهم من الإغارة على بعضهم البعض، وتوطد الأمن، واستقرت البلاد.

مشكلة لم تكن في الحسبان

بينما كانت الأمور تجري على أحسن ما يكون والحاج إبراهيم موزّع نفسه بين عمله التجاري والسهر على أسرته، وتسيير مصالح الناس بقدر المستطاع، كان أخوه خالد شاباً جميل الصورة، حسن الصوت، يقضي معظم وقته مع شلّة من الشباب، في قصف ومرح وطرب، وقد ذاع صيته في تلك الأوساط، وأصبح له إخوان وأصدقاء، وكانوا أيام الحصاد يخرجون إلى خارج عمّان وضواحيها يقضون ليالي الصيف بين البيادر والمزارع، ويكون الجو أرحب وأقل تزمتاً من القرية، فكان لقاؤهم ببعض الفتيات ممكناً، وكانت لقاءات عديدة تتم، ويشاء القدر أن يتعرف على فتاة جميلة واسمها جميلة أيضاً من كبار الأسر المسيحية أصحاب الثراء الواسع والجاه العريض والنفوذ عند ذوي السلطان، وتكرر لقاؤه معها، وتمكن الحب بينهما، وأخيراً تم الاتفاق بينهما على الزواج، ويتم هذا كله وأخوه الكبير لا علم عنده بذلك.

ولكن كيف يمكن أن يتم الزواج في عمّان أو في السلط أو في ضواحيها فإن هذا لا يمكن، والموافقة من جانب أهلها من المستحيل، فكيف يقبلون أن يزوجوا ابنتهم من مسلم، وفي ذلك ما فيه بالنسبة إليهم، وإلى سمعتهم، وأن السماء أقرب إليهما من موافقة أهلها على الزواج وهي تعلم ذلك حق العلم، ولذلك ابقيا أمرهما مكتوماً، وسراً بينهما فقط ليفكرا في حل لأمرهما.

وأخيراً تم الاتفاق على أن يغادرا عمّان إلى دمشق، وهناك تجري مراسم الزواج وتنتهي المشكلة بالنسبة إليهما . أما بالنسبة لأخيه الحاج إبراهيم فإنها تبدأ المشكلة التي لا حل لها عنده، ولا يمكن لأحد أن يحلها له.

كيف الوصول إلى دمشق، ولا يوجد أية وسيلة للنقل سوى الدواب، وفكر خالد في الأمر ملياً، وكلما وجد حلاً وجد أمامه عدة عقبات، ويكاد اليأس يدب إلى نفسه، وأخيراً اهتدى إلى رجل من فرسان الشركس اسمه إسحاق الأعور، وكان شجاعاً لا يخاف أحداً، ولا يسأل عن سطوة الدولة، ولا البدو، ولا غيرهم، ففاتحه في الأمر فراقت له الفكرة وكيف لا وهو مغامر يحب الشهرة، ويعيش حياته كلها من أجل المغامرة وكسب

الشهرة، ووعده أن يبلغه دمشق هو وجميلة سالمين . وهيأوا الخيل وكانت عندنا متوفرة، وركب الثلاثة كل واحد منهم على حصان، وتحت ستار ليلة من الليالي أخذوا طريقهم نحو دمشق ووصلوها بكل أمان، وعندما وصل دمشق أمَّن الفتاة عند أحد أقاربه، وعاد إسحاق إلى عمّان وكأنه لم يعمل شيئاً، وهنا بدأت المشكلة بالنسبة إلى جدي، فعندما علم أهل الفتاة بالخبر قامت قيامتهم ومعهم الحق في ذلك، فإنهم من وجهاء السلط وأغنيائها، ومن أرقى العائلات سمعة وكرماً وطيباً، يتمتعون بحب جميع مواطنيهم واحترامهم، فكيف يصابون بهذه الكارثة، وتلطخ سمعتهم، وعندما بلغ الحادث مسامع جدي – رحمه الله – تأثر تأثراً كبيراً ، وحاول إقناعهم عبثاً بأنه لا رأي له في القضية، ولا علم له فيها، وأنه سيحاول إقناع الفتاة بالعدول عن رأيها، وردها إليهم سالمة لم يصبها أي أذى.

وقام أهل الفتاة بالاتصال بالسلطة، ووصلت القضية إلى العاصمة الآستانة، وجاءت الأوامر إلى والي دمشق بأن يسوي المسألة بقدر ما يستطيع وردّ الفتاة إلى أهلها.

أمر الوالي بإحضار الفتاة وكانت في بيت عمة والدي أخت جدي، وكان زوجها أحمد باشا القضماني أحد الجنرالات التركية، فأرسلها إلى دار الوالي، وجعل الوالي نفسه يحقق معها ويحاول إقناعها بأن تعود إلى أهلها ولكن الفتاة أبت وأعلنت إسلامها، وقالت بكل صرامة وصراحة بأنها لن تعود . وبقيت في بيت الوالي مدة وأحضروا لها بعض رؤساء الدين المسيحي يحاول أن يعظها ويقنعها فلم تقنع وأصرت على موقفها، وأخذت القضية تكبر وبقيت حديث المجتمعات، ما بين مؤيد لها ومستنكر، وجاء جدي إلى دمشق وبقي مدة معطل متجره، منهمكاً في حل القضية وهو لا يريد أن يخسر صداقة أهلها وكل من يلوذ بهم، ولكنه أخفق في إقناع الفتاة وإكراه أخيه على تركها . وبعد أن طالت المدة ترك وعاد إلى عمّان ليعلن أسفه في إخفاقه في رد الفتاة إلى ذويها، وأسف جداً لذلك، ولكن أهل الفتاة لم يغفروا له ذلك، وأصروا على معاداته إلى النهاية.

أما الوالي فإنه لم يستطع إلى إقناع الفتاة سبيلاً ورأى منها الإصرار العجيب على موقفها، فلم يسعه إلاّ الموافقة على زواجها من السيد خالد وبارك هذا الزواج، وضم خالد زوجته إلى بيته، وأنجبت منه أربعة أولاد ذكور وثلاث بنات واحد منهم توفي صبياً، والباقي تزوجوا وأنجبوا الأولاد، والأحفاد، وبقيت هي على قيد الحياة إلى سنة

١٩٦٧م حيث توفيت عن نيف وثمانين سنة . وقد أرضعتني مع إحدى بناتها، وكنت أدعوها بـ "يا أمي"، وأحبها حباً جماً رحمها الله.

أما عم والدي السيد خالد فإنه أصبح من زعماء حارته "قبر عاتكة" في دمشق، وأصبح من الرجال المرموقين، وصار مختاراً لحارته وتوفي سنة ١٩٣٤م عن نيف وستين سنة.

ثم تزوج أحد أعمامي عبد الكريم بابنة من بنات عمه هذا وأنجبت منه أربعة ذكور وثلاث بنات، وهم الآن يعملون في عمّان، وعندهم مصنع كبير للحدادة وتصنيع السيارات وآلات الزراعة وغيرها، وقد تعرفوا على أخوالهم وأبناء أخوالهم، وصارت بينهم مودة وصداقة، وتبدلت العقليات والمفاهيم وتوسع الأفق . وجاءت جميلة بعد ذلك إلى عمّان واجتمعت بشقيقاتها وتلطف الجو بينها وبين أهلها رحمها الله.

بقيت هذه المشكلة تحزّ في نفسه – رحمه الله - ولم يستطع أن يحلها كما يريد أو أن يحلها له أحد وإن خُتمت بزواج أخيه وأُسدل الستار عليها، ولكنها أثرت عليه وعلى نفسيته كما حدثني عمي الحاج عبد الكريم – رحمه الله – فقد كان واعياً للكثير من الحوادث، وكان يحدثنا دائماً وعنه أخذت الكثير من المعلومات . وتوفي والداه، وتزوجت أخواته، واستقل أخوه الحاج خالد عنه، وبقي الحاج إبراهيم مسئولاً عن عائلته، يعمل في متجره مستور الحال. ولم يجمع ثروة تذكر، وانما كان له متجر يملكه، ومنزل كبير تحته مخازن للحبوب ومأوى للخيل، والبيت في الطابق الثاني، وداران بجانبه يؤجرهما، هذه كل ثروته . وهذه الدور مقابل المسجد الحسيني الكبير في وسط مدينة عمّان .

حدث هام

في اليوم السادس من شهر أغسطس من عام ١٩٠٢م وصل الخط الحديدي إلى عمّان من دمشق، وبذلك ارتبطت عمّان في العالم بوسيلة حيوية من وسائل النقل الحديثة بعد أن كانت منقطعة عن العالم، وكانت تردها البضائع على قوافل الجمال والبغال والحمير، وكذلك كان السفر من عمّان وإليها على الدواب.

والآن وقد وصل إليها أحدث واسطة نقل في ذلك الزمن، فاتجهت إليها الأنظار وبدأت تكبر شيئاً ما.

فكرة إنشاء الخط الحديدي بين دمشق والمدينة فكرة قديمة، وكانت الحكومة العثمانية تحاول مد هذا الخط، ولكنها لم تكن تقبض على زمام الأمور في الأردن، وكان نفوذ الدولة مفقوداً؛ ففي عام ١٨٨٠م قَدَّمَ وزير الأشغال في استانبول إلى حكومته مشروعاً واسعاً يقضي بمد خط حديدي إلى الأراضي المقدسة، ولكن الدولة بعدما عرضته على المهندسين والمختصين ودرسوه، قالوا بتعذر تنفيذ هذا المشروع آنذاك، لما يتطلبه من نفقات باهظة، وما يكلف من خسائر فادحة.

ولما جاء السلطان عبد الحميد أبدى اهتمامه في ذلك، وأمر برسم المخططات والمباشرة في العمل حالاً، وأمر أن يُقدم إليه تقرير يومي عن سير العمل فيه.

بدأ العمل بمد الخط من دمشق في ١٢ نيسان من سنة ١٩٠٠م ، وكانت الفكرة الأساسية ربط دمشق بمكة والمدينة، وكان هناك اقتراح بأن يكون له فرع من معان إلى العقبة ومنها إلى السويس فبورسعيد، ولكن لم يتم تنفيذ هذا الاقتراح لأمور سياسية وعقبات مالية.

ولما وصل الخط إلى درعا عُمل منه فرع إلى حيفا، لأن المهندسين شعروا بضرورة اتصالهم بمرفأ يستمدون منه اللوازم والأدوات التي تردهم من أوربا.

وبعد وصول الخط إلى عمّان بسنة وصل إلى معان، وبعد ذلك بخمس سنوات وصل الخط الى المدينة المنورة، وأصبحت المواصلات بين دمشق والمدينة المنورة ممتازة جداً، والمسافة بينهما نحو ١٣٠٠ كيلو متر.

قدرت الحكومة العثمانية لهذا المشروع ٣،٥٠٠،٠٠٠ ليرة عثمانية، وكان السلطان عبد الحميد يأمل جمعها من الإعانات التي سترده من العالم الإسلامي، وقد افتتح الاكتتاب بنفسه فتبرع بـ ٣٢٠ ألف ليرة عثمانية، وتبرع بقية أمراء وملوك المسلمين بعده، فتبرع شاه العجم بخمسين ألف ليرة، وأرسل خديوي مصر كمية من مواد البناء. وتألفت جمعيات في سائر الأمصار الإسلامية لجمع الإعانات التي لم ينقطع سيلها طول مدة إنشاء الخط . أضف إلى ذلك ١٥٠ ألف ليرة وهي مخصصات دائرة الحج في موازنة الدولة، ومعها ستون ألف ليرة كان السلطان يرسلها كل سنة عطايا وهبات لرؤساء البدو ومشايخهم . ولكن المشروع كان قد كلف نحو ثمانية ملايين وخمسمائة ألف ليرة عثمانية، وذلك لسوء الإدارة وجشع القائمين على أمره حيث تسرب قسم كبير إلى جيوب بعض الموظفين وغيرهم من المسئولين.

وقد عمدت الحكومة إلى وسائل شتى في جمع الأموال فعملت طوابع بريدية باسم الخط، وفرضت ضرائب جديدة، وهي ما يسمى بالمسقفات . ثم جعلت الألقاب والأوسمة برسم البيع لمن يريد أن يتبرع بالمال، فوسام الدرجة الأولى لمن يدفع أكثر من مئة ليرة، والدرجة الثانية لمن يدفع من ٥٠ ليرة إلى مئة، والدرجة الثالثة لمن يدفع من خمس ليرات إلى ٥٠ ليرة.

ويقول كرد علي في الجزء الخامس من **خطط الشام**(١) : إن أحد أثرياء النمسا دفع ١٢٠٠ ليرة عثمانية ليحصل على لقب باشا.

لقد كان يوم وصول القطار إلى عمّان يوماً مشهوداً، وحدثاً تاريخياً عظيماً، ثم كان أهم وأعظم يوم وصل القطار إلى المدينة المنورة، وأصبح الوصول إلى الحجاز مضموناً مأموناً. وبدأت هذه المنطقة تنتعش شيئاً فشيئاً وأصبحت المدينة تغص بالسكان، وبضائع دمشق وثمارها وحبوب البلقاء فيها متوفرة . وازدهرت الحياة على طول سكة الحديد.

سارت الأمور عادية بالنسبة إلى جدي ورزق ابنتين توفيت إحداهما، والأخرى عاشت وتزوجت وأنجبت عدداً من البنين والبنات.

---

(١) أنظر: خطط الشام، تأليف: محمد كرد علي، مكتبة النوري، دمشق، ط٣، ١٩٨٣، ١٧١/٥.

وكبر أولاده فتزوج والدي في سنة إحدى عشرة أو اثنتي عشرة ، لا أدري، ثم تزوج بعده بسنة عمي . وولدت في سنة ثلاثة عشر وتسعمائة وألف أو ١٩١٤م أو بعدها بسنة، لا أدري لأن أحداً لم يسجل تاريخ ولادتي، ولم يكن في القرية دائرة تسجل المواليد، ولا جهاز حكومة منتظم.

لا أعرف جدي أبداً، وإنما أتخيله رجلاً وقوراً يلبس جبة سوداء طويلة، وعمامة مما يسمونه "الأغباني" وله لحية بيضاء .. هكذا تبدو صورته في مخيلتي.

وأول ما عقلته من الأحداث هو أني كنت ألعب في حارة أبي حبل في حي الميدان الفوقاني بدمشق، الحارة التي يوجد فيها بيت خالي، وكان ذلك في صيف سنة ١٩١٧م، وإذا بوالدتي مقبلة تبكي وأخذتني من يدي وقالت : لقد توفي جدك وسنذهب إلى عمّان. ولا أعلم بعد ذلك ما حدث . أما منظر والدتي وهي تبكي وتخبرني بوفاة جدي فإنه حادث لا أنساه أبداً فقد انطبع في ذاكرتي وكأنه حدث أمس.

كان والدي غائباً في الجيش التركي فقد ذهب إلى الجندية وأنا ابن سنة أو أكثر قليلاً أو أقل، لا أدري، فإني نشأت ودخلت الكُتّاب وأنا لا أعرف والدي، وكان جدي على ما تحدثني والدتي رؤوفاً ويعطف على والدتي ويبرها مدة غياب والدي، وكان لي أخت أصغر مني وُلدت بعد ذهاب والدي بأشهر، فكان جدي – رحمه الله – يرعانا ويضفي علينا من حنانه ورحمته وبره ما جعل والدتي تبكي عليه بكاءً مراً، وتحزن حزناً شديداً.

توفي رحمه الله وترك متجره يديره أولاده، ولم يترك (مالاً) وإنما ترك سمعة طيبة من كل من عرفه . وكان أكبر أولاده عبد الكريم، لم يكن سنه يزيد على السابعة والعشرين، وكان شاباً جميل الصورة، فارع الطول، يجيد ركوب الخيل، ويُحسن الرماية، لا هم له إلاّ الخيل واقتناء أحسن الأسلحة، وأخوه حمدي الذي هو أصغر منه لا يصلح للتجارة، والأخ الثالث جودت كان لا يزال صغيراً مولعاً أيضاً بتربية الخيل والصيد واللهو، فتسلم المتجر عبد الكريم، وفي إحدى أسفاره إلى دمشق علق بحب ابنة عمه فتزوجها، وكان متزوجاً وعنده من زوجته الأولى أربعة أولاد : ولدان وبنتان، أكبرهم رسلان، في سني، ولدنا معاً، في سنة واحدة، وأنا أكبره بأربعة أشهر تقريباً.

انشغل عمي بزوجته الجديدة، وغاب مدة في دمشق، فتعطل المتجر، ولم تمض مدة حتى أفلس المتجر وأغلق وانتهى أمره . واضطر إلى بيع الدارين غير التي نسكنها، وهكذا فلم يبق لنا إلاّ الدار التي نعيش فيها.

كانت الحرب العالمية الأولى دائرة رحاها، ونحن صغار لا نعلم عنها شيئاً . أذكر من ذلك حادثاً واحداً عندما هاجم الإنجليز ضواحي عمّان وصارت مدافعهم تضرب على عمّان، أذكر أن الرجال جمعوا النساء والأولاد في مخزن تحت بيتنا كان كبيراً، وسقفه عقد، خشية أن تسقط قنبلة على إحدى الدور، وقد قالوا إن قنبلة سقطت في جانب السوق وقتلت بعض الأفراد، فكان الخوف يملأ قلوبنا، وقد سقطت قنبلة أمام ذلك المخزن الذي فيه النساء والأطفال ولكنها لحسن الحظ لم تنفجر.

والحادث الذي أذكره جيداً في تلك الأيام هو دخول الجيش الإنجليزي إلى عمّان، وكان الزمن صيفاً في الخامس والعشرين من أيلول من سنة ١٩١٨م بعد العصر . فقد انتشر الخبر بأن الإنجليز وصلوا إلى عمّان، ودارنا في وسط البلد عند المسجد الكبير، فخرج الناس يتفرجون على هؤلاء القادمين الجدد، وكانت (هناك) فرقة من الخيالة الأسترالية (الذين) كانوا يتميزون بوضع ريشة على برانيطهم، وكانوا يطلبون الماء لسقي خيولهم، ويمزحون مع الناس . وبذلك انتهى عهد الأتراك وبدأ عهد جديد.

- ١١ -

عهد جديد

كانت الأردن في أواخر العهد التركي قد بدأت تستقر، وأصبح فيها عدد من المثقفين والمتعلمين إمَّا تعليماً عسكرياً، ممن خدموا بالجيش التركي، وإمَّا تعليماً مدنياً. وما أن انتهت الحرب العالمية الأولى، حتى بدأت تتشكل شبه حكومة في الشمال بعد أن انتهى العهد الفيصلي في سوريا والتي كانت الأردن جزءاً منها، وكان هناك بقايا من القادة العسكريين في إربد والكرك ومعان والسلط والطفيلة والعقبة. فقد كانت سورية في عهد الملك فيصل مقسمة إلى ثمانية ألوية، تقع ثلاثة ألوية منها في شرق الأردن: لواء الكرك ويشمل: أقضية الطفيلة، ومعان، والعقبة، ونواحي الشوبك، والكرك، وذيبان، وتبوك. ولواء البلقاء ومركزه السلط ويتبعه قضاء الجيزة، وعمّان، وناحية مادبا. ولواء حوران ومركزه درعا، وتتبعه أقضية أذرع، المسمية، بصرى الشام، عجلون وجرش.

وقد حاول الملك فيصل أن يوطد المُلك في بلاد الشام وهي سوريا الطبيعية التي تشمل: سوريا، لبنان، فلسطين، شرق الأردن. وعمل كل ما يستطيع للحصول على اتفاق مع الدولتين الإنجليزية والفرنسية لحفظ استقلال هذه المنطقة، ولكن ذهبت جهوده سدى، فإن الإنجليز بينما كانوا يكاتبون الملك حسين بن علي ويعدوه بأن يكون ملكاً على البلاد العربية مستقلاً ليساعدهم على حرب الأتراك وجرت بذلك بينه وبينهم مراسلات ووعود قطعوها له، كانوا في نفس التاريخ يبرمون معاهدة: سايكس — بيكو التي تقرر بموجبها أن تكون العراق والأردن وفلسطين تحت الانتداب البريطاني، وسوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي. وفي الوقت نفسه تصدر بريطانيا على لسان وزير مستعمراتها الوعد المشئوم: وعد بلفور (٢ تشرين الثاني ١٩١٧م)، بينما كان العرب حلفاء الغرب ومساعدوهم على حرب تركيا يأملون في تأليف حكومة مستقلة ومتحدة في سوريا الطبيعية. وبهذا المفهوم شكَّل الأمير فيصل بن الحسين في ٥ تشرين الأول ١٩١٨م حكومة عسكرية في دمشق باسم الملك حسين بن علي، وعهد برئاستها إلى الفريق رضا باشا الركابي. وحاول الأمير فيصل أن يحصل على تأييد الدولتين كما قدمنا، ولكن أنى له ذلك وقد اتفقتا على تقسيم البلاد وتمزيقها الذي لا زلنا نعاني من

جرائه وبلائه إلى الآن، والذي مهد السبيل إلى اليهود ليقيموا دولتهم.

كانت شرقي الأردن تتبع الإدارة العسكرية التي يرأسها الأمير فيصل في دمشق، والمسؤول جعفر باشا العسكري على المنطقة المُمتدة من البلقاء إلى تبوك، وكان رشيد المدفعي قد تولى قيادة الفرقة الثانية واتخذ مركز قيادته عمّان. وقد عيّن في المقاطعات حكاماً عسكريين لتثبيت الأمن والنظام، وقد أقام في الكرك الشريف علي بن عريد، واستعانت الحكومة بزعماء البلاد في شئون الإدارة، واستمر الحكم العسكري إلى [حين].

وفي ٧ آذار من سنة ١٩٢٠م قرر المؤتمر السوري إعلان استقلال سوريا الطبيعية "بلاد الشام"، ونادوا بفيصل ملكاً عليها، وفي ٨ آذار أصدر جلالته مرسوماً ملكياً بتأليف أول حكومة برئاسة علي رضا الركابي.

ولكن فرنسا وإنجلترا أعلنتا عدم اعترافهما بهذه القرارات، واتخذتا قراراً في مؤتمر سان ريمو في ٢٥ نيسان ١٩٢٠م يقضي بفرض الانتداب الفرنسي على سوريا الداخلية ولبنان، وفرض الانتداب البريطاني على فلسطين وشرقي الأردن والعراق. وسارت الأحداث بسرعة عجيبة فزحف الجنرال غورو الفرنسي على دمشق واصطدم مع القوات العربية في ميسلون يوم ٢٤ تموز ١٩٢٠م واحتل دمشق وأنذر الملك فيصلاً بمغادرة البلاد، وانتهى مُلك فيصل كلمح البصر أو كالحلم.

غادر فيصل سوريا عن طريق حيفا إلى بريطانيا، والإنجليز في فلسطين يعملون على إنشاء إدارة فيها، وبقيت شرق الأردن بدون حكومة اللهم ما تبقى من الضباط العسكريين والحكام الإداريين من عهد الملك فيصل، وبدأ الإنجليز يخرجون من عزلتهم ويتصلون ببعض الزعماء، وبعضهم يرسل رسائل إلى الإنجليز، والبلاد في شبه فوضى وخلو من الحكم. وكان هناك طبقة لا بأس بها من أبناء الأردن مستنيرة وواعية، وقد أدركوا ما يحيط بالوطن العربي من أخطار، ولا سيما بلاد الشام، فإن الأنظار متجهة إليها، وهي ذات مركز حساس متوسط بين آسيا وإفريقيا وأوربا، فقاموا بدور فعال في عمل شيء لوطنهم، وقد ضاعت سوريا، وبدأت فلسطين تتبعها كذلك، فكثرت الاتصالات مع الإنجليز، فنتج عن ذلك أن زار المندوب السامي السلط في آب من سنة ١٩٢٠م واجتمع

بعدد كبير من أعيان ووجهاء الأردن وخطب فيهم ووعدهم بأن يساعدهم على تأسيس إدارة منفردة تساعدهم على حكم أنفسهم بأنفسهم، ووعد بإرسال عدد من المعتمدين ورجال القضاء ليساعدوا في ذلك.

وعلى إثر ذلك الاجتماع تألفت في كل من الكرك والسلط وإربد حكومة محلية يدير شئونها أحد رجال الإدارة بالتعاون مع مجلس استشاري أعضاؤه من وجوه المنطقة وأعيانها. وكان يمثل بريطانيا لدى كل حكومة من هذه الحكومات معتمد بريطاني لم تحدد صلاحياته، ولكنه كان من المتعارف عليه أنه المرجع الأعلى لتلك الحكومة التي يمثل بريطانيا فيها وتلك عادة الإنجليز ومن خبثهم...

وقد تميع الوضع فأُلفت في دير يوسف بقضاء المزار (المزار الشمالي) حكومة، وفي عجلون حكومة، وفي جرش حكومة، والوسطية ومركزها قم حكومة، وفي الرمثا حكومة، وفي السلط حكومة، وفي الكرك حكومة. وفي كل هذه الحكومات كان ممثلون إنجليز، ولكن كانت حكومات واهية ضعيفة لم تستطع أن تفرض سلطانها، وليس لها هيبة ولا نفوذ، فلم تستطع أن تجبي الضرائب، ولم تستطع أن تدفع الرواتب للموظفين والجنود.

وفي هذه الفترة لجأ عدد من الوطنيين الأحرار إلى شرق الأردن. كل هذه الأمور هيأت الظروف لتشكيل حكومة في هذا الجانب من العالم العربي، والناس يرحبون بمجيء أمير عربي يجمع شمل البلاد. وقد أرسل جماعة من زعماء البلاد عدة برقيات إلى جلالة الملك حسين بن علي أن يرسل أحد أنجاله كي يتزعم الحركة الوطنية المناوئة للفرنسيين، حتى يخلصوا سوريا من الاستعمار وتُقام دولة موحدة تضم سوريا بأكملها.

وعلى هذا الأساس غادر الأمير عبدالله بن الحسين الحجاز من المدينة المنورة بموافقة والده الملك حسين، في أواسط تشرين الأول ١٩٢٠م ووصل معان في ١١ تشرين الثاني ١٩٢٠م = ١١ ربيع الأول ١٣٣٩هـ.

وكان سفره بالقطار بين المدينة ومعان نحو سبعة وعشرين يوماً بسبب خراب الخط الحديدي. وكان معه عدد من الأشراف، وبعض رجالات العرب من العراقيين وغيرهم،

والعلامة محمد الخضر الشنقيطي.

واستقبل في معان استقبالاً عظيماً، وقد اضطرب الفرنسيون لقدوم الأمير إلى معان فجعلوا يقووا مراكزهم في حوران وجبل الدروز، وكاتبوا حليفتهم بريطانيا لتعمل على مقاومة حركات الأمير وإيقافه عند حده.. وفعلاً اتصل الإنجليز بالملك فيصل الذي كان في لندن وأبلغوه بأن الحكومة البريطانية تنظر بعين الاستياء إلى الحوادث التي تجري في الأردن، وطلب الملك فيصل من أخيه الأمير عبدالله إيقاف كل حركة ضد فرنسا لأن القضية العربية ستوضع على بساط البحث من جديد. فقد كانوا ما زالوا يصدقون كلام هؤلاء الغربيين مع كل ما تقدم من نقض الوعود والكذب عليهم، ولا نزال إلى اليوم نصدقهم مع الأسف.

وقد هدد الكابتن برانتون زعماء عمّان بعدم الاتصال بالأمير عبدالله، وقد حاول الإنجليز إرجاع الأمير إلى الحجاز بعدة وسائل، ولكن الوطنيين في عمّان لم يأبهوا لكل التهديدات ومضوا في اتصالاتهم بالأمير، وسيروا وفداً من عمّان إلى معان رغماً عن السلطات الفرنسية والإنجليزية.

وأخيراً عقد الوطنيون اجتماعاً تقرر نتيجة له دعوة الأمير عبدالله للقدوم إلى عمّان، وذهب عدد منهم ليكونوا في ركابه عند تحركه من معان. فعلاً جاء الأمير عبدالله إلى عمّان فوصل يوم الأربعاء في الظهر في ٢ آذار ١٩٢١م = ٢٢ جمادى الثانية ١٣٣٩هـ. فاستقبله في المحطة جمهور كبير من مختلف أنحاء الأردن والبِشر يعلو وجوههم، والتفاؤل يغمر نفوسهم. وبذلك بدأت عمّان عهداً جديداً.

قبل مجيء الأمير عبدالله بسنة ونيف حدث بالنسبة لي حادث مهم وهو أني بلغت السنة السادسة من عمري تقريباً وأنا لا أعرف والدي، حيث كان مجنداً بالجيش التركي وأمضى نحو أربع سنوات، وأنا لا أعرفه، ويقول لي أعمامي بأنه في السنتين الأخيرتين انقطعت أخباره نهائياً، فقد كان في أول الأمر يراسلهم ويرسلون له نقوداً وبعض الحاجات، ولكنه بعد ذلك لم يعد يعرف أين هو.

ذهب إلى الجندية كما يحدثنا إلى فلسطين أولاً، ثم من هناك ذهب إلى تركيا وحارب في عدة أماكن أهمها معركة "شنا قلعة" المشهورة بين الأتراك والإنجليز. ثم حارب في رومانيا، وجال مع الجيش إلى أن وصل "باطوم" على البحر الأسود والتي هي

الآن من المراكز المهمة لتصدير البترول.

هناك حدث له حادث فسجن هو وجماعة، وبعد مدة اتفقوا مع حراس السجن أن يفروا جميعاً، وكانوا نحو ثمانية، فخرجوا ليلاً باسم دورية، واجتازوا عدة أماكن حتى بعدوا عن مراكز الجيش، وجعلوا يختبئون نهاراً ويسيرون ليلاً، وإذا صادفهم أحد ينظمون أنفسهم بشكل دورية ويمشون بنظام، واستمروا على ذلك إلى أن وصلوا ديار بكر، واستضافهم الأكراد وأخذوا كل واحد منهم إلى دار، وكانت نتيجة الضيافة أن أخذوا منهم أسلحتهم، وحتى أخذوا من بعضهم بعض ألبسته، وهكذا أصبحوا الآن بدون سلاح وبدون لباس رسمي، فتشردوا وتشتتوا عن بعضهم حتى بقي هو وواحد من قرية ملكا في شمالي الأردن، وجعلا يسيران ويختبئان، وأصبحت حالتهما رثة وثيابهما مهلهلة قذرة، ويقتاتان من النبات، ومن السؤال أحياناً، واستمرا على هذه الحالة حتى وصلا مدينة حمص، وهناك وقعت الكارثة فقد ألقي عليهما القبض وزجا في السجن، ومكثا في السجن أياماً، ثم أفرج عنهما لأن الإنجليز احتلوا سوريا، وعادا إلى الحياة من جديد، وعاودا سيرهما على الأقدام إلى أن بلغا دمشق، ولكن كانت حالتهما قد ساءت بشكل لا يُتصور من الجوع والقذارة، والثياب الممزقة، وأرجلهما تورمت من الحفاء، فقد استغرقت هذه الرحلة مائة يوم كاملة من باطوم إلى دمشق مشياً على الأقدام.

عندما وصل دمشق ذهب رأساً هو ورفيقه إلى دار عمه الحاج خالد، وعندما طرق الباب وخرج بعض أبناء عمه ورآه ظنه سائلاً عابراً، فذهب ليأتي إليه ببعض الخبز والطعام، ولما عاد ومعه الطعام قال له: أنا ياسين ابن عمك. فلم يصدقه ونادى على أمه وهي تعرفه جيداً، فلما رأته صاحت من الفرح وأدخلته وهي تزغرد، وبعد استراحة قليلة ادخلوهما إلى الحمام، وألبسوهما ثياباً نظيفة، وقضوا معه ليلة عظيمة كلها فرح وسرور.

وبعد أن أصبح في اليوم الثاني لم يستطع أن ينتقل خطوة واحدة على قدميه فقد تورمتا بشكل غريب، وبقي مدة شهر كامل حتى استعاد قواه. وكان الخبر قد وصل عمّان، فإن المواصلات كانت منقطعة بين عمّان ودمشق في هذه الفترة التي تلت انتهاء الحرب.

بلغ الخبر إلى إخوانه وأهله في عمّان، فأسرع أخوه المرحوم الحاج عبد الكريم وذهب إلى الشام، وأتى به على الخيل، ووصل عمّان، وفي ذلك الوقت عرفت والدي وبدأنا حياة جديدة.

مجيء الأمير عبدالله

على إثر (وصول والدي) إلى عمّان، لا أدري بأي شهر أو سنة، كان مجيء الأمير عبدالله، وإني لأذكر يوم وصوله وأعيه جيداً، فقد خرجت عمّان بما فيها إلى لقائه وكان يوماً مشهوداً. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت عمّان قطب الرحى، وسرعان ما ازدحمت البلدة الصغيرة بالناس من كل فج وبزعماء القبائل ووجوه النواحي، ومن جميع العالم العربي المجاور. وكانت عمّان بلدة صغيرة وليس فيها فنادق، ولا فيها بيوت لاستيعاب الناس القادمين من الخارج، فكان الناس يحلون ضيوفاً على الأهلين، وأذكر أنه نزل في بيتنا شخصيتان من رجالات سورية هما الأستاذ كامل القصاب المشهور(١)، والشاعر الكبير خير الدين الزركلي(٢).

وبعد وصول الأمير إلى عمّان انتهى عهد الحكومات المحلية، وأخذت السلطة تتركز في يديه. أما الإنجليز فإنهم لم يفعلوا شيئاً، كعادتهم، وهكذا رضوا بالأمر الواقع، وهذه هي الحال في الدنيا، فإن الذي يصمم على أمر وعنده القوة يرغم الناس بقبول أمره، كما يفعل اليهود اليوم في بلادنا.. فلو حزمنا أمرنا وجمعنا قوتنا ودحرناهم لقبل الناس الأمر الواقع تماماً كما قبلوا عمل اليهود.. ومع هذا فقد حاول المندوب السامي في القدس أن يحول دون مجيء الأمير عبدالله إلى عمّان، وحتى بعد وصوله حاول أن يقنعه بالرجوع من حيث أتى، ولكنه لما فشلت مساعيه رضي أيضاً بالواقع.

في هذه الأثناء كان المستر تشرشل يعتزم زيارة القاهرة ثم القدس، فانتظر الأمير مجيء تشرشل إلى القدس بناء على تعليمات جاءته من والده. وفي أوائل آذار ١٩٢١م جاءته مذكرة من السير هربرت صموئيل المندوب السامي البريطاني في فلسطين يدعوه فيها لزيارة القدس، ومقابلة الوزير، وقبل الأمير الدعوة، وتم الاتفاق على أن يجري الاجتماع بينه وبين تشرشل في ١٩٢١/٣/٢٨م. وبينما كان الأمير يتهيأ للسفر من عمّان في ١٩٢١/٣/٢٧م وصل إليها السيد رشيد طليع من جبل الدروز في جمع

(١) أنظر: وجوه وملامح، سليمان موسى، ص١٤٦ (ط. وزارة الثقافة والشباب، عمّان، ط١، ١٩٨٠).

(٢) وصف الزركلي زيارته لعمّان في كتابه: عامان في عمّان (مذكرات عامين في شرق الأردن)، عني بنشره يوسف توما البستاني، المطبعة العربية، مصر، ١٩٢٥.

كبير من فرسان الجبل، فاستصحبه الأمير معه، كما استصحب معه رئيس ديوانه السيد عوني عبد الهادي، وكثيرين من رجال العرب الاستقلاليين، واستقبل في السلط استقبالاً كبيراً وقضى تلك الليلة في السلط. وتحدث إلى لورنس كما قال في كتابه الأمالي السياسية(٣): " وأخبرني لورنس ليلاً عن موضوع المقابلة التي ترمي إلى لزوم مساعدة إنجلترا على أخذ الملك فيصل ملكاً على العراق، لأن فرنسا لا ترضى برجوعه إلى سوريا، ولا برجوع الأمير زيد لأنها تعد الأخير أشد عداءً لها من الأول. وطلب إليّ أن أظل في شرق الأردن وأعمل على إيجاد إدارة مدنية سالمة من أي عنف في مراميها السياسية، مع العمل على إحباط حركات العصابات. وقال: إن المعروف عنك أنك تضحي بشخصيتك(٤) من أجل وطنك، فابقَ وإذا توفقت ستظفر بعد ستة أشهر بوحدة سوريا، وسنزورك في دمشق مهنئين إن شاء الله بتوفيقك لإصلاح ما خرب"(٥).

" ولما كان الأمر له خطورته لم أجبه بشيء، فتذاكرت ليلاً مع السادة رشيد طليع وعوني عبدالهادي وغالب الشعلان، فقالوا: إذا تأكدنا من هذه النتيجة بصورة جازمة فلا بأس من هذه الخطة ".

ولا أدري كيف أعلق على هذه القضية، فإن الإنجليز يعلمون علم اليقين بأن سوريا أصبحت تحت حكم فرنسا بموجب معاهدة سايكس – بيكو، واتفاقية مؤتمر سان ريمو، وهنا يكذبون على الأمير عبدالله ويمنونه بضم سوريا إلى الأردن بعد ستة أشهر، وقد مضى على هذا الكلام الآن نحو خمسين عاماً، ولم يتم الضم، ولو أنهم صادقون لضموها له في أي وقت وهم قادرون على ذلك، ولكنهم كاذبون مخادعون.

والآن يعيد التاريخ نفسه، فإن اليهود احتلوا فلسطين كلها، ونحن نطمع بأن تتدخل الدول الكبرى ويحلوا لنا قضيتنا، وننتظر الحل السلمي، ونسمع الوعود والكلام المعسول، وتصاريح الإنجليز وغيرهم، وكل هذا كذب وخداع كما كذبوا علينا وخدعونا، وسيظلون يخادعوننا إلى الأبد.

---

(٣) الآثار الكاملة للملك عبدالله بن الحسين، ص ٢٩، ط. الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٩.

(٤) في الآثار الكاملة: بشخصك.

(٥) نفسه، ص ١٦٤ – ١٦٥.

وفي يوم ٢٨ آذار توجه الأمير إلى القدس، وعند أريحا استقبله جل أعيان فلسطين على رأسهم موسى كاظم باشا الحسيني، ثم وصل القدس، وفي صباح ٢٩ منه عقد اجتماع بين الأمير وتشرشل، ويقول الأمير في مذكراته(٦): " افتتح وزير المستعمرات الحديث بذكر المقاصد الطيبة التي جمعت بريطانيا والعرب في الحرب(٧)، والآمال المنوطة بتلك الروح وبالتعاون الذي حصل في الحرب، وبالجهود التي بذلتها بريطانيا في الحيلولة دون حدوث ما حدث بين فرنسا والعرب.. إلى أن قال: وأن أبقى أنا هنا في شرقي الأردن على تفاهم معهم – أي مع الإنجليز – فأسير بالناس سيرة تبتعد عن تحدي الفرنسيين، وأنه إذا تم هذا فعندئذٍ يؤمل أن تعيد فرنسا النظر في الأمر، وبالنتيجة فإنه يعتقد الاستطاعة بعد ستة أشهر في أن يهنئنا برجوع الشام إلى أيدينا".

" وأما فيما يختص بفلسطين فقد نوه الوزير في حديثه بوعد بلفور، وقال إنه لا يستطيع البحث في هذا الشأن لأن الأمر سيترك للمندوب السامي "(٨).

" واستطرد الوزير فقال: إنكم إن لم تفعلوا هذا ستضيعون كل شيء وإنه في إمكان ابن سعود أن يصل إلى مكة في ثلاثة أيام، وإن بريطانيا عملت ما تستطيع"(٩).

نفس الكلام الذي قاله لورنس للأمير عبدالله في السلط بأنهم سيعيدون له سوريا بعد ستة أشهر، وزاد الوزير هنا قوله بأنه لا يجوز له البحث في قضية فلسطين لأنها قضية مفروغ منها، ثم زاد فهدد الأمير بأن ابن سعود في أيديهم وبإمكانهم أن يجعلوه يحتل مكة، وقد فعلوا ذلك.

لو أن العرب في ذلك الوقت حزموا أمرهم، وواصلوا الحرب ضد فرنسا لما كانت تستطيع أن تتمركز في سوريا، ولا استطاعت إنكلترا أن توطد الأمور لليهود في فلسطين. وكان بإمكان العرب أن يعملوا على ما كان من ضعفهم وتشتتهم. وكذلك اليوم فإننا في نفس الموضع، والمشكلة ازدادت وكبرت، فإذا لم نعزم ونجمع قوانا ونحشد كل ما

---

(٦) نفسه، ص ١٦٤ – ١٦٥.
(٧) في الآثار الكاملة: الحرب الكبرى.
(٨) نفسه، ص ١٦٥.
(٩) نفسه، ص ١٦٥.

نستطيع ونحارب إسرائيل، فإنها بعد مدة ستبتلع كل ما جاورها من البلاد، وتتحكم تحكماً فعلياً في هذه المنطقة، فهل فهم زعماؤنا هذا يا ترى؟ ...

وافق الأمير عبدالله ووافق الذين معه على تشكيل حكومة في شرق الأردن، على المبادىء التالية:

١. تؤسس حكومة في شرقي الأردن، وطنية، برئاسة الأمير عبدالله.

٢. تكون هذه الحكومة مستقلة استقلالاً إدارياً تاماً.

٣. تساعدها بريطانيا مادياً لسد نفقات قوة غايتها توطيد الأمن.

٤. تسترشد برأي مندوب بريطاني يقيم في عمّان.

٥. يتعهد الأمير عبدالله بالمحافظة على حدود فلسطين وسوريا من كل اعتداء.

٦. تتوسط بريطانيا لتحسين العلاقات بين الأمير عبدالله والسلطات الفرنسية في سوريا.

٧. تنشىء بريطانيا مركزين للطيران في عمّان وزيزاء.

٨. يعتبر مشروع الاتفاق (كتجربة) مدتها ستة أشهر، فإن كان ملائماً للطرفين استمر العمل به وإلاّ أعيد النظر فيه.

رشيد طليع
وأول حكومة أردنية

عاد الأمير عبدالله وصحبه إلى عمّان (من القدس)، وبدأ بتشكيل أول حكومة في شرقي الأردن ألفها السيد رشيد طليع وهو من رواد (الحركة) الوطنية، ومن الذين تقلبوا في عدة مناصب في عهد الأتراك، وفي عهد الملك فيصل، فقد كان نائباً عن جبل الدروز في مجلس المبعوثان، ثم متصرفاً للاذقية. وفي عهد فيصل عين حاكماً عسكرياً لحماة، ثم مديراً للداخلية، ثم والياً لحلب. وعند دخول الفرنسيين إلى سوريا انسحب هو ونبيه العظمة إلى جبل حوران، ثم إلى الأردن.

وكان – رحمه الله – رجلاً وطنياً قوي الشخصية على قدر عظيم من الخلق والاتزان والكفاءة والنزاهة، مما أكسبه احترام جميع من عرفه. وقد قال عنه الملك عبدالله: إنه كان شهماً غيوراً (١).

وهو رشيد بن علي بن حسن بن ناصيف من آل طليع عائلة قديمة في جبل لبنان انحصرت فيها زعامة الدروز الدينية من نحو مئة سنة، تنتقل مشيخة العقل الكبرى فيها من الوالد إلى الولد إلى الابن إلى الأخ.

ومن الذين تولوا هذا المنصب حسن طليع جد رشيد هذا، ثم عمه الشيخ محمد طليع فعمه الشيخ حسن طليع.

ولد رشيد في قرية "الجديدة" من قرى الشوف بلبنان، وتعلم في سوق الغرب وبيروت، ثم في المدرسة الملكية بالآستانة.

تنقل في عدة مناصب إدارية كما تقدم. ولما دخل الفرنسيون إلى سوريا حكموا عليه بالإعدام "غيابياً" فتوارى في بعض الجهات في حوران، ثم جاء إلى عمّان، وعهد إليه الأمير عبدالله بتشكيل أول حكومة في شرق الأردن وذلك في يوم ١١ نيسان من سنة

---

(١) الآثار الكاملة، ص ٣١.

١٩٢١م وأسند إليه (منصب) رئيس مجلس المشاورين، وسمي "الكاتب الإداري". وتألفت الحكومة كما يأتي:

- رشيد بك طليع، الكاتب الإداري، ورئيس مجلس المشاورين، ووكيل مشاور الداخلية(٢).
- الأمير شاكر بن زيد، نائب العشائر.
- أحمد بك مريود، معاون نائب العشائر، وعضو في مجلس المشاورين.
- مظهر بك رسلان، مشاور العدلية والصحة والمعارف، وعضو مجلس المشاورين.
- أمين بك التميمي، مشاور الداخلية، ومتصرف لواء عجلون.
- علي خلقي بك، مشاور الأمن والانضباط، وعضو مجلس المشاورين.
- الشيخ محمد الخضر الشنقيطي، قاضي القضاة، وعضو في مجلس المشاورين.
- حسن بك الحكيم، مشاور المالية، وعضو في مجلس المشاورين.

وكانت هذه أول حكومة تؤلف في عمّان لإمارة شرقي الأردن، وبقي (رشيد طليع) في الحكم إلى أواخر شهر تموز من سنة ١٩٢١م حيث قدم استقالته لشكوى الإنجليز عليه بأنه رجل معروف بعدائه للفرنسيين، وأنه يشجع الوطنيين من سوريا بمختلف الوسائل على الانقضاض على الفرنسيين، وأن حكومة بريطانيا ترى أن يستبدل الأمير عبدالله رشيد بك طليع برجل آخر ممن عرف عنهم الاعتدال، وإذا لم يفعل فإنها تعتبر نفسها في حل من كل ما وعدت به سموه من المساعدة.

وتباحث الأمير مع السيد رشيد طليع، وتدارسا الاحتمالات العديدة التي ستترتب على نقض الاتفاق مع بريطانيا، وتبين أن الحكمة والمنطق والمصلحة تقضي بأن يتنحى السيد رشيد عن الرئاسة، وكان رجلاً بعيد النظر ذا شهامة ومروءة، فلم يرد أن يكون حجر عثرة في سير الحكومة الناشئة، وقبل عن طيبة خاطر أن يضحي بمركزه، لكي يتيح لسمو الأمير معالجة الموقف حسب ما تقتضيه الظروف والأحوال.

وبالفعل تنحى المرحوم السيد رشيد طليع، وشكل الحكومة السيد مظهر رسلان في منتصف شهر آب ١٩٢١م.

---

(٢) في الآثار الكاملة: ومشاور الداخلية (ص ١٦٦).

إن الإنجليز حريصون جداً على عدم إزعاج فرنسا، وعلى إبقاء الحدود على ما هي عليه، ذلك حسب المخطط الذي رسموه لتنفيذ برنامج الصهيونيين الذي نعاني منه اليوم، وهم دائماً يكذبون ويراوغون، فقد كذبوا على الأمير عبدالله وقالوا له إنهم سوف يعيدون له سورية بعد ستة أشهر من تاريخ مقابلته مع تشرشل في القدس، ولم يفوا بوعدهم، كما كذبوا على والده الملك حسين من قبل، ثم أخرجوه من ملكه عندما تشدّد في الحرص على إبقاء فلسطين عربية، وهم اليوم يكذبون في الوعد بحل قضية فلسطين وإرجاع اليهود من الأماكن التي احتلوها، وهم مع هذا يبيعونهم السلاح، ويصيحون ويضجون من فرنسا وكيف تبيع السلاح إلى ليبيا. ولو أن ليبيا اشترت السلاح منهم لسكتوا، وهكذا فهم دائماً موطن الخبث والدس والكذب.

استقال المرحوم رشيد طليع من الحكم، وبقي في عمّان مدة ثم انتقل إلى مصر، ومكث فيها عاماً وربع عام، وكان يتصل بالوطنيين السوريين فيها وفي سورية، وبرجال السياسة ممن يؤمل مؤازرتهم في الثورة على الفرنسيين. ولما شبت الثورة في سورية عام ١٩٢٥م قصدها وانضم إلى المجاهدين.. واتسع نطاق الثورة في دمشق وحماة وغيرهما، فعمل على تنظيم الثورة، وكان مريضاً فأهمل نفسه وأجهدها فتوفي والثورة أحوج ما تكون إليه في سنة ١٩٢٦م = ١٣٤٥ هـ ودُفن في قرية "شبكا" بجبل الدروز. وكانت سنّه نحو خمسين عاماً رحمه الله.

أحمد مريود(٣)

الشخصية الثانية في تلك الحكومة هو أحمد مريود، أحد الزعماء الأحرار الذين قضوا كل حياتهم في العمل على إنقاذ الوطن من المستعمر. يقول عنه الزركلي(٤): " كانت له زعامة ومهابة، ناضج الرأي، شجاع ". ووصفه سعيد العاص - رحمه الله - بأنه من خيرة رجال الاستقلال وأنه هاشمي الهوى والنزعة، وقال في تأبينه: " إنه شب على الإباء والشمم والشهامة العربية وسعى بكل ما أوتي من ذكاء ودهاء لإعادة أمجاد قومه. وقد عرف بصراحة القول والجرأة والشجاعة الممتازة ... فإذا بكينا أحمد فإنما نبكي البطولة والشهامة والإخلاص المجسّم والوفاء العربي ".

(٣) خصّه سعيد العاص بكتاب عنوانه: استشهاد البطل أحمد مريود، ١٩٣١.
(٤) الأعلام، للزركلي، ١/٢٦٢ - ٢٦٣ (ط. دار العلم للملايين، بيروت، ط. ٩، ١٩٩٠).

وأنا لم اجتمع به وإنما سمعت من كل من عرفه الثناء الطيب على رجولته الفذة وتوافر صفات الزعامة وقيادة الرجال فيه، وصبره على المكاره، واقتحام الشدائد، إلى أن لقى حتفه وجاد بنفسه، والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

ومن أقواله المأثورة: " نحن طلاب استقلال وحرية، ولا نرضى سيادة أية دولة من الدول، لا فرق بين إنجلترا أو فرنسا أو تركيا ".

أصل آل مريود من البلقاء من قبيلة الهنادي التي كانت تقبض بيدها على زعامة البلقاء ردحاً من الزمن. وقد حدث في أوائل القرن التاسع عشر أن المهداوي شيخ هذه القبيلة طغى وتجبرً في حكمه مما دعا فرسان قبيلة العدوان وأهل قرية الفحيص للإيقاع به وقتله، وبذلك انتقلت زعامة البلقاء إلى قبيلة العدوان، ونزح الهنادي عنها، وكان مريود أحد الذين نزحوا فاستقر في الجولان بقرية "جباثا الخشب" إحدى قرى قضاء القنيطرة على السفح الشرقي لجبل الشيخ، التي هي الآن بقبضة اليهود.

ولد أحمد بن موسى بن حيدر مريود في "جباثا الخشب" سنة ١٨٨٧م، وتلقى تعليمه في مدارس القنيطرة، وأتم تعليمه الأولي في مدارس القنيطرة أيضاً، وأتم التعليم الإعدادي في دمشق. وكان أبوه رجلاً مثقفاً واعياً، كان له جريدة في القنيطرة اسمها الجولان، والذي يُصدر جريدة في تلك الأيام يكون على درجة كبيرة من الثقافة والعلم والإدراك.

وقد شبَّ أحمد حراً ثائراً على الأتراك وعلى غيرهم ممن تسلطوا على بلادنا. وانضم إلى حزب "العربية الفتاة"، وعند إعلان الحرب العالمية الأولى دأب على تجهيز الفارين من مظالم الاتحاديين الأتراك للحاق بالثورة العربية التي رفع لواءها الشريف حسين. وفي سنة ١٩١٥م لجأ إلى داره في قريته جماعة من الزعماء الذين حكم عليهم جمال باشا بالإعدام، وهم: جلال البخاري، وعزالدين التنوخي، والبساط، والشهابي، والعريسي، وحمد، وأخذهم أحمد الى حوران، ومنها الى قرية كفرسوم حيث نزلوا عند الشيخ كايد المفلح شيخ عشيرة العبيدات، ومن هناك رحلوا إلى الموقر حيث حلوا في ضيافة الشيخ حديثة الخريشة – رحمه الله – وهو من أحسن وأظرف شيوخ بني صخر وأنضجهم، ومن هناك توجهوا إلى الجوف عند ابن الشعلان، وغرر بهم أحد مشايخ

البدو حيث حسّن لهم أن يذهبوا إلى مداين صالح ليذهبوا بالقطار إلى المدينة، فذهب الشهابي والبساط وحمد والعريسي الى مداين صالح، ولِسوء حظهم تعرف عليهم هناك طبيب تركي كان زميلاً لهم في الدراسة، فأبلغ عنهم، وألقي القبض عليهم فأعيدوا إلى دمشق وشنقوا هناك.

أما أحمد وجلال البخاري فقد ذهبا إلى "الضمير" عند نوري الشعلان، فلما علم بهم هذا سلمهم إلى الأتراك ومعهما أحمد الخطيب خال أحمد مريود والأمير طاهر الجزائري.

وفي عاليه تعرف عليه النائب العام وكان قد حلَّ في ضيافة أحمد في قريته قبل الحرب، فهمس في أذن أحمد أن يدعي أنه كان في البادية بقصد ابتياعِ الجمال، وبالرغم من صدور حكم المحكمة ببراءته فإنه ظل في السجن مدة طويلة وأطلق سراحه قبيل مدة انتهاء الحرب.

وكان في عهد الملك فيصل من الرجال الوطنيين البارزين، وانتُخب عضواً في الهيئة الإدارية لحزب الاستقلال.

وعندما تأزم الوضع في سوريا، وصار السياسيون شيعاً وأحزاباً وكل جماعة تميل إلى جهة، وبعضهم يحبذ الاستعانة بالأجانب، مثل أمريكا أو إنجلترا، كان أحمد مريود يرفض كل تقرب من الأجانب ولا يرضى إلاّ بالاستقلال التام، وقال يومئذٍ قولاً مشهوراً لا نزال نحن بحاجة إليه إلى اليوم، قال: "إن المستقبل مظلم جداً، لأننا نسير بلا برنامج وعلى غير هوى، حيثما تدفعنا أيدي المطامع المحيطة بنا من كل الجهات، فإذا لم نضع لأنفسنا برنامجاً صريحاً نتعهد بأن لا نحيد عنه، ذهبت جهودنا أدراج الرياح، وكانت العاقبة شراً ووبالاً علينا وعلى البلاد..".

وكان ما تنبأ به فقد حلت الكارثة ودخلت فرنسا سورية، وجعل أحمد مريود يقاوم الاستعمار مقاومة شرسة في البقاع والجولان مدة، ولكنه لم يستطع أن يصمد بعد سقوط دمشق فغادر سورية إلى الأردن، ونزل هو ورفقاؤه من المجاهدين في قرية كفرسوم وبقي بها مدة، ثم ذهب هو ومحمد علي العجلوني وفؤاد سليم إلى معان حيث انضموا إلى الأمير عبدالله وجاؤا معه إلى عمّان، وعملوا على تأسيس الحكومة فيها على أمل تقويتها واستعادة سورية.

شارك في الحكم مع رشيد طليع، ثم مع مظهر رسلان، ثم مع علي رضا باشا الركابي، وبقي في الحكم إلى تاريخ ٣١ كانون الثاني عام ١٩٢٣م، ثم بدأت المتاعب والمشاكل تلاحقه والسبب في ذلك البريطانيون فإنهم كانوا حريصين على استقرار فرنسا بسورية، وفرنسا بدأت تتململ وتشكو من أعمال أحمد مريود وجماعته الاستقلاليين في شرق الأردن ومن مساعدتهم للثوار الذين أقضوا مضجعهم. ولم يكتف الإنجليز من الشكوى والتذمر من وجود هؤلاء الأحرار في الأردن، بل أخذوا يحرّضون بعض زعماء البدو والذين لا وعي عندهم من الأردنيين، ويبثون الإشاعات بأن أحمد مريود يريد أن يستعيد مجد أجداده ويأخذ زعامة البلاد منهم. فصار هؤلاء الرجال الأحرار يواجهون المتاعب الجمة، وما زال الإنجليز يضغطون على الأمير حتى طلبت حكومته منهم مغادرة البلاد فغادرها جماعة منهم أحمد مريود، وعادل أرسلان، ونبيه العظمة، وأحمد حلمي، وعثمان قاسم، وفؤاد سليم، وسامي السراج، ومحمود الهندي، ونزحوا إلى العقبة ومنها إلى الحجاز للإقامة عند الملك حسين، وذلك عام ١٩٢٤م.

وبعد خروج الملك حسين من الحجاز، ذهب أحمد مريود الى العراق، فأكرم الملك فيصل وفادته، وكان موضع احترام العراقيين، وأقام في خانقين على الحدود الإيرانية العراقية.

ولما شبّت الثورة السورية، انتظر حتى استفحلت فاجتاز بادية العراق وجاء إلى جبل الدروز في أواسط شهر نيسان ١٩٢٦م واجتمع بسلطان باشا الأطرش والدكتور عبد الرحمن الشهبندر، واتفقوا على توحيد الثورة، وسار إلى الغوطة حيث التف حوله عدد من رؤساء المجاهدين وبدأوا القتال ضد الجيش الفرنسي، ودخل قريته "جباتا الخشب" وجعلها مركزاً لأعماله، وبقي يجاهد إلى يوم ٣٠ مايو ١٩٢٦م، حيث جاءت قوة كبيرة وطوقت القرية بدباباتها وفرسانها ولم يكن معه سوى خمسة وأربعين رجلاً، واشتدت المعركة وجرح أخوه ياسين وهو في السادسة عشرة من العمر وقتل أخوه محمود، وهو يجول ويصول ويشجع رجاله فأصيب بكتفه وخاصرته وذقنه فسقط مضرجاً بدمائه، وبعد قتال عنيف انسحب المجاهدون إلى غابة بجوار القرية، وأخذ الفرنسيون جثة الشهيد أحمد مريود وعرضوها في ساحة المرجة بدمشق يوماً كاملاً.

وقد كان – رحمه الله – يستطيع الانسحاب والنجاة بنفسه، ولكنه لم يرض، فقد كان يمثل في حياته شعار الصمود في وجه المستعمرين حتى النفس الأخير.

وهكذا ذهب ذلك البطل المجاهد الحر العظيم ضحية من ضحايا الاستعمار وكم ضحية له في بلادنا، وكم سيكون هناك ضحايا في هذه الأيام وفي المستقبل إلى أن يُكتب لنا النصر وتحرير بلادنا من الاستعمار ومن تعصب الغربيين ضدنا، ولا أدري متى يتم ذلك وتنتهي حروب التعصب، ونخلص من نقمة الأوربيين. إن ذلك مرهون باتحادنا وتصميمنا على القتال، ووضع برنامج مدروس مفصَّل، موقت، بنية خالصة وعزم وإيمان وصدق. رحم الله أحمد مريود فإنه كان من الرجال القلائل المؤمنين بحقهم، المحبين لبلادهم وشعبهم، وقضى عمره يعمل حتى النفس الأخير.

- ١٤ -

الشيخ محمد الخضر الشنقيطي(١)

الشخصية الثالثة في هذه الوزارة العظيمة (أول حكومة أردنية) هي: الشيخ محمد الخضر الشنقيطي:

هو محمد الخضر بن سيدي عبدالله بن مايابي الجكني الشنقيطي، نسبة الى شنقيط وهي بلدة في موريتانيا، ذلك القطر العربي النائي.

تصور أيها القارئ الكريم رجلاً من أقصى المغرب على المحيط الأطلسي يأتي عمّان ويكون قاضياً للقضاة، ويتخذها موطناً بعد أن توطن مدة في فاس عاصمة المغرب العربي، ثم في المدينة بالحجاز، ثم في عمّان، أليس في هذا أكبر دليل على أن العرب أمة واحدة، وأن البلاد العربية وحدة حقيقية مكملة لبعضها ؟ وكانت واحدة في مشاعرها ولاتزال، وإنك حيثما ذهبت تجد أهلاً بأهل وجيراناً بجيران، وتجد أناساً يحبونك وتحبهم ويشاركونك المشاعر والعواطف.

ومن حُسن الحظ أني تعرفت على هذا الإمام العظيم، ودرست عليه مدة ثلاث سنوات تقريباً، وهو السبب في إحيائي وبعث النشاط فيّ من جديد وجعلي أُعاود الدراسة، وأذهب إلى الأزهر وأتعلم، بعدما كنت تركت المدرسة والدراسة مدة من الزمن.

ولد في موريتانيا وبها تعلم فحفظ القرآن الكريم، ومشاهير متون الفقه واللغة والنحو والصرف وجميع ما هو معروف من علوم شرعية ولغوية. وحدثني عن طريقة معيشتهم وكيفية التعليم في بلادهم، فقال: إنهم بدو أهل جمال وماشية وقسم كبير منهم يعيش في خيام، ومع هذا فإنهم مولعون بالعلم والشعر والأدب.

وطريقة التعليم عندهم، عندما يتقن الفتى القراءة والكتابة، ففي بعض الجهات يبدأ بتحفيظ الطالب القرآن الكريم، ومن ثم يبدأ بطلب العلم، وفي البعض الآخر يُبدأ بتحفيظ الطالب الأشعار واللغة والأدب، ومن ثم يُبدأ بتحفيظه القرآن والفقه وغيرهما

---

(١) الأعلام، للزركلي، ٦/١١٣.

من العلوم الشرعية. وكانت قبيلتهم تبدأ بالقرآن الكريم، فحفظ القرآن، ودرس بعض الأمور الشرعية، ولما أراد أن يتزود من العلم والمعرفة أخذ ناقة وركبها ورحل إلى عالم شهير بعيد عن الجهة التي يعيش بها قومه وعشيرته، وكانت هذه الناقة هي راحلته وزاده يشرب من لبنها، ويدرس عند ذلك الأستاذ مدة عشر سنين حتى حفظ أهم المتون، ودرس اللغة والفقه والحديث وجميع ما يحتاجه، وبقي تلك المدة حتى شهد له أستاذه بأنه أصبح من العلماء الموثوق بعلمهم، ثم عاد إلى بلاده، وجعل يفتي ويدرِّس.

الهجرة من بلاده إلى المغرب

بقي الشيخ مدة وهو أكبر عالم في بلاده، ولكن الأيام لم تصفُ له فقد بدأت فرنسا تهاجم بلاده لتحتلها، فنهض لمقاومتها، وحرض قومه وجمع جيشاً حوله وبدأ يحارب فرنسا، مدة خمس سنوات، ولم يستطع الصمود أمام جيش فرنسا المنظم، ولم تأته أية مساعدات من الدول المجاورة، فقد كانت المواصلات صعبة، والأمور مضطربة في غالبها، فاضطر بعد كل تلك المقاومة الشديدة أن ينسحب مع خاصة رجاله من أقاربه وأبناء عمومته وأهله إلى المغرب. وكان معه أخوه الشيخ محمد حبيب الله وهو أيضاً من كبار العلماء، فاستقر محمد حبيب الله في مراكش وعُيِّنَ إماما وخطيباً لمسجد الكتبية.

أما الشيخ محمد الخضر فإنه قصد فاس، ونزل ضيفاً على سلطانها، وكان السلطان إذ ذاك موسى عبد الحفيظ، وكان من العلماء الأدباء، فأنزل الشيخ بقصر إلى جانب قصره وأغدق عليه النعم. وكانت فاس في تلك الأيام تعج بالعلماء والأدباء وطلبة العلم، وكان جامع القرويين في أوج عزه، مقصد الطلاب، وقبلة أهل العلم، ومجمع العلماء. وكانت فاس مدينة العلم في المغرب، فاستقر الشيخ فيها، وأخذ يجتمع بعلمائها. وكان السلطان عبد الحفيظ يعقد مجالس العلم وفيها يتناظر الفقهاء والعلماء وتدور المناقشة حول كثير من المسائل، وكان الشيخ يجلي في تلك المجالس وتظهر عبقريته، وحفظه واطلاعه، مما بهر كل من لقيه وعرفه في تلك الديار، وذاعت شهرته، ونعم بتلك الحياة التي تختلف عن حياة بلاده، وذاق حلاوة الدنيا ونعيمها، وعاش في تلك الحضارة مدة خمس سنوات، حيث حل في المغرب في أوائل سنة ١٩٠٨م. وفي سنة ١٩١٢م جاءت فرنسا إلى المغرب وفرضت حمايتها عليه، فجمع الشيخ متاعه، وكتبه، وأخذ جميع من معه وسافر إلى طنجه، ومنها أبحر إلى الإسكندرية.

وعندما عزم على السفر من طنجه كتب رسالة إلى خديوي مصر يشرح له فيها قضيته ويعرفه بحاله، وأنه متوجه إلى المدينة المنورة عن طريق الإسكندرية، ويرجو منه أن يأمر بتسهيل سفره، وضيافته في مصر أثناء مروره فيها، وأرسل الكتاب، وسافر هو بعد ذلك.

وصل الإسكندرية وحط رحاله على الميناء، ومعه جمع غفير من أهله وأقاربه، ومتاع وكتب كثيرة، وقد حار في أمره، ولا يدري كيف يفعل في تلك المدينة الواسعة.

وبينما هو على تلك الحال، إذ جاء رجل يسأل عن القوم فقال له أحد أتباعه هؤلاء من شنقيط، وهم مع العلامة الشيخ محمد الخضر الشنقيطي، فقال الرجل: وأنا أبحث عنه دلوني عليه، فأخذوه له وعرفوه عليه فقال له: أنا مبعوث من طرف الخديوي وقد أمر بأن تكون أنت وجميع من معك ضيوفاً عليه فقد وصلته رسالتك وكلفني بالاهتمام بأمرك. وأنا منذ مدة آتي وأسأل عنك. وأخذه مع جميع من معه وأنزلهم في منزل واسع ومكثوا في الديار المصرية مدة أربعة أشهر. وبعد ذلك غادر الشيخ مصر ومن معه إلى الحجاز عن طريق البحر، وذهب إلى المدينة. واستقر فيهاوكان معه مبلغ من المال جمعه أثناء إقامته عند السلطان عبد الحفيظ. وأول شيء عمله هو أنه اشترى أرضاً وبنى داراً كبيرة وسكنها وعاش في المدينة المنورة وكانت تلك أمنية غالية طالما كان يحلم بها واستقر فيها هو ومن معه من أهله وأقاربه، وذلك كان سنة ١٩١٣م وظن أن الأمور ستبقى كما يشتهي، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه، فقد قامت الحرب (العالمية) الأولى سنة ١٩١٤م، وفي سنة ١٩١٧م قام الشريف حسين بثورته ضد الأتراك، وسقط معظم الحجاز بيده، وظلت المدينة تقاوم، وكان بها والياً عنيداً بقي يقاوم إلى أواخر سنة ١٩١٨م، وطالت مدة الحصار على المدينة وقلّت فيها الأغذية وشحّت المؤن، فاضطر كثير من السكان إلى مغادرتها، وكان الشيخ محمد الخضر وجماعته من الذين غادروا المدينة، ونزلوا في جنوبي الأردن عند الطفيلة، وبقي هناك إلى أن استسلم فخري باشا والي المدينة، فعاد إليها هو ومن معه بعد أن لقوا أشد العنت من البرد والثلج والتعب، فإن المنطقة كانت باردة جداً، وفي أيام الشتاء غالباً ما يكون فيها الثلج لارتفاعها عن سطح البحر بنحو ألف وثلاثمائة متر. وكانت مدة إقامته في الرشادية جنوب الطفيلة

أحد عشر شهراً، وذهب بعد ذلك إلى دمشق ومنها إلى العقبة ثم إلى مكة وبقي فيها سنة ثم عاد إلى المدينة.

عاد الشيخ إلى المدينة، واستقر في داره وبين أهله، وتلاميذه وأصدقائه، وظن أن المتاعب قد انتهت، وأن الجو قد صفا، ولم يدر ما يخبيء له القدر.

فما كادت الحرب العالمية تنتهي، حتى هاجمت فرنسا سورية، واحتل الإنجليز فلسطين، فأرسل الملك حسين ولده الأمير عبدالله الى الأردن ليجمع حوله قوة ويسترد سورية، وجاء الأمير عبدالله يصحبه الشيخ محمد الخضر الشنقيطي وحل في عمّان وأسس فيها الإمارة. وكان الشيخ قاضياً للقضاة في تلك الحكومة، ولكنه لم يمكث في ذلك المنصب مدة طويلة، لأنه لم يكن يرغب في تلك الوظائف وليس له صبر على احتمال المشاكل فترك الوزارة. وبقي في عمّان مدة، وذهب في رحلة طويلة زار فيها الكويت والبحرين ودبي، ثم الهند وبقي مدة في حيدر آباد. ثم عاد منها إلى العراق وعاد إلى المدينة فاستقر بها، وكانت هذه الرحلة قد استغرقت مدة عشرة أشهر، وفي العراق مكث نحو سنة ونصف [السنة].

عاد إلى المدينة، ولم يكد يستقر فيها حتى هاجم الوهابيون الحجاز، وكان على اختلاف معهم في الرأي والمذهب، فغادر المدينة وجاء إلى عمّان واستقر فيها. وكان يعيش عيشة عظيمة، فكان يأتيه راتب من حيدر آباد، وراتب من الملك فيصل من العراق، وراتب من الملك عبدالله، ومن الملك فؤاد في مصر، فكان مجموع ما يقبضه شهرياً يصل إلى نحو مائة جنيه، وكان يصرف هذا المبلغ كله وأحياناً يكون مديناً آخر الشهر، فقد كان – رحمه الله – كريماً جداً لا يعرف للمادة معنى، وقلما يمضي أسبوع أو اثنان إلاّ ويكون عنده دعوة في بيته لأصدقائه أو للأمير عبدالله، أو لمن يأتي من الأمراء من الحجاز وغيرها.

وقد تعرفت عليه في أواخر سنة ١٩٣٠م، وبقيت في صحبته إلى آخر سنة ١٩٣٤م حيث رافقته إلى مصر وانتسبت إلى الأزهر، وغادرها [هو] إلى المدينة في رحلته الأخيرة. فلم أر مثله إنساناً قط في علمه وخلقه وتدينه، ولطفه وأنسه، وحبه لأصدقائه، والسؤال عن أحوالهم ومؤانستهم.

كانت عادته أن يقوم صباحاً يبدأ بالكتابة والمراجعة لما يؤلفه إلى وقت صلاة الظهر فيصلي الظهر ثم يتغدى ويذهب إلى الاستراحة إلى وقت صلاة العصر، فيصلي العصر، ويجلس فيأتيه أصدقاؤه وتلاميذه فيقضي معهم الوقت إلى صلاة العشاء، فيصلي العشاء وينسحب الى غرفة نومه، وهكذا كانت حياته لا تغيير فيها ولا تبديل، وكانت هذه الفترة بين العصر والعشاء فترة لطيفة تعرض فيها شتى المسائل وتُثار بعض الأسئلة والأحاديث. وفي رمضان كان لابد من قراءة كتاب في السيرة النبوية.

وكان يذهب إلى جامع عمّان ويلقي دروساً في الحديث، وكان الملك عبدالله يحضر بعض هذه الدروس، وكان يستقبله ببشاشة ويقبل يده أمام الناس احتراماً له ولعلمه.

وكان الشيخ - رحمه الله - لا يفتأ يذكر المدينة، ويدعو الله تعالى في آخر كل صلاة أو درس أو أية مناسبة أن يجعل وفاته في المدينة، وقد استجاب له ربه.

ففي أواخر سنة ١٩٣٤م أصر على العودة إلى المدينة ورجا من الملك عبدالله أن يتوسط له لدى الملك عبد العزيز بن سعود بأن لا يمانع في عودته والسماح له بسكنى المدينة. وأجاب المرحوم الملك عبد العزيز بن سعود بأنه يرحب بالشيخ على شرط أن لا يتدخل في السياسة، وسر الشيخ بذلك، وجهز نفسه وسافر إلى القدس في أواخر شهر تشرين الثاني من سنة ١٩٣٤م، وذهبت بصحبته وكان جماعة من أصدقاء الشيخ أيضاً في الرفقة، وحل ضيفاً هو وجميع من معه على الحاج محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين، حيث أنزله في داره بحارة المغاربة بجوار الحرم. وتوافد عدد كبير من أهل القدس والخليل يسلمون على الشيخ، وجعلوا يدعونه إلى حفلات وأكرموه غاية الإكرام.

وذهبنا في صحبته إلى الخليل، وكانت هذه المرة الأولى التي أزور فيها مدينة الخليل، وكان الداعي للشيخ ومن معه فضيلة الشيخ عبد الحي عرفة، وبعد أن أمضينا يوماً كاملاً عدنا إلى القدس، ومكثنا في القدس نحو عشرة أيام.

كنت أنا ورفيقي الشيخ علي سالم عطية البجلي من أهل اليمن نريد مرافقة الشيخ إلى مصر حتى نلتحق بالأزهر، وذهبت مع الشيخ محمد الأمين الشنقيطي لزيارة سماحة الشيخ محمد أمين الحسيني في مكتبه، وقلنا له نريد أن يتوسط لنا عند القنصل

المصري لنحصل على تأشيرة دخول إلى مصر لأننا نريد الانتساب للأزهر. فقال سماحته: أنصح لكم أن لا تذكروا أنكم ذاهبون للانتساب للأزهر، لأن ذلك سيعقد القضية، وتحتاج إلى عدة أشهر حتى تأتي الموافقة على ذلك، وإنما أنصح بأن يذهب الشيخ محمد الخضر إلى القنصل المصري لزيارته وهناك يقول له إنكما سترافقانه إلى المدينة عن طريق مصر ويطلب منه أن يعطيكما تأشيرة لدخول مصر، وعندما تصلون هناك فإن عملية الانتساب للأزهر تكون سهلة جداً.

ذهبنا في اليوم التالي بصحبة الشيخ لزيارة القنصل المصري وقد نسيت اسمه، وكان رجلاً جليلاً مهذباً جداً، فقد استقبل الشيخ استقبالاً لطيفاً وسر جداً بزيارته له. وبعد أن استقر الشيخ عنده، طلب منه اعطاءنا تأشيرة لدخول مصر لأننا نرافقه في رحلته، فلم يتردد وأعطانا التأشيرة في الحال، وودعه الشيخ وشكرناه على حُسن معاملته.

وغادرنا القدس، ووصلنا القاهرة في أوائل شهر كانون الأول ١٩٣٤م الموافق أوائل شعبان سنة ١٣٥٣ هجرية. وكان السفر بالقطار من القدس إلى اللد ومنها إلى غزة ثم يقطع صحراء سيناء إلى القنطرة، ثم بعد قطع قناة السويس إلى القاهرة.

وصلنا القاهرة ليلاً نحو الساعة العاشرة مساءً، وكانت تلك أول مرة ندخل القاهرة، وقد رأيت الأضواء المشعة، والأنوار الكهربائية والإعلانات، وغيرها من المناظر، فكانت شيئاً مدهشاً حقاً بالنسبة لي، وميدان باب الحديد باتساعه وما فيه من أضواء يأخذ بالنفس ويحير الأنظار.

ونزلنا ضيوفاً مع الشيخ الخضر – رحمه الله – على أخيه العلامة الظريف الشيخ محمد حبيب الله، وفي اليوم الثاني ذهبت [إلى الأزهر] بصحبة صديقي الشيخ علي مع شيخ يمني اسمه السيد محمد علي الأهدل من كرام الناس الطيبين وهو من هؤلاء الطلاب المزمنين في الأزهر، جاء من بلده وانتسب إلى الأزهر وبقي في القاهرة قانعاً بما يأتيه من دخل بسيط، وغرفة مجاناً، ويعيش عيشة الكفاف، وقد ألف حياة القاهرة. وهو كان قد لقينا مع الشيخ في محطة القاهرة، وصحبناه بالترام إلى القلعة حيث يسكن الشيخ حبيب الله، وكان طول الطريق يحدثنا بلهجته اليمنية اللطيفة عن الأزهر وعن

حياة العلماء والعلم، وقد ظننته من كبار العلماء الأعلام، إذ أخبرني أنه مضى عليه في الأزهر نحو عشرين عاماً، ولم يكن يدر بخلدي أنه كان يكرر هذه الأعوام بدون أية فائدة. وأنه اتخذ من انتسابه للأزهر وسيلة إلى الحصول على الإقامة في القاهرة. أما العلم فليس له به صلة إلاَّ لباس العمة والجبة والقفطان وقبض الجراية في آخر كل شهر والحصول على سكن مجاني في إحدى تكايا الأزهر، وتبين لي فيما بعد أن هناك الكثيرين أمثاله من الطلاب المزمنين، الذين يأتون من مختلف البلدان ويسكنون القاهرة ويتزوجون ويقيمون فيها إلى الأبد، ويتخذون من انتسابهم للأزهر حجة للحصول على الإقامة في القاهرة.

ذهبنا بصحبة أستاذنا الكبير السيد محمد الأهدل الى مشيخة القسم العام في الأزهر، وأخذنا أوراقاً وعبأناها، وقدمناها إلى شيخ القسم العام، وفي نفس اليوم سجلنا في الأزهر، وأصبحنا من طلاب العلم، وبعد يومين باشرنا دروسنا، بعد أن استأجرنا غرفة وأثثناها بأثاث بسيط، وسأعود للحديث عن الأزهر وحياته فيما بعد.

حلَّ الشيخ محمد الخضر في القاهرة، وتوافد عليه كبار العلماء والأعيان وبعض الوزراء المصريين يسلمون عليه، واحتفلوا به وأكرموه غاية الإكرام. وكان شيخ الأزهر في ذلك الوقت المرحوم الأستاذ الشيخ محمد الظواهري وهو من كبار علماء الأزهر الأجلاء، ومركز شيخ الأزهر مركز كبير جداً في مصر، ومع هذا فقد جاء الشيخ لزيارته، وأكرمه غاية الإكرام. وكذلك جاء وزير الأوقاف، والمرحوم الشيخ يوسف الرجوي، والشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية السابق، والشيخ محمد حسنين مخلوف، وغيرهم كثيرون وفدوا على الشيخ يزورونه ويسلمون عليه وبعضهم يدعوه إلى بيته. وبهذه الفترة الوجيزة عرفت الكثير منهم. وقد مكث الشيخ في القاهرة إلى أواخر شهر شعبان ثم غادرها إلى المدينة، وجاءتني منه رسالة في شهر رمضان المبارك من سنة ١٣٥٢ هـ يخبرني فيها أنه وصل بخير وأنه مسرور جداً بحلوله في المدينة ورجوعه إليها، فقد استقر بها وقرت عينه في رحابها. وفي الخامس عشر من شهر ذي القعدة من سنة ١٣٥٣ هـ توفي — رحمه الله — ودفن بالبقيع، وحقق الله بذلك رغبته وأمنيته التي طالما كان يرددها في عمّان ويدعو الله بأن يميته بالمدينة عليه الرحمة والرضوان.

مؤلفاتـه

ترك عدداً من المؤلفات بعضها مخطوط، وبعضها طُبع. فمن المطبوع:

١. كتاب مشتهى الخارف الجاني في رد زلقات التجاني الجاني.

٢. قمع أهل الزيغ والإلحاد عن الطعن في تقليد أئمة الاجتهاد.

٣. استحالة المعية بالذات. رسالة في التوحيد: فيها فوائد جمة وموضوعها على غاية الأهمية، "مطبوعة."

٤. رسالة في موضوع الطلاق الثلاث.

٥. شرح البخاري واسمه "كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا البخاري". المقدمة مطبوعة. أنهى منه ستة مجلدات، وكتبت له أنا بخطي أربعة مجلدات. لم يكمل فيه العبادات، وهو شرح جليل وفيه فوائد جمة وهو من أهم ما ألف: يأتي بأقوال الأئمة الأربعة مع الأدلة وترجمة الصحابي راوي الحديث.

٦. إيضاح مختصر خليل بمذاهب الأئمة الأربعة وأصح الدليل (مخطوط).

٧. كتاب في الرد على ابن تيمية والوهابية. في نحو خمسمائة صفحة (مخطوط)

٨. الرسالة الحاوية لأحكام الخلافة والباغية.

٩. سلم الأرواح والأشباح إلى نيل السعادة والفلاح.

أولاده

ترك ولدين: الأكبر سماحة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وقد تولى مناصب كبيرة: كان قاضياً للقضاة ووزيراً للتربية والتعليم عدة مرات. وعمل سفيرا للأردن لدى المملكة العربية السعودية.

والثاني محمد عبدالله. سافر مع والده إلى المدينة واستوطنها، وكان موظفاً في الحكومة السعودية، وقد حدث له حادث سيارة توفي على أثره في أواسط عام ١٩٦٨م، رحمه الله، وكان لطيفاً دمثاً مهذباً.

وله بنت واحدة.

علي خلقي الشرايري(٢)
و حسن الحكيم

من الأشخاص المرموقين في هذه الوزارة (أول حكومة أردنية): علي خلقي الشرايري وهو من أهل إربد، وكان من المثقفين العسكريين. لعب دوراً هاماً في الأردن قبل مجيء الأمير عبدالله وبعد تشكيل الحكومة.

وكذلك حسن الحكيم من أهل دمشق، وكان من الوطنيين المعروفين.

تشكلت الحكومة في عمّان، وبدأت في تشكيل قوة صغيرة للأمن فقد كانت هناك قوة صغيرة من مائة جندي اسمها "القوة السيّارة" شكلها الإنجليز، كان يتولى قيادتها الكابتن برانتون، ثم تولى قيادتها فردريك بيك.

ولما قدم الأمير عبدالله وتوحدت البلاد جعلوا قوى الأمن أربعاً:

١. الدرك.

٢. كتيبة الدرك الاحتياطي.

٣. الكتيبة النظامية.

٤. قوة الهجانة.

وكان عند الأمير عبدالله رغبة في تقوية الجيش العربي، وتنميته وتزويده بالأسلحة، ولكن لم يكن لدى الحكومة المال الكافي، وأخذت المصاعب تواجهها، والعقبات تقف في طريقها منذ تأسيسها.

لما جاء والدي من تركيا، كان والده قد توفي، وإخوانه لم يحسنوا القيام على متجر والدهم فتركوه ولم يوفقوا لمزاولة التجارة، فحاول أن يعمل بالتجارة، فلم يجد رأس المال الكافي، فأخذ طريقه إلى الجيش وعمل في قوة السيارة، وأخذ رتبة وكيل، وكانت

---

(٢) علي خلقي بن حسين الشرايري (١٨٧٦ — ١٩٦٠) خدم في الجيش العثماني، ولما أسره الإنجليز في مصر انضم إلى قوات الثورة العربية الكبرى، وفي سنة ١٩٢٠ اختاره زعماء عجلون رئيساً لحكومة إربد المحلية. وبعد تأسيس الإمارة تولى عدة مناصب (أنظر: وجوه وملامح، لسليمان موسى، الجزء الأول، ص ١١ — ٤٤، ط. وزارة الثقافة والشباب، عمان، ط١، ١٩٨٠، و قاموس المؤلفين في شرقي الأردن، تأليف: كايد مصطفى هاشم، ص ٤٩ — ٥٠، المطابع العسكرية، عمان، ١٩٩٥).

رتبة جيدة، لما له من خبرة في الجندية. وكان راتبها لا بأس به بالنسبة لتلك الأيام فتحسنت الحالة عندنا، وكذلك كان يساعد إخوانه بما يستطيع رغم معارضة والدتي فقد كنت ألحظ ذلك. ولكن والدي رجل طيب القلب لم يستطع أن يترك إخوانه بحاجة وهو يستطيع أن يساعدهم.

- ١٥ -
عهد جديد.. في المدرسة

فُتحت المدرسة في عمّان ودخلتها وقُبلت في الصف الثاني رأساً لأني كنت في الكُتَّاب قبل ذلك، وأعرف القراءة والكتابة جيداً، وقرأت قسماً كبيراً من القرآن، وأعرف الأعمال الأربعة في الحساب، ومشيت في المدرسة جيداً، وفي آخر السنة كنت الأول في الصف، ولا أنسى ذلك، إذ قدمت لي هدية هي قلم ذهبي ممتاز وبعض الكتب في حفل آخر السنة، وكانت تلك الهدية شيئاً كبيراً عندي لا أنساها أبداً، فقد فرحت فيها، فرحاً لا يُحد، وحفزتني على الجد في التعلم والمطالعة، وقراءة ما أجده من الكتب على قلتها وندرتها في تلك الأيام ؛ فإن عمّان بلدة ناشئة لم يكن فيها مكتبة، ولم يكن فيها بيت فيه كتب إلاّ نادراً. وكل ما كان يُقرأ ويتداول بين الناس كتاب ألف ليلة وليلة، و تغريبة بني هلال، و سيرة عنترة، و سيرة الزير ابي ليلى المهلهل، وكان الناس يجتمعون في بيت من البيوت، ويقرأ قارئ لهم بعض هذه السير أو الكتب، لأن قسماً كبيراً منهم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب. وكانوا يطربون لسماع هذه الكتب وما فيها من بطولات وقصص، وبعضهم يتحمس لها كثيراً. وهكذا كان مجتمع عمّان، وهو صورة مصغرة لبقية المجتمعات في دمشق وغيرها من كبريات المدن. وكان مجتمع دمشق يمتاز بأنه يوجد فيه بعض هؤلاء القراء ممن يقرأ للناس في القهاوي العامة، وبعضهم يلحن القصائد ويغنيها على الربابة، ويوجد علاوة على ذلك ما يسمونه "الكراكوز". وكان أعمامي يشاركون في هذه الاجتماعات، وتعقد في بيتنا بعض هذه المسامرات، وفتحت عيني على سماع بعض هذه القصص.

ولم أكمل الصف الرابع إلاّ وقد قرأت كتاب ألف ليلة وليلة، وكتاب الزير سالم، وسيرة بني هلال، وجزءاً كبيراً من سيرة عنترة، وبعد ذلك وقع في يدي كتاب فتوح الشام للواقدي فأخذته والتهمته التهاماً واحببته جداً. ثم وجدت أيضاً كتاب حياة الحيوان للدميري فأخذت أطالع فيه وأُعجبت بما فيه من معلومات، وقرأته كله. كل هذه الكتب قرأتها وأنا لا أزال في الصف الرابع الابتدائي.

كان دخولي للمدرسة مفيداً جداً لي، فإن المعلومات التي بدأنا نتلقاها كلها جديدة ومفيدة، ولم تكن المدرسة مدرسة حديثة فيها من وسائل التعليم وطرقه ومرغباته

ومميزاته الموجودة اليوم، فما هي إلاّ بيت عادي، يُحشر الطلاب في الصف، ويأتي المعلم وعصاه بيده مثل شيخ الكُتّاب، حتى إن شيخ الكتاب الذي كان يعلمنا في بيته عيِّن معلماً للدين والقرآن الكريم، فانتقل إلى المدرسة بأسلوبه الذي عهدناه في كُتّابه، رحمه الله.

كان المعلمون شباناً وفدوا علينا من سورية ولبنان ومصر، وكلهم غير مؤهل لأن يكون معلماً أو جلهم على الأصح، وكان بعضهم من أهل الأردن ممن درسوا في عهد الأتراك في دمشق أو في استانبول أو غيرها من البلاد الأخرى. وكان هؤلاء الأساتذة غير مجهزين للتعليم، فكان كل واحد يعلم بطريقته الخاصة وحسب مزاجه، فكان منهم صاحب المزاج العصبي الحاد الذي لا تفارق العصا يده، فكنا نرهبه، ونحسب لدرسه ألف حساب. وكان منهم اللين الظريف المتسامح، الذي يقص علينا بعض القصص الطريفة، ويسحرنا بكبر قلبه ولطفه، فكنا ننتظر درسه بفارغ الصبر، ونحبه، ولا نزال إلى اليوم نحبه، وقد مات أغلبهم رحمهم الله وطيب ثراهم.

لم تزد المدرسة على الكُتّاب إلاّ بتنوع المعلومات، فلم تتمتع بشيء من الوسائل الحديثة التي نراها اليوم، ولم نعرف سوى القراءة والدرس، والعقاب والعصا، والمكافآت في آخر السنة للمبرزين. فلا أذكر أننا ذهبنا رحلة إلى بلد مجاور ولا حتى في داخل الأردن، ولا أذكر أن عندنا لعبة رياضية أو أية تسلية مما هو موجود الآن...

على أي حال كانت المدرسة شيئاً جديداً بالنسبة للكُتّاب، وقد فتحت أعيننا على شيء من المعرفة، وتوسعت مداركنا، وبدأنا نعرف شيئاً من الجغرافيا، ورأينا الخرائط، وبعضاً من العلوم والرياضيات. وأخذنا كمية من المحفوظات العربية شعراً ونثراً. وبدأنا ندرس اللغة الإنجليزية. وهكذا تكونت عندنا بعض المعلومات التي أخرجتنا مما كنا فيه من ظلام، وبدأنا نتلمس الطريق. وفُتحت مكتبة في عمّان فتحها رجل جاء من فلسطين، وصرنا نرتادها ونشتري ما يلزم لنا من دفاتر وأقلام وغيرها من قرطاسية وكتب على قلتها.

ولا أنسى فرحتنا بكتاب القراءة الرشيدة عندما تسلمناه وبدأنا نقرأ فيه، فقد بهرتنا صوره، وما فيه من مواضيع عن القاهرة، وما فيها من معالم، وعن مصر الجديدة،

والإسكندرية، وكنا نتصور تلك البلاد وعظمتها ونقارنها في بلدنا الصغير المحدود. وكان هذا الكتاب على قلة ما فيه متعة لنا وأي متعة.

وقرأنا في التاريخ شيئاً عن الفتوحات الإسلامية والخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين. وأذكر أنني ذهبت لأول مرة إلى دمشق وأنا أعي ذلك بعد أن أنهيت الصف الثاني الابتدائي. وكان ذهابي لدمشق مع والدتي لزيارة إخوانها وأخواتها، وهم من سكان حي الميدان.

وثاني يوم وصولي إلى دمشق كان أول طلب لي أن يأخذوني لزيارة الجامع الأموي، فأخذتني إحدى خالاتي، رحمها الله، ولأول مرة أركب الترام، فكان هذا شيئاً عجيباً لي. ثم دخلنا سوق الحميدية فبهرني منظره وغرابته، وكنت أتلفت يميناً وشمالاً وأتطلع إلى سقفه وأنا معجب بتكوين هذا السوق الغريب الجميل. وكلما زرت مسجداً أسأل وأقول: هل هذا هو الجامع الأموي؟ إلى أن وصلنا إليه ودخلته فكان سروري به عظيماً ولا أستطيع أن أصف إعجابي به وبما رأيته من روعة وجلال وجمال نقوش وزخرفة، فكنت أقف عند الجدران، وأتلمسها، ووقفت عند المنبر طويلاً وأنا أتأمل ذلك الصنع العجيب، ولما وقفت تحت القبة أُخذت بمنظرها، وجعلت أتطلع إليها وأطيل النظر في تلك الصنعة وجلال ارتفاعها وما فيها من إبداع وفن، وأطلت الوقوف جداً وخالتي تشدني وتقول: يكفي دعنا نذهب. فأقول لها انتظري حتى أتفرج، وما زالت بي تجذبني حتى تركت ذلك المكان رغماً عني، ولو أنها تركتني لبقيت طيلة ذلك اليوم لا أبرح مكاني ذلك.

وخرجنا إلى ساحته وتأملتها وأجلت النظر فيها طويلاً، وخرجنا. وبعد جولة في أسواق "المدينة" كما يسمونها عدنا إلى البيت وأنا في غيبوبة من التفكير وفي حلم كبير في ذلك المكان العظيم، أستعيد بعض معلوماتي الضئيلة عن بانيه، وعن تلك الأمجاد... ولا أزال إلى الآن لابد لي من زيارة المسجد الأموي كلما دخلت دمشق ولو لزيارة عابرة.

لم يكن المجتمع في دمشق أرقى بكثير من مجتمعنا في عمّان، فإن العقلية واحدة والتعليم محدود، ونسبة المثقفين الواعين ضئيلة جداً. فإن ذهابي إلى دمشق المتكرر كل سنة أو سنتين أحياناً مع والدتي لزيارة إخوانها كان يفيدني نوعاً بتغيير الجو، وبعض

الفوائد القليلة. فقد كان بيت خالي في الميدان، ومجتمع الميدان، بما فيه من محافظة وجهل وقيود، مثل مجتمع عمّان إذا لم يكن أشد في ذلك الوقت. أما اليوم فإن مجتمع عمّان أرحب والعقلية أوسع.

كان خالي الكبير مصطفى الحكواتي (أبو رشيد) الذي ننزل في بيته تاجراً يبيع الحبوب، وكان مثقفاً ثقافة دينية محدودة جداً، وله اطلاع على التاريخ قليل، فإني كنت أراه بعد صلاة المغرب يقرأ في كتاب تاريخ تبينته فيما بعد وعلمت أنه تاريخ ابن خلكان(١)، وكان عنده مكتبة صغيرة فيها كتب دينية متنوعة، صرت أُطالع فيها بعد أن تعلمت القراءة جيداً. وكان خالي هذا من أعيان ذلك الحي، يُرجع إليه في كثير من الأمور التي تحدث بين التجار أو بين سكان الحي، فكان يعمل جهده في حل الخلافات وتسوية المشاكل بقدر ما يستطيع. وكنت أرى في متجره اجتماعات دائمة، تدور فيها أحاديث شتى، وكانت تلذ لي تلك الاجتماعات، فأحضرها غالباً، وأبقى معه حتى أصحبه إلى الدار في موعد الغداء. وكان من عادته أنه يتغدى ويستريح إلى وقت العصر، ثم يقوم ويصلي العصر، وبعد ذلك يخرج إلى بساتين خارج دمشق ويأتي جماعة من أصدقائه ويجلسون يتحدثون ويتناولون كؤوس الشاي إلى قرب المغرب، فيتفرقون كلٌّ إلى داره. وبعد المغرب لا أحد يخرج من البيت إلاَّ لزيارة الأقارب أو لدعوة عند أحد الأصدقاء، فكان يأخذني معه إلى البساتين، ولم يكن هناك سيارات وإنما كانوا يركبون الحمير، فكان عنده حمار كبير يردفني وراءه، ونبقى في ذلك المكان إلى وقت المغرب، ونعود بعد ذلك إلى البيت.

كانت الأحاديث محدودة جداً غالبها في مشاكلهم اليومية، ويتخللها بعض الحكايات أو النوادر من أحدهم إذا قرأ أو سمع بعضها.

هكذا كانت تمضي مدة إقامتنا في دمشق، وكانت دائماً تكون في الصيف وقت إجازة المدارس.

وقد تكررت زياراتي إلى دمشق وسأعرض لبعضها في حينه إن شاء الله.

---

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (٦٠٨ – ٦٨١هـ)، وهو مطبوع في سبعة أجزاء بتحقيق الدكتور إحسان عبّاس (دار صادر، بيروت، ١٩٧٨).

عصيان الكورة

على إثر تشكيل الحكومة وتنظيم الإدارة في الأردن، كان هناك كثير من المنتفعين من العهد السابق لم يرق لهم الوضع الجديد، وضاع كثير من نفوذهم وما كانوا يجنون منه من فوائد، فبدأوا يعكرون صفو الجو، وكانت الدولة ناشئة ومحتاجة إلى المال، فبدأت تحصل الضرائب، وتجمع الأعشار، لتقوم بدفع رواتب الجند والموظفين، وبناء البلد. وكان مورد الدولة لا يزال ضئيلاً جداً. وقد شكلت الحكومة قوة درك من نحو خمسمائة جندي وُزعت على الألوية الثلاث: عجلون، والكرك، والبلقاء.

وقوة درك احتياطي من نحو مائة وخمسين فارساً، وكان قائدها فؤاد سليم.

وكتيبة نظامية من المشاة وعدد رجالها نحو مائتين.

وقوة من الهجانة عدد أفرادها نحو مائة.

وتولى سمو الأمير عبدالله منصب القائد العام.

وكان المال أهم ما يواجه الدولة، لتزويد هذا الجيش بالأسلحة والألبسة، وأخذت المصاعب تواجه الحكومة، وتقف العقبات في طريقها منذ يوم تأسيسها.

وكان أول تلك المصاعب والعقبات عصيان الكورة. والكورة في جبل عجلون منطقة جبلية تكثر فيها الغابات وأرضها وعرة جداً. وكان زعيمها الشيخ كليب الشريدة فلم يكن راضياً كل الرضا عما حدث في الأردن، ولم يكن يريد أن يفقد نفوذه ويتنازل عن امتيازاته التقليدية.

وقد حدث أثناء جمع الضرائب وتعداد الأغنام في شهر نيسان من سنة ١٩٢١م أن قتل نائب اسمه حمادة السليمان قتله رجل من عشيرة الشقيرات. وحاول بعد ذلك السيد نجيب الشريدة أن يتلافى الموضوع وجمع ١٧٠ رأساً من الغنم دية للمقتول أملاً في حل القضية. والحكومة لم ترسل أحداً إلى مكان الحادث، وانما استدعت الشيخ كليب الشريدة إلى إربد لعله يساعد على حل الموضوع، وإعادة الهدوء الى المنطقة، وتمكين رجال الحكومة من إجراء التحقيق في الحادث، فامتنع خوفاً من أن يعتقل، وبذلك استفحل الأمر، وأصبحت تلك المنطقة في حالة العصيان. وقد تدخلت بعض الأيدي الأجنبية من الفرنسيين في تشجيع الشيخ كليب على التمرد. فلم يكن أمام الحكومة

إلاَّ أن ترسل قوة عسكرية إلى الكورة، لإجراء التحقيق في حادث قتل النائب، والقبض على المجرم، فأرسلت كتيبة الدرك والفرسان الاحتياطية من عمّان بقيادة القائد فؤاد سليم. ولم يكن يدور في خلد المسؤولين أن الأهالي سيحاربون هذه القوة وهم يعلمون أن هذه القوة لا تستطيع أن تخضع تلك المنطقة الوعرة المكسوة بالغابات، وقراها تزيد على عشرين قرية. ولكنهم قدروا شيئاً، وأخطأوا التقدير؛ فقد قدروا أن الأهالي سوف لا يحاربون الدولة وسيهابونها، ويطيعون أوامرها، وكان الأمر على العكس، فقد كان الأهلون على أتم الاستعداد للقتال.

سارت القوة وراء دليل كان يأخذهم إلى الأماكن الوعرة جداً، وعندما توسطوا الغابات، هجم عليهم الأهلون، وحصلت معركة رهيبة تبددت القوة وقُتل منها عدد ١٥، وفر عدد منهم، وأُسر البعض، وجُرح القائد وبعض الجنود، وكان من جملة الجرحى والدي فإنه كان من ضمن أفراد الحملة الفاشلة.

وبعد مدة جاء الشيخ كليب إلى الأمير عبدالله، وأعلن خضوعه، فأصدر الأمير عفواً عاماً عن جميع الثائرين من أهل الكورة. وهكذا فقد هدأت النفوس، وكان لهذا العفو أثر طيب في تهدئة الحالة.

وهذا الحادث قد ضعضع الحكومة الناشئة التي لم يمض على تشكيلها مدة شهرين، وكان من جرائه أن استقالت الحكومة وأعاد تشكيلها المرحوم رشيد طليع...

لقد ذكرت هذه الحادثة باختصار لأنها تمسنا نحن في الصميم، فقد كان والدي أحد أفراد الحملة، وقد جرح، وجاءنا أحد الجنود من أصدقائه، وقال إنه مات ودفنه بيده، وقام العزاء في بيتنا، وأعمامي بين مصدقين ومكذبين، وجاء جندي آخر ومعه بعض النقود وقال: هذه النقود أعطاني إياها ياسين وتركته جريحاً، ولا أدري ماذا تم له. فأصبحنا في حالة سيئة لا ندري ماذا نصنع، والمواصلات غير سهلة، ولا تزال الطرق غير مأمونة، وبقينا مدة لا أدري كم هي ولا يوجد لدينا أخبار عنه.

وفي يوم من تلك الأيام العصيبة جاءنا خبر بأنه حي وهو موجود في إيدون، قرية قرب إربد؛ وذلك أنه لما وقعت المعركة قُتلت فرسه، وجرح هو فظل في مكانه مختبئاً تحت شجرة إلى أن هدأت المعركة وانسحب الناس. وكان جرحه بسيطاً، فأخذ يسير

ليلاً بكل هدوء إلى أن وصل قرية إيدون. وكان يعرف هناك بعض أهل القرية فالتجأ إليهم، فأخذوه، وغسلوا له جرحه وضمدوه، وبدلوا ثيابه. وبقي إلى أن جاء إخوانه وأخذوه وأحضروه إلى عمّان.

- ١٦ -

فؤاد سليم ١٨٩٤ - ١٩٢٦م(١)

هو فؤاد بن الدكتور يوسف بن حسن سليم: قائد من نوابغ هذه الأمة ومن شهداء ثورة سورية الاستقلالية.

ولد يوم ١١ تشرين الثاني سنة ١٨٩٤م في بلدة بعقلين بلبنان وكانت تسمى في ذلك الزمن "الشام" أو سورية. وأصلهم من قرية "جبع" من أعمال الشوف من دروز تلك المنطقة.

وكان أبوه طبيباً موظفاً مع الحكومة، فكانت طبيعة عمله أن يتنقل من مركز إلى آخر، فتربى في بيئة راقية، وترعرع على حب الحرية، والعزة والشهامة، ودرس في الجامعة الأمريكية، وتشرب الوطنية، وحب بلاده وشعبه، وعمل مدرساً في المدرسة العباسية ببيروت، ثم مديراً لمدرسة بسكنتا. وكان يلاحظ اضطهاد الأتراك وظلمهم، ولما سمع بثورة الحجاز أعلم والده بأنه سيلتحق في الثورة مهما كلفه الأمر، وذهب إلى جبل الدروز بحجة زيارة أهله هناك، ومن هناك سافر مع إحدى القوافل إلى القريات، ومنها التحق بالجيش العربي المرابط بين العقبة ومعان، واشترك في الثورة إلى أن دخل دمشق وعمل ضابطاً في الجيش العربي في حكومة الملك فيصل، واستمر إلى أن وقعت معركة ميسلون فكان أحد أبطالها الذي ظل يحارب إلى أن كاد يؤسر، ونجا بأعجوبة.

ثم ذهب مع الملك فيصل إلى حيفا، ومن هناك أرسله الملك فيصل إلى الأردن، فجاءها ونزل في إربد في ضيافة علي خلقي. وعندما جاء الأمير عبدالله كان من أول المرافقين له من معان. ولما شُكلت الحكومة تولى وظيفة أركان حرب الجيش العربي وخدم في الجيش ثلاثة أعوام، كان خلالها مثال النشاط العجيب. وبدأ الإنجليز يحسون أنه هو والضباط الاستقلاليين وغيرهم من الوطنيين خطر على وجودهم، فجعلوا يضايقونهم، وفصل بيك القائد الإنجليزي عدداً منهم من الجيش، وقدم الإنجليز إنذاراً الى الأمير عبدالله بإخراج جميع الرجال الوطنيين الاستقلاليين من الأردن، وبينهم فؤاد سليم، فقصد فؤاد الحجاز ومنها إلى القاهرة.

---

(١) لهُ ترجمة في الأعلام، للزركلي، ٥/ ١٦٢.

حلّ فؤاد في القاهرة وكانت ملجأ الأحرار والوطنيين من العرب، ووجد هناك كثيراً من إخوانه، وأخذ يكتب في الصحف فنشر عدة مقالات عن قضية العرب، وتطوراتها والكوارث التي ألمت بها. وبقي في القاهرة إلى صيف ١٩٢٥م حيث شبّت الثورة في سورية فسارع إلى الالتحاق بها. فحاول الإنجليز منعه ولم يعطوه جواز سفر، فسافر عبر صحراء سيناء مخترقاً لها على ظهر جمل إلى فلسطين، وعبر نهر الأردن سباحة ووصل إلى عمّان متخفياً في مغامرة قاسية لاقى فيها الأهوال. ومن عمّان ذهب إلى جبل الدروز واشترك في الثورة، وكانت أول معركة يشارك فيها معركة المسيفرة، فقد أبلى فيها بلاءً حسناً، وتشتت الجيش الفرنسي وانهزم هزيمة منكرة.

ووضع خطة لتوسيع الثورة، وتم الاتفاق على أن يتولى سعيد العاص – رحمه الله – تنظيم الحركات الحربية في منطقة الغوطة، وأن يتولى فؤاد تنظيم الثورة في منطقة جنوب سورية ولبنان وتسمى تلك المنطقة "إقليم البلان" ووادي التيم في سفح جبل الشيخ الشرقي. وكان يحاول أن يحرك جبل عامل أيضاً.

اتخذ فؤاد وجماعته قرية مجدل شمس قاعدة لحركاتهم، وبعد ذلك استولوا على حاصبيا وتمركزوا فيها، ووسعوا حركاتهم، وأقضوا مضجع الفرنسيين، إلى أن أعدوا جيشاً كثيفاً بالدبابات والطائرات تعززه، وهاجموا قرية مجدل شمس، ودافع عنها فؤاد وإخوانه دفاع المستميت، ودارت معركة حامية بينهم وبين الفرنسيين إلى أن طوقوا القرية فانسحب فريق من الثوار، وصمد فؤاد ومعه نحو أربعة عشر رجلاً، وعند المساء سقطت قنبلة بجانبه وهو يهم بركوب جواده، فأصابت منه مقتلاً، فاستند إلى جانب جواده حتى خارت قواه ثم سقط على الأرض، وكان آخر ما قال:

" ومبلغ نفس عذرها مثل منجح "

وهناك على سفح رابية تدعى "تل الأسود" دفن فؤاد ذلك البطل المغوار، وقد شيد السيد عمر آغا شمدين ضريحاً لفؤاد في قرية سحيتا.

لقد عرفت فؤاد سليم – رحمه الله – فكنا صغاراً وكان الجنود يأتون يوم الجمعة لتحية الأمير عبدالله عندما يؤدي صلاة الجمعة، وكان بيتنا مقابل المسجد الكبير، فكنا نرى الجنود والضباط وفي مقدمتهم فؤاد، وقد جاء لبيتنا لزيارة والدي بعد مجيئه من معركة الكورة هو وعدد من الضباط.

فهو فارع الطول، جميل الصورة، أبيض اللون، عيونه زرق، على غاية من الذكاء والمعرفة، يحترمه كل من يعرفه لما فيه من خلق متين، وعقل راجح، وهدوء أعصاب، وقوة شخصية.

وكان عمره – رحمه الله – يوم استشهد اثنتين وثلاثين سنة. يقول الزركلي في الأعلام(٢): "إن كتاباً جُمع في سيرته ولم يُطبع ". وهناك بعض اختلاف في تاريخ ميلاده، وبعض التواريخ أيضاً كما أوردت هنا، لأن هذه التواريخ والمعلومات مستقاة من أخيه السيد نصري سليم وهو عاش حياته كلها في الأردن.

كانت عمّان تنمو في ظلال الحكم الجديد، وتتمتع بحكم استقلالي داخلي، لذلك نزح إليها عدد كبير من الأحرار السوريين وتولوا فيها أرفع المناصب، وأذكر منهم مثلاً: رشيد طليع، وأحمد مريود، وفؤاد سليم، وسعيد عمون، ونبيه العظمة، وعادل العظمة، وصبحي العمري، وسعيد العاص، وخير الدين الزركلي، وغيرهم...

سعيد العاص ١٨٨٩ – ١٩٣٦م(٣)

ولد سعيد العاص سنة ١٨٨٩م في مدينة حماة، وهو من أسرة "شهاب": أُسرة معروفة، وتلقى دراسته الرشدية والإعدادية والعسكرية، ثم أكمل تعليمه في الكلية الحربية باستانبول، وتخرج فيها برتبة ملازم عام ١٩٠٧م، وانتسب إلى مدرسة الأركان، ولم يتم الدراسة فيها؛ إذ أخرج عام ١٩١٠م لأسباب سياسية تتعلق بالحركة العربية الناشئة يومذاك. واشترك في عدة معارك في ألبانيا وفي يوغسلافيا، ووقع أسيراً في أيدي اليونان قرب سلانيك، وفر من الأسر، ثم عاد للاشتراك في معارك البلقان.

ولما أنشأ عزيز المصري حزب العهد العسكري انتسب سعيد العاص إليه، وبدأ يُنشط في كتابة المقالات بتوقيع مستعار، ولما تزايد نشاطه اعتقله الأتراك، وقدموه للمحاكمة

---

(٢) الأعلام، للزركلي، ١٦٢/٥.

(٣) أنظر: سعيد العاص: حياته وكفاحه، تأليف: فايز سارة، وزارة الثقافة، دمشق. ولهُ ترجمة في الأعلام، للزركلي، ١٤٢/٦ تحت اسم: محمد سعيد بن محمد بن شهاب المداهني الحموي المعروف بالعاص (١٨٨٢ – ١٩٣٦)، وترجم له سليمان موسى في كتابه صور من البطولة، منشورات وزارة الثقافة والتراث القومي، عمّان، ١٩٨٨، ص ١٤٣ – ١٥٨، كما ترجم لهُ كايد مصطفى هاشم في كتابه قاموس المؤلفين في شرقي الأردن، ص ٦٦ – ٦٩.

أمام المحكمة العسكرية التي أنشأها جمال باشا لمحاكمة أحرار العرب وزعمائهم في عاليه بلبنان. وكانت تهمته الانتساب للجمعيات العربية الداعية للاستقلال، وحكمت المحكمة عليه بالإعدام ثم استبدل الإعدام بالسجن، فقضى في السجن سنة ونصف، ونُفي بعد ذلك إلى الأناضول، وبقي في منفاه حتى انتهت الحرب العالمية الأولى.

ولما أُنشئت الحكومة العربية في سورية التحق فيها، وتولى عدة مناصب، وشارك في معركة ميسلون. ثم اشتبك مع الفرنسيين في منطقة اللاذقية وكبدهم خسائر فادحة، ثم انضم إلى ثورة الشيخ صالح العلي وساهم في معاركها (٤).

وفي سنة ١٩٢١م فرَّ من السجن في حماة إلى الأردن، والتحق بالجيش العربي برتبة رئيس، وتنقل في عدة مناصب عسكرية، وقاتل في صفوف الجيش الحجازي ضد الوهابية لما هاجموا الحجاز.

الثورة السورية

لما نشبت الثورة السورية سارع إلى الالتحاق بها، وفي جبل الدروز التقى بصحبه وإخوانه المجاهدين، وعمل خطة هو والمرحوم فؤاد سليم على تصعيد الثورة لتشمل سورية ولبنان جميعها ضد الفرنسيين، وتولى قيادة الغوطة، وخاض معارك عديدة: المليحة، ويلدا، وبابيلا، وجوبر، وحموره في الغوطة.

وبعد ذلك عينه سلطان الأطرش قائداً لحملة حمص وحماة، فسار إلى شمال سورية، ولقب نفسه قائد المنطقة الشمالية في حروب سوريا المقدسة. وتنقل كثيراً ما بين أجزاء سورية ولبنان، يقاتل ويحرض الناس على القتال. وجُرح مرتين أثناء المعارك التي خاضها. وفي سنة ١٩٢٦م تغلبت فرنسا على الثورة وأخمدتها، وجعل المجاهدون ينسحبون من سورية، فعاد سعيد العاص إلى عمّان.

استقر في عمّان وتزوج من سيدة شركسية، أنجب منها بنتاً اسمها سعاد، وتوفيت زوجته، رحمها الله، وكان يحبها حباً جماً، وقد رثاها في بعض مؤلفاته فقال عنها: "شهيدة البؤس، رفيقة آلامي، فريسة الأمراض، ومصائب الجهاد، عقيلتي أم سعاد.

---

(٤) قامت في جبال العلويين ضد القوات الفرنسية سنة ١٩١٩.

هذه البائسة الراقدة الآن في سفح جبل عمّان الشرقي في رقدة الخلود، بعد أن قبّلت طفلتها سعاد آخر قبلات الحنو. فهي بلا ريب شهيدة جهاد استمر أعواماً وكان مفعماً بالآلام حتى ذبلت عن عمر لا يتجاوز العقد الثاني من مراحل الحياة القاسية، وقد هاجم الداء جسمها النحيل عندما كنت أهاجم جيوش المستعمرين، ولم تجد من يداويها لضيق ذات اليد، فذبل غصن حياتها ".

فقد كان – رحمه الله – عاطفياً، رقيق القلب، وكان يعيش في عمّان عيشة بائسة، وكنت أراه كثيراً سائراً ومعه ابنته سعاد التي لا يفارقها، ويحبها حباً عظيماً، وكان شديد الاعتزاز بنفسه أعرفه حق المعرفة، بسيطاً، مطبوعاً على التضحية والإيثار. فقد كان يؤثر إخوانه على نفسه، مع انه يكون بأشد الحاجة إلى النفقة. وكان أبيّ النفس لا يسأل أحداً، وله كتابات ورسائل عديدة، وأسلوبه لا بأس به.

وله سلسلة من المؤلفات بعنوان "**صفحة من الأيام الحمراء**"(٥)، طُبع منها:

(١) استشهاد الأمير عز الدين الجزائري.

(٢) الحركات الحربية بعد التطويق.

(٣) التطويق وحركات الضنية.

(٤) استشهاد البطل أحمد مريود.

(٥) وحروب الغوطة والإقليم.

وقد أخذت بعضها منه شخصياً. ولم ينتفع من ثمن هذه المؤلفات بشيء.

استشهاده

في أوائل شهر أيلول من سنة ١٩٣٦م حضرت حفلة غداء في بيت المرحوم الحاج عبده السعودي كانت مُقامة على شرف المرحوم سعيد العاص، وكنت طالباً في الأزهر أقضي عطلة الصيف في عمّان، وكانت الحفلة على شرف سعيد العاص، ومن أجل وداعه حيث ذهب للالتحاق في ثورة فلسطين. وانضم إلى المرحوم الشهيد عبد القادر الحسيني وأخذا يعملان على تجنيد المجاهدين لمقاتلة الإنجليز.

---

(٥) أُنظر مؤلّفاته وطبعاتها في كتاب: قاموس المؤلفين في شرقي الأردن، تأليف: كايد مصطفى هاشم، ص ٦٨ – ٦٩، وقد طبع كتابه صفحة من الأيام الحمراء (مذكرات القائد سعيد العاص ١٨٨٩ – ١٩٣٦) في بيروت، ١٩٨٨، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ولهُ طبعات أخرى.

وكانت تلك الحفلة آخر لقاء مع الشهيد سعيد العاص، وحضرها عدد غفير من تجار وأعيان عمّان.

اتخذ سعيد العاص منطقة حلحول في جبل الخليل مركزاً لحركاته، واشتبك مع الإنجليز في نهار ٢٤ أيلول، وكانت معركة ضارية اشتركت فيها الدبابات والطائرات، وأبلى سعيد وأصحابه بلاءً حسناً.

معركة الخضر

كان الإنجليز يجابهون عدداً كبيراً من الثوار في جبل نابلس، وفي جبال الخليل. وقرروا أن يبدأوا بالقضاء على الثوار في منطقة القدس والخليل لقلة عدد الثوار فيها، ولسهولة العمليات الحربية فيها أكثر من منطقة نابلس، فأرسلوا حملة مؤلفة من ثلاثة آلاف جندي تساندهم الطائرات وأحدث الأسلحة، وأخذوا يقومون بعملية تطويق واسعة استمرت حوالي عشرة أيام، اضطر المجاهدون خلالها – ولم يكن عددهم يزيد على ١٢٠ ثائراً – إلى التراجع رويداً رويداً إلى الجبال.

وقبل مقتله بيوم واحد، كان في قرية خربة اللوز إلى الغرب من قرية عين كارم، ثم اتجه ومعه حوالي ٣٠٠ مسلح من المجاهدين إلى قرية رأس أبو عمار إلى الغرب من قرية حوسان. وهناك اشتبهوا بمختارها واسمه حسن أبو صلاح وحاكموه وصدر الحكم عليه بالإعدام. وقبل تنفيذ الحكم حضر رجل من قرية القبو وشهد شهادة حسنة بالمختار ونفى عنه تهمة الخيانة فأطلقوه، وقدم لهم المختار بندقيتين.

ثم هاجموا مخفر القرية وجردوا رجال الشرطة من الأسلحة واتجهوا إلى مكان فيه عين ماء بين حوسان ووادي فوكين، واستراحوا هناك.

بعد انسحاب المجاهدين من قرية أبو عمار ذهب رجل إلى قرية محطة دار الشيخ وأنبأ رجال المعسكر البريطاني بالذي حصل، وأعطاهم علماً عن تحركات المجاهدين، فقامت طائرة بكشف الموقع، وطائرتان تقصفان الموقع، وتحولوا من ذلك المكان إلى قرب حوسان ثم انتقلوا إلى مكان يدعى وادي الغويط. وعند الفجر شعر سعيد العاص بحركة غريبة، وكان ذلك يوم ٦ تشرين الأول من سنة ١٩٣٦م، ثم عند شروق الشمس

ظهرت الطائرات تحوم فوقهم، وجاءت ثلاث كتائب مشاة بريطانية تساندها الطائرات وأخذوا بتطويق الوادي. ووجد المجاهدون من الأنسب أن ينسحبوا، فأخذ فريق منهم بالانسحاب وبعضهم اختبأ، والبعض الآخر وعلى رأسهم سعيد العاص وعبد القادر الحسيني اشتركوا في معركة ضارية استمرت بضع ساعات، ولم يبق مع سعيد سوى خمسة وخمسين رجلاً قُتل أكثرهم، وبعضهم يقول إن البريطانيين قتلوا سعيداً، والبعض الآخر يقول إن سعيداً قتل نفسه — رحمه الله - وأسر عبد القادر الحسيني وذهب الجنود بعبد القادر، وظل الشهيد ملقى على وجهه حيث قُتل حتى غروب الشمس، وحينئذٍ جاء بعض الرجال المخلصين من أهل القرى المجاورة فحملوه إلى مقبرة قرية الخضر ودفنوه هناك رحمه الله وطيب ثراه.

وفي سنة ١٩٦١م قام الأخ الأديب الفاضل سليمان موسى بفكرة بناء ضريح للمرحوم الشهيد سعيد العاص، وجاء عندي وفاتحني بالأمر فقلت له بكل سرور، وشرعنا فألفنا لجنة مني ومنه ومن الحاج علي الدجاني، وكان سليمان قد وجّه رسائل إلى عدة شخصيات يحضهم على التبرع لهذا المشروع، فكانت الأجوبة سارة، وحققنا المشروع وبُني الضريح وأُثبتت على واجهته لوحة كُتب عليها ما يأتي:

بسم الله الرحمن الرحيم

(ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون)

ضريح المغفور له المجاهد سعيد العاص

ولد في حماة بسورية سنة ١٨٨٩م وقضى حياته مجاهداً حتى استشهد في معركة الخضر بين العرب والبريطانيين في ٦ تشرين الأول من سنة ١٩٣٦م

أقامت هذا الضريح جماعة من أهل الخير سنة ١٩٦٢م

- ١٧ -

سكان جدد إلى عمّان

عندما شبَّت الثورة السورية سنة ١٩٢٥م واستمرت إلى أواخر سنة ١٩٢٦م، بدأ عدد كبير من العائلات السورية يأتي إلى عمّان، وبانتهاء الثورة جاء عدد هائل من الثوار لاجئين إلى عمّان؛ فصرنا نلحظ أناساً ليسوا من أهل عمّان، واستوطن بعضهم عمّان إلى الأبد، وبعضهم سكن الزرقاء وغيرها من المدن. ولكن عمّان استوعبت العدد الأكبر، واتسعت لهم. وكانوا دماً جديداً غذى المدينة.

في هذه الفترة أكملت دراستي الابتدائية. وكنت فيها حائراً لا أدري ماذا أصنع فقد سئمت المدرسة، وكان لنا جيران عندهم أولاد رفقاء لي لم يكونوا ناجحين فيها، فأغروني أن أذهب معهم وندخل مدرسة الصناعة فقد فُتحت من جديد، وذهبنا وانتسبنا إلى تلك المدرسة علّنا نجد شيئاً جديداً فيها، وما لبثت أن عرفت أنني أخطأت، وخجلت أن أعود إلى المدرسة، ولم يكن في عمّان مدرسة غيرها، وهكذا أمضيت نحو سنتين فيها لم أفلح في تعلم أية صنعة، وقد تنقلت ما بين الحرف الثلاث الموجودة فيها آنذاك، وهي: النجارة، والحدادة، وصناعة الأحذية.

وفي صيف سنة ١٩٢٧م حصلت زلزلة هائلة هدمت قسماً كبيراً من منازل عمّان، والسلط، ومادبا، ونابلس.

كانت هذه الزلزلة كارثة كبيرة. وقد حدثت بعد صلاة العصر، وذهب عدد كبير ضحايا من جرائها.

وتهدم قسم كبير من مدرسة الصناعة، وخرجت مسرعاً إلى دارنا، فأتيت إلى الباب وحاولت أن أفتحه فلم يفتح، ووالدتي داخل الدار تقول لي ادفع الباب، ونسيت من الدهشة أن جداراً سقط خلفه وسد كل ذلك الممر، فتسلقت الجدار ونزلت من على الحائط وإذا منظر مخيف، فقد تهدمت دار لنا بجوار الدار التي نسكنها، وهي طابق علوي، فسقط منها جدار على جيراننا فقتل امرأة فقط، وسقط جدارها الشرقي على دارنا فلم يحدث خسائر في الأرواح، فقد كنت أنا واثنان من إخواني خارج المنزل، ووالدتي كانت نائمة في غرفة بعيدة عن ذلك المكان، وكانت وحيدة في الدار.

ذهبنا تلك الليلة إلى دار بعض الأقارب، وأمضينا عندهم بضعة أيام، وكنا جميعاً نذهب إلى البساتين وننام فيها، وكذلك كان يفعل معظم أهل عمّان. وبقينا مدة يسيرة عدنا بعدها إلى دارنا. ولم يكن في تلك الأيام إذاعات أو جرائد تنقل الأخبار بسرعة، فكانت تصلنا الأخبار عن البلدان الأخرى متفرقة ومتأخرة جداً. ولكن تبين لنا فيما بعد أن أكثر مدينة حصل فيها أضرار هي نابلس فإن أبنيتها القديمة غالبها مبنية بالطريقة التقليدية: عقد من الحجارة والطين. فانهار كثير منها، وفي بعضها كان حفلات، وكان فيها مجموعة من السكان فذهب من جراء ذلك ضحايا كثيرة.

وكذلك مدينة السلط، ومادبا، وعمّان. بقينا مدة ونحن نذهب في الليل ونبيت في البساتين التي على طريق المحطة، ثم قررنا أن نذهب إلى الزرقاء، لأن أعمامي يقطنون فيها، فاشترينا قطعة أرض وبنينا داراً صغيرة مكونة من غرفتين ومنافع وساحة صغيرة، ورحلنا إلى الزرقاء ومكثنا فيها نحو سنة، ثم عدنا إلى عمّان، وأجرنا ذلك البيت بأجرة زهيدة لا تذكر.

كنت في هذه المدة في حيرة واضطراب لا أدري ماذا أعمل، لم أُكمل المدرسة، ولا نجحت في مدرسة الصناعة، وكنت في سن المراهقة، ونفسي مضطربة، وأنا في حالة قلق وتغير، ومجتمع عمّان مجتمع محدود جداً، وضيق، وليس فيه للشاب أي متنفس.

لا يوجد أندية يرتادها الإنسان، يقضي وقتاً فيها، ويمارس بعضاً من الهوايات، وليس فيها أماكن للألعاب الرياضية، ولا يستطيع أن يجد حتى فتاة يتحدث إليها، ولو حديثاً يطفىء الشعلة الملتهبة، وكان كلٍ ما أستطيع أن أتسلى فيه أنني إذا حصلت على كتاب من أي نوعٍ، ومهما كان، أروح أُطالعه حتى التهمه وأقضي بعض الوقت معه، والكتب نادرة جداً ولا سيما النافع منها، وليس لي من يوجهني، أو يرشدني، فكانت تسليتي الكبرى هي ركوب الدراجة فكنت أذرع بها شوارع عمّان، وأذهب إلى المحطة أو إلى رأس العين، وأحياناً نذهب إلى وادي السير أو صويلح أو الزرقاء نقضي يوم الجمعة ونعود مساءً.

بدأت عمّان تنمو، وصرنا نرى فيها بعض الأجانب، وأذكر أن موظفاً في السفارة البريطانية وكان اسمها "دار المعتمد" كان له زوجة في غاية الجمال، وكانت تظهر

أحياناً، وتمشي مع ابنتها، فكنا نترقبها لنرى ذلك الجمال الباهر، وكانت لنا متعة كبيرة جداً. وما ذلك إلا للحرمان الذي نعانيه.

بقيت على ذلك إلى صيف ١٩٢٩م بدون عمل، ولا مدرسة، وفراغ مزعج ولكن بدون سعة، فإن والدي كان في الجيش ومرتبه يؤمن لنا عيشة وسطاً.

ذهبت في أول الصيف إلى دمشق، وكانت هذه الرحلة مفيدة لي جداً، فإني غيرت الجو، وصرت قادراً على التجول وارتياد مختلف الأماكن، والقيام ببعض الرحلات الى مصايف دمشق.

وكنت غالباً ما أذهب إلى المسجد الأموي، للاستراحة وأداء الصلاة، وكان بعض المشايخ يلقون دروساً فكنت استمع إلى بعض منهم، ولم يعجبني واحد منهم، فكل أحاديثهم ودروسهم كانت عاطفية، تعتمد على الترغيب والترهيب، ليس فيها أي توجيه، أو تعليم للمستمع. وكان جمهور المستمعين مكوناً من المتقدمين في السن، أو بعض الوافدين على دمشق يقفون لحظات ثم يغادرون حلقة الدرس. وعلى الأغلب إن معظمهم لا يستفيد شيئاً مما يقوله أولئك المشايخ.

وفي يوم جمعة تأخرت صدفة بعد الصلاة، وإذا بكرسي يُنصب ويأتي شيخ جليل، يضع على رأسه عمامة من الأغباني، غير منتظمة، ولباسه يدل على بساطته، وجلس على الكرسي، وجعل يتلو أحاديث نبوية، على طريقة لأول مرة أسمعها، فيقول حدثنا فلان قال حدثنا فلان إلى آخره عن النبي (صلى الله عليه وسلم)، ويقول الحديث. وانتظرت إلى نهاية الدرس، عند صلاة العصر، لعلي أجد شيئاً استفيده من ذلك العلامة صاحب المقدرة على حفظ تلك الأسماء، والأحاديث بنصها، وكان عدد كبير من طلبة العلم جلسوا يكتبون ويقيدون، ولا أدري ماذا يكتبون، فقد ظننت أن هؤلاء الطلاب يسجلون بعض الملاحظات، ليناقشوا الأستاذ فيها، وانتظرت حتى فرغ صبري وانتهى الدرس، وأذن العصر، فقام الشيخ، وابتدره الناس يقبلون يديه ويتبركون منه، ولم تحصل أسئلة ولا أجوبة ولا مناقشة. وأنا متأكد جداً انه لم يستفد أحد من ذلك الدرس حتى الطلاب أنفسهم. وسألت أحد الطلاب: من هذا العالم ؟ فقال لي مستغرباً: هذا عالم الشام ومحدثها الكبير مولانا الشيخ بدر الدين الحسني حفظه الله وأطال لنا عمره. فشكرته وقلت له: وهذا الدرس يكرر كل جمعة؟ فقال: نعم كل يوم جمعة يلقى هذا الدرس الفريد من نوعه. فقلت له: حقاً إنه فريد من نوعه.

وعرفت الشيخ بعد ذلك – رحمه الله – وزرته في داره أكثر من مرة، وهو بسيط جداً ومتواضع، وكان جماعة من تلاميذه يحضرون عنده بعض صلاة المغرب ويستمرون إلى صلاة العشاء، يصلون معه وينفضون، وكانوا في تلك الفترة يقرأون بعض كتب الحديث، وكانوا يقرأون في المرة الأخيرة التي حضرتها "شرح البخاري" للقسطلاني، وكان الشيخ قاعداً وصامتاً يستمع فقط، ولم يفه بكلمة طيلة الجلسة.

هذه كانت الثقافة الدينية، ليس فيها أي توجيه أو دروس عملية مفيدة توجّه الناس، وترشدهم إلى حياتهم الدنيوية، ليقبلوا عليها بكل استعداد، ويعملوا ما استطاعوا، ويقدموا الخير لبلدهم وأمتهم، ويبنوا ويتجهوا إلى الصناعة والزراعة والعلم الحقيقي، لم يكن شيء من هذا يتخلل هذه الأحاديث وتلك الدروس، وإنما كانت كلها مواعظ وحكم وقصص وتزهيد في هذه الحياة الدنيا، وترغيب في الحياة الأخرى، ونيل لدرجات العلى فيها.

وكان هذا في تلك الأيام، على ما فيه من نقص وعيوب، كان مفيداً نوعاً ما، فقد انقرض اليوم المشايخ، وذهبوا بعلمهم وخيرهم وشرهم، وإذا دخلت مسجداً من المساجد فإنك لا ترى ما يسرك، ولا تسمع إلاّ جهلاً وتضليلاً وتهويشاً.

وقد تقدمت الوسائل بوساطة الإذاعة والتلفزيون، وبالإمكان تقديم برامج دينية موجهة، مُشجِّعة، محبِّبة للناس في دينهم، فكان الأمر بالعكس، فإن معظم البرامج مملة، قليلة الفائدة مع الأسف.

الشيخ بدر الدين الحسني ١٢٦٧ – ١٣٥٤ هـ ١٨٥١ – ١٩٣٥ م(١)

محمد بن يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن عبدالله بن عبد الملك بن عبد الغني المغربي المراكشي البيباني. بدر الدين الحسني: محدث الشام في عصره.

أصله من مراكش، من ذرية الشيخ الجزولي صاحب **دلائل الخيرات**. انتقل أحد أجداده إلى الديار المصرية، وسكن في البحيرة فولد أبوه بقرية بيبان "من البحيرة"،

---

(١) الأعلام، للزركلي، ٧/١٥٧ – ١٥٨، وحلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، تأليف: الشيخ عبد الرزاق البيطار، حقّقه: محمد بهجة البيطار، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦١، ج١/ ٣٧٥ – ٣٧٦.

ورحل إلى تونس، فقرأ في جامع الزيتونة وعاد إلى الشرق فأقام بدمشق واشتهر بالمغربي.

ولد الشيخ بدر الدين في دمشق، فحفظ القرآن، ودرس مختلف العلوم، وحفظ الصحيحين: البخاري ومسلم غيباً بأسانيدهما، ونحو عشرين ألف بيت من متون العلوم المختلفة، وانقطع للعبادة والتدريس. وكان ورعاً صواماً بعيداً عن الدنيا، وارتفعت مكانته عند الحكام وعند أهل الشام، حتى أن بعض العامة من أهل الشام حين اشتد بغي الاتحاديين من رجال الترك، في خلال الحرب العامة الأولى، عرضوا عليه البيعة بالخلافة، والثورة معه، فزجرهم، وزاد في انزوائه واعتكافه. وكان يأبى الإفتاء، ولا يرغب في التصنيف، فلم يُعرف له غير رسالتين مطبوعتين: إحداهما في سنده لصحيح البخاري، والثانية في شرح قصيدة "غرامي صحيح" في مصطلح الحديث.

ويقول من قرأوا عليه مدة طويلة انه ألف نحو "أربعين كتاباً" قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره، ولا يُعلم أين ذهبت.

وفي ترجمة ضافية كتبها السيد محمد سعيد الحمزاوي نقيب الأشراف بدمشق، أنه لما قامت الثورة على الاحتلال الفرنسي في سورية: " كان الشيخ يطوف المدن السورية متنقلاً من بلدة إلى الأخرى، حاثاً على الجهاد، وحاضاً عليه، يقابل الثائرين، ويغذيهم برأيه، وينصح لهم بالخطط الحكيمة ؛ فكان أباً رحيماً للثورة والثائرين المجاهدين ".

ويقول الشيخ عبد الرزاق البيطار، وهو من علماء دمشق، في تاريخه **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**(٢) وهو مخطوط: " له حافظة تحصي كل ما يسمع، وإدراك هو أخف من النسيم وأسرع، يقرأ كل يوم جمعة بعد الصلاة صحيح البخاري في جامع بني أمية، ويزدحم الناس على درسه ازدحام الطالبين على العطية، غير أنه يسرد ما علق بذهنه، ولا سؤال من أحد ولا جواب، ومن رام إبداء إشكال فلا يجد لدخول حله من باب ". انتهى ما نقلته من كتاب الزركلي **الأعلام**(٣). ولد وتوفي في دمشق.

---

(٢) حلية البشر، ٢٧٦/١.
(٣) الأعلام، للزركلي، ٧/ ١٥٧.

وهذا صحيح، فقد كان درسه على الطريقة التقليدية، عبارة عن سرد أحاديث بأسانيدها كما قدمت، ولا سائل ولا مجيب. وكان فيه شهقة بين الفترة والفترة، طويلة نوعاً ما، رحمه الله وطيب ثراه.

هذا نموذج ضخم من تراثنا العلمي والديني، وعلى هذا المنوال قضينا قروناً عديدة ونحن نائمون ومخدرون تحت سيطرة هؤلاء الذين نحسبهم علماء وهم لا يأتوننا بجديد، وكانوا يكرهون كل من يحاول أن يفكر أو يخرج عن نطاق تفكيرهم وأوهامهم، وكان بإمكانهم سامحهم الله أن يفعلوا الكثير الكثير من التجديد والتقدم لو حاولوا.

وحتى في الأزهر الذي دخله التجديد، فقد جمد علماؤه على قراءة الكتب القديمة، ولم يحاولوا أن يأخذوا مما حولهم كما فعل أسلافهم، وسأتطرق للحديث عن الأزهر عندما نصل إليه إن شاء الله.

- ١٨ -

دمشق

دمشق مدينة عجيبة لها كيانها الخاص، ومجتمع قد تكوّن خلال آلاف السنين، جمعت القديم والحديث، ولكن هذا القديم والحديث على السواء في تمسكهم بالتقاليد تمسكاً عنيداً عجيباً.

فهي عاصمة قديمة لا يُعرف أول إنشائها، وهي دائماً المشعل الذي يخبو نوره أحياناً فلا ينطفيء، وكثيراً ما تعمه العيون عن القبس الحيّ، تخاله خبا وهو يجمع خفاياه لوميض تخشع له الأبصار.

وراء تكوّن هذه المدينة التجاري عفوية عشائرية، وتقييم أخلاقي للإنسان يجعل من العلاقات بين الأفراد تقاليد إنسانية شبه دينية، إذا زالت زال معنى دمشق.

ليس من السهل أن تنتزع منها تقاليدها، أو ننتزعها من ماضيها القديم لنقنعها بنظرة جديدة للحياة، رغم أنها عطشى لكل جديد، تتقبله إذا كان صادقاً.

طبيعتها طبيعة مؤمن حقيقي يبطيء حتى يصنع، فإذا فعل تشبث فعاش بعقيدته الجديدة ولها. إنها تعيش دائماً على انتظار إيمان كبير كي تحقق فيه ومعه وجودها ومعناها التاريخي، تظنها ماتت فما أن تجس نبضها حتى يفاجئك بطاقة عجيبة على الحياة، تهدأ حتى تظن أنها قبر، ثم تنتفض فتجد الطغيان تحت قدميها.

كانت زياراتي لدمشق تطعيماً لي، وتجديداً لنفسيتي المعذبة، وتهدئة لشيء من هذا القلق الذي ينتابني؛ فكنت أتجول فيها وأتلمس الطريق ولا أدري أين أذهب.

وعلى أية حال فإن دمشق تبقى المدينة العظيمة، معقل العروبة والإسلام رغم ما ينتابها من مشاكل، وما يلحقها من أضرار، وما يتعاقب عليها من حكام. وتبقى بنظري سيدة المدن، وقبلة الأنظار.

كان في دمشق في تلك الفترة بعض المشايخ أيضاً ممن يدرّسون في الجامع الأموي، أذكر منهم الشيخ خالد الخوجا، كان وقتها شاباً متحمساً يملأ المسجد صياحاً وصراخاً، ويجتمع حوله حلقة كبيرة، ويدور درسه على الوعظ والإرشاد. وكان كذلك شيخ وقور

كبير السن يجلس في زاوية المسجد الشرقية يدرِّس أيضاً، ويتحلق عليه نفر قليل، ولا أذكر اسمه، وغيرهما كثيرون في المسجد الأموي، وغيره من مساجد دمشق الكثيرة.

وكان في حي الميدان في جامع الدقاق، عالم متزن وقور حلو الحديث، يتأنى في كلامه، ويلقي درسه بعد صلاة المغرب إلى وقت صلاة العشاء، حضرت دروسه عدة مرات، فكان يدرِّس الناس ما يحتاجون إليه من ضروريات الدين، وتوعيتهم، وإبعادهم عن الخرافات، وكل ما دخل الدين من البدع والضلالات ؛ ذلك هو الشيخ محمد بهجت البيطار – حفظه الله – وقد عرفته فيما بعد عن طريق المرحوم خالي (أبو رشيد) وزرته في داره أكثر من مرة، وكان يعجبني فيه حديثه الحلو العذب، وعقله الراجح، ووعيه للأمور، وكثرة نشاطه في نشر التوعية بين الناس.

في تلك الفترة كانت تدور محاكمة امرأة قتلت زوجها بالسم، وهذا الزوج كان من مشاهير رجال سورية وهو فوزي الغزي أحد سراة الزعماء في الشام، وأحد ألوية الثورة العربية في نهضتها العظمى. وكنت أرى تجمعات من الشبان والشيب في الشوارع والقهاوي، وفي كل مكان، والحديث يدور حول تلك القضية، ولا أدري بعد ذلك كيف انتهت المحاكمة.

وفوزي الغزي هو ابن اسماعيل بن رضا العامري الغزي من أهل دمشق(١)، كان من رجال الحقوق السياسية، مولده ووفاته بدمشق. تلقى تعليمه الأولي والثانوي، ثم تخرج بالمدرسة الملكية في الأستانة. وتنقل في الوظائف من سنة ١٩١٤م إلى ١٩٢٠م. ثم انقطع إلى المحاماة مدة. ثم عُينَ أستاذاً للقانون الدولي في مدرسة الحقوق بدمشق سنة ١٩٢١م.

انتخب رئيساً للجمعية التأسيسية سنة ١٩٢٨م. وقد سجنه الفرنسيون مرتين في سبيل بلاده.

له كتاب حقوق الدول العامة مطبوع في جزءين(٢). وكان عمره يوم وفاته ٣٨ سنة في ريعان الشباب، رحمه الله.

---

(١) ترجم لهُ الزركلي في الأعلام ١٦٣/٥، وذكر أن لهُ حقوق الدول العامّة، وهو مطبوع في جزأين، وأن تلميذه لطفي الياف جمع نبذاً من تاريخ حياته وخطبه وبعض مراثيه سمّاه " الفقيد العظيم فوزي الغزي"، وهو مطبوع.

(٢) الحقوق الدولية العامّة، فوزي الغزّي، طُبع في مطبعة حكومة دمشق، ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢.

وكان بينه وبين المرحوم أمير الشعراء أحمد شوقي صداقة فرثاه بقصيدة من عيون الشعر العربي الخالد، يقول فيها(٣):

جرح على جرح حنانك جلق ... حُملت ما يُوهي الجبال ويرهقُ
صبراً لباة الشرق كل مصيبة ... تبلى على الصبر الجميل وتخلق
يا واضع الدستور أمس كخلقه ... ما فيه من عِوَج ولا هو ضيقُ
نظم من الشورى و حكم راشد ... أدب الحضارة فيهما والمنطق
ميتَ الجلالِ من القوافي زفرة ... تجري و منها عبرة تترقرَقُ
و لقد بعثتهما إليك قصيدةً ... أفأنت منتظر كعهدك شيقُ
أبكي لياليناالقصار وصحبةً ... أخذت مخيلتُها تجيش وتبرقُ
طبعت من السُّم الحياةُ طعامها ... وشرابها وهواؤها المتنشَّقُ
طرقت مهادك حيَّةٌ بشريةٌ ... كفرت بما تنتابُ منه وتطرقُ
يا (فوز) تلك دمشق خلف سوادها ... ترمي مكانك بالعيون وترمُقُ
ذكرت ليالي بدرها فتلفَّتت ... فعساك تطلُعُ أو لعلك تشرقُ
بَرَدَى وراء ضفافه مُستعبرٌ ... والحور محلولُ الضفائر مُطَّرِقُ
والطير في جنبات دُمَّرَ نَوَّحٌ ... يجد الهمومَ خليُّهُنَّ ويأرَقُ
ويقول كلُّ محدثٍ لسميرِه ... أبذات طوقٍ بعد ذلك يوثَقُ
عشقت تهاويلَ الجمال ولم تجد ... في العبقرية ما يحبُّ ويُعشَقُ
فمشت كأن بنانها يدُ مُدمن ... و كأن ظلَّ السَّم فيها زئبَقُ
يا مأتماً من عبد شمسٍ مثلُهُ ... للشمس يُصنَعُ في المَمات ويُنَسقَ
إن ضاق ظهر الأرض عنك فبطنُها ... عما وراءك من رفاتٍ أضيقُ
لما جمعتَ الشام من أطرافه ... وافى يعزي الشامَ فيك المشرقُ
يبكي لواءٌ من شباب أمية ... يحمي حِمَى الحق المبين ويخفقُ
ركن الزعامة حين تطلُب رأيَهُ ... فيرى وتسألُهُ الخطاب فينطقُ
ويكاد من سحر البلاغة تحته ... عودُ المنابر يستخفُّ فيورقُ

---

(٣) أُنظر: قصيدة شوقي في: ديوان شوقي، ٢/ ٤٩٢ – ٤٩٥ (توثيق وتبويب وشرح وتعقيب: الدكتور أحمد محمد الحوفي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٧٧).

رحم الله أحمد شوقي، ورحم الله الغزي، فإن أمثال هؤلاء الآن في مجتمعنا يكاد يكون معدوماً، فقد تبدلت المفاهيم وانقلبت الأمور، وصار الأمر في يد أناس همهم المناصب، ولا ندري إلى أين يسيرون بنا، والعدو متربص بنا الدوائر، ونحن مشغولون عنه ببعضنا.

لا أستطيع أن أذكر كل شيء عن دمشق فإنها تحتاج إلى مجلدات وأنا لست مؤرخاً، وإنما أكتب بعض ما علق في الخاطر مما رأيت، ولا أدري هل سيكون مفيداً أو هو من لغو الكلام. وما أعظم شوقي حيث يقول(٤):

جزاكم ذو الجلال بني دمشق وعز الشرق أوله دِمشقُ

---

(٤) ديوان شوقي، (تبويب: الحوفي)، ١/ ٣٥١.

- ١٩ -

تجربة فاشلة

عُدّت من دمشق بعد أن أمضيت فيها نحو خمسة أشهر متجولاً بين أحيائها ونواديها وقهاويها، ومساجدها، ولم أترك مكاناً إلاّ ودخلته أبحث وأدرس، وأتعلم، وكأني أبحث عن شيء لا أدري ما هو ولم أجده. عدت إلى عمّان، والدنيا مظلمة في عيني، وصادف مجيء والدي بإجازة قصيرة، فجعلنا نتجاذب أطراف الأحاديث، فقال فيما قال لي: ما رأيك أن تفتح متجراً وتجرب حظك في التجارة. فقلت له: أنا أعمل في التجارة، وليس لي فيها خبرة، ولم أزاولها قط (؟!). فقال: جرب. فقلت: لنجرب...

ووجدنا متجراً يريد صاحبه أن يبيعه، فاتفقنا معه وأخذناه وكان دكان بقالة. وكان صاحب الدكان من أقاربنا، فمكث معي نحو أسبوع يدربني على العمل وتركني وذهب إلى دمشق حيث يقيم. وكان هو أيضاً حديث العهد بالتجارة، وليس لديه تلك الخبرة الطويلة حتى أستفيد منه، وكان نوع التجارة التي بدأت أعمل فيها "بقالة".

بدأت العمل برأس مال قليل، وخبرة معدومة، وبعد فترة وجيزة أصبحت الدكان كأنها نادٍ للأصحاب والزملاء، فكانت تعج دائماً بالزائرين حتى إن الذي يريد أن يشتري كان يخجل أن يدخل الدكان ويترك المشترى منها إلى غيرها. وكنت أخجل أن أطالب أحداً بدين استدانه مني أو ثمن سلعة اشتراها من المتجر.

وكانت تلك الفترة: ١٩٣٠م وما بعدها فترة كساد عالمي، وكان الاقتصاد يشكو أزمة كبيرة، والنقود عزيزة، وكل إنسان حريص على المبلغ الذي بين يديه، والتجار لا يدينون إلاّ من وثقوا به ثقة تامة، وعلموا أنه يدفع ما عليه. ولذلك كنت في ذلك المتجر كأني في سجن لا أدري ماذا أفعل، وليس عندي المال الكافي حتى أشتري وأبيع، والذي يستدين لا يدفع ما عليه...

بقيت على ذلك المنوال عامين كاملين لم أجن منهما إلا الضجر والضيق والهموم، والخسارة.

بدء الطريق

في أواخر عام ١٩٣١م تعرفت على المرحوم الشيخ محمد الخضر الشنقيطي الذي مرَّ ذكره.. وذلك عن طريق عم لي كان يذهب لزيارته مع بعض أصحابه، فذهبت ذات يوم بعد صلاة العصر، وبقينا عنده إلى صلاة العشاء حيث صلى العشاء وودعناه وانصرفنا، وكانت تلك عادته أن لا يسهر بعدة صلاة العشاء مطلقاً، لأنه يقوم في أواخر الليل فيصلي ما استطاع من قيام الليل، حتى الفجر فيصلي الفجر، ويستريح قليلاً إلى ما بعد طلوع الشمس، ثم ينهض ويأتي الى غرفة المكتبة ويظل يطالع ويكتب إلى الظهر، فيصلي الظهر، ثم يستريح إلى وقت العصر، فيصلي العصر، ويجلس فيأتيه بعض أصحابه ويبقى معهم في جلسة لطيفة يتخللها أحاديث، ونوادر، وفتاوى فقهية، وإجابة على أسئلة، وتستمر الجلسة إلى وقت صلاة العشاء حيث يصلي العشاء، ويودعه الصحب.

أعجبني ذلك الشيخ ومجلسه جداً، ووجدت فيه ضالتي المنشودة، فلازمت مجلسه مدة. ولما تمكنت المعرفة بيننا سألني: ماذا تعمل؟ فقلت له عندي متجر بسيط، ولكني غير مرتاح به، لأني حديث عهد بالتجارة، وأظن أني سأتركه. فقال: وإذا تركته ماذا تريد أن تعمل؟ فقلت له: لا أدري. قال: لماذا لا تبدأ بقراءة بعض العلوم؟ فقلت: إني على استعداد. وبدأت فعلاً أقرأ الأجرومية في النحو، أنا ورفيق يماني كان يواظب على حضور مجلس الشيخ، وابن له أسود اللون أمه جارية، اسمه محمد عبدالله. وصرت أقرأ بجانب ذلك الفقه والتوحيد. وداومنا بجد نحو ثلاثة أشهر أكملنا [خلالها] الأجرومية حفظاً ومتناً، وصار عندي مبادىء جيدة في النحو. وكان عند الشيخ مكتبة عامرة بكتب الحديث والتفسير والفقه والتاريخ والأدب، فصرت في أثناء فراغي أطالع في هذه الكتب وأستفيد منها وألتهم الكثير منها التهاماً. وفي هذه الأثناء تركت الدكان وقد بعتها بثمن بخس، وخسارة غير قليلة بالنسبة إلى تلك الأيام، ولم أسأل عنها. وكانت تجربة فاشلة، ولكن عرفت من تلك التجربة أني غير أهل للتجارة، ولا أصلح لها مطلقاً.

كان الشيخ – رحمه الله – يشرح صحيح البخاري، فلما علم أني بدون عمل قال: لماذا لا تبيض لي بخطك ما أكتبه من شرح الحديث، وبذلك تستفيد. فأجبته بكل سرور.

وصرت ملازماً له كل يوم من الصباح حتى المساء، أكتب له ما يشرح من الحديث في النهار، وبعد صلاة العصر نأخذ الدرس المقرر لنا، ونبقى بقية الوقت مع بعض الإخوان في سمر ممتع إلى صلاة العشاء، فنصلي مع الشيخ ونودعه.

حلَّ شهر رمضان، وكان الشيخ من عادته أن يقرأ كتاباً من كتب السيرة النبوية في مدة شهر رمضان بعد الفطور، فاختار كتاب الشفاء للقاضي عياض، ولما اكتمل المجلس، أعطاني الكتاب وقال إقرأ. أخذت الكتاب ولم يكن مشكولاً وجعلت أقرأ وبدأت ألحن وأكسر فأرفع المنصوب وأجر المرفوع، والشيخ يصلح لي غلطي تارة بشدّة وتارة باللين، ولم أقارب نهاية الشهر إلاّ وأنا أقرأ قراءة صحيحة بدون أي غلط، وكان ذلك أحسن من كل دروس النحو، وعلمت أن التمرين على القراءة مع تعلم القواعد شيء مهم جداً...

بعد هذه التجربة صار عندي ثقة كبيرة من نفسي، وثبتت المعلومات عندي، وبدأنا نقرأ ألفية ابن مالك، ودرسناها على الشيخ – رحمه الله – في مدة ثمانية أشهر؛ وحفظناها عن ظهر قلب، حفظاً جيداً مع قراءة شرح ابن عقيل مع حفظ الشواهد، وشرح ما يتعلق فيها. وبذلك أتقنت النحو والصرف إتقاناً جيداً، وما عدت محتاجاً لدراسته مطلقاً.

تعرفت في تلك الأثناء على مكتبة مصطفى البابي الحلبي في القاهرة وصرت أكتب إلى مديرها، وأطلب منه بعض ما أحتاج من الكتب، وكانت الكتب رخيصة جداً، وبدأت أكوّن لي مكتبة خاصة، في التاريخ والنحو والأدب واللغة. وداومت على الدراسة على الشيخ أنا وصديقي الشيخ علي – رحمه الله – إلى نهاية سنة ١٩٣٤م. قرأنا عليه معظم العلوم من منطق وفقه وتوحيد وبلاغة ونحو وصرف، وكانت الفائدة العظيمة لي في كتابة شرح البخاري، فقد كتبت له عدة مجلدات، أفدت منها إفادة عظيمة، وتعلمت على البحث والمراجعة، ومعرفة المراجع المهمة، واطلعت على كثير من أهم المراجع في الحديث والتفسير، واللغة، والتاريخ، والتراجم.

هذا والفائدة الكبرى كانت بملازمة الشيخ، ومحادثته وسؤاله عن كل ما يطرأ لي من غوامض الأمور. وبذلك أصبحت من طلاب العلم المؤهلين تأهيلاً جيداً.

وكان من عادة الشيخ – رحمه الله – أن يجلس في الصيف على سطح إحدى الغرف في الهواء الطلق. وكان على علم لا بأس به في الفلك، فتعلمت منه كثيراً من أسماء النجوم، ومنازل القمر ومعظم ما نراه بالعين المجردة من الكواكب والنجوم. وبذلك صار عندي بعض المعلومات الأولية عن الفلك، وهذا الكون العجيب.

كان الشيخ – رحمه الله – من الشخصيات المرموقة، فكان يزوره كثير من شخصيات الأردن في مقدمتهم الأمير عبدالله أمير البلاد، وجلالة الملك علي - رحمهما الله - وكان من أظرف الشخصيات وأرقها، والشريف شاكر بن زيد – رحمه الله - وكان رجلاً لطيفاً متواضعاً، فكنت أُقابل هؤلاء الناس وأتعرف عليهم، وأسمع أحاديثهم مع الشيخ، وكانوا كلهم يحترمونه ويعظمونه.

وكان الأمير عبدالله – رحمه الله – يحضر دروسه في رمضان في مسجد عمّان الكبير، فكان يستقبله في المسجد، ويقبِّل يده أمام الناس تعظيماً للعلم ولأهل العلم. وكان معظم رجال عمّان المسئولين يزورون الشيخ ويتبادلون معه الأحاديث والآراء. فكان بيته ومجلسه ندوة عظيمة عرفت فيها الكثير من الرجال. وكان الشيخ يقيم الولائم الكبيرة ويدعو لها الأمير عبدالله. ولا يكاد يمر أسبوع إلاّ وعنده وليمة، فقد كان كريماً لا يعرف للمادة معنىً ولا وزناً.

كان أكبر مرتب في الدولة لا يتعدى خمسين جنيهاً، وكان هو يأتيه تسعين جنيهاً من عدة جهات متعددة من الأمراء والملوك، وكان يصرفها جميعاً، ويكون أحياناً مديناً. وكانت النقود لها قيمتها الشرائية في ذلك الزمان.

لم تكن عمّان بلغت النمو الكافي، فلم يكن فيها إلى ذلك الوقت سوى مدرسة ثانوية متوسطة، ومدرستين ابتدائيتين، ومدرسة ابتدائية واحدة للبنات.

وكان فيها مستشفى لجمعية خيرية أجنبية كان يديره طبيب إنجليزي أمه هندية، اسمه "سينبال" وكان ظريفاً جداً، مرحاً يقابل الناس ببشاشة غير معهودة من الإنجليز، وليس فيه عجرفة الإنجليز وانكماشهم، وترفعهم؛ فكان محبوباً عند الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم، وأصبح يعرف معظم الناس ويدعوهم بأسمائهم، ومرض فجأة وتوفي، وحزن الناس عليه حزناً شديداً.

جاء بعده طبيب تلياني اسمه الدكتور "تيزيو" وأدار المستشفى، وأتى بعدد من الراهبات وكبرً المستشفى، وكان وجوده في عمّان نعمة كبرى، وفرحاً كبيراً للناس. ولا يزال موجوداً إلى اليوم، وقد تقاعد الدكتور "تيزيو" وخلفه طبيب آخر لا أعرف اسمه.

وكان للحكومة مستشفى هزيل، لا يؤدي غرضه الذي وُجد من أجله، وبقي مدة وهو لا ينفع وليس له وجود.

وكان في عمّان طبيبة إنجليزية عرجاء، عندها عيادة، وكنا كثيراً ما نذهب إليها ونحن صغار، فتطببنا وتعطينا الدواء، لقاء أجر زهيد جداً، وبقيت إلى مدة قريبة حيث توفيت في عمّان، بعد أن خدمت أكثر من ربع قرن.

الدكتور خالد الخطيب
الطبيب والشاعر(١)

كان في عمّان بعض الأطباء، لهم عيادات خاصة، أذكر منهم طبيباً من مدينة حماة، جاء بعد ثورة سورية ضد الفرنسيين، وقد حكم عليه الفرنسيون بالإعدام، فجاء واستوطن عمّان بعدما طوف في العالم العربي. واسمه الدكتور خالد الخطيب. ولا أنسى ذلك الإنسان مطلقاً، فقد كان يجمع صفات عجيبة. كان جميل الصورة، طويل القامة، مكتمل الصحة، طبيباً ممتازاً دَرَسَ الطب في جامعة دمشق، لطيف المعشر، حلو الحديث، شاعراً خطيباً مُصقعاً. يعزف على الكمان. فقد كان من محاسن هذه الدنيا. ومع هذا كله كان يلاطف الناس ويزورهم ويزورونه. فكان حديث أهل عمّان، وموضع ثقة السكان وحبيبهم وطبيبهم. وكان له زوجة أجنبية وعنده بنت واحدة.

جاء إلى عمّان كما قلت بعد أن سجنه الفرنسيون ثمانية عشر شهراً في "أرواد"، ثم لحق بالثورة السورية سنة ١٩٢٥م، وحُكم بالإعدام، فترك وطنه وجاء إلى عمّان وعاش فيها إلى سنة ١٩٣٣م. كان مدعواً عند بعض أصدقائه، ويظهر أنه أفرط بالأكل فحصل

---

(١) ترجمَ لهُ الزركلي في الأعلام، ٢/ ٢٩٨، وسمّاه: خالد بن محمد الخطيب (١٩٠٠ – ١٩٣٢)، وقال إنَّ لهُ أناشيد حماسية ونظم حسن جُمع في ديوان مطبوع.

معه تسمم أودى بحياته وهو لا يتجاوز الثالثة والثلاثين من العمر. وكان يوم وفاته يوماً مشهوداً في عمّان، ونُقل جثمانه إلى بلده حماة.

كان شاعراً وخطيباً، وله شعر جيد جُمع في ديوان مطبوع، وله أناشيد حماسية. وكان شريف النفس أبياً، فيه أريحية كاملة ونجدة، رحمه الله تعالى.

سمعته يخطب في بعض الاحتفالات، فكان صوته يملأ الأسماع ويتكلم بحماسة بالغة، وكلام ينفذ إلى القلوب.

وفي احتفال أُقيم في عمّان لتأبين المغفور له جلالة الملك حسين بن علي المتوفى سنة ١٩٣١م، فكان الدكتور خالد – رحمه الله – أحد الخطباء البارزين في ذلك الحفل العظيم، الذي ضم نخبة عظيمة من شعراء وأدباء الأمة العربية. وكانت تلك أول مرة أرى فيها الشاعر الكبير خليل مطران يلقي قصيدة، وغيره من كبار الشعراء.

من النوادر التي لا أنساها وهي من عبر الدهر: مرض عم لي اسمه حمدي، وكان في حدود الخامسة والأربعين. وكان يشكو ألماً في حالبه، وساءت حالته جداً. وارتفعت حرارته. فأخبرنا الدكتور خالد الخطيب فجاء ولما فحص المريض قال لعمي الكبير عبد الكريم: إن أخاك هذا لا فائدة منه، ولو جاء أمهر جراحي ألمانيا لما استطاع أن يعمل شيئاً. وأعطاه بعض المسكنات وخرج مودعاً.

وبعد ذلك قال عمي عبد الكريم: ما دام أخي مخطراً ولا فائدة منه فإني سأجرب الكيّ، فكواه على محل الألم بالطريقة التي يكوي فيها البدو. وبعد ثلاثة أيام طلع له طلع كبير ثم انفجر وخرج منه قيح ودم كريه الرائحة، استراح على إثرها، وتماثل للشفاء، وبعد أسابيع شفي شفاءً تاماً.

ومرض في أثناء ذلك الطبيب العظيم، الصحيح، ومات، وعاش عمي بعده مدة اثنتين وعشرين سنة. تزوج وأنجب خمسة أولاد؛ ذكرين وثلاث بنات، وتوفي رحمه الله سنة ١٩٥٥م.

هذه الحادثة من الحوادث التي لا أنساها مطلقاً، فيها عبرة للمعتبر. وهكذا غادرنا الدكتور ونحن أشد ما نكون حزناً عليه، رحمه الله. وهذه هي الحياة يموت الصحيح

السليم، ويعيش المريض السقيم كما يقول أمير الشعراء أحمد شوقي رحمه الله (٢):

حياة يغامر فيها امرؤٌ	تسلّح بالناب والمخلبِ
و صار إلى الفاقة ابن الغنى	ولاقى الغنى ولد المتربِ
وقد ذهب الممتلي صحةً	وصحّ السقيم فلم يذهب

وهذه الأبيات من قصيدة رائعة لشوقي عنوانها مصاير الأيام من أحسن ما قال أمير الشعراء رحمه الله.

من شعر الدكتور خالد الخطيب – رحمه الله – يقول من قصيدة أنشدها على قبر الزعيم سعد زغلول:

يا بني مصر إن قضى اليوم سعدٌ	أجمعوا أمركم لسعدٍ مُطاعِ
جددوا العزم وانبذوا كل حقدٍ	لا يشل الصفوف كالإيقاعِ
إن يمت سعد فالكنانة تحمى	ولها ذكره أجل متاعِ
أو تداعى جثمانه وتوارى	قوله الحق ليس بالمتداعِ
قال "موتوا أو استقلوا" فهذا	أمر "زغلول" واجب الاتباعِ

رحم الله الدكتور خالد الخطيب فقد كان ظريفاً في كل شيء. وكان يؤمل أن يعيش تسعين سنة لما كان يعتد به من قوة في جسمه، وصحة كاملة لا ينقصها شيء، وحياة رضية كلها مرح وعمل خير ورفاهية، ولكن لم يتركه القدر فذهب في ريعان شبابه.. "وتقدرون وتضحك الأقدار".

---

(٢) ديوان شوقي، ٢/ ٢٣، (توثيق وتبويب وشرح وتعقيب: الدكتور أحمد محمد الحوفي، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٩).

- ٢٠ -

الشوبك ووادي موسى ومعان والبتراء

في هذه السنة ذهبت لأول مرة إلى الشوبك في جنوب الأردن. وذلك أن والدي كان يعمل في الجيش، وكان قائداً لمخفر الشوبك، فذهبت لزيارته وكل غرضي أن أتعرف على بلادي، فقد نشأت وأنا أحب الأسفار والتنقل. ولم تكن الطريق سهلة إليها، فالقطار لم يكن يصل إليها، وإنما يجب أن آخذ القطار الذاهب إلى معان، وقبل الوصول إلى معان هناك محطة اسمها "عنيزة" هي أقرب نقطة إلى الشويك، ومنها لا يوجد إلاّ ركوب الخيل، ولذلك أخبرت والدي بأني سأحضر في يوم معين فأرسل لي فرساً مع جندي انتظرني في المحطة، ولما وصل القطار المحطة نزلت وأخذت طريقي إلى الشوبك على ظهر الفرس، الذي استغرق نحو أربع ساعات ونصف، ووصلت مساءً، وفي اليوم الثاني جعلت أتجول في ذلك المكان الغريب حقاً، فهو عبارة عن قلعة كبيرة يحيطها سور عظيم لا يزال موجوداً، وجميع جوانبها أودية تحيط بها، وهي في مكان مرتفع، وفي داخلها بئر ماء عميق ينزل إليه الإنسان في طريق ملتوية، ودرجات مريحة، وفي قاع البئر بركتان من الماء الصافي العذب، ينبع من داخلها ؛ فلو حوصرت القلعة مدة مهما طالت فإن الماء متوافر فيها دائم لا ينقطع. وهذا لا يوجد في القلاع الأخرى.

فالشويك قلعة من مؤسسات الصليبيين. شيدها بغدوين الأول الصليبي سنة ١١١٥م. وهي تشرف على الطريق الصحراوي المؤدي من دمشق إلى الحجاز ومصر، أطلق عليها الفرنجة مونتريال ومونس ريجالس. هاجمها صلاح الدين الأيوبي مراراً وعجز عن الاستيلاء عليها، وذلك لمناعتها، وتوافر الماء في داخلها.

استسلمت للعرب سنة ١١٨٩م بعد أن أُسر "أرناط" رينالد دي شاتيون في معركة حطين ١١٨٧م وقتله صلاح الدين بيده.

وجدّد فيها المماليك، وكتبوا على سورها تاريخ التجديد، وبعض الآيات القرآنية بخط جميل لا يزال إلى اليوم.

تجولت فيها وكان يسكنها جميع أهل الشويك، فكانت قرية كبيرة غريبة، وفيها

المخفر للجنود، وفيها مدرسة لها معلم واحد كان من أهل الكرك، ومن الذين درسوا في الأزهر. تعرفت عليه وإذا به شاعر وأديب، له دراية جيدة في النحو والصرف والأدب واللغة، ويكتب خطاً جميلاً جداً، وهو على غاية من المرح وخفة الروح ؛ فلما أنست به جعلنا نتذاكر اللغة، والنحو، والشعر، فقال: أين درست؟ هل أنت أزهري؟. فقلت له: لا وانما أدرس في عمّان. فقال: ومن الذي يدرسك؟. فأخبرته عن أستاذي. فقال: يجب أن تذهب إلى الأزهر وتكمل دراستك وتحصل على شهادة، ذلك أضمن لمستقبلك. فسألته عن الأزهر والدراسة فيه وكيفية الوصول إلى القاهرة ؛ فشرح لي نظام الأزهر، وحالة الدراسة، فوعيت ذلك وصممت على ذلك، ولكن لم أتكلم مع والديّ في الموضوع وتركته للظروف.

جعلت أتجول في القلعة، وأصحب الأستاذ في أوقات فراغه، فننزل إلى الوادي الذي تطل عليه القلعة، فإذا به وادٍ خصيب، وبه غابة من الزيتون، وأشجار من التين الممتاز والعنب وأنواع الفاكهة.

وبجانب الوادي قرب غابة الزيتون قبر عليه قبة لأحد أمراء المماليك لم أعد أذكر اسمه. وصرنا نتجول ونخوض شتى الأحاديث. وكانت تلك الزيارة لي فتحاً جديداً عرفت فيها ذلك الجزء من بلادي، وتعرفت على الأستاذ إبراهيم المبيضين(١) الذي فتح لي آفاقاً جديدة، وأنار لي الطريق بحديثه عن الأزهر وسهولة الدراسة فيه، ولم أكن أعرف عنه شيئاً مطلقاً. وكان تمهيداً لذهابي للأزهر.

منطقة الشوبك منطقة رائعة، جوها بديع، وترتفع الشوبك نحو ١٤٠٠ متر عن سطح البحر، وحولها أراضٍ جيدة التربة، ومياهها لا بأس بها، ولو انها استُغلت وفتحت الطرق الجيدة لها لكان لها شأن عظيم، ولكنها تكاد تكون خالية من السكان. وأهلها طيبون جداً، وكرماء، وأقرب إلى التدين. ويوجد قبيلة من قبائلهم اسمها قبيلة "المطارنة" وهذا يرجع إلى أيام الصليبيين فيجوز أنهم بقايا منهم.

بقيت في الشوبك أكثر من شهر وأنا أسرح في جبالها وسهولها وأوديتها، تارة وحدي، وأكثر الأوقات مع الأستاذ إبراهيم، وكانت فترة لطيفة فرجت عني كثيراً، وأفدت منها

---

(١) أصدر حسن علي مبيضين وفوزي فلاح الخطبا كتاباً بعنوان إبراهيم المبيضين: حياته وشعره، مطابع الإيمان، عمّان، ١٩٨٧.

الكثير. وفي يوم من تلك الأيام سمعت بأن بعض الجنود يودون الذهاب إلى معان، فطلبت من والدي أن يسمح لي بالذهاب معهم، حتى نعرج بالعودة على البتراء، التي طالما سمعت بها واشتقت إلى زيارتها.

كان الجو لطيفاً في أواخر شهر آذار، وجُهزت لي فرس والدي وكانت وراءها مهرة صغيرة جداً، وبدأنا رحلتنا إلى معان، وأخذت معنا الطريق نحو ثماني ساعات، كانت طويلة جداً مملة لأن الطريق جرداء ليس فيها شيء يسلي. وصلنا معان مساءً وكان الجندي الذي أصحبه شيشانياً، شاباً لطيفاً، ونزل ضيفاً على جندي آخر في معان أيضاً شيشاني، وسهرنا تلك الليلة معاً ولم أتكلم كلمة واحدة لأن الاثنين كانا يتكلمان بلغتهما وأنا لا أعرف منها حرفاً واحداً، ولم يكن عندهما شيء من الذوق، وكان معي كتاب جعلت أقرأ وأسلي نفسي حتى جاء العشاء. فلما تعشينا، استأذنت وتركتهما وأسلمت نفسي للنوم، وكنت متعباً جداً من تلك الرحلة المتعبة. وفي الصباح الباكر استأنفنا رحلتنا إلى وادي موسى.

معان بلد في أطراف البادية على طريق الحجاز، وهي بلدة قديمة جداً لها ذكر في التاريخ القديم لأنها كانت في طريق القوافل بين تدمر وبترا والعقبة، وقد مرَّ فيها موسى عندما خرج من التيه.

تقع معان في ملتقى عدد من الطرق المهمة؛ فمن جهة الشرق تمرُّ أفضل طريق طبيعية تربط غربي الجزيرة العربية بدمشق والموانىء السورية، ومنها تتفرع أفضل طريق إلى ميناء العقبة جنوباً.

أما الى الغرب فتمرُّ طريق القوافل المهمة إلى غزة ومنها إلى مصر. وإلى الشرق تمرُّ الطريق عبر واحة دومة الجندل إلى الخليج العربي والعراق. وإلى الشمال الشرقي تمرُّ الطريق بينابيع "عين نجل" من أراضي الشوبك ومن هناك تتفرع إلى فرعين يمرُّ أحدهما بخرائب التوانة التي يُقال أن قبيلة التيمان كانت تقيم فيها في الزمن القديم. وكانت مساكن أيوب كما جاء في سفر أيوب من التوراة. هذا كله قبل الإسلام.

وأما بعد الإسلام فإنها صارت في طريق الحاج، ولأن معان في ملتقى هذه الطرق، ومركزها له تلك الأهمية، ولوفرة المياه فيها، بقيت مأهولة بالسكان إلى يومنا هذا، ولم

تدمرها غزوات البدو العديدة، تلك الغزوات التي قضت على القرى الواقعة في الجنوب الغربي والشمال الغربي منها.

ولذلك فإن مركز معان في تلك الواحة على الطرف الغربي للصحراء، وعلى طريق الحاج مركز مهم جداً.

وكانت الأماكن التي غرب معان مأهولة بالسكان في الأزمان القديمة، وكانت أراضيها تُستَغل في الزراعة، ويوجد في معان نفسها وفي الأماكن المحيطة بها عدد كبير من الينابيع، وأقرب تلك الينابيع وأكثرها غزارة هو "الضواوي" التي تصل مياهه إلى معان في قناة تحت الأرض.

وزادت أهميتها عندما سار القطار من دمشق إلى المدينة المنورة ماراً بمعان، والمسافة من دمشق إلى المدينة ١٣٠٠ كيلو متر، ومن دمشق إلى معان ٤٤٠ كيلو متر.

وقد رُبطت معان بعمّان بطريق معبَّد من أحدث الطرق في هذه الأيام، وتمتد هذه الطريق إلى المدينة ثم إلى مكة المكرمة.

تتألف معان من قسمين: معان الحجازية، ومعان الشامية. ومعظم سكان معان يعملون في التجارة، والخط الحديدي، وقسم منهم في وظائف الدولة. ومعان كما رأيتها بلدة بسيطة فيها شارع رئيسي، وبيوت معظمها مبني من الطين، وليس فيها ما يغري على الإقامة بها، ولم تتقدم كثيراً مع أنها على طريق رئيسي ومهم جداً، وكثير من شبانها الذين يتعلمون يهجرونها إلى المدن الرئيسية مثل عمّان وإربد والزرقاء.

الأمطار في معان نفسها قليلة، ولكنها باردة بالشتاء، وبردها مشهور لأنها في طرف الصحراء. ويأتيها أحياناً سيول جارفة من الجبال التي تحيط بها من الغرب. ويظهر أن السكان القدماء تنبهوا لذلك، فعملوا سداً على بُعدٍ منها يحميها من تلك السيول.

ومنذ ١٥٠ سنة عندما دخلها ابراهيم باشا المصري، كان من أهم مطالب سكان معان أن يبني لهم الباشا ذلك السد حيث تهدم قسم كبير منه، من جراء السيول الجارفة، ومن إهماله.

وفي سنة ١٩٦٦، وفي ليلة من الليالي داهمها سيل كبير فأغرقها وذهب من جرائه

عدد كبير من سكانها، ومن بعض الحجاج المارين بها. وكانت كارثة كبرى، واضطرت الحكومة أن تبني معان من جديد وجاءها بعض الإعانات، فبنت حياً جديداً منظماً، وأخذ كل من فقد بيتاً عوضاً عنه.

غادرنا معان صباحاً متوجهين إلى البتراء، وبعد نحو أربع ساعات كنا نتجول في مدينة البتراء تلك المدينة العجيبة.

تقع البتراء على بعد نحو ٣٦ كيلو متر غربي معان، وعلى بعد ٢٧٢ كيلو متر من عمّان إلى الجنوب. وهي مدينة صخرية وردية اللون، فريدة من نوعها في العالم. أنشأها الأنباط وكانت زاهرة جداً من قبل المسيح بنحو ثلاثة قرون، وقد كان سلطانهم يمتد من دمشق حتى وادي القرى جنوباً، ومن بادية الشام شرقاً إلى خليج السويس غرباً. وبلغت (البتراء) عصرها الذهبي في القرن الأول بعد الميلاد، فصكت النقود، وبنت السفن، واستقطبت القوافل التجارية التي كانت تنقل نفائس العالم القديم من عطور وطيب وتوابل وجواهر وحرير. وعندما تحولت طرق التجارة البرية عن البتراء إلى تدمر بدأ الضعف يدب في دولة الأنباط حتى استطاع الرومان عام ١٠٦م احتلال عاصمتها وجعلها ولاية رومانية. وقد أضافوا إليها بعض الأبنية المهمة، من أهمها المدرج الذي يتسع لثلاثة آلاف متفرج، والمعبد الكبير، وشارع الأعمدة.

بقيت مدة وهي مأهولة، ولكنها فقدت مجدها، وبعد الحروب الصليبية أصبحت في غياهب النسيان، حتى جاءها الرحالة السويسري بيركهارت وكشفها من جديد وكتب عنها ونبّه إليها الناس وذلك سنة ١٨١٢م(٢).

ولا تزال آثار البتراء بروعة جمالها الى الآن ودقة هندستها تشهد على عظمة الأنباط العرب الذين نحتوها في الصخر، وتدل على ذوق رفيع، ومهارة فائقة، ومثابرة قلَّ أن يوجد مثلها.

دخلنا ذلك المدخل العجيب الذي يسمونه "السيق" وهو من أهم ما في البتراء، ويبلغ طوله نحو كيلو مترين، ويتراوح عرضه بين ثلاثة أمتار واثني عشر متراً، وارتفاعه بين

---

(٢) رحلات بيركهارت في سورية الجنوبية، ٢/ ١٣٤ – ١٤٢.

سبعين متراً ومئة متر. وفي بعض الأماكن تكاد الصخور تغطي السيق، وتمتزج ألوانها القرمزية والبنفسجية والوردية والحمراء لتضفي على الطريق جمالاً طبيعياً رائعاً، ورهبة تأخذ بالقلوب. حقاً إن هذا المدخل لمن روائع الأماكن وأعجبها، ومهما وصفه الإنسان لا يفيه حقه.

مررنا بذلك السيق، حتى إذا بلغنا آخره انفتح أمامنا على منظر عجيب يأخذ بالألباب، ذلك هو منظر الخزنة، وهي بناء ضخم نُحت في الصخر الوردي اللون، واختير له مكان يقيه الرياح والأمطار، ولا تأتيه الشمس إلاّ لِماماً في الصباح، ولذلك احتفظت برونقها وجدّتها حتى لكأنها نُحِتت منذ وقت قريب. ارتفاعها نحو خمسة وعشرين متراً، وتقوم الطبقة السفلى منها على ستة أعمدة كورنثية الطراز تزينها تماثيل عديدة. وقد نُحِتت الخزنة نحو سنة ٥٠ ق. م.

وسميت الخزنة لأن في واجهتها في الوسط شكل يحيط به أربعة عمدان، وعليه بعض التماثيل، كان يظن البدو أنه مكان لخزن الذهب، وكانوا يطلقون عليه الرصاص لعله ينفتح عن ذلك الكنز الموجود فيه حسب اعتقادهم.

وقفت عند الخزنة وقفة طويلة أتملى من ذلك المنظر البديع الساحر الذي خلب لبي، وأخذ بمجامع نفسي، ولو تُرِك لي الخيار وقتها لبقيت ذلك النهار كله هناك وأنا واقف أنظر في ذلك الهيكل العظيم والبناء العجيب. ولكن الجندي كان يحثني على الذهاب وأنا أستمهله حتى فرغ صبره، فودعت ذلك المكان وسرنا في ذلك الوادي الطويل حتى مررنا على المدرج، وكان وقتئذٍ غير بارز بروزاً جيداً فقد غطته الرمال، ولا يظهر منه إلاّ الشيء القليل. ولكنه كُشِفَ عنه بعد ذلك وفي سنة ١٩٦٢م، وهو يتألف من ٣٤ صفاً من الأدراج ويتسع لنحو ثلاثة آلاف متفرج.

وعلى يمين الذاهب بعد أن يمر بالمدرج "المحكمة" كما يسمونها، وهي عبارة عن ضريح بُني فوق أقبية تضم غرفاً ذات أقواس رومانية، ويشتمل على قاعة أبعادها ٢٠ X ١٨ متراً، ويوجد في صدرها قوس واسع يُعتَقَد أنه كان مخصصاً لرئيس المحكمة.

وبعد ذلك ضريح القصر، وتشبه واجهته القصور الرومانية التي تتألف من ثلاثة طوابق، وتعتبر بوابته الرباعية أضخم الواجهات في البتراء، وقد بُني جانب من واجهة

الطابق الثالث بالحجارة على غير ما هو مألوف في البتراء، حيث جميع هياكلها وقصورها وقبورها نُحِت في الجبل.

ثم بعد مسير مدة يسيرة ينفرج الوادي أمام الزائر ويقابلنا هيكل مبني أيضاً على الطراز البيزنطي، وقد بُني في القرن الثالث، ويسمونه قصر البنت.

ويوجد أمام واجهته الشمالية اثنا عشر عموداً ومثلها أمام الواجهة الجنوبية، أما الجهة الشرقية فكان أمامها ستة أعمدة ومثلها أمام الجهة الغربية، وترتفع جدران هذا الهيكل نحو عشرين متراً.

تجولنا هناك مدة، ثم كان مخفر وادي موسى في كهف من الكهوف القريبة من قصر البنت هذا، فزرنا المخفر واسترحنا قليلاً وتناولنا بعض كؤوس الشاي، وتحدثنا مع الجنود، وقد دعونا للغداء فاعتذرنا لأننا نريد متابعة سيرنا إلى الشوبك، والطريق طويلة، ثم ودعناهم وواصلنا سيرنا.

ويوجد من أهم آثار البتراء الدير؛ لم نستطع أن نزوره لأن الوقت كان ضيقاً، وهو يرتفع خمسمائة متر عن الوادي، ولا يستطيع الزائر أن يذهب إليه إلاَّ على قدميه لأن طريقه وعرة، وكان له درج ممتاز وعريض تظهر آثاره أحياناً، ولكن يظهر أنه تهدم بفعل الزلازل وتساقطت عليه الصخور، فأصبح الطريق عسيراً وشاقاً، والوصول إليه والعودة يأخذ نحو ساعتين، فأجلنا زيارته إلى مرة أخرى.

والدير أضخم من الخزنة، تقوم على واجهته التي نُقِرت في الصخر ثمانية أعمدة تعلوها الشرفات والتيجان، وهي أضخم آثار البتراء، ويبلغ عرض واجهته ٥٠ متراً، وارتفاعها ٤٥ متراً. وإن المرء ليبدو ضئيلاً جداً أمام تاجه الذي يعلوه، فقد زرته فيما بعد عدة زيارات حتى صرت خبيراً في البتراء جداً.

والأنباط كانوا عرباً وأسماء ملوكهم الحارث، وعبادة، ومالك، ورئبال، وكانوا أهل جد ونشاط، ودامت سلطتهم نحو ستمائة سنة.

خرجنا من البتراء نحو العصر، ومررنا بعد ذلك على بيوت من الشعر يسكنها البدو، واسترحنا عندهم قليلاً، وأكلنا غذاءً خفيفاً، وقد حاول الجندي إقناعي أن

نبقى في ذلك المكان وننام فيه، فلم أقبل فإن المكان غير مريح، وكان هناك صياح بعض النساء يتخاصمن مع بعض، فتركنا المكان وواصلنا سيرنا، وبدأ الظلام يخيم وتلبدت السماء بالغيوم، وبدأ الجو ينذر بالمطر. وبعد ساعة من الزمن جادت علينا السماء بالمطر الغزير. وكان معنا لحسن الحظ معاطف فارتديناها، وأخذنا نواصل سيرنا في ذلك الظلام الدامس، والمطر ينهمر علينا بغزارة، وكان من سوء حظي أن الفرس التي أمتطيها لها مهرة صغيرة عمرها أسابيع فكانت تتأخر عنا مما يضطرني أن أقف قليلاً أو أرجع حتى أبحث عنها. وكانت رحلة متعبة لي جداً. وبقينا على هذه الحال نحو خمس ساعات كانت علينا كأنها خمس سنوات.

وصلنا إلى الشوبك بعد منتصف الليل، ولكن بحالة يرثى لها من الجهد والإرهاق والبرد. ومع كل هذا فقد كنت مسروراً جداً لأني زرت البتراء التي كنت أسمع عنها الكثير.

بعد أن مكثت عدة أيام في الشوبك عدت إلى عمّان، وواصلت دراستي على الشيخ. وفي تلك الفترة بدت طلائع من زملائي الذين أتموا الدراسة الثانوية وذهبوا إلى الجامعات، بدت طلائعهم تفد على عمّان في الصيف، منهم من يدرس الطب، ومنهم من يدرس الحقوق، ومنهم من يدرس الأدب، فبدأت أستصغر نفسي، وبدأ حنيني إلى المدرسة يعاودني، وصرت أفكر جدياً في معاودة الدراسة، ولكني لا أدري ماذا أصنع ولا يوجد في عمّان حينئذٍ معاهد يواصل فيها الطالب دراسته حتى يحصل على الثانوية، وليس بإمكاني متابعة الدراسة بنفسي، وبقيت في حيرة شديدة. بقيت على هذه الحال إلى أواخر سنة ١٩٣٤م.

" فتنـة "

في أوائل هذه السنة [١٩٣٤م] ظهرت في دمشق طريقة من الطرق الصوفية اسمها الطريقة التيجانية. مؤسسها هو: الشيخ أحمد بن محمد أبو العباس التيجاني(١)، جزائري الأصل من مواليد "عين ماضي" في جنوب الجزائر، وراجت طريقته في شمال إفريقيا، ولا سيما في إفريقيا السوداء وشنقيط "موريتانيا" والمغرب. وتوفي الشيخ أحمد هذا في فاس (اختُلف في تاريخ وفاته: يقول الزركلي إنه توفي سنة ١٨١٢م، وفي المنجد(٢) سنة ١٨١٥م، والله أعلم)، ودفن في زاويته التي أنشىء عليها مسجد كبير موجود إلى الآن يُزار وتُقام فيه الصلوات الخمس.

انتقلت هذه الطريقة إلى دمشق وحمل لواءها المرحوم الشيخ "علي الدقر"، وكثر أتباعه، وبدأ بعض مريديه يأتي إلى عمّان ويبشر بهذه الطريقة... وكان شيخنا محمد الخضر - رحمه الله - يعرف هذه الطريقة جيداً، وقد رد عليها بكتاب ضخم سماه **مشتهى الخارف الجاني**(٣) بنحو خمسمائة صحيفة فند فيها كثيراً من أقوال الطريقة التي تخرج عن الصواب.

ولما بدأت طلائع التيجانية تأتي إلى عمّان، وعمّان بلد حديث ليس لها عادات وتقاليد، وأهلها جماعات متفرقة، جاؤوا من عدة بلدان، وهي تختلف عن دمشق والقاهرة ومكة وفاس وبغداد وتونس وغيرها من المدن القديمة التي تركزت ولها عادات وتقاليد، وزوايا وأولياء، وعائلات أصيلة قديمة، وعائلات طارئة؛ فلما أن خلت من هذا كله، ليس فيها زوايا ولا طرق، ولا أولياء أو أضرحة أو تقاليد قديمة وما شابه ذلك... قام الشيخ - رحمه الله - يناوىء هذه الطريقة ويتصدى لها، وقد انتصر بعض عوام الدمشقيين المتوطنين في عمّان لأتباع الطريقة وكادت تكون فتنة كبيرة.

---

(١) من كتبه: جواهر المعاني، المطبوع بالمطبعة الأزهرية ١٣٤٥هـ، وكتاب الإفادة الأحمدية، المطبوع بمطبعة الصدق الخيرية ١٣٥٠هـ، وبغية المستفيد في شرح منية المريد وبهامشه كتاب الجيش، المطبوعان بمطبعة التقدم ١٣٢٦هـ.

(٢) المنجد في الأعلام، ص ١٤٦، ط.٢، دار المشرق، بيروت، ١٩٦٩.

(٣) مشتهى الخارف الجاني في ردّ زلقات التجاني الجاني، تأليف: محمد الخضر بن عبدالله الشنقيطي، ط. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٢٧.

طليت من القاهرة بعض كتب هذه الطريقة فجاءني كتاب ضخم اسمه جواهر المعاني وهو أقوال وتعاليم، وشطحات من فيض الشيخ أحمد التجاني.

وكتاب ثانٍ اسمه بغية المستفيد، فأخذت أقلِّب الطرف في هذين الكتابين، وبعد قراءتهما جمعت بعض الأقوال التي عثرت عليها وظاهرها يخالف الدين الإسلامي، وعلقت عليها بعض التعليقات الموجزة، ونشرت ذلك برسالة موجزة(٤)، وانتشرت هذه الرسالة بين أيدي الناس، وكأنها كانت ناراً أكلت كل تلك الفتنة وانتهت، وأرسلت منها نسخاً إلى معظم المجلات الإسلامية، فنشرها كاملة المرحوم محب الدين الخطيب في مجلة الفتح، فكان لها تأثير كبير جداً.

الأصل في الطريقة الصوفية هي السيرة الحسنة المختصة بالمتصوفة السالكين إلى الله، لتمكنهم في المقامات والترقي في الأحوال والوصول الى الله. وهي شيء حسن وجميل إذا كانت عن علم وتفهّم، بعيدة عن الخرافات والدجل والانحراف عن الشريعة.

وكانت في القرنين الثالث والرابع تدل على أحوال الصوفية وسلوكهم، ونبغ كثير من المتصوفة، وأعلام ذلك المذهب العظيم مثل الجنيد، والسري السقطي، والمحاسبي، والقشيري، والبسطامي، والكرخي، والشاذلي، وأبي العباس المرسي، وابن عطاء الله السكندري وأمثالهم.

ثم تعددت الطرق بعد ذلك، وأصبحت الطريقة تدل على نظام معين من الرياضات الصوفية، وانتشرت في شمال افريقيا والعراق ومصر... ودخلها كثير من الفساد والخرافات، مما جعل كثيراً من العلماء ينكرون عليهم، ويناوئونهم، وكان شيخنا المرحوم محمد الخضر الشنقيطي ينكر هذه الخرافات والخزعبلات مع أنه كان متصوفاً كبيراً.

أورد هنا مثلاً من الأقوال الشاذة التي جاءت في كتاب جواهر المعاني المنسوب للشيخ أحمد التيجاني: قال إن قراءة صلاة الفاتح مرة واحدة تعدل قراءة القرآن الكريم "ستة آلاف مرة"، وصلاة الفاتح هي: "اللهم صلي على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق، والهادي الى صراطك المستقيم"(٥). إن كلمات هذه الصلاة لا بأس بها، ومعانيها جميلة، ولكن الخطورة في أن يعتقد الإنسان بأن

---

(٤) مخازي الوليّ الشيطاني الملقب بالتجاني الجاني، المطبعة الوطنية، عمان.

(٥) المختار من أقوال التجاني، ص٤.

هذه الكلمات البسيطة أفضل من القرآن الكريم، وأن قراءتها تعدل كذا ألفاً من تلاوة القرآن، هذا شيء خطير، وفيه حرب على الدين. وهكذا نجد كثيراً من هذه الأقوال النابية، الخارجة عن الدين. والناس عندما يعتقدون شيئاً يأخذونه قضية مسلمة، ولا يقبلون الجدال فيه، ولا سيما الأعاجم، الذين لا يعرفون اللغة العربية. ولذلك تفشت هذه الطريقة في إفريقيا السوداء، ولها أتباع لا يعدون ولا يحصون، وقد لعب الفرنسيون دوراً كبيراً في استخدام مشايخ الطرق في إفريقيا لتثبيتهم في تلك البلاد، واستغلوا نفوذ كثير من هؤلاء السذج بالترغيب والترهيب حتى تمكنوا من استعمار معظم تلك المناطق. ولذلك نرى الكثير من المثقفين الواعين المتدينين في شمال افريقيا ينفرون من الطرق وأهلها، وأصبحوا يميلون إلى الطريقة السلفية والبعد عن هذه الطرق الصوفية لما رأوه من استخدام المستعمر لكثير من المشايخ.

ويجب أن يسجل شيء مهم لهم، وهو نشرهم للإسلام ونشاطهم في ذلك ملموس، فإن الطرق لها الفضل الكبير في نشر الإسلام في إفريقيا السوداء، ولذلك لا يجوز أن نهمل هذه الناحية المهمة، ونذكر ما لهم وما عليهم...

انتهت الفتنة في عمّان، ولم يعد هناك شخص واحد في الأردن يتبع هذه الطريقة، وتقلصت في دمشق، وماتت بموت المرحوم الشيخ علي الدقر – طيب الله ثراه –، فقد كان رجلاً مخلصاً أخذ هذه الطريقة عن حُسن نية، وكان من المخلصين الداعين إلى الله... ولا يجوز لأنفسنا أن نذكره إلاَّ بخير، رحمه الله رحمة واسعة.

الأزهـر

١٩٣٥ – ١٩٤١م

في أواخر عام ١٩٣٤ قرر شيخنا – رحمه الله – أن يعود إلى المدينة بأي وسيلة كانت، فقد طالت غيبته عنها، لأنه غادرها سنة ١٩٢١م، وقد أحس بدنو أجله، فقد نيف على الستين، وكان جسمه ضعيفاً، وهو لا يفضل على السكنى بالمدينة أي بلد آخر؛ فطلب من المرحوم الملك عبد الله أن يتوسط له لدى المرحوم الملك عبد العزيز بن سعود أن يسمح له بالعودة إلى المدينة والسكنى فيها، فأجاب الملك عبد العزيز بالترحاب بالشيخ، وأنه لا مانع عنده من سكناه في المدينة على شرط أن لا يتدخل في السياسة؛ ففرح الشيخ رحمه الله بذلك فرحاً كبيراً، وأخذ يعد العدة للرحيل إلى بلد الحبيب، ولسان حاله ينشد:

هـواي طيبة لا بيضاء عـطـبـول ومنيتي عينها الـزرقـاء لا النيلُ

أما أنا فقد كان وقع الخبر عليّ كالصاعقة، فإني كنت مستقراً نوعاً ما، أتعلم وأكتب للشيخ ما يؤلف، فماذا أصنع الآن؟

وجئت يوماً عنده على عادتي في الصباح، وجلست مطرقاً لا أدري ماذا أقول، ففاتحني بالحديث قائلاً: ماذا تريد أن تعمل؟ فقلت: لا أدري. فقال: أمامك طريقان: الأولى أن تذهب معي إلى المدينة وتعيش معنا واحداً من أفراد العائلة. والثانية: أن تذهب وتواصل دراستك في الأزهر وتحصل على شهادة وتعيش عيشة كريمة... فقلت له: والله إنه ليشرفني أن أكون معك ولا أُفارقك أبداً... ولكني أفضل الذهاب إلى مصر والانتساب إلى الأزهر، ذلك أضمن لمستقبلي. فقال: هيا على بركة الله، حضّر أمتعتك، وهيء نفسك للسفر معنا إلى القاهرة، ولا تفكر في شيء من الصعوبات.

ذهبت وتحادثت مع والدي في الموضوع فوافق، وعملت بعض الملابس اللازمة، وهيأت نفسي، وسافرت مع الشيخ إلى القدس، ومنها إلى القاهرة كما مرّ في ترجمة الشيخ رحمه الله.

كان ذهابي إلى القاهرة حلماً من الأحلام، وكم كنت أمني النفس في ذلك، حتى تحقق الحلم، ولا تسل عن الغبطة والفرح والسرور عندما وصلنا القاهرة، وكان السفر بالقطار، من القدس صباحاً ويصل القاهرة ليلاً حوالي الساعة الحادية عشرة.

خرجنا من المحطة إلى ميدان باب الحديد، ذلك الميدان الفسيح، فبهرتنا الأنوار المشعة والأضواء من كل جانب، وحركة السيارات والترام. وكنت غير مصدق بأني في القاهرة، وبقيت في تلك الحالة من النشوة والسرور إلى أن بلغنا حي القلعة حيث يقيم شقيق شيخنا الشيخ محمد حبيب الله، ونزلنا ضيوفاً عليه، كما تقدم، وبعد أن انتسبنا للأزهر، استأجرنا غرفة في شارع الدردير قرب الأزهر أنا وصديقي وزميلي المرحوم الشيخ علي سالم عطية البجلي. وقبل أن أكمل الحديث عن بدء دراستنا في الأزهر، وكيفية معيشتنا في القاهرة، أريد أن أعرف الشيخ علي زميلي – رحمه الله – فإن تاريخ حياته من الحكايات العجيبة:

الشيخ علي سالم عطية البجلي

تكاد قصة صديقي الشيخ علي تكون من قصص الخيال، فقد خرج من قريته في تهامة باليمن أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وعاد إليها عالماً من علماء الأزهر مزوداً بشهادة العالمية، وبمكتبة ضخمة تضم أهم المراجع في الدين واللغة والفقه والتفسير والتاريخ والأدب.

في قرية "شجينة" على مقربة من الحديدة، ولد الشيخ علي بن سالم بن عطية البجلي نسبة إلى بجيلة القبيلة المشهورة، ونشأ فيها وتربى ككثير من أبناء قريته، لم يدخل الكُتّاب، ولا تعلم، ولا درس؛ فقد كان يعمل في الزراعة والتجارة ليكسب قوت يومه، وتزوج وأنجب ولداً أسماه محمداً. ولا أدري بالضبط تاريخ ولادته، وكم كان عمره يوم تزوج، ولا أعلم شيئاً من حياته في طفولته وشبابه؛ فهي حياة قروي بسيط يكتفي بأقل ما يمكن مما يؤمن له قوته وقوت عياله. وفي أغلب الأحيان فراغ وتضييع وقت بما لا سبيل له من النفع.

كان له جماعة من الأصحاب يجتمعون ويتحدثون، ويقطعون وقتهم بالأحاديث التي لا طائل من ورائها. وذات ليلة من ليالي الصيف – وليالي تهامة مشهورة بلطفها،

وسحرها، كما قالت أعرابية تصف زوجها: "زوجي كليل تهامة، لا حر، ولا قر، ولا ملالة، ولا سآمة". كانوا يسمرون ويتحدثون، فقال أحدهم: لقد اقترب وقت الحج، فما رأيكم في أن نتوكل على الله ونذهب لتؤدي فريضة الحج. فكانت كلماته لها وقع جميل عند المستمعين، فقال الشيخ علي وكان أكبرهم سناً: إنها فكرة جميلة وأنا موافق. وكانوا ثلاثة؛ وفي تلك الليلة عقدوا العزم على الرحيل، وتواعدوا سراً، وخرجوا مع أول قافلة ذاهبة إلى الحجاز، وكان معهم قليل من الزاد، وكل اعتمادهم على أنفسهم أن يعملوا ويعيشوا من كسبهم، فكانوا يخدمون بعض أفراد القافلة، ويحصلون على ما يقيم أودهم. وكان رفيقاه يحسنان القراءة والكتابة، ويحفظان كثيراً من القرآن الكريم، فجعلا يلقنان الشيخ علياً بعض سور القرآن، وأخذ يدرس ذلك بنهم ويحفظ، وصار يتعود القراءة في المصحف، فما بلغ مكة إلا وكان يحفظ الكثير من آي القرآن الكريم، ويستطيع القراءة في المصحف.

وحلّوا في مكة وصاروا يتناوبون الخدمة، ويعيشون مما يعملون، إلى أن أدوا فريضة الحج، وانصرف أغلب الحجاج قافلين إلى بلادهم، وجلس الثلاثة في رحاب المسجد الحرام، مستقبلين الكعبة وأخذوا بأطراف الحديث، والشيخ علي مشغول في مراجعة المصحف والتزود من حفظ سور القرآن، فقال أحدهم: ما زلنا قد وصلنا بيت الله الحرام وأدينا فريضة الحج، ونحن على قرب من المدينة فلماذا لا نزور المدينة، ونتملى من أنوار الرسول (عليه الصلاة والسلام). فوافق الجميع وصمموا على زيارة المدينة المنورة، وجمعوا ما استطاعوا من زاد وخرجوا مع أول قافلة متوجهين إلى طيبة. وكانوا في الطريق يواصلون إقراء الشيخ علي كلام الله، فما بلغ المدينة إلاّ والشيخ علي يقرأ القرآن بطلاقة عجيبة.

حلّوا في المدينة وزاروا قبر الرسول الكريم، ونعموا في تلك الزيارة. والمدينة بلدة جميلة، رحبة، يحبها الإنسان منذ أول ما يدخلها، وأهلها لطفاء، هينون، يحبون من هاجر إليهم؛ فمكثوا مدّة طويلة، وتيسر لبعضهم عمل فعاشوا فيها أحسن عيشة، وكادوا يتخذونها وطناً، لولا اقتراح من أحدهم في ليلة قمراء وكانوا يتحدثون عن بلادهم وقد بدا الحنين لها، واشتاقوا إلى ملاعب طفولتهم، فقال أحدهم ما رأيكم وقد منّ الله علينا، وأدينا فريضة الحج وزرنا الرسول الأعظم، في أن نكمل مناسكنا فنزور المسجد

الأقصى الذي بارك الله حوله؛ فأجاب الجميع بالموافقة، وكانوا قد جمعوا بعض النقود، وتزودوا وخرجوا متوجهين إلى بلاد الشام، فانهم لا يعرفون التقسيمات الاستعمارية: سورية – الأردن – فلسطين – لبنان، ولا يعترفون بها، وإنما يعرفون كلمة الشام التي تجمع هذه الأقطار كلها، وهي كلها الأرض المقدسة، وفيها أولى القبلتين، وثالث الحرمين. وساروا في طريقهم مشياً على الأقدام، وبدأ الشيخ علي يتعلم القراءة والكتابة، وواصلوا سيرهم ليل نهار إلى أن بلغوا مدينة معان، فحطوا فيها رحالهم، ومكثوا فيها مدة، وكان الشيخ علي قد قطع مرحلة كبيرة في تعلُّم القراءة والكتابة، وحفظ ما استطاع من القرآن الكريم. وفي معان تعلم القراءة والكتابة جيداً وأصبح يقرأ ويكتب ويحفظ معظم القرآن غيباً.

ومن معان ساروا إلى عمّان حيث حطوا رحالهم، وبعد مدة ذهبوا إلى القدس، وزاروا وصلوا في المسجد الأقصى، وبذلك بلغوا ما تمنوا، وقفلوا راجعين، فعادوا إلى عمّان، وكان الشتاء قد حل في عمّان، وشتاء عمّان قاسٍ والبرد شديد، فلم يحتمل ذلك البرد رفيقا الشيخ علي فتوفيا الواحد تلو الآخر، ودفنا في عمّان، فحزن عليهما حزناً شديداً، ولم يدر ماذا يفعل، وكيف يعود الى بلده بمفرده، وماذا سيكون موقفه من أهلهما وذويهما، فقد حمَّل نفسه جريمتهما، ولذلك قرر أن يمكث في عمّان، ووجد عملاً في كراج قرب الجامع الكبير في وسط عمّان، وأخذ يعمل نهاراً، ويقرأ ويكتب ليلاً. وكنت أمر بقرب سكنه وكان مجاوراً لنا فكنت أسمع صوته مرتفعاً وهو يقرأ القرآن، وما كنت أعرفه، إلى أن جاء يوماً وحضر مجلس الشيخ محمد الخضر – رحمه الله –، وبدأ يداوم على حضور المجلس، وتعرفت عليه، وصرت أزوره في غرفته أحياناً. ولما قررت بدء الدراسة على الشيخ رغب في أن يدرس معنا وكنا ثلاثة أنا وهو ومحمد عبدالله ابن الشيخ. وبدأنا بدراسة النحو، وكان هذا شيئاً جديداً عليه فلم يستطع في البدء أن يتفهم النحو أو يدخل لعقله، ووجد صعوبة كبيرة. أما أنا فقد كان عندي مبادئ جيدة من المدرسة، فلم أجد تلك الصعوبة، ولكنه هو بدأ يتساءل ما معنى ضرب زيد عمراً، ولماذا هذا الكلام الذي لا معنى له، وأخذ يحفظ الدرس غيباً، ويكرر، ويعيد، ولكنه لم يتصور ما يأخذه إلى أن أمضينا مدة طويلة ونحن نذاكر معاً، وأُحاول أن أدخل إلى فهمه ذلك شيئاً فشيئاً إلى أن بدأ يفهم المراد من تعلم النحو وأنهينا دراسة الأجرومية دراسة جيدة، ثم بدأنا

نحفظ الألفية وندرسها فدرسناها معاً، وحفظها جيداً وأتقنها وحفظ نحو ألف ومائتي بيت في فقه الشافعية، ودرس التوحيد والمنطق، والبلاغة، وكان يحضر دروس الحديث وأصبح طالب علم ممتازاً. وكان عمره إذ ذاك لا يقل عن الخامسة والأربعين، وعندما قررت أن أذهب إلى الأزهر، قال: وأنا أيضاً سأذهب، وصفّى أموره، وجمع ما استطاع من النقود وسافرنا معاً.

انتسبنا إلى الأزهر معاً، واستأجرنا غرفة في شارع الدردير، وعشنا في جو دراسي؛ فقد كان عنده جلد عجيب على الدرس والمطالعة، وكان صاحب البيت الذي استأجرناه شيخ طريقة، وظننت أنه من أولئك الصوفية الذين نسمع عنهم، أهل الصلاح والتقى والعلم، فقلت سوف نستفيد منه، ونأخذ فكرة عن الصوفية والطرق وتاريخها وتنظيماتها في مصر، وصرت أتحين الفرص حتى أدعوه ليشرب الشاي معنا ونجلس نتحدث معه، وجاء آخر الشهر فجاء ولده يطلب الأجرة، فقلت له: سلم على والدك، وقل له إننا نريد أن نتعرف عليه وليتفضل علينا بأن يشرفنا لنشرب الشاي معه. فجاء ورحبنا به وجلسنا نتحدث معه، واذا به أمي تقريباً، ورث هذه المشيخة عن والده، وليس هو من العلم والتصوف في شيء، وعرفنا بعد ذلك أن معظم الطرق على هذه الحال، وما هي إلا وسيلة وشبكة لصيد الرزق كما قال الشاعر:

كل من في الوجود ينشد صيداً　　　غير أن الشباك مختلفات

فقد كانت تقام حفلات وأعياد يشترك فيها جمع غفير من الطرق، وتنصب سرادقات، لكل طريقة سرادق، وتقام حلقات الذكر، وتقدم الشرابات، وكان يتخلل ذلك إجرام كبير، وأشياء منكرة لا يرضاها العقل والدين. عرفنا ذلك فيما بعد.

طريقة التدريس في الأزهر
في القسم العام

انتسب الشيخ علي للأزهر في اليوم الذي انتسبت فيه، وكان ذلك في أول كانون الثاني من سنة ١٩٣٥م. وجئنا نحضر الدروس في القسم العام من الأزهر. وهذا القسم تُلقى الدروس فيه على الطريقة القديمة، حلقات حلقات، كل حلقة تتكون حول شيخ يكون جالساً على كرسي من خشب والطلاب يجلسون حوله على الأرض، وكان الأزهر أول ما جئناه مفروشاً بالحُصُر، وفيه رطوبة شديدة، فكان على الطالب أن يحضر معه جلد خروف أو وسادة ليجلس عليها خوفاً من الرطوبة.

وكان لهذا القسم مراقبون، وموظفون يقيدون الأسماء، ليسجلوا الحضور والغياب، فأرسلنا إلى أحد المراقبين، وكان من العلماء المعروفين، وظن أننا مبتدئون، فقرر أن نحضر الأجرومية على أحد المشايخ، ودرساً في الفقه كل واحد منا عند أستاذ لأني أنا مالكي، والشيخ علي شافعي.

جلسنا في حلقة ذلك الأستاذ وقد نسيت اسمه – رحمه الله – فقد كان متقدماً في السن وقتئذ في نحو الخامسة والستين. وكان يدرّس شرح الكفراوي على الأجرومية. وكان في الحلقة نحو ستين طالباً فيهم الهندي والجاوي والسوداني، والتركي والشركسي، ومن جميع أنحاء العالم.

وطريقة التدريس عقيمة وعجيبة. شرح الكفراوي على الأجرومية شرح مطول، وبالنسبة للمبتدئين صعب، وحتى للذين يعرفون النحو إذا لم يكن متمرناً على طريقة هذه الكتب.

ويبدأ الأستاذ بقراءة الدرس الأول بقوله "بسم الله الرحمن الرحيم" فيقول الباء في بسم الله متعلقة بمحذوف تقديره باسم الله أقرأ لأن الذي يتلوه مقروء، وكذلك يضمر كل فاعل ما يجعل التسمية مبدأ له، وقيل الباء للمصاحبة، والمعنى متبركاً باسم الله تعالى أقرأ، وقيل وقيل إلخ...

ثم يتحدث عن الاسم وجمعه على أسماء وأسامي وسمى. والاسم إن أُريد به اللفظ فغير المسمَّى، لأنه يتألف من أصوات متقطعة، غير قارة ويختلف باختلاف الأمم والأعصار، ويتعدد تارة ويتحد أخرى الخ...

ثم يأخذ بإعراب "الرحمن الرحيم"، فيقول يجوز فيها الجر والرفع والنصب. وينشد قول بعض النحاة:

إن ينصب الرحمن أو يرتفعا   فالجر في الرحيم قطعاً منعاً

ويجعل يهز رأسه مترنحاً طرباً بإنشاد هذا البيت وكأنه أتى بما لم تأتِ [به] الأوائل. ويأخذ بالشرح والتطويل. ومدة الدرس في ذلك القسم ساعة ونصف، ويأخذ درسين أو ثلاثة في شرح "بسم الله الرحمن الرحيم". ويعتذر بأنه اختصر كثيراً من الأقوال.

وتجد الطلاب حوله فاغرين أفواههم لا يدرون ماذا يقول، ويظنون أن كل ما يقوله هو من علم النحو، ويدب اليأس إلى قلوب الكثير منهم وأنه من المستحيل تعلم هذا العلم، وفهمه، ولا يدري المساكين أن هذا من جهل الشيخ بأسلوب التدريس، وقد تمضي السنة والسنتان على كثير من الطلاب المساكين، وهم في بحر من هذه المتاهات ولا يحصلون على شيء أبداً، والذي يسعفه الحظ ويجد طالباً مستنيراً يأخذ يدرِّسه الموضوع بلطف واختصار، أو يجد بعض الكتب الحديثة ويتدارسها مع بعض الطلاب الفاهمين، يكون من السعداء ويأخذ بأول الطريق ويسير على هدى.

جلسنا في هذه الحلقة بضعة مرات ثم مللتها ووجدت أني أُضيِّع وقتي، فذهبت إلى المراقب، وطلبت منه أن أُغيِّر الأستاذ لعلي أستفيد أكثر لأني درست الأجرومية وأحفظ الألفية، وأنا لست بحاجة إلى دراسة النحو مطلقاً؛ فنظر المراقب إليّ نظرة غريبة ملؤها العجب والاستغراب – كيف يكون هناك مكان في الدنيا يدرِّس هذه المواضيع غير الأزهر (!؟). وبالمناسبة إن علماء الأزهر ومشايخه على درجة كبيرة من التكبر والاعتداد بالنفس، وهم بعيدون جداً عن مسلك أهل العلم الحقيقي، والتخلق بالأخلاق النبوية. ويا ويل من يقع في لسانهم، أو يخالفهم في موضوع، فإن جميع الشتائم تنصب عليه.

لم يقبل المراقب كلامي، ولم يلتفت إِليّ وتركني وأدار ظهره ومضى لسبيله. فجعلت أرشي الذي ينادي الأسماء بدفع بضعة قروش ليسجلني حاضراً في درس الكفراوي... وصرت أتنقل بين الحلقات أبحث عن المكان الذي أجد فيه فائدة لي فأحضر دروسه وإلاَّ انتقلت إلى غيره. أما الشيخ علي فبقي في حلقة ذلك الشيخ مدة، ثم تركها إلى غيرها.

تجد في هذه الحلقات من يدرس النحو ويقرأ الألفية، ومنهم من يدرس الفقه، وبعضهم يدرس التفسير، والمنطق، والتوحيد، وجميع ما تريد تجده يدرس حتى العلوم العصرية من حساب وهندسة وجغرافيا وغيرها.

أمضيت مدة أحضر في حلقة عالم أعمى يدرس الألفية، وكان عجيباً في شرحها، وإيراد الشواهد، وتفهيم الموضوع بتوسع وأسلوب واضح، وقد أفدت منه الكثير، غفر الله له ورحمه.

وكان شيخ من كبار العلماء متقدم في السن اسمه "الشيخ دسوقي العربي" – رحمه الله – يدرِّس المنطق بكتاب اسمه **الخبيصي**. وكان يحضر حلقته عند قبر جوهر الصقلي باني الأزهر، عدد من كبار الطلاب وبعض المشايخ، ولكنه كان ضيق الصدر، صعب الأخلاق، يشتم السائل لأتفه الأسباب، وهذه عادة عند معظم مشايخ الأزهر، وقد حضرت درسه مدة ثم تركته.

بقينا مدة على هذه الحال نأتي كل صباح ونحضر درسين، وبعد ذلك نحن أحرار في عملنا، حيث تنتهي الدراسة عند الظهر، ولا يوجد تدريس بعد الظهر.

ما كدنا نستقر في دراستنا، ونحضر أنفسنا للامتحان في آخر السنة، حتى شبت فتنة كبيرة، وأضرب طلاب الأزهر جميعاً وذلك احتجاجاً على شيخ الجامع الأزهر، وهو المرحوم الشيخ الظواهري، وقامت ثورة جامحة، وكان رئيس اتحاد الطلبة في ذلك الوقت الشيخ أحمد الباقوري، وكان خطيباً مُصقعاً، يقف على منبر الأزهر، ويخطب منددا بالشيخ الظواهري، وأتباعه ونظامه، ساعاتٍ لا يكل ولا يمل بأسلوب جذاب، وكلام مسلسل كأنه يقرأ من كتاب. ويتعاور المنبر طول اليوم عدد كبير من الطلاب، يخطبون ويسبون شيخ الأزهر، وأعوانه ونظامه، وشارك في ذلك المرحوم صديقنا الشيخ

مصطفى السباعي وقد كان خطيباً مفوهاً، ودام ذلك عدة أسابيع، وكنت أقف مستمعاً مدة ثم أترك وأقعد في ناحية من نواحي الأزهر أقرأ وأراجع بعض كتبي، حتى إذا تعبت ذهبت إلى غرفتي، أنا والشيخ علي رحمه الله.

كان هذا الأمر غريباً علينا كل الغرابة، فقد عشنا في عمّان لا نعرف الإضراب، ولا العصيان، ولا يوجد عندنا أي شيء من هذا القبيل، وقد كنت أستنكر هذه الأعمال، وأعتبرها نوعاً من الخروج على الدين، ولا سيما عندما أسمع الخطباء يشتمون شيخ الأزهر، وهو عالم جليل كبير السن، فلم أكن مرتاحاً لهذه الأمور جميعها، ولذلك قررت أن أعتزل الأزهر مطلقاً وأبقى في غرفتي، وعندما أمل أذهب الى إحدى الحدائق العامة، أو أذهب لزيارة أستاذنا الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي، وأمضي عنده مدة أستفيد وأروح عن نفسي شيئاً من الملل.

في ضحوة يوم من أيام نيسان على ما أعتقد، خرج الشيخ علي بعد الفطور ليذاكر دروسه في الأزهر، وبقيت أنا في الغرفة أطالع وأتسلى في بعض الكتب وحدي. وما راعني إلا الشيخ علي جاء مسرعاً ولونه متغير وعليه إمارات الخوف، فهدأته وسألته ما الخبر؟ فقال: لقد داهم الجنود الأزهر ودخلوا إلى حرمه وضربوا الطلاب ضرباً مبرحاً، وأخذوا الذين كانوا يخطبون، وكل من كان واقفاً حول المنبر بما فيهم الشيخ مصطفى السباعي، وبعض الطلاب غير المصريين، وقد نجوت أنا بأعجوبة فقد كنت قريباً من الباب ولما شعرت بدخول الجنود انسللت هارباً.

بقينا ذلك اليوم كله في غرفتنا لم نخرج، وفي اليوم الثاني ذهبنا نستطلع الخبر، فوجدنا الأزهر مغلقاً وعلى كل باب من أبوابه حرس من الجند، لا يسمحون لأحد في الدخول. وعلمنا فيما بعد أن شيخ الأزهر قرر تعطيل الدراسة في تلك السنة، وأمر بإغلاق الأزهر وبسجن جميع رؤوس الحركة من الطلاب وعلى رأسهم الشيخ أحمد الباقوري، ونفي جميع الطلاب غير المصريين المشتركين بتلك الفتنة. وقد نجا من ذلك المرحوم الشيخ مصطفى السباعي ووجد بعد ذلك من بعض معارفه أصحاب النفوذ من شفع له وخرج من السجن بكفالة وبقي يتابع دروسه...

عندما سمعت بتعطيل الدراسة كتبت إلى عمّان بأن الدراسة أُلغيت هذه السنة، ويجوز أن أحضر بعد مدة قصيرة، وذهبت في اليوم الثاني إلى زيارة الشيخ محمد

حبيب الله، وأعلمته عن عزمي على السفر إلى عمّان بعد مدة حيث عُطلت الدراسة، فقال لي: لا تفعل، لأن الدراسة ستستأنف، ولا يمكن أن يدوم هذا الحال.

وكان كما قال، فقد استبدل الشيخ محمد مصطفى المراغي بالشيخ الظواهري، وجاء المراغي بأنظمة جديدة، ولبّى معظم طلبات الطلاب والأساتذة، وفتحت الكليات والمعاهد أبوابها، وعادت الدراسة من جديد. وكان من أحسن الأنظمة التي أتى بها المراغي – رحمه الله – هو فتح أبواب الكليات الأزهرية للغرباء وقبول كل طالب معه شهادة الثانوية أو ما يعادلها. وكان هذا النظام لي ممتازاً جداً، حيث أتاح لي دخول كلية الشريعة وسأتحدث عن ذلك فيما بعد.

نرجع للحديث عن صديقي الشيخ علي، فقد حصلت معه نادرة طريفة، وذلك أننا وصلنا القاهرة في أواخر شهر شعبان، ثم أمضينا شهر رمضان، وجاء العيد. وكنا لا نزال لا نعرف أحداً ولا نعرف القاهرة جيداً.

أمضينا أول يوم من أيام العيد في بيت الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي، وفي اليوم الثاني بقيت أنا في الغرفة، ولبس الشيخ علي ثيابه وخرج يتمشى بشارع الأزهر، ودخل ميدان العتبة الخضراء، ومنها سار إلى أن دخل شارع "كلوت بك".

كان هذا الشارع موبوءاً جداً، وكان مليئاً ببيوت الدعارة والمومسات، وكان ذلك لا زال مرخصاً به من الحكومة في تلك الأيام، فكان في كل دخلة أو عطفة من ذلك الشارع تُقام زينات وحفلات ؛ فمشى الشيخ علي يتفرج وهو لا يعرف ماذا يجري هناك، ووقف أمام إحدى هذه الأماكن يتفرج على ما يُقام به من حفلات ورقص وغناء، وما شعر وهو واقف إلاَّ وامرأة تأتي إلى جانبه وتخطف عمته عن رأسه وتضعها على رأسها وجعلت تدور حوله وترقص وتغني له: "شد العمة يا أستاذ..."، وأسقط في يده ولم يدر ماذا يصنع، ودارت الدنيا به وهو مأخوذ لما ألمَّ به، ولم يطل به الوقت فقد بادر بسرعة البرق وخطف عمّته من على رأسها وأطلق ساقيه إلى الريح ونجا بأعجوبة، وأخذ أول ترام وركب فيه حيث وصل إلى العتبة ومنها جاء إلى الغرفة ولكن ذلك أخذ منه وقتاً طويلاً.

ودخل الغرفة ولونه ممتقع متغير، وجلس يقص عليَّ ما حدث معه وضحكت طويلاً، وسريت عنه لأنه كان يتحدث وكأنه عمل جريمة كبرى فقلت له: وما ذنبك، والمسألة بسيطة، إلى أن هدأ وتغدينا وجعلنا نضحك كلما تذكرنا تلك الحادثة الغريبة.

بقي (الشيخ علي) يتابع دراسته، وكان بعض إخواننا في عمّان يمدونه بالنقود، وكان – رحمه الله – يكفيه القليل جداً، فإنه لم يكن يعرف إلاَّ غرفته والأزهر، ولم يعد يخرج وحده إلى أي مكان إلاَّ إذا كنت معه.

بعد مدة افترقنا فقد وجد غرفة في رواق اليمنيين، ووجدت أنا غرفة في رواق الشوام، وصرنا نرى بعضنا مرة أو مرتين في الأسبوع. وبقي على هذه الحال إلى سنة ١٩٣٨م حيث حصل على شهادة العالمية وأصبح مزوداً بكمية لا بأس بها من التعليم الديني واللغوي وجمع مكتبة قيمة.

كان الشيخ علي – رحمه الله – من أطيب الناس قلباً، وأطهرهم في كل شيء لا يعرف الكذب، ولا المراوغة، ولا الغش ولا أي شيء من الخداع أو حب الظهور، سليم النية إلى أبعد الحدود.

كنت جالساً في غرفتي بعد صلاة العشاء، وإذا بالشيخ علي يأتيني فجأة، ولم يكن من عادته أن يخرج لزيارة أحد في مثل ذلك الوقت من الليل، فلقيته مرحباً، ولكني لاحظت عليه أنه غير طبيعي، وأنه ربما حصل معه شيء غير عادي، فسألته ما الخبر؟ فقال: كنت في الأزهر أراجع بعض الدروس، وبعد صلاة العشاء خرجت متوجهاً إلى غرفتي، وفي الطريق صدمني إنسان، وأنا لا أعرفه، فجعل يعتذر مني بشدة ويضع يده على صدري، ولم أكترث به، ولما وصلت الغرفة وجدت أني فقدت حافظة نقودي، وفيها كل ما أملك، ولا أدري أين فقدتها. فقلت له: إن ذلك الإنسان الذي صدمك هو الذي نشل نقودك. فاستغرب ذلك وما كاد يصدق، فأعطيته نصف ما معي، وقلت له: آخر الشهر إذا لم يأتك شيء فسأعطيك ما أستطيع. وودعني وذهب إلى غرفته.

بقي الشيخ علي في القاهرة إلى صيف ١٩٣٩م، وفي ذلك الوقت قرر أن يعود إلى وطنه فقد عاوده الحنين إلى بلاده، وكتبت الى إخواننا في عمّان فأرسلوا ما استطاعوا له، وقدمنا إلى مشيخة الأزهر طلباً لتزويده ببعض الكتب، فوافقوا وقدمنا لهم قائمة

فيها عدد ضخم من أهم المراجع في التفسير والفقه واللغة والتاريخ والأدب، فاشتروها وقدموها له مشكورين. واشترينا بطاقة له من القاهرة إلى السويس، ومن السويس إلى الحديدة في البحر، وسافر قبل أن تنشب الحرب العالمية الثانية بنحو ثلاثة أسابيع، وهو مزود بالعلم والكتب والشهادة من الأزهر الشريف. ووصل بلده عالماً ممتازاً، بعدما خرج منها منذ سنين أمياً لا يقرأ ولا يكتب.

وصلني منه كتاب واحد بعد أن استقر وعُينٌ والياً على المنصورية، شرح لي فيه معظم أحواله، وأنه يعيش بخير وسلام، ثم انقطعت أخباره، وعلمت بعد ذلك أنه توفي إلى رحمة الله، ولا أدري متى توفي، ولكن الذي أقوله إن سيرة هذا الرجل أشبه بالخيال، رحمه الله وطيب ثراه. وما قصدت من إيراد سيرته إلا لحفز الهمم، وليعلم المطلع على هذا أنه ليس هناك مستحيل...

- ٢٤ -

الأزهر، موجز تاريخه وتطوراته، وبعض شيوخه

داومت على حضور ما يعجبني من حلقات المشايخ، وأفدت الكثير منهم، وهيأت نفسي لأداء الامتحان ؛ فقد كان في القسم العام من الأزهر شهادتان: الأولى واسمها "شهادة الأهلية"، يقدم الطالب فحصاً في عشرة علوم هي: البلاغة والمعاني والبيان، والبديع، والنحو والصرف، والتوحيد، والتفسير، والحديث، والفقه، والمنطق. والثانية واسمها "شهادة العالمية" وتزيد بموضوعين هما الأصول والعروض والقافية.

وعزمت على تقديم الشهادة الأهلية، وهي أسهل وتمكنني في نفس الوقت من دخول إحدى كليات الأزهر. والشهادتان للغرباء غير المصريين. فإن المصريين يدخلون القسم الابتدائي ومدته أربع سنوات، ثم الثانوي ومدته خمس سنوات ثم يدخلون إحدى الكليات، ومدتها أربع سنوات. ثم بعد ذلك التخصص وهو قسمان: تخصص مدته سنتان في القضاء أو التدريس أو الوعظ والإرشاد. وتخصص مدته ست سنوات يتخصص الطالب فيه بموضوع واحد مثل النحو أو الفقه أو التفسير الخ... وعندما ينجح ويقدم رسالة في الموضوع الذي تخصص فيه يحق له أن يكون مدرساً في إحدى الكليات. وكليات الأزهر ثلاث هي كلية الشريعة وكلية اللغة، وكلية أصول الدين. وسأتكلم عن الأزهر فيما بعد بكلمة موجزة عن تاريخه وتطوراته:

الشيخ الظواهري: ١٢٩٥ – ١٣٦٣ هـ ١٨٧٨ – ١٩٤٤م

هو محمد الأحمدي بن إبراهيم الظواهري. فقيه شافعي من كبار علماء الأزهر وأفاضلهم، اجتمعت به في بيت الشيخ محمد حبيب الله. وفي داره زرته مع الأستاذ حبيب الله، رحمهما الله. وكان مهيب الطلعة، جميل الصورة، وقوراً يميل إلى التصوف.

ولد في قرية "كفر الظواهري" بالشرقية، وتعلم في الأزهر، وأخذ من الشيخ محمد عبده، وآخرين. وولي مشيخة الجامع الأحمدي في طنطا بعد أبيه، ثم نُقل إلى أسيوط فكان شيخاً لمعهدها مدة. ولما انتهى ما كان يُسمى "الخلافة العثمانية" في بلاد الترك

سنة ١٩٢٠م، عُقد مؤتمر الخلافة في القاهرة سنة ١٩٢٦م، وكان الشيخ الظواهري جريئاً في اقتراح انفضاضه على غير قرار لأنه لم يتكامل فيه تمثيل الأمم الإسلامية، فانفض. ثم كان رئيساً للوفد المصري في مؤتمر مكة سنة ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٦م، وقويت صلته بملك مصر في ذلك العهد فعُين شيخاً للأزهر سنة ١٩٢٩م. وبقي في ذلك المنصب إلى أن قامت الثورة سنة ١٩٣٥م، فاستقال.

وفي عهده أصدر مجلة نور الإسلام، التي صار اسمها فيما بعد مجلة الأزهر، ولا تزال تصدر إلى الآن.

وتحول الأزهر إلى جامعة على نظام حديث. وكان – رحمه الله – فيه نزعة صوفية على الطريقة الشاذلية.

له كتاب العلم والعلماء في نظام التعليم، وضعه حين بدأ دعوته إلى إصلاح الأزهر. ورسالة في الأخلاق.

وجمع ابنه فخر الدين الأحمدي بعض أخباره ومذكراته في كتاب سمَّاه السياسة والأزهر . وجاء في ذلك الكتاب أن الشيخ محمد عبده قال للظواهري: إن أباك سماك الأحمدي نسبة إلى السيد أحمد البدوي.

الشيخ المراغي: ١٢٩٨ – ١٣٦٤ هـ
١٨٨١ – ١٩٤٥ م

محمد مصطفى بن محمد بن عبد المنعم المراغي. من أنبغ علماء الأزهر، وأذكاهم وأقواهم شخصية، يحافظ على كرامته، ويملأ مركزه. وكان يتحدث باللغة العربية الفصحى دائماً في حديثه العادي، وفي دروسه، ومحاضراته. وكان من القلائل الذين سمعتهم يتكلمون ويدرِّسون بدون لحن ولا غلط. وكان على وقاره، وتحفظه، وعظم هيبته، يحب النكتة ويرويها، ويطرب لسماعها.

وكان من دعاة التجديد والإصلاح، ذا عقل نيرٌ، ونفس زكية، واعياً لما يدور حوله، يعيش في هذا القرن، ويحب لهذه الأمة التقدم والرقي والسير إلى الأمام.

ولد بالمراغة "من جرجا في الصعيد" وتعلَّم بالأزهر بالقاهرة، وتتلمذ للشيخ محمد

عبده، وكان من أحسن تلاميذه الذين ساروا على خطته، وتولى عدة أعمال منها القضاء الشرعي. ثم عُينَ قاضي قضاة السودان (بين سنة ١٩٠٨ - ١٩١٩م). وتعلَّم اللغة الإنجليزية خلال تلك المدة. وقد أصابه بعض الأذى، إذ حاول بعض الأشخاص الاعتداء عليه، بأن رماه "بماء النار" فأُصيب برقبته ببعض حروق كانت لا تزال ظاهرة...

عُيِنَ شيخاً للأزهر في سنة ١٩٢٨م فمكث عاماً واستقال لأنه لم يُجَب إلى طلباته في الإصلاحات التي كان ينوي إدخالها في الأزهر. ولما قامت الفتنة والثورة على المرحوم الشيخ الظواهري وانتهت باستقالته عُيِّن الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخاً للأزهر عام ١٩٣٥م.

جاء إلى الأزهر في تلك السنة، وأعاد الدراسة بعد أن تعطلت مدة، وعمل أنظمة جديدة، وإصلاحات ؛ كان من أهمها إباحة دخول الأغراب لكليات الأزهر بالشهادة الثانوية، أو ما يعادلها من شهادات القسم العام مثل العالمية أو الأهلية للغرباء. وكان هذا فتحاً كبيراً ومساعدة عظيمة لمن يأتي من المسلمين، ومعه الشهادة الثانوية من غير الأزهر. فسهّل علينا دخول الكليات ومتابعة دراستنا فيها.

وعندما جاء الشيخ المراغي للأزهر، بدأ كثير من المشايخ الرجعيين المتطعين يشيعون عنه أنه ليس من أهل العلم، ولا يستطيع أن يدرِّس أي موضوع من علوم الأزهر، لأنه كان منقطعاً للوظائف وقد أمضى عمره في القضاء وما شابه ذلك، فتحداهم، وأعلن انه سيدرِّس علم الأصول لطلبة السنة الأولى من كلية الشريعة. وكنت أنا من طلبة تلك السنة، فقد كنت تقدمت للامتحان للشهادة الأهلية، ونجحت فيها ودخلت كلية الشريعة.

بدأت الدراسة وكنا طلاب السنة الأولى نحو ثلاثمائة لا تستوعبنا أية قاعة درس في الكلية، حيث كانت في شارع البرموني في عمارة مستأجرة، هي وكلية اللغة في مبنى واحد؛ فاختار مسجداً بحي عابدين، صرنا نذهب إليه، ويجلس الأستاذ على كرسي من خشب ونتحلق حوله، على طريقة الأزهر القديم. وصار يحضر درسه عدد كبير من المشايخ، والأعيان، والعلماء والأدباء، يريدون أن يختبروا هذا الشيخ الجديد للأزهر.

بدأ الشيخ يدرِّس كتاب التحرير في أصول الفقه لابن الهُمام. وعلم الأصول أصعب

العلوم الأزهرية على الإطلاق، وهذا الكتاب من أهم الكتب وأصعبها ؛ كتاب يجمع بين الطريقتين في الأصول الحنفية والشافعية، مختصر جداً، يحتاج إلى جهد في تفسير معانيه، وألفاظه، وعليه شرح لا يجدي أبداً، وهو كما قال أستاذنا المراغي – رحمه الله – كان يوضّح الواضح فقط ويهرب من المسائل العويصة. وابن الهُمام هذا من كبار علماء الحنفية: اسمه: كمال الدين محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد السيواسي السكندري المعروف بابن الهمام الحنفي(١). إمام عارف بأصول الديانات والتفسير والفرائض واللغة والفقه. وله كتاب ضخم في عدة مجلدات اسمه **فتح القدير**(٢) مطبوع. وعدة مؤلفات [أخرى]. وكتابه **التحرير**(٣) من أهم ما أُلف في أصول الفقه. مولده ١٣٨٨ وتوفي في الاسكندرية سنة ١٤٥٧م ، ٨٤١ هـ، رحمه الله.

بدأ الشيخ في شرح هذا الموضوع بأسلوب عظيم واضح هادىء شيق جداً، وكان كلما قرر مسألة يسأل الطلاب: هل فهمتم ؟ فإذا قالوا نعم يطلب من أحد الطلاب أن يقوم ويقول ما فهم، فإذا قنع بأن الطالب أدى الموضوع حق تأديته يستمر في مسألة أخرى، وهكذا مشى بكل جد ونشاط طول السنة إلى نهايتها، حتى اقتنع أولئك المتنطعون بأنه من أهل العلم حقاً، وأنه عالم بالأصول والفقه والتفسير؛ باحث مدقق، منظم في حديثه، يعلم كيف يأخذ بالموضوع من جميع أطرافه. وكانت لي فرصة عظيمة أن أكون أحد طلابه، وأستمتع بتلك الدروس. فقد كان يقدِّر صعوبة الكتاب والموضوع، فكان كلما أحس بتعب أو ضجر، يترك الدرس لحظات ويروّح عنا بنكتة، أو رواية قصة قصيرة، أو ينكت على بعض الطلاب المتفلسفين.

فقد قرر مرة مسألة صعبة، وطلب منا أن يقدم أحدنا ليعيد ما قال، فقام طالب معتد بنفسه وقرر المسألة تقريراً ممتازاً، فمدحه الشيخ وأُعجب به. ثم بعد ذلك بدأ بتقرير

---

(١) له ترجمة في كتاب: وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، لشمس الدين السخاوي (ت ٩٠٢) (ص ٧٠٨)، تحقيق: بشار عواد معروف وعصام فارس الحرستاني والدكتور أحمد الخطيمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٥. وفيه أن ابن الهمام توفي سنة ٨٦١هـ. أما كتابه فتح القدير فإنه مطبوع.

(٢) شرح فتح القدير، ابن همام الحنفي، (كمال الدين محمد بن عبد الواحد) (٧٩٠ – ٨٦١هـ)، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٨٦.

(٣) اسمه : التحرير في أصول الفقه الجامع بين اصطلاحي الحنفية والشافعية، شرحه ابن أمير الحاج الحلبي بعنوان "التقرير والتحبير"، ضبطه وصححه عبدالله محمود محمد عمر، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٩.

مسألة أخرى، وطلب من الطلاب إذا فهموها أن يقوم واحد ويعيد ما قال الأستاذ، فقام الطالب نفسه ولم يستطع أن يعيد شيئاً مما قال الأستاذ وخلط خلطاً عجيباً. فضحك الشيخ – رحمه الله – وقال له: إن قصتك مثل قصة أهل قرية تجمعوا في مساء يوم ثلاثين من شعبان يرقبون هلال رمضان؛ وبعد جهد جهيد صاح أحد شبانهم: ذلك هو الهلال. ففرح الناس وجعلوا يثنون عليه ويمدحونه. فالتفت إلى الجهة الأخرى زهواً بنفسه وقال لأهل القرية: وذلك هلال آخر. فأخذوا يضحكون منه. فضحكنا طويلاً. وكانت تلك النكتة ترويحاً عن أنفسنا. وانتهت السنة، ولم يعد في السنة الثانية، بل غيرت الكلية الكتاب إلى كتاب أسهل منه.

هكذا كان الشيخ المراغي، رحمه الله. وقد كان يُلقي دروساً في رمضان، يحضرها المرحوم الملك فاروق، والوزراء والأعيان والعلماء، بعد صلاة العشاء. وكان الدرس يدوم نصف ساعة أو أربعين دقيقة، وكانت الدروس في تفسير كتاب الله، وهي غاية في الوضوح والإتقان، والآراء القيمة.

وكان لقاؤه وحديثه ممتعاً جداً يفصّل الكلام تفصيلاً، ويختار الكلمات الجيدة السهلة، بأسلوب جذاب، ولغة عربية سليمة فصيحة. يدل كل ذلك على مدى بلوغه من العلم والفهم والمعرفة. له تآليف منها: بحث في ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية. وتفسير سورة الحجرات. وتفسير سورة الحديد. وتفسير سورتي لقمان والعصر. والدروس التي ألقاها في الأزهر. وبحوث في التشريع الإسلامي. وكتاب **الأولياء والمحجورين**. توفي إلى رحمة الله بالاسكندرية سنة ١٩٤٥م / ١٣٦٤هـ، ونُقل إلى القاهرة ودُفن فيها. وكان ما يزال في منصبه شيخاً للأزهر، رحمه الله وطيب ثراه.

فقد عرفته جيداً سواء أكان في حلقات الدروس، أو في سماع محاضراته، أو من زياراتي له في داره مع أستاذي الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي، رحمه الله.

كان طويلاً مهيباً أسمر اللون، له لحية خفيفة، يتكلم بتؤدة، وكلامه مفصّل، بلغة عربية سليمة، لا يلاحظ السامع أنها لغة فصحى.

التقليد والتعصب

عندما جئنا إلى القاهرة لندرس في الأزهر كنا متشبعين بآراء أستاذنا الشيخ محمد الخضر – رحمه الله – بأن طريقة الشيخ محمد عبده وتلاميذه غير سوية، وأن ابن تيمية له آراء خارجة عن الدين، وأن الوهابية فيهم انحراف إلخ...

وكذلك رأي أخيه المرحوم الشيخ محمد حبيب الله، فكنا نتوجس من لقاء بعضهم أو حتى سماع ذكرهم.

وبقيت مدة وأنا على هذا الرأي، وحضرت في دار الشبان المسلمين محاضرة كان فيها المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا، وكان على القائمة السوداء، وهذه من الأغلاط الكبيرة، فإني أنصح بعدم تقليد أحد، ويجب على كل إنسان أن يبحث ويدرس ويستقصي بنفسه حتى يعرف الصحيح من الغلط، فإني تبينت بعد ذلك أن كثيراً مما قالوا غير صحيح، وما هو إلاّ تعصب منهم لبعض الآراء، وأن الناس لابد أن يختلفوا.

فقد كان الإمام مالك يطعن بابن إسحاق وهو من علماء المسلمين الذين كان لهم الفضل الأكبر بحفظ سيرة النبي وكثير من التراث الأدبي والتاريخي. وسبب غضب الإمام مالك على ابن إسحاق ان ابن إسحاق كان يأخذ الأخبار من أبناء الأنصار، ومن أهل المدينة، وفيهم أبناء يهود أسلموا، وفيهم أناس عاديون، وأنه لم يكن يتحرى عمن يأخذ. وأنا في رأيي أقول إنه عمل خيراً ونعم ما صنع، لأنه لو لم يعمل هذا لضاع علينا كثير من الأخبار.

وكذلك كان ابن إسحاق يطعن بالإمام مالك ويقول نحن أدرى به وبعلمه. فطعن الأقران بعضهم ببعض لا يجوز أن يُسمع ويحترم. وإن تقليدي لأساتذتي ضيَّع عليّ أشياء كثيرة، وفوّت عليّ لقاء كثير من الناس.

وإن الطعن المبني على التعصب أو لمجرد الخلاف في الرأي طعن غير صحيح. فقد كان أستاذي – رحمه الله – يكره ابن تيمية وألف كتاباً ضخماً يرد فيه عليه وعلى الوهابية. وأنا لا أمانع في الرد ومناقشة الآراء، ولكن بدون طعن ولا تكفير. وبقيت مدة إلى أن قرأت ترجمة ابن تيمية، وآراءه، فوجدته من كبار أئمة الإسلام الأعلام وكان يكره الخرافات، وينتقد الذين يسمون أنفسهم صوفية، ويدخلون كثيراً من البدع في

الدين. وكان العامة وكثير من المتفقعين يشايعون هؤلاء المتصوفة، وحتى بعض كبار العلماء، مما ألحق بابن تيمية الضرر وسُجن أكثر من مرة. وآخر مرة بقي في السجن إلى أن توفي فيه.

وقد جاء مرة ملك من ملوك المماليك وأخرجه من السجن وطلب أن ينتقم له من خصومه وكان من أكبرهم مفتي المالكية بمصر والصوفي الكبير ابن عطاء الله صاحب الحكم(٤)، فأبى ابن تيمية وقال له: أنا سامحتهم ولا أريد إلحاق الضرر بأحد. وكان يجاهد بنفسه، ويخرج يحرض الناس على الجهاد، ولكن كان به حدة وضيق صدر، فكان بذلك يكثر من أعدائه. رحمه الله.

وقد ذكرت ذلك حتى أُبيِّن للقارىء وأنصح لمن يطلع على كلامي بأن لا يقلد أحداً من الناس، إلاَّ بعد أن يطلع بنفسه ويبحث إن كان بإمكانه ذلك. فقد كنت أقرأ للمرحوم الشيخ يوسف النبهاني قبل مجيئي للأزهر بعض مؤلفاته، مثلاً: **إرشاد الحيارى لمنع المسلمين من إدخال أبنائهم مدارس النصارى**، وله قصيدة طويلة يطعن فيها بابن تيمية وابن القيم، والشيخ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا، وغيرهم، فتأثرت بذلك أيضاً، إلى أن صرت أطلع وأقرأ وأبحث فرأيت أن هذا كله من التعصب وضيق الصدر، وقصر النظر، فلو انه ناقشهم نقاشاً علمياً بدون شتائم لكان كلامه مسموعاً، وله الحق بذلك.

الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني(٥): ١٢٦٥ – ١٣٥٠ هـ ١٨٤٩ – ١٩٣٢م

الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني، من أفاضل هذا العصر، فهو شاعر وأديب، ومن رجال القضاء. نسبته الى بني نبهان من عرب البادية بفلسطين، من قرية "إجزِمْ" قرب حيفا وبها ولد، وتعلّم بالأزهر سنة ١٢٨٣ – ١٢٨٩هـ. وذهب إلى الآستانة فعمل في

---

(٤) حكم ابن عطاء الله الإسكندري، تاج الدين أحمد بن محمد (ت ٧٠٩هـ)، شرح العارف بالله أحمد زروق، تحقيق: د. عبد الحليم محمود و د. محمود بن الشريف، مكتبة النجاح، طرابلس، ليبيا، د. ت.

(٥) هو مؤلِّف كتاب: جامع كرامات الأولياء، المنشور في دار صادر ببيروت، وقبل ذلك بدار الكتب العربية الكبرى بمصر سنة ١٣٢٩هـ في مجلَّد ضخم من جزءين . لهُ ترجمة في كتاب من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، ليعقوب العودات (البدوي الملثم)، ص ٦١٧، وكالة التوزيع الأردنية، عمان، ط١، ١٩٧٦.

تحرير جريدة الجوائب وتصحيح ما يُطبع في مطبعتها. ورجع إلى بلاد الشام ١٢٩٦هـ فتنقل في أعمال القضاء إلى أن كان رئيساً لمحكمة الحقوق ببيروت ١٣٠٥هـ وأقام فيها أكثر من عشرين سنة. وتقاعد وسافر إلى المدينة وجاور فيها حتى نشبت الحرب العالمية الأولى، فعاد إلى قريته، وظل يتردد على الحجاز إلى أن توفي بقريته سنة ١٩٣٢م.

له عدة كتب منها معجم الشيوخ خلط فيه الصالح بالطالح وحمل على أعلام الإسلام، كابن تيمية وابن قيم الجوزية، حملات شعواء وتناول بمثلها الإمام الألوسي المفسِّر، والشيخ محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغاني وغيرهم.

وهو شاعر كبير أحرق كل شعره، ما عدا المدائح النبوية فإنه جمعها في ديوان كبير(٦)، وهو عندي، ويدل ذلك على عظمته في الشعر وحُسن ديباجته ومقدرته، فإن له همزية يعارض فيها همزية البوصيري عدد أبياتها ألف بيت، جمع فيها السيرة النبوية. وديوانه مرتب على حروف الهجاء. وله مجموعة المدائح النبوية جمعها من مدائح الشعراء في أربعة مجلدات، فيها أكثر من خمسة وعشرين ألف بيت. وله مؤلفات كثيرة. وهو مع فضله وعلمه وشعره وزهده كان متعصباً لا يتورع في شتم أعلام المسلمين والتهجم عليهم، لأنهم برأيه مخالفون مبتدعون. وقد رد عليه محمود شكري الألوسي بكتابين.

وقد تأثرت برأيه مدة، إلى أن اطلعت بنفسي، وعرفت الصحيح والقبيح. كل ذلك أوردته لأُبينِّ للناس أن لا ينغروا ويقلدوا... وسأورد هنا أسباب اختلاف الناس، تنويراً للعقول، وإرشاداً لذوي الألباب.

---

(٦) ديوان المدائح النبوية (العقود اللؤلؤية في المدائح المحمدية)، يوسف بن إسماعيل النبهاني، مطبعة صبرا، بيروت، ١٣٢٩هـ.

- ٢٥ -

أسباب اختلاف الناس

منذ أن وُجد البشر وُجد الخلاف بينهم، وذلك لأن الناس يختلفون في تفكيرهم، فالإنسان منذ نشأ أخذ ينظر نظرات فلسفية إلى الكون. وإن تلك الصور وتلك الأخيلة التي تثيرها تلك النظرات تختلف في الناس باختلاف ما تقع عليه أنظارهم، وما يثيره إعجابهم، وكلما خطا الإنسان خطوات في سبيل المدنية والحضارة، اتسعت فرجات الخلاف، فتولدت من هذا الخلاف المذاهب الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية المختلفة.

وأسباب الاختلاف كثيرة لا يمكن حصرها، وإنما نوجز القول في أهمها:

١ -**غموض الموضوع في ذاته**: وذلك أن العلماء والفلاسفة تصدوا من قديم الزمان لدراسة موضوعات غامضة في ذاتها، والسبيل لإدراكها ليست معبدة، وطرق فهمها مختلفة؛ فكل واحد يرى ما يقع عليه نظره، ويدرك ما تهديه إليه بصيرته وفكره، ولعل الصواب يكون في مجموعها.

وقديماً قال أفلاطون: "إن الحق لم يصبه الناس في كل وجوهه ولا أخطأوه في كل وجوهه، بل أصاب كل إنسان جهة، ومثال ذلك: جماعة من العميان عُرِض عليهم فيل، وأخذ كل منهم جارحة منه فجسها بيده أو مثلها في نفسه. فقال الذي مسَّ الرِّجل إن خلقة الفيل طويلة مستديرة شبيهة بأصل الشجرة، وقال الذي مسَّ الظهر إن خلقته تشبه الهضبة العالية، والرابية المرتفعة، وقال الذي مسَّ أذنه إنه منبسط رقيق يطويه وينشره. فكل واحد منهم قد أخبر عن بعض ما أدرك، وكل واحد يكذِّب صاحبه ويدعي عليه الخطأ والجهل فيما يصفه من خلق الفيل ؛ فانظر إلى الصدق كيف جمعهم، وانظر إلى الكذب والخطأ كيف دخل عليهم حتى فرقهم "!

وكثيراً ما يكون الاختلاف لا لغموض الموضوع في ذاته، بل يكون لأن كلًّا من المختلفين لم يعرف وجهة نظر الآخر، واختلف نظرهما في الموضوع الواحد؛ ولذلك كان سقراط يقول: " إذا عُرِف موضع النزاع، بطل كل نزاع.. ".

٢ - اختلاف الرغبات والشهوات والأمزجة: فإن رغبات الناس وأهواءهم وأمزجتهم متباينة، وكل يدرك في محيط نزعاته النفسية.

ولقد قال الفيلسوف "اسبينوزا": " إن الرغبة هي التي ترينا الأشياء مليحة، لا بصيرتنا ". فالرغبة إذن تستولي على مقياس الحسن والقبح في الأشياء والأفكار.

وقال "وليم جيمس": " إن تاريخ الفلسفة هو تاريخ التصادم بين الأمزجة البشرية، وهذا الاختلاف بين الأمزجة له أيضاً شأنه في ميدان الأدب والفن والحكمة ".

٣ - اختلاف الاتجاه: فإن اتجاه الناس في الحياة يجعل الكل متجها إلى نوع تفكير يناسب اتجاهه، وتكون آراؤه سائرة في هذا الاتجاه، فكل إنسان يفكّر في حدود مذهبه، ومعتقده، وكل واحد له قياس وله اتجاه يمشي إليه وفلك يدور فيه. ولذلك كان لا بد من الاختلاف.

٤ - التقليد: تقليد السابقين ومحاكاتهم، من أهم أسباب الخلاف، لأن المقلّد لا ينظر نظرة عقلية مجردة. ونزعة التقليد متغلغلة في نفوس الناس، توجههم وهم لا يشعرون، وإن سلطان الأفكار التي اكتسبت قداسة بمرور الأجيال – تسيطر على العقول، فيروح المقلد الى وضع البراهين لبيان حسنها وقبح غيرها. وقد ينشأ عن التقليد التعصب، لأن قدسية الآراء التي يقلدها الشخص تدفعه إلى التعصب لها، وحيث كان التعصب الشديد كان الاختلاف الشديد...

٥ - اختلاف المدارك، من أسباب الاختلاف، لأن منها ما ينفذ إلى الحقيقة، ومنها ما يحيط بجزء منها ويقف عنده، ومنها ما يسيطر عليه الوهم، ومنها ما يذهب به الخيال في متاهات فكرية مختلفة تحت سلطان أفكار موروثة وليست أوهام مقصورة على العامة، بل إن العلماء أنفسهم قد تسيطر عليهم أوهام تغش بصائرهم، فلا يدركون الحقائق على وجهها. وقد جاء في رسائل إخوان الصفا(١): "انك تجد كثيراً من الناس يكون جيد التخيل، دقيق التمييز سريع التصور ذكوراً، ومنهم من يكون بطيء الذهن أعمى القلب، ساهي النفس، فهذا أيضاً من أسباب اختلاف العلماء في الآراء والمذاهب؛ لأنه إذا اختلفت إدراكاتهم اختلفت آراؤهم واعتقاداتهم بحسب ذلك ".

---

(١) أُنظر: رسائل إخوان الصفا وخلاّن الوفا، إعداد وتحقيق: الدكتور عارف تامر، منشورات عويدات، بيروت وباريس، ط.١، ١٩٩٥.

٦ - الرياسة وحب السلطان، وخصوصاً في المناهج السياسية، فإن كثيرين ممن يرغبون في السلطان ينتهون إلى آراء تتعلق بالحكم، هي منبعثة من رغباتهم الخاصة، ويندفعون في تأييدها حتى يخيل إليهم أنهم مخلصون فيما يدعون إليه، وإن ما يقولون هو محض الحق الصواب. وقد تكون العصبية القومية أو العنصرية سبباً في اختلاف، وهي داخلة في حب الرياسة والسلطان...

هذه بعض أسباب الاختلاف بين الناس فيما يدرسون من موضوعات وما ينتهون إليه من نتائج في دراساتهم.

وإن هذه في الجملة من أسباب الاختلاف التي لا تختص بإقليم دون إقليم، ولا بموضوع دون موضوع، وهي ظاهرة في كل ما يختلف فيه.

أسباب اختلاف المسلمين

لقد اختلف المسلمون في الاعتقاد والسياسة والفقه، وهذا الاختلاف لم يتناول لب الدين، فلم يكن الاختلاف في وحدانية الله تعالى، ولا في رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم)، ولا في القرآن الكريم وأنه نزل من عند الله تعالى، وأنه معجزة النبي الكبرى، وقد اتفق المسلمون على جميع فرقهم ومذاهبهم على نص القرآن الموجود بقراءاته، فلم يشذ واحد منهم عنه، ولم يختلفوا في أصول الفرائض كالصلوات الخمس، والزكاة، والحج، والصوم. وبعبارة عامة لم يكن خلاف بين المسلمين في ركن من أركان الإسلام ولا في أمر عُلم من الدين بالضرورة.

ولقد كان خلاف الفقهاء في غير ما جاء نص من الكتاب والسنّة، وما يُستنبط منهما من أقيسة، ولم يكن ذلك الخلاف افتراقاً بل كان خلافاً في النظر والاجتهاد، وهذا ما كان عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – يستحسنه ويسره اختلاف الصحابة في الفروع، وكان يقول: "ما أحب أن أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا يختلفون، لأنه لو كان قولاً واحداً لكان الناس في ضيق، وإنهم أئمة يقتدى بهم، فلو أخذ رجل بقول أحدهم لكان سنّة."

والخلاف في أخذ الأحكام من الكتاب والسنّة، وتباين الآراء في الفروع والأحكام لم

يفرق بين الأمة. وإنما الخلاف الذي فرق بين الأمة، وأذهب وحدتها، هو الخلاف في السياسة وشئون الحكم.

وأسباب الخلاف كثيرة أهمها:

١ - **العصبية العربية**: فإنها كانت من أكبر أسباب الخلاف الذي فرق أمر الأمة، فإن الإسلام حارب العصبية في نصوص القرآن والسنَّة من مثل قوله تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (٢). وقول النبي (صلى الله عليه وسلم): "ليس منا من دعا إلى عصبية".

وقام الخلاف بعد النبي بين الأمويين والهاشميين، ثم بين الخوارج وغيرهم.

٢ - **التنازع على الخلافة**. وهذا سبب جوهري من الأسباب التي أحدثت الخلاف السياسي في الإسلام. وبرزت بذلك فرق الشيعة، واختلفوا فيمن يكون الخليفة بعد الرسول هل هو أبو بكر أم علي، وانقسم المسلمون انقساماً كبيراً.

٣ - **مجاورة المسلمين لكثير من أهل الديانات القديمة ودخول بعضهم في الإسلام من يهود ونصارى ومجوس**، وكل هؤلاء في رؤوسهم أفكارهم الدينية الباقية من دياناتهم التي تركوها، وقد استولت على مشاعرهم. فكانوا يفكرون في الحقائق الإسلامية على ضوء اعتقاداتهم القديمة، وقد أثاروا بين المسلمين ما كان يُثار في ديانتهم من الكلام في الجبر والاختيار، وصفات الله تعالى أهي شيء غير الذات أم هي والذات شيء واحد.

وكان بين هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام مخلصين، وآخرون دخلوا في الإسلام ظاهراً، وأبطنوا غيره، وما كان دخولهم إلاَّ ليفسدوا على المسلمين أمور دينهم، ويبثوا فيه الأفكار المنحرفة وقد فصل ذلك ابن حزم في كتابه الفصل(٣).

٤ - **التعرض لبحث كثير من المسائل الغامضة**، وذلك عندما تُرجمت الفلسفة، غزا الفكر الإسلامي كثير من المنازع الفلسفية، والمذاهب القديمة في الكون، والمادة وما

---

(٢) سورة الحجرات، الآية ١٣.

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل، للإمام أبي محمد علي بن أحمد ابن حزم، تحقيق: الدكتور محمد إبراهيم نصر والدكتور عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٥.

وراء الطبيعة والمحسوس. وشاع بين علماء المسلمين التفكير الفلسفي في إثبات العقائد، فجرّهم هذا إلى دراسة مسائل وعرة ليس باستطاعة العقل البشري أن يصل إلى نتائج مقررة ثابتة فيها، كمسألة إثبات صفات الله تعالى ونفيها، ومسألة قدرة العبد بجوار قدرة الرب، وغير ذلك من المسائل فإن البحث في هذه المسائل يفتح باباً واسعاً من أبواب الاختلاف، إذ تختلف الأنظار، وتتباين المسالك، ويتجه كل اتجاهاً يخالف الآخر.

٥ - **ظهور القصص في عهد "عثمان"** وكرهه الإمام عليًا حتى أخرج القُصاص من المساجد، لما كانوا يضعونه في أذهان الناس من خرافات وأساطير بعضها مأخوذ من الديانات السابقة، بعد أن دخلها التحريف وعراها التغيير. وقد كثر القُصاص في العصر الأموي. ودخل كثير من هذه القصص في كتب التفسير، وكتب التاريخ، ووضع كثير من الأحاديث لمساندة بعض الآراء والزعماء والحكام.

٦ - **ورود المتشابه في القرآن الكريم:** قال تعالى: (هو الذي أنزل عليك الكتاب، منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأُخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلاَّ الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به، كل من عند ربنا وما يذكر إلاَّ أولو الألباب) (٤). فكان هذا أيضاً مثار جدل كبير، وسبباً عظيماً في الاختلاف.

٧ - **استنباط الأحكام الشرعية:** فكان كل فقيه يستنبط الأحكام من القرآن والسنَّة بحسب معرفته واجتهاده، ويستعين بأحسن ما وصل إليه من أقوال الصحابة، ومن سبقه من العلماء، وكان لابد من التعرف بالنظر والفحص، وقد تشعبت بين أيدي الدارسين طرق تعرف الأحكام، وكل أخذ بما استقام في منطقه ونظره، وبما وصل إليه من حديث أو أثر..

وكما تقدم فإن هذا الخلاف الذي نتج عن هذا الاستنباط ليس خطيراً بل إنه كان محمود العاقبة حسن النتيجة؛ إذ نتج من مجموع الآراء المختلفة ما يمكن أن يستخلص منه قانون محكم، يعادل أحكم القوانين وضعاً، وأعدلها منهجاً.

---

(٤) سورة آل عمران، الآية ٧.

ولو أن المسلمين كانوا في اختلافاتهم بينهم مثل اختلاف الفقهاء ويحترمون بعضهم، ويكون مقصدهم من وراء ذلك بيان الحقيقة، ويظلون كتلة واحدة لنتج عن ذلك علم عظيم، وزودوا الناس بآراء حكيمة عظيمة، ولكنهم جعلوا يكفرون بعضهم البعض، وافترقوا افتراقاً كبيراً.

ولقد أطلت في هذا الموضوع لأنه مهم جداً، ولأنه ينير السبيل لمن اطلع على ما كتبت، ليبقى واسع الصدر، ولا يتسرع بالحكم على أحد بل يحاول أن يبحث ويستقصي، ويجد لكلٍ عذراً. والله من وراء القصد.

عود الى الدراسة

شرعنا في الدراسة، وفي صيف ١٩٣٥م لم أذهب إلى عمّان فقد تأخرت الفحوص بسبب الإضرابات، فبقيت تلك الصيفية في القاهرة، وجوها حار لا سيما في تموز وأغسطس، ولكن أمسياتها ولياليها لطيفة ساحرة ولا سيما على شواطىء النيل العظيم. فقد ألفت القاهرة وأصبح لي فيها معارف وأصدقاء، وكان هناك مجال كبير لأن أتعلم في غير أوقات الدراسة. فقد تعرفت على المجتمع جيداً، وصرت أحضر المحاضرات التي تُلقى في الأندية والجمعيات، وكان النشاط الاجتماعي والثقافي في أوجه تلك الأيام، وسوق الأدب رائجة، والمجلات متوافرة، والجرائد الصباحية والمسائية. كل هذه الأشياء كانت مدرسة عظيمة لي أفدت منها الكثير.

سارت الدروس في الكلية على ما يرام، ولم نجد فيها جديداً، فقد كان المدرسون من نوع الطراز الذي كنا نحضر عليهم في القسم العام، والدراسة في الأزهر إجمالاً هي دراسة كتب لا دراسة علوم، فكل همّ الأستاذ أن يوضح ألفاظ الكتاب ويفهِّم ماذا يقصد المؤلف، وهل الشارح أتى بالمقصود، ووفى المقام حقه أم لا. وكانت تدور مناقشات حول هذه القضايا كثيرة بيننا وبين الأساتذة فلا نخرج منها بطائل.

ولا أحب أن أطعن بالأزهر ومشايخه لأن الفضل كل الفضل عليّ هو للأزهر ولمشايخه مهما كان عملهم، وعلى أي حال كان تدريسهم، ولكن أقرر حقيقة مؤلمة وهي أن نمط الدراسة فيه عقيمة لا تجدي لا تجعل من الطالب باحثاً حقيقياً. ذلك أن الأستاذ يدخل إلى الصف ويبدأ يقرر ويشرح ويدور ويلف حول ما قال المؤلف، وكل همّه كما قدمت

هو أن يبيِّن أن ما قاله المؤلف صواب. والأساتذة الذين تلقينا عنهم أصناف، منهم القوي المتمكن ذو الشخصية القوية يستطيع أن يفرض احترامه ويؤدي درسه على حسب ما يريد ويملأ فراغ ذلك الوقت المفروض علينا وعليه، ويتركنا إلى حيث يلقانا بحصة أخرى، ولا نجتمع معه في غير تلك الحصة، ولا نستطيع أن نتبسط معه، أو نسأله عن مرجع أو هو يكلفنا ببحث أو يعطينا رؤوس أقلام ويقول ارجعوا إلى كذا وكذا من المراجع وحضروا بحثكم. لا فكل هذا لا يحصل... ومنهم الضعيف الشخصية الهزيل الذي يحاول أن يخطب ودنا إما بالكلام عن السياسة وتضييع الوقت بالكلام الفارغ، أو سرد القصص أو تاريخ حياته، وكان معظم الطلاب يروق لهم هذا النمط من الأساتذة، لأنهم بتضييعهم الوقت يقرأون قليلاً ويكون الفحص سهلاً بما قرأوا وتلك غاية أمانيهم.

ومنهم الكبير في السن العاجز حتى عن القيام بمهمته وإنما جاء ليملأ الفراغ ويأخذ الراتب. وأذكر حادثة مؤلمة حصلت لنا مع أستاذ من هذا النوع، فقد جاءنا شيخ فان يدرسنا، وبدأ بعض الطلاب يضايقونه بالأسئلة المحرجة، والنكت اللاذعة، والطلاب عندما يلمسون ناحية ضعف عند أستاذ أمرهم عجب، وما زالوا بالأستاذ حتى انسحب في اليوم الثاني، ولم يعد.. وقد حزنت والله على ذلك الشيخ وطلبت من بعض إخواني الطلبة أن يسألوا عن عنوانه وذهبنا إلى داره وزرناه وطلبنا منه أن يسامحنا، وكان في غاية اللطف والوداعة والكرم فاستقبلنا ورحب بنا، وطلبنا منه أن يصفح عما بدر من بعضنا، فقال: لا يوجد بقلبي أية ذرة من الغضب، وإنما ألوم نفسي فإنني لو بقيت معكم لضيعت وقتكم دون فائدة. وأنا مسامح لكم وأدعو الله أن يوفقكم ويفتح عليكم، ويجعل لكم مستقبلاً طيباً. وخرجنا من بيته مودعين له، وقد طابت نفسي والله وغدوت مرتاح الضمير.

ومن الأساتذة اللبق الظريف صاحب النكتة اللاذعة الذي لا تفوته إشارة ولا حركة، ويدير درسه بكل شدة وصراحة، ومع هذا يتقبَّل النكتة من طلابه ويردها بأغلظ منها ولا يبالي.

وهكذا مضت عليّ أربع سنوات في كلية الشريعة، لم استفد منها إلاَّ الحصول على الشهادة. ولست مبالغاً ولا متجنياً على الأساتذة الذين مروا عليّ في هذه السنوات

الأربع. وإني أعرف من المراجع أكثر مما يعرفون، وإني قد أفدت في المدة القليلة التي لازمت فيها الشيخ محمد الخضر الشنقيطي – رحمه الله – أضعاف أضعاف ما أفدته منهم. ما عدا اثنين فقط وهما الشيخ محمد مصطفى المراغي – رحمه الله – في تلك السنة التي درسنا فيها "الأصول". والمرحوم الشيخ محمود شلتوت – رحمه الله – فإنه درسنا سنة واحدة، وكان واسع الاطلاع باحثاً، مجداً يريد من طلابه أن يتعلموا ويبحثوا ويستفيدوا حقاً. وكان يبعث فينا روح العلم والبحث، وحرية الرأي والإقدام على المطالعة والتزود من المعرفة، والجرأة في إعطاء الرأي، ولكن كان فيه شدة وصلف مما يجعلني أترك مناقشته وأستمع فقط.

في مدة دراستي في الأزهر كلها لم أسمع محاضرة من أحد المشايخ عامة أو توجيهاً، أو دعوة لاجتماع نناقش فيه حالة الكلية أو نبحث أوضاع الدراسة وما شابه ذلك. وكانت الدراسة متشابهة، والأيام تُكرر، تُلقى الدروس على ما وصفت وتدور الأيام وتنتهي السنة، وكثير منا ينتهي مثل ما بدأ، وكل هم الطلاب النجاح بالامتحان آخر السنة، وطريقة الدراسة تسير بدون تفتيش ولا مراجعة ولا بحث؛ طريقة عقيمة لا فائدة منها مطلقاً.

ولم أر لواحد من هؤلاء الأساتذة الذين درّسونا مؤلَّفاً واحداً أو رسالة أو أنه كتب موضوعاً في مجلة، ولم أر مع واحد منهم يوماً شيئاً غير ملازم من كتاب يدرسه، إلاَّ ما ذكرت عن المرحومين المراغي وشلتوت، فقد كنا نقرأ لهما ما يكتبان ويؤلفان، أو يحاضران في بعض الجمعيات... ولكن الاجتماع بهما أو بأحدهما مستحيل، لأن الأستاذ يلقي درسه ويذهب إلى برجه العاجي، ولا يستطيع أحد من الطلاب رؤيته أو الاتصال به إلاَّ في قاعة الدرس في تلك الدقائق المعدودة. ارستقراطية عجيبة، وحياة لا حيلة لنا فيها، أو في تغييرها وتسييرها كما نحب ونريد... فكان يسري عني أن أذهب إلى دار أستاذي الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي يوم الخميس، وأمضي عنده فترة طويلة، أحل فيها بعض مشاكلي وأراجع ما يمكن من الكتب، وأستفيد في تلك الليلة أكثر من الأسبوع كله. ولكن الذي كنت أريده أن أجتمع بعدد من الأساتذة وأتحدث إليهم، وأناقش بعض المسائل، لأحصل على وجهات نظر أخرى. فإن الشيخ حبيب الله الشنقيطي له

رأي، وطريقة معينة، وأنا أحب أن أسمع آراء متعددة، حتى أُقارن بين هذه الآراء، وأكوِّن عندي شيئاً خاصاً أو خلاصة ممحصة تفيدني، وتخرجني من حيرتي، فلم أستطع أن أنفذ إلى المشايخ المصريين مطلقاً.

وأنا بطبعي خجول جداً، لست من أولئك الذين يقتحمون الأبواب أو يحاولون أن يتعرفوا على كل أحد، مع أني أحب الناس جداً، وأحب المخالطة والمعاشرة، ولست من الانطوائيين، ولكن أخجل أن أقتحم الأبواب دون سابق معرفة أو بدون رفيق أو من يكون له معرفة، وبهذه الوسيلة تعرفت على عدة شخصيات وأدباء وكُتَّاب. ولكن مع مشايخ الأزهر فإنه لم يتفق لي ذلك، لبعدهم عن الناس، ولترفعهم، سامحهم الله.

وقد حضرت بعض جلساتهم في معية الأستاذ الشنقيطي فكانت أحاديثهم بعيدة عن العلم جداً، تدور كلها عن الوظائف والترقية والمادة، وما شابه ذلك، إلاَّ ما ندر مما يثيره المرحوم أستاذنا الشنقيطي من المسائل.

- ٢٦ -

كيف تعلمت

لم أكن أُعول على الدروس في الكلية كثيراً لسببين، أحدهما: أن أكثر المواضيع التي تُدرَّس في الكلية أعرفها وبعضها أُعيده إعادة. ولست مبالغاً إذا قلت إني كنت أعرف المراجع حتى أكثر من الأساتذة الذين يدرسوننا في الفقه والتفسير والحديث. لأن هذه المواضيع الثلاثة درستها على الشيخ محمد الخضر الشنقيطي – رحمه الله – وتعلمت منه الكثير عن المراجع المهمة فيها، وبعضها كان عندي في مكتبتي، فقد جعلت أُنشىء مكتبة خاصة لي قبل أن آتي للأزهر.

والسبب الثاني: هو أني صرت أعول على النشاط خارج الكلية وذلك هو النشاط الاجتماعي، فلا أُضيِّع محاضرة مهمة في نادٍ أو أية جمعية، وكنت أستفيد من هذه المحاضرات والاختلاط بالناس والقراءة الخارجية استفادة عظيمة، وهذا ما جعلني أعيش في العصر الذي أنا فيه. وكذلك حضور الروايات التمثيلية بدار الأوبرا الملكية، وتمثيليات الريحاني ويوسف وهبي، ودور السينما، فكانت هذه أيضاً غذاءً عظيماً لنفسي وعقلي، وفيها ترويح كبير عن النفس، وصرف الطاقة الجنسية ونسيانها، فإني تجاوزت الخامسة والعشرين، ولم أستطع الزواج، ولا أعرف المرأة مطلقاً، فكانت هذه الأمور تسليني كثيراً، وتروِّح عني، وتستنفد الكثير من طاقاتي.

وكانت القاهرة في تلك الأوقات تعج بالأندية والجمعيات، وكانت المحاضرات تُلقى في كل يوم من أيام الأسبوع. والمجلات فيها سوق أدبية وعلمية رائعة. كانت **الرسالة** في أوجها، و**الثقافة**، و**أبوللو**، و**الهلال**، و**المقتطف**، وغيرها عشرات المجلات فيها من كل فن وعلم ما يغذي العقول والنفوس. فكنت أرتقب صدور الواحدة منها بالدقيقة، وعندما تصل إلى يدي ألتهمها التهاماً. وكانت الجرائد اليومية طافحة بالأخبار والسياسة والأدب والفن. فكانت **الأهرام** تصدر في ست عشرة صفحة يومياً، ويوم الجمعة بنحو عشرين أو ضعفها من الصفحات تحوي ألواناً من المعرفة التي تصرفني أحياناً عن الخروج من غرفتي وأنا عاكف على قراءتها.

وكانت دار الشبان المسلمين، وعلى رأسها المرحوم عبد الحميد سعيد، تُلقى فيها مختلف المحاضرات والندوات. وكذلك قاعة الجمعية الجغرافية الملكية. وقاعة يورت في الجامعة الأمريكية، وهذه كان فيها كل يوم خميس يُعرض فيلم سينمائي والدخول إليه بقرش صاغ واحد. وجمعية الهداية الإسلامية وعلى رأسها المرحوم العلامة الشيخ محمد الخضر حسين، التونسي الأصل، الذي أصبح فيما بعد شيخاً للأزهر، كانت مركزاً هاماً للدعوة الإسلامية، والمحاضرات فيها دائماً والاجتماعات والندوات. وقاعة الجامعة الكبرى في الجيزة كانت ملتقى لمفكري العالم، فقد كان يؤم القاهرة العلماء والأدباء من مختلف أنحاء العالم، ويلقون المحاضرات فيها. هذا إلى قاعات الكليات المختلفة ودار العلوم وغيرها مما لا يعد ويحصى. فكان النشاط الاجتماعي والأدبي مستمراً طوال الأسبوع، وكنت أتتبع المحاضرات وأتخيرَّ ما أراه مناسباً لي.

فقد حضرت ثلاث محاضرات للأستاذ المرحوم محمد كرد علي، اثنتين منها في قاعة يورت تحدث في الأولى عن أديبين قديمين اسم كل واحد منهما أحمد، وعن أديبين معاصرين هما أحمد زكي باشا وأحمد تيمور باشا وسماهما "الأحمدان الجديدان". والمحاضرة الثالثة عن الحالة قبل الحرب الأولى، وكيف تغيرت بعد الحرب وكيف تبدلت وارتفعت الأسعار، وكثرت الكماليات وازدادت متطلبات الحياة. وإنني لا أنسى تلك المحاضرات وكيف كانت متعة لي وأي متعة.

أما أدباء مصر وعلماؤها، فلم يفتني محاضر منهم من أمثال: طه حسين، ولطفي السيد، ومحمد حسين هيكل، ومحمد زكي مبارك، وعبد الوهاب عزام، والسباعي بيومي، وأحمد جاد المولى، ولطفي جمعة، وحافظ رمضان، والدكتور أحمد غلوش. ولأول مرة شاهدت عرض الصور الملونة مع المحاضرة وذلك في محاضرة ألقاها الدكتور غلوش عن المسلمين في فنلندا حيث انقطع مدة في أثناء الحرب، وتجول في شمال أوربا، وفي أول فرصة سنحت له جاء إلى وطنه، وتحدث حديثاً مسهباً عن جولته في قاعة يورت التذكارية في الجامعة الأمريكية. وفي هذه الجامعة، كانت تُقام الحفلات الموسيقية أحياناً، فسمعنا فيها أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، وكثيراً من الحفلات الموسيقية.

ومن أهم الأحداث التي لا أنساها، أسبوع المتنبي، فقد أقيم في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية، وتحدث فيه كبار أدباء مصر، وغيرهم من البلدان العربية، وكان أسبوعاً حافلاً، بالأحاديث عن المتنبي وثقافته وشعره، وأمثاله، وجميع نواحيه.

وكانت مصر في تلك الفترة تعج بالشعراء والكُتّاب والأدباء، وكانت وفاة شوقي وحافظ قريبة العهد، ولا يزال أصدقاؤهما وتلاميذهما على قيد الحياة، وكان الحديث عنهما يدور في المجالس والأندية وفي الصحف، ويظهر أن حافظاً كانت له شعبية أكثر من شوقي؛ فقد كان محدثاً لبقاً، وناقداً فكهاً، وكان شعبياً فكانت نكته وطرائفه تتردد وتتداول بين الأدباء والطلبة وحتى بين عامة الناس. أما شوقي فقد كان من نوع آخر، له مجالسه الخاصة وكان يجتمع بأناس معينين. ولذلك كان أصدقاء حافظ أكثر، ولذلك نراهم يجتمع عدد منهم ويُقررون إقامة احتفال بذكرى حافظ، ويعلنون ذلك على صفحات الجرائد والمجلات فيتجاوب معهم الأدباء والشعراء من العالم العربي، وينظم الحفل ويُقام في دار الأوبرا الملكية. ويتناول المحتفلون الكلام شعراً ونثراً يومين متواليين من الصباح إلى المساء.

وقد أتيح لي في ذلك المهرجان الحافل أن ألتقي بعدد كبير من أدباء وكُتّاب وشعراء كنت أقرأ لهم وأحببت الكثير منهم، فسمعتهم يلقون واجتمعت ببعضهم وحادثتهم، وكانت لي كما قيل: أمنية وافقت المراد. وقد شارك في ذلك المهرجان: حليم دموس وكان إلقاؤه عظيماً، والدكتور علي محمود طه، والأستاذ حسن كامل الصيرفي، والأستاذ إسعاف النشاشيبي، والكاتب المرح إبراهيم عبد القادر المازني وكان من جملة ما قاله: لما كنا شباباً وفي أول تعاطينا الكتابة والأدب، كنت أقسو بالنقد على حافظ وشوقي قساوة أملاها غرور الشباب، وحب الظهور، ورغبة في التجديد، والآن وبعد أن بلغت هذه السن، وبعدما رحل الشاعران العظيمان، عرفت حقاً أنهما من القمم، وأنهما من الخالدين رغم ما انتقدنا ورغم ما كتبنا. وهذا مجمل لما قال حينذاك.

واشترك أيضاً انطون الجميل وكان رئيس تحرير جريدة **الأهرام**، والشاعر الأردني محمد الشريقي، وفيلكس فارس وكان من الكُتّاب الممتازين له سلسلة مقالات رائعة في مجلة **الرسالة**، وعدد كبير من أدباء وشعراء الأمة العربية لم أعد أحفظ أسماءهم.

لقد خرجت من ذلك المهرجان ونفسي مملوءة غبطة وسروراً، وذلك لما سمعت وما لقيت من صفوة الأدباء والشعراء، ولما رأيت من وفاء أولئك الأصدقاء لصديق رحل

عنهم ولم يعد يرجى منه فائدة تجُنى أو خير يُجتبى. ولقد بقيت نشوة ذلك الاحتفال بنفسي مدة وعلمتني أكثر من حضور ألف درس في الكلية...

كان حافظ إبراهيم(١) - كما يقول عنه أصدقاؤه وخلاّنه - من الجواهر التي لا تزال تلمع وتسطع في ذكريات جميع الذين عرفوه، وكان يمتاز أو يتسم بوجه كالح متجهم، يصدم بل يخيف، لأول نظرة، حتى إذا قضى معه الإنسان نصف ساعة ود لو نهض ليقبله أو يعانقه، فقد كان أنيساً يحدثك بنكات، بالمعنى العربي القديم لهذه الكلمة، وكان وطنياً يطابق بين أمانيه وأماني الدهماء من الفلاحين والعمال المتوسطين كما يقول سلامة موسى: "وأذكر من نكاته أني سألته ذات مرة عن رأيه في أحد الشعراء، فكانت إجابته العجيبة": "إن أشعاره يجب أن تنسى عن ظهر قلب". وهو عندي ذكرى تترنم بها نفسي. ويتابع سلامة موسى الحديث فيقول: "وحين أتأمل الصدود الذي نلاقيه أحياناً في بعض الأفراد أو عند الجميع من شوقي، على الرغم من شاعريته الرائعة، أعتقد أن مرجعه أن شوقي لم يمارس الأدب الكفاحي، ولم يطابق بين فنه وبين أماني الشعب إلاَّ في فترات نادرة".

وإن إعجاب الشعب بحافظ إبراهيم، على الرغم من شاعريته التي لا تسمو الى مستوى شوقي، إنما يرجع إلى أنه طابق بين فنه وبين أمانينا السياسية.

"ولم أعرف شوقي إلاَّ في السنوات الأخيرة من حياته(٢)، وكان له مكتب بالقرب من دار مجلة الكاتب المصري كنت أزوره فيه. وقد فهمت مقداراً كبيراً من سيكولوجيته حين شرع ذات مرة يوضح لي في إسهاب لماذا ألِف درامة **كليوباترة**، فقد زعم أنه أراد أن يزكي هذه المرأة باعتبارها ملكة مصرية قد أُسيء إليها في سمعتها".

"ودهش أكبر الدهشة مني عندما ناقضته وقلت له إنها لم تكن مصرية، وكان في ثقافته يصبو إلى القديم".

وطبعاً هذا رأي سلامة موسى فإنه لا يجب أن يؤخذ على أنه صحيح مائة بالمائة. ولست هنا بمدافع أو مصحح وإنما أعرض هذه الآراء. وقد حكم الناقدون حيث كتبوا عن حافظ وشوقي ومطران وغيرهم...

---

(١) أنظر: رأي سلامة موسى في حافظ وشوقي، في كتابه: **تربية سلامة موسى**، ص ٢٢٧ — ٢٣٠.
(٢) نفسه، ص ٢٢٨.

ويقول سلامة موسى(٣): "وليس هناك مفر من المقارنة بين شوقي وحافظ ومطران، فإن دراسة هؤلاء الثلاثة تدل على التيارات المتناسقة والمتناقضة في المجتمع المصري في الخمسين من السنين الأخيرة. فإننا نحس أحياناً في قصائد شوقي ومقطوعاته جو الترف المصري الذي أوشك على الزوال: السجاجيد الإيرانية، وصينية القهوة الفاخرة يحملها عبد أسود، والمقاعد الناعمة، والحجاب، حجاب المادة والروح".

"أما أشعار حافظ فصرخات المتألم وأحياناً مهاترات العاجز. ونحن نقرؤها فنصرخ معه أو نهاتر في ألم وعجز، لأنه منا ونحن منه: شاعر مصري بلدي، يقرأ أخبار المظاهرات ويفرح بها ويؤلف القصائد عنها، وكأنه يريد أن ينتظم فيها مع الطلبة".

"أما مطران فيشبه أحياناً تلك الحدائق الأنيقة التي يجمع فيها أصحابها الأثرياء أصص النباتات الأجنبية، التي نسأل عن أسمائها ونعجب بروائحها، ولكن ليس لها في قلوبنا ذلك الحنين الذي نحسه حين نذكر حقولنا المألوفة بفلاحيها وجداولها وأشجارها من الجميز والتوت".

وهذا برأيي المتواضع كلام غير علمي، على مذهب سلامة موسى الذي يسير على منواله ويدعو الناس إليه، وليس بالنقد النزيه الدقيق، وهو كلام يحتاج إلى كثير من الغربلة والتمحيص. فهو من وجهة نظر معينة.

أما وصفه لحافظ ولحلاوة منطقه، وأنسه وظرفه وسرعة خاطره ونكته ونوادره فإنه صحيح وقليل بحق حافظ. والدليل على ذلك قيام أولئك النفر من الأدباء والكُتَّاب والشعراء وتناديهم إلى ذلك المهرجان العظيم إحياءً لذكرى تلك النفس الزكية، والروح المرحة، والشخصية الحلوة اللطيفة الظريفة. ولم يقيموا حفلة لذكرى شوقي مع أنهما كانا في عصر واحد وتوفيا في سنة واحدة تقريباً. ولا ينقص هذا من قدر شوقي، ولا يحط من مكانته، فهو قمة من القمم الشماء وعلم مفرد وأمير الشعراء بحق، ولكن كل واحد له ميزة، وليس هذا محل التفصيل والكلام عليهما وإنما الحديث ذو شجون.

كنت أحس في نفسي كأنني أخلق من جديد، وأتغذى من تلك المائدة بكل شهي ولذيذ،

---

(٣) نفسه، ص ٢٢٩.

وأتنقل بين الأندية والجمعيات، كما تتنقل النحلة من حديقة لحديقة، ومن زهرة إلى زهرة، وأستمتع بما أسمع وأقرأ وأقف على وجهات نظر مختلفة، وآراء وأحاديث ومقالات تدبجها أقلام الكُتَّاب والأدباء مما يفتح عيني كل يوم على شيء جديد، ويتسع أفقي، وتنمو مداركي، وكل ذلك خارج عن إطار دراستي، بعيد عن كليتي ومعهدي...

المجالس والمنتديات في مصر

كانت المجالس في بيوت الأدباء والعلماء، في أواخر القرن التاسع عشر، وفي أوائل هذا القرن، مدارس يؤمها الكثير من المتأدبين، والأدباء، وعشاق الفن، واستمرت إلى الثلاثينات من هذا القرن.

وقد كانت في البداية مقتصرة على الطبقة الأرستقراطية كصالون نازلي فاضل وغيرها من منتديات السياسة وغير السياسة من شئون الاجتماع وآداب العصر، فورثت هذه الحقبة عن بيوت الوجهاء والأعيان ميداناً للبحث والمناظرة والمسامرة، أفاد منها حافظ وشوقي والمنفلوطي وغيرهم من الأدباء والشعراء. وكان من أشهر هذه المجالس مجلس إسماعيل صبري الشاعر الرقيق، وعلي مبارك، وسعد زغلول. وكانت هذه المجالس تُثار فيها شتى أنواع العلوم والآداب والنكت الطريفة.

وكذلك الشيخ محمد عبده، والبارودي بعد عودته، والبكري، والمويلحي، ومحمد رشاد أخو أحمد زكي باشا "شيخ العروبة"، ومصطفى عبدالرازق. كل أولئك كانت منازلهم ملتقى الأدباء وغير الأدباء من طلاب العلم والسمر.

ثم لما انتشرت المقاهي، وبارات الأجانب، جذبت إليها فريقاً من الأدباء والكتاب الذين كانت تمسكهم عن غشيان تلك البيوت مقتضيات الجاه أو اعتبارات الاعتزاز أو غير ذلك من دوافع الإحجام. وقد جعل أمر هذه المنتديات يستفحل حتى أمّها الداني والقاصي؛ فقد كانت قبلة الناشئين وطلاب الأدب والثقافة من القاهرة وغير القاهرة، يتكلفون إليها مشقة السفر والنفقة ليقفوا على أخبار الأدب والأدباء.

وكانوا يسمونها بأسمائها الأوربية، حتى وردت بأشعارهم – كما قال حافظ رحمه الله(١):

وما بال قَوميَ لا ينزلون   بغير "جروبي" و "بار اللوا"

وكانت هذه البارات وتلك المقاهي تتوزع الأدباء حسبما تقتضيه المراتب والأهواء، حتى عُرف كل "بار" بأصحابه والمختلفين إليه، ثم ما لبث أن اجتذبت هذه المقاهي ذوي

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم، ص ٢٢٤، دار العودة، بيروت، ١٩٩٦.

البيوتات أنفسهم من الوجهاء والأعيان الذين يعنيهم أمر الأدب والثقافة على العموم.

ونوع آخر من المنتديات شاع في تلك الفترة واستمر إلى وقتنا وأدركناه، وتلك هي مكاتب الصحف والمجلات، فكانت كل صحيفة لها أتباعها وأشياعها، فكانوا يجتمعون بالمحررين وأصحابها يتجادلون في أمور الأدب والعلم والسياسة والاجتماع.

وكانت **الجريدة** و **عكاظ** و **البيان** و **السفور** و **المقتطف** و **الهلال**، ثم في أيامنا **السياسة الأسبوعية** لهيكل، **والرسالة** للزيات، **والثقافة** لأحمد أمين، **والأهرام**، **والبلاغ**، وغيرها من الجرائد. كانت مكاتب هذه الصحف والمجلات منتديات غنية بما يدور فيها من أبحاث ونقاش وجدل، فكان الأدباء والكتاب يسعون إليها ويتكلفون مشقة السفر إليها، يتلمسون فيها أخبار الأدب والأدباء. وكانت هذه المنتديات مدارس فكرية حرّة، يصدر عنها الرأي الحر مكتوباً أو غير مكتوب، فمن هذه الندوات عرف الناس ديوان حافظ الشفهي، وذلك شعره الذي كان يقوله ولا ينشره، والذي كان يسخر فيه من الخديوي والاحتلال، ومنه هذان البيتان اللذان يذكرهما العقاد في الملك فؤاد:

يا مليكاً برغمه يلبس التا	ج ويرقى لعرشه مملوكا
إن أتمّتْ يداك تخريب مصر	فلقد مهد الخراب أبوكا

وقد ضاع أكثر هذا الشعر مع الأسف، ولم يبق منه إلا أبيات قليلة.

ولقد بلغ من شأن هذه المنتديات أن أصبحت مصادر للدعوات الوطنية، ولما اختلف الساسة وجدت فيها ناصراً ومعيناً، فاختلطت السياسة بالأدب وطغت على تقويم الخصوم وآثارهم الأدبية.

ويحدثنا أحمد أمين(٢) عن المنتدى الذي تعلم فيه وثقف عقله وفتح أفقه ووسعه، وهي قهوة في ميدان عابدين، ولنستمع إليه وهو يتحدث عن جماعة من المثقفين ثقافة عصرية، منهم: الأستاذ أحمد زكي، والدكتور عبدالسلام الكرواني، والأستاذ محمد عبد الواحد خلاف، والأستاذ محمد كامل سليم، والأستاذ محمد فريد أبو حديد، والأستاذ محمد أحمد الغمراوي؛ إذ يقول: " شاءت الظروف السعيدة أن أتعرف بهم

(٢) أحمد أمين: حياتي، ص ١٦٠ ، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٩.

وأن أُصادقهم، رأيتهم مثقفين من غير جنس ثقافتي، ثقافتهم عصرية بحتة، وثقافتي شرعية كثيراً وعصرية قليلاً، منهم الذي بلغ درجة جيدة في الجغرافيا والتاريخ العام والأدب الانجليزي، ومنهم من بلغ هذه الدرجة في الرياضة والطبيعة والكيمياء، وكلهم يعرف من الدنيا الجديدة والمدنية الحديثة أكثر مما أعرف، بحكم ثقافتهم وثقافتي، وقد اخترنا قهوة تطل على ميدان عابدين صاحبها لغوي شاعر يتلقفنا إذا حضرنا ليعرض علينا رأيه في كلمة اكتشف أنها غير صحيحة لأنها لم ترد في معاجم اللغة، أو ليسمعنا قصيدة من نظمه يحملنا على الإعجاب بها ولو من باب المجاملة. على كل حال كان يجتمع هؤلاء الصحاب في هذه القهوة عصر بعض الأيام فتكون منهم مائدة شهية مختلفة الطعوم متعددة الألوان".

"هذا مغرم بالقصص الإنجليزية والمجلات الإنجليزية يقرأ منها الكثير، وله ذوق حسن في الاختيار وشهوة قوية في التحدث عما اختار، وتَحَمُّس لما يقول ويعرض، ولا يرضيه إلا أن يتحمس السامعون حماسته ويبتهجوا بما يقول ابتهاجه، وكان يقول: إن الاستماع إلى الحديث فن كفن الإلقاء، من الناس من يجيده ومنهم من لا يجيده..."

"وهذا آخر هوايته التاريخ، يطيل القراءة فيه، ويُفتن بأسلوب الأوروبيين في كتابتهم وقدرتهم على التحليل الدقيق ورجوع الجزئيات إلى كلياتها، وحريتهم في تقدير الأبطال والاعتداد بشخصيتهم... إلخ".

"وهذا عالم تخصص في الطبيعة والكيمياء وجعل مسلاته الأدب، فهو يقرأ ديوان أبي الطيب وأبي فراس ويتخير من شعرهما ويحفظه وينشده، وتلتهب عاطفته فيحاول أن يقول شعراً بعضه لا بأس به. وهو فكه النفس، لطيف المحضر، تأنس لقربه وتستوحش لبعده، يتحدث فيودع قلبه حديثه".

"وهذا عالم آخر طبيعي كيماوي أيضاً جل علمه ونفسه وكل ما يملك من ملكات وثقافات لخدمة دينه، أثر في كثير من الطلبة في مدرسته العالية فديَّنهم، وملأ المسجد به وبهم... يحلو له الكلام في الدين وهداية الضالين... جزل الأسلوب إذا كتب، قوي الحجة طويل النفس في المناظرة مؤثر إذا قال... يتحرج صحبه أن يذكروا أمامه شيئاً يمس شعوره الديني وعاطفته المسلمة، ويهابونه في طربوشه أكثر مما يهابوني في

عمتي".

"وهذا عالم في الرياضة ولكنه لا يقل في ثقافته الأدبية عن المختصين في الثقافة الأدبية يقرأ الأغاني والعقد الفريد كما أقرأ ويتذوقها وينقدها، ويقرأ الكتب الكثيرة في الثقافة العامة الإنجليزية، في الأخلاق والاجتماع وعلم النفس... وله أسلوب لطيف ساخر جامح في نقد ما يرى وما يسمع..."

"كل أولئك كانوا مدرسة لطيفة لي، مدرسة خلت من عبوس الجد وثقل المدرِّس وسماجة تحديد الموضوع والزمان والمكان، ونعمت بالبعد عن الامتحان وصداع الجرس. مدرسة فيها الجد والفكاهة، والعلم والأدب، والدين والشعر، والتقريظ والنقد، مدرسة يكون فيها التلميذ أستاذاً والأستاذ تلميذاً، وإن شئت فقل أن كل من فيها أستاذ تلميذ، مدرسة فيها حرية القول وحرية السماع وحرية الموضوع وحرية كل شيء، تقارب فيها سن الأساتذة والتلاميذ فتجانست مشاعرهم، وتشابهت آمالهم ومطامحهم، وتفتحت نفوسهم للاستفادة من تنوع مواهبهم".

ويذكر أن " بفضل هذه المدرسة أصبح مشتركاً في نادٍ رياضي وأصبح يلعب كرة القدم، ويتسابق مع إخوانه، ويذهب مشياً في رحلات صعبة الخ...".

وقد تكونت من هذه الجماعة "لجنة التأليف والترجمة والنشر" وأنتجت إنتاجاً عظيماً فطبعت أكثر من مائتي كتاب، وأصدرت مجلة "الثقافة" التي دامت نحو أربعة عشر عاماً.

ويقول في آخر حديثه عن هؤلاء الأصحاب: " وبهؤلاء الصحاب أحسست أني أقرّب من عقليتهم ومزاجهم وثقافتهم شيئاً فشيئاً، وأبتعد عن عقلية زملائي الأقدمين ومزاجهم شيئاً فشيئاً، ورأيتني – بفضل ما شوقوني من كتب – أكوِّن لنفسي نواة من الكتب الإنجليزية بجانب الكتب العربية، وأحضِّر دروسي منها في الأخلاق والمنطق، وأملأ الفراغ بالمطالعة في هذه وتلك، وإذا العين تتفتح والأفق يتسع ".

ويحدثنا المرحوم الأستاذ أحمد أمين عن مدرسة أخرى أفاد منها وتثقف، إذ يقول: "وكان لي بجانب هذه المدرسة من الأصدقاء – ذوي الثقافة الإنجليزية – جمعية من أصدقاء آخرين ذوي ثقافة فرنسية غالباً، عميدها صديقي المرحوم الشيخ مصطفى

عبد الرازق الذي (...) [أصبح] شيخاً للأزهر فيما بعد. ومن بينهم الدكتور منصور فهمي، والمرحوم عزيز مرهم، والأستاذ محمد كامل البنداري، والدكتور محمود عزمي وغيرهم، وكان مكانها في بيته، وكان أكثر أعضائها من خريجي الجامعات الفرنسية وممن ألف بينهم إقامتهم في فرنسا وتعلمهم بها. وإذا كان يكثر في الجماعة الأولى ذكر شكسبير وديكنز وماكولي وبرنارد شووهـ. ج. ولز، فقد كان يكثر في هذه الجمعية ذكر جان جاك روسو وفولتير وراسين وموليير ودركهايم. وإذا كانت الجمعية الأولى تغلب عليها المحافظة والاعتدال فهذه يغلب عليها التحرر والثورة على القديم — كنا نجلس في هذه الجمعية، وقد يحضر فيها أحياناً بعض السيدات الفرنسيات زوْجات بعض المصريين وبعض العلماء من الأزهر، ويتشقق الموضوع ويُثار الجدل، ويكون الحديث مزاجاً بين حرية فرنسية واعتدال إنجليزي ومحافظة أزهرية، نتحدث في السياسة وحرية المرأة، وفي المقارنة بين فرنسا ومصر".

صالون مي

أفردت هذا المنتدى بالحديث لأنه المنتدى الوحيد الذي استمر إلى أيامنا وأدركناه، وليس معنى هذا أنني كنت ممن يغشاه، وإنما كنا نتنسم أخباره من بعض رواده، ونقرأ عنه في الصحف، وتدور أحاديثه في كثير من المجتمعات.

كان هذا المنتدى بعيداً عن غيره من المنتديات لما كان عليه من الاختلاف، فالكثرة الكاثرة من رواده هم الرعيل الأول من الأساطين الذين أطبقت شهرتهم في مصر أمثال يعقوب صروف، وإسماعيل صبري، وشوقي، وحافظ، وغيرهم ممن على شاكلتهم، ولا يصل إليه ممن دونهم إلاَّ من وثقه اثنان من الأساتذة الأعضاء.

ولم يكن هناك كاتب مشهور لم يغش هذا المجلس، ولا ناشىء إلاَّ وكان يتطلع إلى يوم الثلاثاء الذي قال فيه إسماعيل صبري(٣):

إن لم أمتع بميٍّ ناظريَّ غداً فقد عدوتك يا يوم الثلاثاء

---

(٣) أُنظر: البيت في الأعلام للزركلي، ٢٥٤/٥.

كان هذا المنتدى يجمع ألوان الثقافة المختلفة التي شاعت في مصر في ذلك العهد، فقد كان يختلف إليه المصري والسوري، ذو الثقافة الحديثة وذو الثقافة القديمة، المدافع عن آداب العرب والمتعصب لآداب الغرب. وما من أديب في ذلك الزمن إلاَّ وكان به تطلع إليه فقد كان يختلف إليه طه حسين، والعقاد، والرافعي، ومنصور فهمي، ومصطفى عبد الرازق. فكانوا يلتقون فيه بصروف، وجورجي زيدان، وإسماعيل صبري، وخليل مطران، ومن إليهم من أساطين الفكر وشيوخ الجيل. يقول المرحوم خليل مطران في رثاء مي(٤):

أقفر البيت أين ناديك يا مـ	يّ إليه الوفود يختلفونا
صفوة المشرقين نبلاً وفضلا	في ذراك الرحيب يعتمرونا
فتساق البحوث فيه ضروبا	ويدار الحديث منه شجونا

وليس هذا مبالغة الشعراء، وإنما هو الواقع، صدر عنه مطران وغير مطران في رثاء صاحبة المنتدى أو الصالون كما كانوا يسمونه. لذلك كان أثره بعيداً في الحياة الأدبية، فديمقراطيته ربطت بين الشيوخ والشبان، وألفت بين النماذج الفكرية المتباينة التي قامت عليها الحياة الأدبية في مصر، وطبيعي أن تأخذ الأفكار عند الالتقاء بعضها من بعض وأن يعطي بعضها بعضاً من حيث تدري ولا تدري، شأن المخالطة والاحتكاك، وطبيعي أن تتأثر الأذواق، فيرق منها الجافي ما وسعته الرقة وإزالة الجفاء. يقول طه حسين:

" فأما صالون مي فقد كان ديمقراطياً أو قل إنه كان مفتوحاً لا يرد عنه الذين لم يبلغوا المقام الممتاز في الحياة المصرية، وربما كانوا يدعون إليه، وربما كانوا يُستدرجون إليه استدراجاً فيلقون الناس ويتعرفون إلى أصحاب المنزلة الممتازة، ويكون لهذا أثره في تثقيفهم وتنمية عقولهم ورقيق أذواقهم ".

ويؤكد هذا منصور فهمي بقوله: " ولقد صدق الأديب الكبير فيما ذهب إليه في حديثه عن أثر منتدى مي في تنمية المدارك وترقيق الأذواق، وفي التقريب بين طبقات الناس وبين مختلف أجناسهم ومشاربهم تحت تأثير الفن والأدب ".

---

(٤) ديوان الخليل، نظم: خليل مطران، ٤/ ٢٨٠ (دار المعارف ودار الهلال، القاهرة، ١٩٤٩).

مي ١٣٠٣ - ١٣٦٠هـ
١٨٨٦ - ١٩٤١م(٥)

ماري بنت الياس زيادة، المعروفة بميّ: أديبة، كاتبة، نابغة، قال فيها الشيخ مصطفى عبد الرازق وكان أحد رواد صالونها: " أديبة جيل، كتبت في الجرائد والمجلات؛ وألفت الكتب والرسائل، وألقت الخطب والمحاضرات، وجاش صدرها بالشعر أحياناً، وكانت نصيرة ممتازة للأديب، تعقد للأدباء في دارها مجلساً أسبوعياً، لا لغو فيه ولا تأثيم، ولكن حديث مفيد وسمر حلو، وحوار تُتبادل فيه الآراء، في غير جدل ولا مراء".

كان والدها من أهل كسروان بلبنان، وأقام مدة في الناصرة بفلسطين فولدت بها ماري وتعلمت بمدرسة عين طورة بلبنان، وانتقلت إلى مصر مع أبويها، وكتبت في جريدة **المحروسة** وفي مجلة **الزهور** وأحسنت مع العربية الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية، ولها عدة مؤلفات ومقالات ومحاضرات. منها **باحثة البادية** و **مد وجزر** و**سوانح فتاة** و**الصحائف** و**كلمات وإشارات** و**ظلمات وأشعة** و**ابتسامات ودموع**. ولها شعر بالفرنسية، وعلم بالتصوير والموسيقى.

يقول سلامة موسى(٦): "عرفتها في سنة ١٩١٤م وكانت في حوالي العشرين من عمرها، حلوة الوجه، مدللة اللغة والإيماءة تتثنى كثيراً في خفة وظرف. وكان الدكتور شبلي شميل يحبها ويعاملها كما لو كانت طفلة بحيث كانت تقعد على ساقية، وكان يؤلف عنها أبياتاً ظريفة من الشعر للمداعبة، وما هو أكثر من المداعبة..."

"وقد أطريتها في بعض مقالاتي إطراءً عظيماً... وبقيت أزورها فيجري حديثاً على المستوى الأدبي الرفيع. وكانت مي على ثقافة واسعة في الأدب الفرنسي، وعلى اطلاع للأدب الإنجليزي، وكانت تتحدث باللغة الفرنسية في طلاقة وترطن باللغة الإنجليزية في دلال. وكانت إلى جانب هذه الثقافة النادرة موسيقية على دراية بكبار الموسيقيين. وكان إحساسها الفني دقيقاً. وكانت لذلك تختار الفكرة والكلمة بما يطابق أو يجاري

---

(٥) ترجم لها الزركلي في **الأعلام**، ٥/٢٥٣ - ٢٥٤، وقد خصّها عددٌ من المؤلّفين بكتب ودراسات، منها: كتاب لمحمد عبد الغني حسن عنوانه **حياة ميّ**، وكتاب للدكتور منصور فهمي عنوانه **محاضرات عن ميّ زيادة**، وكتاب **مي زيادة في حياتها وآثارها** لوداد سكاكيني، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩.

(٦) سلامة موسى: **تربية سلامة موسى**، ص ٢٢١ وما بعدها، وص٣٤١ وما بعدها.

الروح الفني. ولم تكن لذلك أيضاً تبالي العلوم. ولم أكن أجد بين الكتب التي حفلت بها مكتبتها كتاباً واحداً في العلم. وكان هذا نقصاً واضحاً في ثقافتها، ولذلك كانت حين تؤلف كتاباً أو مقالاً تكتب بقلبها، بعاطفتها، دون العقل والمنطق. وانعكس فنها على حياتها فعاشت بالعاطفة، بالساعة "التي أنت فيها" دون التفكير في المستقبل، وخاصة هذا المستقبل البعيد حين يذوب الشباب وتحتاج كل فتاة إلى حكمة العقل إذا ما ذهبت عنها حلاوة الوجه. وأهملت الزواج والأمومة إذ كانت لاهية بشبابها تتلألأ أمام أضيافها الكثيرين كل مساء. وكان هؤلاء الأضياف من الباشوات الأثرياء، أو من الأدباء الأثرياء، أو من الأدباء المعدمين. وكلهم كان معجباً وإن اختلفوا في مواضع الإعجاب."

"وكانت مخطئة. وكان خطؤها خطأ الحياة. وكثير من الناس يفهم النجاح على أنه نجاح الحرفة أو الثراء أو الجاه، ولا يفهمه على أنه نجاح الحياة كلها. نجاح الصحة التي نعيش بها إلى يوم الوفاة، ونجاح الفلسفة التي توجهنا في هذه الدنيا، ونجاح الحرفة التي نحصل منها العيش الإنساني، كذلك نجاحنا في البناء العائلي والبناء الاجتماعي."

"لم تفهم مي ذلك، ولذلك ما هو أن تجاوزت الخامسة والأربعين حتى بدأت خطوط الحلقة الخامسة ترتسم على وجهها، وما هو أن أحست أن جمهور المعجبين قد شرع يتناقص حتى ركبها الهم والقلق، بل الخوف والرعب من ذهاب جمالها وذبول حلاوتها. والتفتت كثيراً في هذه الفترة من عمرها إلى التأليف والصحافة، وأجادت، ولكنها كانت تعاني صراعاً داخلياً هو محاولتها الجمع بين أن تكون امرأة جميلة وأديبة عظيمة. وكانت هذه المحاولة فاشلة منذ البداية، وكان يجب عليها أن تتنازل عن عرش الشباب والجمال، وترضى قانعة بعرش الفن والأدب..."

"وبلغت التاسعة والأربعين، وهي سن اليأس عند المرأة التي لم تعرف أن لها ميزة أخرى في الدنيا غير جمالها. وهي سن الحكمة والنضج عند المرأة التي صاغت شخصيتها، واختبرت وعرفت...ولكنها لم تفعل. وابتأست كثيراً، وصارعت المحال."

"وفي هذا الانتقال الذي تمارسه المرأة قبل الخمسين تتزعزع الشخصية بعض الشيء. فإذا رافقها مثل هذا الصراع الداخلي الذي كان يتمزق به قلب مي على

الشباب الذاهب فإن هذا التزعزع يتفاقم، وهذا ما حدث. وقد ماتت أمها التي كانت تؤنسها، فزادت أوهامها وتجسَّمت حقائق مرعبة تمزق أعصابها وتطغى على عقلها."

"وعرف أقرباؤها هذا الحال، وخافوا عليها مصيرها المؤلم إذا بقيت وحدها، فأغروها بالسفر إلى لبنان للنزهة والتفرج، فلما وصلت أدخلوها مقيدة إلى مستشفى أو مارستان، حيث بقيت مدة، عادت بعدها إلى مصر. وسمعت بعودتها. فاتفقت مع صديق لي هو الأستاذ أسعد حسني على زيارتها. عندما دخلت دارها لم أعرفها فقد تغيرت تغيراً كلياً، وذهب ذلك الجمال، وأصبح شعرها أبيض مشعثاً، وكان وجهها مغضناً قد تقاطعت فيه الخطوط. وكان هندامها يبدو مهملاً. وكانت كأنها امرأة في السبعين."

"وقعدنا نتحدث فروت لنا كيف خطفوها من القاهرة إلى مارستان العصفورية في لبنان... ثم شرحت لنا ما كابدته من عذاب في هذا المارستان. وجعلت تلومني لأني لم أسأل عنها. وتدفقت دموعها كما لو كانت ميازيب. وجرى بكاؤها في تشنج كأنها كانت تتلذذ. ثم هدأت وأشعلت سيجارة، وجعلت تنفخ دخانها عليّ مداعبة لأني أكره الدخان. وهنا استولى عليها طرب فشرعت تضحك كما لو كانت تتشنج بالبكاء.

"وتكرر هذا منها، ضحك فبكاء، ثم ضحك فبكاء. مع إسراف في الاثنين. وهذا نوع من الجنون يسمى "مانيا" يقع لكثير من الانبساطيين."

"ثم كررت لها الزيارة. ودعوتها لإلقاء محاضرة في جمعية الشبان المسيحية فلبت الدعوة، وحضرت، وألقت محاضرتها وهي على أحسن ما كانت من الرصانة والتفكير... ولكن المرض لم يكن قد فارقها... فقد دعتني الظروف إلى الاغتراب عن القاهرة نحو شهر، فلما عدت قرأت نعيها في الصحف، سبعة أو ثمانية سطور في عمود الوفيات هي كل ما بقي عن مي بعد موتها."

هذا ملخص ما كتبه سلامة موسى في كتابه تربية سلامة موسى. والواقع أن الحديث عن مي شيق، ومي كانت تشغل الصحف والأندية والمجالس، ويتحدث عنها كبار الأدباء والكُتّاب في أول وجودي في مصر، وكانت تلك الأيام في ناديها وهو الوحيد

الباقي من الأندية والصالونات، وكنا نسمع أخبارها مع الرافعي، وكان يُقال أنه يكتب إليها رسائله.

ومي أهل لأن يتحدث عنها وأن يطول عنها الحديث، فإنها لم تأخذ حقها، وأتت خاتمة حياتها مأساة لم تجد من يأخذ بيدها، ويعزيها، ويواسيها. وقول سلامة موسى إن مي لم تكن تعنى بالعلوم، وأن مكتبتها لم يكن بها كتاب واحد من كتب العلوم، وانها كانت تعيش بقلبها وتكتب بعاطفتها، لذلك آل وضعها إلى ما آل إليه، ليس من الحقائق الثابتة، وليس هذا الحكم صحيحاً، ولا دخل للعلم والمنطق في هذا. وإنما مذهب سلامة موسى الدعوة إلى العلم، والأخذ منه بحظ وافر، وكل من ليس له حظ من العلوم أو من علم من العلوم هو في نظره غير مثقف الثقافة الحقيقية. هذا حكم قاسٍ، وغير صحيح.

وإنما الذي حصل مع مي أو يحصل مع الكثير من الجميلات المغرورات بجمالهن، أن كثيراً ما تترفع الواحدة منهن عن الزواج بأي شخص، فيفوتها القطار ولا تتزوج. والمأساة في تاريخ مي أنها فقدت أباها ثم أمها، ولم يكن أحد يسليها، ويواسيها بعد فقدان أمها، وانفض الكثير ممن كان يزورها، وأغلق صالونها، ولم تكن تحسب هذا الحساب فصدمت وحصلت النكبة. رحمها الله.

وقد قالت المرحومة هدى هانم شعراوي في تأبينها: " كانت مي المثل الأعلى للفتاة الشرقية الراقية المثقفة ".

ويقول الأستاذ ميخائيل نعيمة في **الغربال**(٧): "عندما تتحفنا مي بقصيدة منثورة نتلوها فنطرب، وعندما تفاجئنا ببحث انتقادي دقيق نطالعه ونعجب... ".

وقد كتب عن مي الأستاذ محمد عبد الغني، والدكتور منصور فهمي، والدكتور جميل جبر، وآخر من كتب عنها السيد محمد هاشم **الرافعي ومي** (٨). وانها لتستحق أن يكتب عنها الكثير الكثير، فإنها كانت فريدة من نوعها في ذلك العصر.

عندما أُغلق صالون مي انتهى عهد الصالونات، وحتى عهد المجالس والمنتديات، وأصبح الكتاب يجتمعون في مكاتب الصحف، والمجلات، وقد أدركنا **الهلال**، و**المقتطف**،

---

(٧) الغربال، ميخائيل نعيمة، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ط٦، ١٩٦٠، ص ١٧٨.

(٨) الرافعي وميّ، ومؤلفه عبد السلام هاشم حافظ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، ١٩٦٤.

والسياسة الأسبوعية، والرسالة، والثقافة، وجريدة البلاغ، والجهاد، وكنا فئة من الطلاب نغشى ما يتيسر لنا من مكاتب هذه الصحف، ونتسقط أخبار الكتّاب والأدباء بقدر ما يمكننا.

هذه نبذة موجزة عن المجالس والأندية والصالونات، وقد أطلت الحديث عن صالون مي، ومي بالذات لأننا أدركناه، وكان حديث مي وصالونها ملء الأسماع، وفي جميع المجالس، وكان الرافعي – رحمه الله – من الذين وقعوا في غرامها، وكتب عدة رسائل ومؤلفات، ومقالات عنها، حتى صدر كتاب عن الرافعي ومي...

- ٢٨ -
[سلامة موسى]

في هذه الفترة كان الجدل يُثار حول عدة موضوعات منها: هل نبقى على لبس الطربوش أم نلبس البرنيطة، وكان لكل فريق أنصاره ومؤيدوه، فكان من أنصار الطربوش المرحوم مصطفى صادق الرافعي، وكتب مقالاً مطولاً في مجلة **الهلال** يدعو فيه إلى التمسك بلباس الطربوش لأنه لباس قومي، ومن تراث الآباء والأجداد، ولهذا يجب المحافظة على التراث القومي والتمسك به إلخ...

وكان من أنصار القبعة توفيق الحكيم ومحمود عزمي وسلامة موسى وغيرهم، وكتب على ما أظن توفيق الحكيم يناقض الرافعي، ويحبذ لبس القبعة، وثار جدل كبير حول هذا الموضوع.. وكنا نقرأ لهذا وذاك ونتتبع الموضوع باهتمام بالغ. وأنا بالطبع وبحكم البيئة التي أعيش وسطها، ودراستي الأزهرية كنت مع الرافعي وأنصاره، وكنا نتعصب له ونلوم أولئك المتفرنجين، ونعدهم من المارقين الهدامين، ومشايخنا يشجعوننا على ذلك، ومحيطنا كله معبأ بتلك الأفكار، ولم يكن يدور بخلدنا أنه سيأتي يوم ينتهي به دور الطربوش وغيره من لباس الرأس، وانتهينا من وجع الرأس. والذي يرجع إلى **الهلال** وغيرها من المجلات ما بين سنة ١٩٣٤ و ١٩٤٠م يجد الكثير من الحوار والمجادلات في هذه المواضيع الفارغة.

وكان الجدل يُثار حول الكتابة العربية واستعمال الحروف اللاتينية، وكان يتزعم هذه الحركة عبد العزيز فهمي باشا، وكان يشايعه بعض الكُتَّاب، وكانت الجرائد والمجلات تحفل بالعديد من المقالات والمناقشات، وكانت هذه الدعوة شديدة الوقع علينا، ولم نكن نستسيغها بحال من الأحوال. وكانت دعوة خطيرة جداً، فإنها لو نجحت أو لاقت إقبالاً، لكانت من الأمور القاضية قضاءً تاماً على اللغة العربية، ولكنها ولدت سقطاً وماتت نهائياً، حتى إن كثيراً من الداعين إليها رجعوا عنها ومنهم الكاتب الجرىء "سلامة موسى".

وسلامة موسى هذا كان من الكُتَّاب الموضوعين على القائمة السوداء عندي وذلك لضيق الأفق، والتزمت الذي تربينا عليه، وكنا ننعته بالملحد، الهدام، والشيوعي إلخ...

وبقيت على هذا الاعتقاد مدة طويلة إلى أن بدأت أتحرر وأقرأ كل ما استطعت قراءته مما وصل إلى يدي؛ وذات يوم رأيت مع صديق لي كتاباً بعنوان **تربية سلامة موسى** فأخذته منه وقرأته فأعجبني أسلوبه، وصراحته، وحديثه عن تربيته ونشأته.

وعدت بعد ذلك أقرأ ما كتب سلامة موسى فقرأت من كتبه: **هؤلاء علموني، التثقيف الذاتي، دراسات سيكولوجية، مقالات ممنوعة، الإنسان قمّة التطور، حياتنا بعد الخمسين**، وغيرها... وإذا بي أعجب بهذا الكاتب وأتابع قراءة بقية ما كتب. وإذا به يدعو في الثقافة إلى تحرير الفكر الشرقي، وفي الأدب إلى سعادة الحياة وتقدمها، وهمه من الكُتّاب أن يكتبوا بأسلوب عربي سهل سليم، ويجب على الصحافة أن تعلم الشباب، وتربي جيلاً جديداً.

وكان في دعوته مثالاً للجرأة والصلابة والتحدي والصبر، لذلك لقي خصومات جلبت عليه المحن والآلام والعذاب. ولكنه صبر على ذلك كله صبراً عجيباً، وكافح وناضل حتى رأى بعينيه في بلاده بعض ما كان يصبو إليه.

وكان كما يقول صديقه محمود الشرقاوي: " وكان يكدح في سن السبعين كل يوم ليجد نفقات بيته وتعليم أولاده. وقد حدثني في آخر عمره أنه شاهد الفقر، وأحس بالجوع.. مع أنه ورث عن أبيه مالاً غير قليل. وكان ذلك الذي لقيه في سبيل دعوته التي آمن بها ونافح عنها... ومع هذا الشقاء الذي لقيه في حياته كلها، كانت دعوته تفيض بالأمل، وكان حديثه يفيض بالتفاؤل والسعادة والغبطة... وكان شعاره قول رامبو "العالم طيب.. إني أبارك على الحياة".

" وكنت تلقاه في أي وقت، وعلى أية حال، فتجده هادئاً راضي النفس. إذا شكا كانت شكواه من الخصومة الظالمة التي تلقاها دعوته، وإذا تألم كان ألمه من الضيق في حريته لا من الضيق في ماله وعيشه ".

" شغل كثير من الناس أنفسهم بالبحث عن عقيدته ومذهبه ودوافعه: بعضهم يقول إن عقيدته الهدم والتهجّم، ولكن قومه أنفسهم كان كثير منهم خاصة كبارهم في السن لا يحبونه، ويتحدثون عنه بمثل ما يتحدث به الآخرون ". يقول: " إن عقيدته وإيمانه لم يكونا شيئاً سوى الفكر مع إيمان ذاتي. وصوفية خاصة. كان يحب المسيح،

ويجل محمداً، ويحترم موسى، يتأثر ببوذا وتولستوي وغاندي وماركس. ولكن دينه هو العقل، البصيرة والإحساس المحيط العميق بالحياة والكون وما فيهما من شمول وعظمة ودقة وحسن تدبير، وحرص على غاية، ودأب إلى هدف ".

وأحسن صورة موجزة أعطاها له صديقه الشرقاوي هي قوله: " كان سلامة موسى لا يستطيع أن يكسب الأصدقاء، ولكنه كان يكسب المحبين... وبذلك عاش سلامة موسى بين ثلاث طوائف من الناس: قليلون عارفون محبون، وكثيرون مصدومون كارهون، وأكثرون سمعوا من هؤلاء فكرهوا، متابعين، وانصرفوا ساخطين... ".

وخلاصة دعوة سلامة موسى أنه كان يدعو إلى استعمال العقل واحترامه، وترك هذه الاتكالية والفوضى في حياتنا، والدعوة إلى الاتجاه العلمي والصناعي، والاقتباس من الغرب، وأخذ ما هو جيد ونافع. وكان لا يرى أن يعيش إنسان خلواً من تديّن. فقد دعي لإلقاء محاضرة في ذلك فيجعل عنوانها : **الدين ضرورة من ضرورات الإنسانية**، ويذكر فيها كلمة "بلاتارك" المؤرخ الإغريقي صاحب كتاب **العظماء**: ويقول معه: إن التديّن هو طبيعة النفس البشرية، وأنه "إذا تغلّب النظر الآلي للحياة على النظر الروحي، أي تغلبت المادية على الصوفية، كان في ذلك خراب الأخلاق". ذلك لأن الأخلاق إذا لم تستند إلى صوفية دينية تتجاوز منطق العقل وترتفع إلى ما نسميه البصيرة، لم يعد لها ما تستند إليه سوى المادة... فأنا أشعر بأني أريد أن أستقر على علاقة حسنة بيني وبين هذا الوجود. ومثل هذه العلاقة لن تتحقق إلاّ إذا نظرت نظراً دينياً صوفياً أستعين به ببصيرتي على عقلي إذا لم يواتني عقلي على الاهتداء إلى الحقيقة. ومن هنا أشعر بأن الدين حاجة من حاجات نفسي".

ثم يقول مستدلاً برأي العالم الطبيعي الإنجليزي "جيمس جانز" الذي يقول: (إننا نجد في هذا الكون ما يدل على وجود قوة تضبطه وتدبره). كذلك يقول: " إن الدين ضرورة إنسانية إذا غابت عنا شعرنا بالقلق النفسي وغابت عنا عندئذٍ السعادة والاستقرار والتفاؤل "..........................

-٢٩-

[قصة دخولي الوزارة]

بدأت قصة الوزارة في النصف الثاني من شهر كانون الثاني في السنة الماضية ١٩٦٢م:

بينما كنت جالساً في مكتبي بديوان قاضي القضاة، وكنت مديراً للشرعية منقولاً من وزارة التربية مغضوباً عليّ، زارني في صباح أحد الأيام الأخ الكريم السيد عبد الوهاب المجالي، وفاتحني بحديث غريب جداً وهو تشكيل وزارة من عناصر جديدة، وأن أكون أنا وهو أحد أعضائها، فاستغربت هذا الحديث أشد الاستغراب، وقلت له: أظن أنك غلطان أو أنك تمزح. فقال: أنا أتكلم بكل جد، ولست مازحاً، وأنا مكلّف بأن آخذ رأيك فما تقول ؟ قلت له: أنا مغضوب عليّ ونُقلت من وزارة التربية والتعليم إلى الشرعية لأني ضد الوضع – وهذا تعبير شائع في محيطنا – فكيف أُكلف بأن أكون وزيراً؟ وكيف تحسنت سمعتي بين عشية وضحاها، وهل جلالة الملك يرضى بذلك؟ فقال: اسمك في رأس القائمة والأمر متوقف على قبولك. قلت له: ومن هم الوزراء؟ قال: هناك قائمة ستطلع عليها والباب مفتوح لمن تقدمه من أسماء، وإذا وافقت تفضل لنذهب إلى نادي عمّان ونقابل السيد وصفي التل وعنده الخبر اليقين. فقلت له: على بركة الله.

وسألنا عن السيد وصفي فلم نجده، فقال الأخ عبد الوهاب: إذاً نحن متفقون وسأتصل بك في موعد قريب لنجتمع مع السيد وصفي. وودعني وذهب، وبقيت أفكر في الأمر، وأنا لا أدري ماذا أصنع. ومضى ذلك اليوم واليوم الذي بعده ولم أر احداً، وفي الثالث وأظنه كان يوم جمعة وإذا بجرس التلفون يقرع وإذا المتكلم السيد محمد عودة القرعان من بيته، فرحبت به وظننت أنه يريد أن نذهب إلى مكان نتفسح كالعادة، وإذا به يدعوني إلى الغداء، فقلت له: خير.. لماذا هذه الغلبة؟ فقال: عندي بعض الإخوان فأرجو أن تحضر لنتغدى غداءً بسيطاً مستعجلاً. فذهبت وإذا عنده السيد وصفي التل، وعبد الوهاب المجالي والدكتور عبد السلام المجالي. وسلمنا على الإخوان ولا سيما وصفي فقد مضت عليَّ مدة طويلة لم أره حيث كان في السلك الخارجي. وجلسنا وأخذنا بأطراف الحديث وتشعبت الآراء وتناولنا شتى الموضوعات. وبعد الغداء اتفقت

مع وصفي أن القاه في نادي عمّان صباح الغد، وفعلاً ذهبت إلى نادي عمّان صباح اليوم التالي ومكثت معه طوال ذلك اليوم. تحدثنا في شتى المواضيع واستعرضنا الأسماء التي دونها وصفي معه، وأضفت بعض الأسماء، وفي المساء ودعته على أن ألقاه بعد جولة سيقوم بها في الضفة الغربية ويجتمع مع الأشخاص الذين اتفقنا عليهم، وعلى أن يتصل بي بعد عودته.

[انتهت المذكرات]

[القسم الثّاني]

الرّحلات

"السَفر أيها السادة أعظم كتاب يُعلّم الإنسان ويثقفه، ويوسّع أفقه، ومنه يطلّ على هذا العالم الكبير الواسع، ويرى مختلف العادات، ويسمع الكثير، وينظر إلى هذا الإنسان وكيف تطورت حياته، وكثُرت مطالبه، وكيف تمايزت الأمم، وتغاربت العادات واختلفت الطباع، ولكن مهما قيل في هذه الفروق، وتلك الاختلافات فإن الإنسان يظلّ هو هو؛ يحسّ ويفرح ويتألم ويحزن ويُسرّ.."

(الشيخ إبراهيم القطّان)

رحلات الشيخ إبراهيم القطّان
نظرة عامّة

بقلم: كايد هاشم

للرّحلات والأسفار في سيرة سماحة العلاّمة الشيخ إبراهيم القطان (١٩١٦ – ١٩٨٤م) حضور متوهِّج؛ ربما كان مبتداه في أسفار جدّه لأبيه "الحاج إبراهيم"؛ التّاجر الدمشقيّ الطيّب، الذي حدثنا عنه في سياق المذكرات، والذي أمضى سنوات طويلة من حياته في رحلات التجارة وطلب الرزق؛ متجولاً بين دمشق وبغداد ونجد والحجاز، إلى أن استقرّ بهِ النوى في عمّان بشرقي الأردن في أواخر القرن التاسع عشر.

ولعل هذا التوهّج كان أشدّ سطوعاً في سيرة الشيخ حينما كانت والدته تصطحبه وهو ما يزال في سني الطفولة لزيارة الأقرباء والأهل في دمشق، حيث تعلّق قلب الطفل بحب المسجد الأموي الذي عَرِفَ عنه قبلاً بعض المعلومات من كتاب مدرسي، وأصبحت زيارات دمشق والتجول في أسواقها وحاراتها العتيقة منذ ذلك الحين حلماً متجدّداً في نفسه مدى العمر وعلى كثرة زياراته لها فيما بعد، سواء خلال عهد الصبا والشباب، أو في مرحلتي الكهولة والشيخوخة.

ويمثل ذلك كان حاله، وهو في مطلع شبابه، يوم ذهب لأول مرّة إلى الشوبك – جنوبي الأردن – لزيارة والده، قائد مخفر هذه المنطقة الأردنية – ذات الطبيعة الساحرة والجمال الأخاذ، وبقي فيها أكثر من شهر يسرح في جبالها وأوديتها وسهولها، تارة وحده، وأكثر الأوقات مع صديق عمره الشاعر والأديب إبراهيم المبيضين الذي تعرف إليه هناك. وفي خلال هذه المدة تمكّنت في نفسه نزعة الترحال والاكتشاف، لا سيما بعد أن رافق بعض الجنود في رحلة إلى مدينة معان وإلى عاصمة الأنباط القديمة "البتراء"، وقد غدا منذ ذلك الوقت مغرماً بالبتراء وبدراسة آثارها وتتبع تاريخها، شأنه شأن كل من وقع في عِشق هذه المدينة العجيبة المنحوتة في الصخر الملوّن، والتي تبدو لزائرها وكأنها قدّت من الأساطير وتمثّلت بهيئة صبيّة بهيّة الجمال، ورديّة الثّوب، لا تهرم على تعاقب الدهور.

وكأني به في حديثه عن "رحلة البتراء" في مذكراته يجدّد عهد اكتشافاتها الأول في العصر الحديث (١٨١٢م)؛ على يدي الرّحالة السويسري يوهان لودفيج بيركهارت (١٧٨٤ – ١٨١٧م) أو كما سمى نفسه بعد اعتناقه الإسلام "الحاج ابراهيم المهدي"... وسميه "الشيخ إبراهيم القطان" شديد الإعجاب به، فقد أفرد لهُ في مذكراته صفحات مطولة اقتبس فيها بعض ما دونّه (بيركهارت) عن عمان وسائر رحلاته في شرقي الأردن، وأورد ترجمة لحياته لم يورد بمثل تفاصيلها ترجمة لأحد من الذين تحدث عنهم في المذكرات، باستثناء ما كتبه في ترجمة أُستاذه وشيخه العلامة محمد الخضر الشنقيطي، وصديق الدراسة في الأزهر الشيخ علي سالم عطية البجلي اليمني. وهذه الأخيرة أيضاً قصة "رحلة" في طلب العلم، تكاد تكون فعلاً "من قصص الخيال"، فقد بدأت كرحلة حج من قرية صغيرة في تهامة إلى مكة لجماعة من البسطاء، ومنهم "البجلي" الذي شاء القدر له أن يتعلّم خلال هذه الرحلة قراءة القرآن الكريم، وبعد الحج في مكة والإقامة في المدينة المنورة يأتي بيت المقدس، ثم عمّان ويقيم فيها، ثم ينتسب إلى الأزهر مع صديقه الشيخ "القطان" ويذهبان معاً إلى القاهرة، فيمضي سنوات الدراسة فيها ويقيم لبعض الوقت.. إلى أن يمضه الحنين إلى بلاده، فيعود إليها عالماً أهلاً للولاية، بعد أن خرج منها أمياً لا يقرأ ولا يكتب!

وكانت الرحلة إلى مصر والدراسة في الأزهر والإقامة في القاهرة من المعالم البارزة في "سيرة رحلات الشيخ"، ومن أهم مفاصل حياته وأوعية تشكُّل شخصيته، وتكوينه الثقافيّ والفكريّ، خاصة أن القاهرة التي عرفها الشيخ في ذلك الحين هي قاهرة "الزمن الجميل" – كما يحلو للبعض أن يسميها في هذه الأيام – بعمرانها ومظاهر الحضارة المبهرة فيها، وبصحفها ومجلاتها ومنتدياتها، ومنابر وألوان الثقافة والفكر والفن والأدب المائجة فيها آنذاك.. وغير ذلك من صور حركة الحياة في مدينة كانت عند الشيخ القطّان مدينة "الحلم الأجمل".

على أي حال، فإن قراءة رحلات الشيخ إبراهيم القطان التي يشتمل عليها هذا القسم.. تبدأ من هناك، من "المذكرات"، وتمتد إلى رحلاته التي كتبها وجمعنا بعض ما كتبه عنها هنا، ولم نعثر على الباقي؛ إذ أن الشيخ كتب أكثر مما جمعنا؛ فإن أعماله وسفاراته المتعدّدة تنبيء بأنه كان كثير الأسفار، لا يمر عام أو بعض عام إلاّ

ويرحل إلى هنا أو هناك. وإذا علمنا مع هذا مقدار ولعه بالرحلات والإطلاع والتثقّف بالسفر لأدركنا أن نصوص الرّحلات في هذا الكتاب هي "البعض" وليس "الكل". وعسى أن تفسح لنا الأيام الفرص لاستكمال ما بدأنا به حتى تكتمل "سيرة الأسفار" هذه وصورتها في مرآة الأدب المعاصر.

وبنظرة إجمالية فإن هذا القسم يحتوي على فصول تسعة، اجتهدنا في ترتيبها بحسب التسلسل التاريخي للرحلات، وهي:

١ - رحلة إلى الكويت، ولمحة عن إمارات الساحل الشرقي للجزيرة العربية (١٩٥٣م):

وهي رحلة شملت في الأصل بغداد والحلّة والكوفة والنجف وكربلاء والبصرة، إضافة إلى الكويت. إلاّ أن الشيخ القطّان اقتصر في محاضرته التي ألقاها بعمّان بعد عودته على حديث رحلة الكويت وتاريخها وأحوالها ونهضتها، إضافة إلى لمحات عما قدمه هذا البلد العربيّ من مساعدات تعليميّة لإمارات الشارقة وعجمان ورأس الخيمة ودبي وأم القيوين وقطر وأبوظبي والبحرين ومسقط والجبل الأخضر؛ إذ يختتم محاضرته بنبذة وجيزة حول أوضاع التعليم في هذه الإمارات اعتماداً على تقرير أعدّه مدير معارف الكويت الذي أوفدته حكومتها إلى مناطق الساحل الشرقي للجزيرة العربية بهدف دراسة حالتها الثقافية والعلمية.

ويذكر أن الشيخ كان يقدم أغلب رحلاته على شكل محاضرات كما سيلاحظ القاريء في معظم الفصول المدرجة هنا.

مما تجدر الإشارة إليه هنا أن الشيخ إبراهيم القطان عاد إلى الكويت في سنة ١٩٥٤م في رحلة تالية. ثم عاد إليها سفيراً للأردن من أواسط تموز ١٩٧٣م إلى نهاية آذار ١٩٧٤م.

٢ - يوميّات رحلة إلى الجزيرة والخليج العربي (١١ نيسان/ إبريل إلى ١٥ أيار/ مايو من سنة ١٩٥٤م): وهي رحلة وفد رسمي ابتعثته الحكومة الأردنيّة إلى المملكة العربيّة السعوديّة وثلاث دول أخرى من دول الخليج العربي، هي إمارات: الكويت؛

والبحرين؛ وقطر، بغرض الدعوة للمشاركة في حملة تبرعات تستهدف إعمار قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى في بيت المقدس.

وضمَّ الوفد ثلاثة من أعيان علماء الشرع في الأردن وفلسطين هم: سماحة الشيخ عبد الله غوشة، الذي كان رئيساً للهيئة العلمية الإسلامية وقاضياً للقضاة؛ وسماحة الشيخ محمد علي الجعبري، رئيس بلدية مدينة الخليل، ووزير التربية والتعليم والعدلية لاحقاً؛ والشيخ القطّان، الذي كان حينذاك أحد كبار مفتشي العلوم الدّينية واللغة العربية في وزارة التربية والتعليم. وقد سجَّل وقائع هذه الرحلة بتفاصيلها وتواريخها في كراس مجلَّد، بخط يده، وبصورة يوميات متتابعة بدأها في أول أيام السفر وتوقَّف بها عند اليوم الأخير (في مكة) قبل العودة إلى الأردن. وأدرجنا، هنا، النّصّ الكامل للرحلة كما هو في أصله المخطوط إلا من عناوين فرعية، وبعض علامات الترقيم أضفناها لتسهيل مطالعة النّصّ والرجوع إليه كونه أطول فصول هذا القسم.

ويتضمَّن وصف الرحلة معلومات فريدة ووثائقيات مهمّة عن أحوال الحياة والناس في تلك الأجزاء من الوطن العربي في بدايات نهوضها الحديث، عدا عن وصف لقاءات الوفد مع حكام الجزيرة والخليج وأحاديث هـؤلاء حول قضية فلسطين والمقدسات والشأن العربي والإسلامي عموماً، وكذلك اللقاءات مع الشيوخ وكبار الشخصيات العربية الخليجية في تلك الفترة.

٣ - **رحلة مصر وبلاد النوبة (كانون الثاني/ يناير ١٩٦٠م)**: ذهب الشيخ القطّان إلى القاهرة في هذه الرحلة موفداً من وزارة التربية والتعليم الأردنية للمشاركة في أعمال الدورة الرابعة عشرة للجنة الثقافية فيها، التي كان يرأسها الدكتور طه حسين.

وكان من ضمن المواضيع والأبحاث المدرجة على جدول اجتماعات اللجنة "إنقاذ آثار النوبة" في جنوبي مصر التي كانت مهدَّدة بالانغمار في مياه السد العالي. وإتماماً للبحث نظّمت مصلحة الآثار المصرية رحلة للمشاركين في دورة اللجنة الثقافية إلى منطقة الآثار في النوبة؛ فسافروا من القاهرة إلى أسوان بالقطار، ومن أسوان إلى الجنوب بباخرة صغيرة، واستغرقتهم الرحلة في النيل أسبوعاً بأكمله. ويصف الشيخ القطان مشاهداته في آثار النوبة ومعابدها ونقوشها ورسومها كعادته في الوصف

المفصل الذي يكاد يريك الموصوف من خلال الكلمات، مع إشارات تاريخية منتقاة تعين على رسم المشاهد وتصورها على أقرب ما يكون التصور.

٤ - **رحلة إلى "المغرب الإسلامي العربي" (تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٠م)**: كانت سفارة الشيخ القطّان في المملكة المغربية هي أطول سفاراته من حيث المدة الزمنية؛ إذ أمضى فيها ما يقارب الأعوام الستة (١ آب ١٩٦٧م إلى آخر آذار ١٩٧٣م)، وذكريات تلك الفترة ظاهرة بشغف في مذكراته، عدا عن أن هذه الفترة شهدت توفره على وضع أهم آثاره العلمية: (تيسير التفسير) الذي بدأه - كما يقول - في الرباط سنة ١٩٦٨م، و(عثرات المنجد في الأدب والعلوم والإعلام) المطبوع سنة ١٩٧٢م.

أمّا زيارته الأولى للمغرب الأقصى فقد سبقت سفارته بنحو سبعة أو ثمانية أعوام وكانت لحضور احتفالات هذه المملكة بمرور أحد عشر قرناً على تأسيس جامع القرويين بمدينة فاس، وهو ما يسجّله في هذه الرحلة التي تشتمل على وصف للاحتفالات ولمحات عن تاريخ فاس والقرويين وطرائف العادات والتقاليد الشعبية، ثم ينتقل للحديث عن نهضة التعليم العالي والبحث العلمي في المغرب وأهدافها، وجولاته في الرباط وطنجة وضواحيها، وتطوان وما حولها، ثم مكناس، ومولاي إدريس، ومنطقة زرهون وإفران وفاس. ويعقد الجزء الثاني من حديث الرحلة لتاريخ الإسلام في المغرب من خلال سرد أسماء وفترات حكم الأسر المالكة المسلمة على مرّ العصور. ولا يفوته أن يذكر لمحات من معالم الكفاح الوطني الطويل للشعب المغربي والأسرة المالكة في سبيل الاستقلال وحرية المصير. ثم شيئاً عن جغرافية البلاد المغربية وثرواتها ومواردها الطبيعية وخطوط المواصلات والنقل فيها، وتقسيماتها الإدارية، وصحافتها، ونهضة المرأة فيها. ويعرف بعد ذلك بمدنها الكبيرة ومعالم الحضارة والجمال في ربوعها؛ مما شاهده وسمعه، ومما استقاه أيضاً من المصادر المكتوبة.

وقد انتهت رحلته في طنجة التي أبحر منها إلى جبل طارق في طريقه إلى الأندلس موضوع المحاضرة التالية.

٥ - **رحلة الأندلس (١٩٦٠م)**: اغتنم الشيخ القطّان زيارته المشار إليها إلى المغرب، ليكمل الرحلة إلى الأندلس التي كانت "أمنية غالية" لديه من أول ما وعى وقرأ أخبارها

وسمع عنها، ورأى شيئاً من رسومها".. فمن ممر جبل طارق اتخذ طريقه إلى جزيرة طريف، ثم سافر بالقطار الى غرناطة حيث "قصر الحمراء" الذي قدم الشيخ القطان وصفاً مفصلاً له ولهندسته والأبنية الملحقة به وحديقة "جنة العريف" وتاريخ بناء هذه المعالم التاريخية الآسرة فناً وروعةً وجمالاً عبقرياً؛ استغرق نحو ثلثي ما كتبه عن رحلته تلك.

ثم حدثنا عن زيارته لإشبيلية وآثارها الباقية. وفي الخاتمة إشارة إلى عبرة خروج العرب من الأندلس وزوال حضارتهم فيها بسبب انقسامهم على بعضهم، وتفرق كلمتهم.. ما تكرَّر في عصرنا الحالي وأدى إلى وقوع كارثة فلسطين!

٦ - **رحلة إلى المانيا الغربية (حزيران/ يونيو ١٩٦٤)**: جاءت هذه الرحلة بدعوة من مؤسسة (DAAD) الألمانية للتبادل الثقافي، واستغرقت شهراً بطوله. ويبدأها الشيخ القطّان بالحديث على جمال طبيعة تلك البلاد وثرواتها الزراعية والصناعية، وقدرة الشعب الألماني على تحمل الصعاب بعد حربين عالميتين واجههما في القرن العشرين، ونهوضه بعد ذلك ببلاده "من السفح إلى القمة في الرخاء الاقتصادي، (واستعادة المانيا) مكانتها بين الأمم الكبرى".

ثم ينتقل للحديث على تقسيمات أراضيها التي فُرضت عليها من قبل الحلفاء والروس بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية، بما في ذلك تقسيم برلين.. إلى أن ينتهي الحديث في هذه النقطة عند الإشارة إلى هدف ألمانيا القومي في توحيد أجزائها بالوسائل السلمية، وفي ظل الحرية، وهو ما تحقَّق في مطلع التسعينيات من القرن الماضي.

وفي جزء تال من الرحلة "المحاضرة" يحدثنا حول نظام الحكم في المانيا الغربية، والدستور الألماني، والمؤسسات التشريعية، والأحزاب.

شملت رحلة الشيخ هذه جولات بين بون وكولون وآخن وميونيخ وبرلين (الغربية) وهامبورج وشتوتغارت وهايدلبرج، وغيرها من الأماكن. وهو في كل مكان يذهب إليه يبدو معجباً مؤكداً على أن نهضة ألمانيا الحديثة إنما هي بسبب إنسانها وانصرافه إلى الجد والعمل والنشاط، وكذلك نتيجة للحرية الاقتصادية.

٧ - **رحلة إلى اليمن (تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٤)**: ذهب الشيخ القطّان إلى اليمن في بعثة أوفدتها جامعة الدول العربية للاطلاع على أحوال الجنوب العربي ودراسة مشكلاته للمساعدة في حلها، وكانت صفة البعثة إنسانية وليس سياسية؛ إذ تكونت من ثلاثة مندوبين لجمعيات الهلال الأحمر في كل من: الأردن؛ والجزائر؛ ومصر؛ فضلاً عن مندوب الجامعة العربية.

وزارت البعثة التي انطلقت من القاهرة كلاً من صنعاء وتعز، وعقدت اجتماعات مع أهل الجنوب واطلعت على معاناتهم جراء الاحتلال البريطاني، وأعدت تقريراً مفصلاً عن الأحوال التي يعيشونها وتفاصيل الرحلة. ولحسن الحظ وجدنا ضمن أوراق الشيخ نصّ هذا التقرير كاملاً الذي تم رفعه للجامعة العربية، وأدرجناه عقب مذكرات الرحلة.

٨ - **رحلة إلى إندونيسيا (آذار/ مارس ١٩٦٥)**: سافر الشيخ القطّان إلى إندونيسيا في وفد حكومي لحضور أعمال المؤتمر الإسلامي الآسيوي الإفريقي الذي انعقد في باندونج آنذاك. وكانت مناسبة المؤتمر حافلة بالزيارات للعديد من المدن والمناطق الأندونيسية بما تحتويه من معالم وآثار ومظاهر حياة وعادات وتقاليد. ولم يدخر الشيخ سانحة للحديث عنها وتصوير انطباعاته حولها بكثير من التجلي والتذوق الرفيع لمظاهر الجمال، ومع حديثه حول مناقشات المؤتمر يصف لنا سياحة مشوقة في تلك الربوع الغناء ومنها الجزيرة السياحية الساحرة بالي والاحتفالات التي شهدتها وفود المؤتمر، فضلاً عن أحاديثه حول الفنون الجميلة في تلك البلاد، والرقص القومي ومعانيه، والموسيقى والغناء، والرسم والحفر، ثم يتناول مظاهر الحياة العصرية فيتحدث حول الأحزاب الأندونيسية، والصحافة، والدين والحياة والمعالم الدينية.

٩ - **من رحلة الهند (؟)**: ضمن أوراق الشيخ القطّان عثرنا على بضع ورقات سجّل فيها بعض مشاهداته في الهند، ولم نعثر على تاريخ مثبت لهذه الرحلة أو بداية لها.. وربما تكون خاتمتها أيضاً ناقصة. وقد آثرنا أن نضعها في "سيرة هذه الأسفار" كما هي عسى أن تكشف لنا الأيام ما غاب عنّا من أجزاء هذه الرحلة.

يصف الشيخ في نُبذ مقتضبة مدينة أجرا ومعلمها التاريخي الشهير "تاج محل"

والقصر والقلعة بداخله، ثم ينتقل للحديث حول مدينة "فتح أكبر زكري" ومعالمها الإسلامية الكبرى.

يبقى أن نقول أن هذه الرحلات فيها إضافة جدّ قيمة لهذا اللون الأدبي (أدب الرحلات) في الأردن الذي توهم البعض أن نصيبه قليل من ثمرات الأقلام؛ فيما الواقع والخزائن والأدراج حافلة بنصوص وتسجيلات منه تحتاج إلى شيء من الاهتمام والالتفات لتخرج إلى جمهور القراء والدارسين والنقاد ومؤرخي الأدب.. من جديد؛ فيعيدوا تشكيل ملامح هذا الجانب المهم من العطاء الفكري الأردني في صورة الأدب العربي المعاصر.

الكويت

[ولمحة عن إمارات الساحل الشرقي للجزيرة العربية]

(١٩٥٣م)

أيها السيدات والسادة،

كنت أحب أن أتحدث إليكم عن رحلتي بالتفصيل، وهي تشمل بغداد والحلة والكوفة والنجف وكربلاء والبصرة والكويت. ولكني وجدت أن الحديث سيطول، والوقت ضيق لا يتسع لهذا كله، فقصرت كلامي في هذه المحاضرة على إمارة الكويت بشيء من التفصيل، ولمحة خاطفة عن بقية المحميات الواقعة شرق الخليج العربي الذي يسمونه عندنا "الخليج الفارسي" وهي تسمية مغلوطة، لأن تلك المناطق تكاد تكون مجهولة لدينا جهلاً تاماً حتى إن المختصين عندنا في الجغرافيا لا يكادون يعلمون عنها إلاَّ النزر القليل من المعلومات المشوهة.

ولا أدعي أني اكتشفت هذه المنطقة، وأتيت بما لم تأتِ به الأوائل، وإنما هي بعض المعلومات أخذتها من مصادر رسمية مع مشاهدات رأيتها وسجلتها، وأرجو أن أوفق لعرضها.

الكويت اسم يطلق على جميع الإمارة، وعلى عاصمتها، والعاصمة هي المدينة الوحيدة فيها، وفي أطراف مدينة الكويت عدة قرى صغيرة، وبعض الجزائر الصغيرة.

تقع إمارة الكويت في الزاوية الشمالية الغربية من الخليج العربي، ومساحتها ٢١ ألف كيلو متر مربع، وأرضها صحراء قاحلة فإذا هطلت عليها أمطار غزيرة في الشتاء اكتست في الربيع بحلة خضراء ونبتت فيها الزهور من مختلف الألوان، ويفرح القوم بالغيث، لأن أرضهم لا تجود عليهم بالماء العذب، وإذا حفروا الأرض يطلبون الماء، خرج عليهم الذهب الأسود. وأمطارهم عادة قليلة جداً لا تكفيهم، ولذلك صاروا يجلبون الماء بالمراكب من شط العرب. ومنذ سنة قامت الحكومة بمشروع عظيم لتقطير مياه البحر وقد نجح هذا المشروع، وأصبح يؤمّن للسكان مياه الشرب، ويزودهم بنحو ١،٢٠٠،٠٠٠ جالون من الماء العذب كل يوم، وبهذا انحلّت مشكلة كبرى من أصعب الأمور الحيوية ولاسيما في الصيف. وهناك مشروع أعظم منه، وهو جلب المياه من البصرة الى الكويت،

وهذا لو تم لأصبحت الكويت جنّة غنّاء، ومدينة من أجمل مدن الشرق، وأوسعها، لأن أرضها صالحة للزراعة، وواسعة. وهذا المشروع يكفيه نصف تكاليف مشروع تقطير المياه الذي عُمل، والذي يحول دون إتمامه عقبات خارجية يُرجى أن تزول.

أما درجة الحرارة في الكويت فإنها عالية في أشهر الصيف، قد تبلغ ثمانية وأربعين درجة سنتغراد بالظل، وتهبط في الشتاء فتبلغ درجة الصفر أحياناً. فجوها بالصيف لا يطاق، والحياة فيها شاقة، إلاَّ إذا تلطفت بوسائل المدنية الحديثة.

مدينة الكويت مسوَّرة بسور من طين له خمسة أبواب، يحيط بها من ثلاث جهات، ويقابلها البحر من الجهة الرابعة، وقد بُني هذا السور سنة ١٩٢١، وتطوع لبنائه أهل الكويت جميعاً، صغيرهم وكبيرهم، حتى أتموه في شهر واحد، لحماية أنفسهم من غارات الإخوان الوهابيين. وطول هذا السور ميلان ونصف، وارتفاعه ١٢ قدماً، وله خمسة أبراج كبيرة و ٥٧ برجاً صغيراً. وتقع مدينة الكويت على الضفة الجنوبية من خليجها الصغير، وهو من أحسن الموانىء الطبيعية في تلك المنطقة، وهو صالح لرسو البواخر الكبيرة في أكثر جهاته.

وموقع الكويت على البحر جعل أهلها من روّاد البحار، ومن أمهر أهل الخليج في صنع المراكب الصغيرة والكبيرة، التي وصلوا بها في أسفارهم التجارية إلى الهند، وإفريقيا، ولهم جاليات بالهند حتى يومنا هذا، وصلات تجارية واسعة بمعظم البلدان المصدرة في أمريكا وأوروبا وآسيا. وهي متصلة بالعالم الخارجي عن طريق البحر، ومتصلة بالأقطار العربية عن طريق البر، وكانت القوافل تخرج منها تحمل ما يستورده تجارها من الخارج، وتأتيها القوافل من أطراف بادية الشام ومن حائل ونجد واليمن، فلما كثُرت السيارات والطائرات قلَّ اعتماد القوم على الإبل وزاد اتصالهم بالعالم بالسيارات براً وبالطائرات جواً.

الكويت مدينة تجارية عظيمة، تأتيها البواخر والطائرات، وتدخلها السيارات كل يوم من جميع أطراف العالم، وهي تشبه أخواتها من المدن العربية التجارية كصيدا وصور وقرطاجنة والبتراء وتدمر ومكة في التاريخ القديم، وبيروت والعقبة وعدن وطنجة في تاريخنا الحديث.

ولقد عرف أهل الكويت العالم، واشتغلوا بالتجارة واستخراج اللؤلؤ فأثروا قبل ظهور البترول في أرضهم فهم تجار وثقافتهم تجارية، وهم على جانب عظيم من الأخلاق، والتهذيب والاستقامة. وعندهم وعي وذكاء، ولغتهم الدارجة قريبة جداً من لغتنا، لا يوجد فيها عجمة ولا رطانة.

ولا يزيد عددهم على مائتي ألف في الوقت الحاضر، وهم من أبناءِ الجزيرة العربية، خرجوا منها كما خرج إخوانهم وأجدادهم إلى الهلال الخصيب. وأمراؤهم من فروع قبيلة عنزة، وهي القبيلة التي تنتمي إليها الأسر المالكة في نجد والبحرين من آل سعود وآل خليفة.

لو رجعنا إلى كتب التاريخ والجغرافيا التي قبل القرن الثامن عشر لما وجدنا للكويت ذكراً فهي مدينة حديثة لا ذكر لها في تاريخ العرب القديم، ولكنها تقع في منطقة تاريخية قريبة من موقع كاظمة(١) التي ورد ذكرها في حوادث الفتح العربي وعندها وقعت معركة بين العرب بقيادة خالد بن الوليد، وبين الفرس بقيادة هرمز سنة ١٢ هجرية.

وفي القرن السادس عشرٍ جاء البرتغاليون إلى ساحلها ولكنهم لم يذكروا اسمها، والراجح أن مدينة الكويت أسِسَت في أوائل القرن الثامن عشر، فقد جاء ذكرها في رواية السائح الدنمركي نيبور الذي ذكر أنه كان لها (٨٠٠) مركب وأن سكانها كانوا عشرة آلاف(٢).

وفي سنة ١٨٠٥م حاول الإنجليز جعل الكويت تحت حمايتهم لصد هجمات الوهابيين عنها فلم يفلحوا. وفي أوائل القرن التاسع عشر كانت تابعة للدولة العثمانية، وكانت ترفع العلم التركي.

وكان أمراء حائل من آل رشيد أصحاب السطوة والنفوذ في الجزيرة بعد أن تغلبوا على آل سعود، وهزموا عبد الرحمن بن سعود أمير نجد، واضطروه أن يلجأ إلى

---

(١) أنظر: المسالك والممالك، لابن خرداذبة، ط. بريل/ ليدن، ١٨٨٩، ص١٥١، ١٩٣، وانظر خبر معركة كاظمة في تاريخ ابن خلدون، ٢/ ٤٨٦ (ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣)، وتعرف هذه الواقعة بواقعة ذات السلاسل.

(٢) رحلة إلى بلاد العرب وما حولها، كارستن نيبور، ترجمة: الدكتور مصطفى ماهر، المطبعة العالمية، مصر، ١٩٧٧.

الشيخ مبارك أمير الكويت. كان أمراء حائل هؤلاء بحاجة إلى مرفأ خاص يكون تحت حمايتهم للاتصال بالخارج لاستيراد الأسلحة والمؤونة لهم عن طريقه، ولا سيما أن الأمراء السعوديين المشردين بالكويت والأحساء صاروا يعاكسونهم، ولا يسهلون لهم الاتصال بالعالم الخارجي عن طريق الكويت وموانىء الأحساء. وكان الشيخ مبارك – وهو جد الشيخ عبدالله السالم الحالي – كان في تلك الأيام قد أخذ يخالف سياسة الباب العالي، فاغتنم آل الرشيد الفرصة، وأعلنوا الحرب على الشيخ مبارك سنة ١٨٩٥م. وكان الأتراك قد غضبوا على الشيخ مبارك لتمرده على والي البصرة رئيسه بعد أن عُينٌ من قبلهم سنة ١٨٩٧ قائمقام تابعاً لوالي البصرة.

ثم ظهر عامل جديد في النزاع بين الكويت والأتراك، وهو أن الأتراك منحوا الألمان امتياز خط برلين بغداد المشهور، وبدأ هؤلاء يعملون لمد الخط حتى ينتهي عند الكويت على الخليج العربي، وهذا الأمر أقلق الإنجليز، وجعلهم يتدخلون في الأمر ويضعون العراقيل في طريق هذا المشروع الخطير، وذلك بالسيطرة على الكويت التي أراد الألمان أن ينتهي خطهم الحديدي عندها أو بقربها.

وكان لورد كرزن نائب الملك بالهند يتتبع مجرى هذه الحوادث، وكان يحرص على أن لا تسيطر دولة غير انكلترا على سواحل الخليج العربي، فأصدر أوامره إلى المقيم البريطاني في بوشهر الكولونيل "ميد" ليسارع بعقد معاهدة مع الشيخ مبارك، وقد تم ذلك ووُقعت المعاهدة في ٢٣ كانون الثاني سنة ١٨٩٩م. وكان من أهم بنودها: أن أمير الكويت يتعهد بأن لا يؤجر ولا يمنح أي جزء من منطقته أو إمارته لأية دولة غير دولة إنكلترا أو رعايا غير رعاياها، وانه لا يقبل ممثلين للدول الأجنبية إلاّ بعد موافقتها. ومقابل ذلك تقدم له إنكلترا معونة مالية وتحميه من هجمات أعدائه.

وفي مطلع سنة ١٩٠٠م جاء القنصل الألماني شتيمرخ من الآستانة على رأس بعثة مساحة لخط برلين بغداد، وأراد مفاوضة الشيخ مبارك من أجل تمديد موقع نهاية الخط عند رأس كاظمة، ولكن الشيخ رده بحسب شروط المعاهدة التي بينه وبين الإنجليز.

وفي السنة نفسها اشتعلت نيران الحرب مرة أخرى بين الكويت وآل رشيد، وأخذ الشيخ مبارك يهاجم قوافل آل رشيد التي كانت تذهب إلى السماوة بالعراق لجلب الطعام والثياب والسلاح منها إلى حائل.

وفي ١٧ آذار سنة ١٩٠١م تصدت قوّة من الكويت لقوافل ابن رشيد في مكان يُعرف بالصريف فقضت قوات ابن رشيد عليهم وهزمتهم. وعلى إثر هذه الهزيمة أراد ابن رشيد مهاجمة الكويت، ولكنه اضطر إلى العودة لقيام بعض القبائل عليه في الجنوب، كما أن الأتراك أرادوا مساعدة ابن رشيد وأرسلوا جنداً لمهاجمة الكويت، ولكنهم اضطروا إلى الانسحاب، أيضاً لأن الإنجليز أرسلوا بارجة لهم لحماية الشيخ مبارك وانذروا الأتراك بوجوب سحب جنودهم.

وفي سنة ١٩١٣م اعترفت تركيا بالمعاهدات والاتفاقيات التي عُقدت بين الإنجليز وأمير الكويت، وبأن الكويت قضاء مستقلّ في أموره الداخلية، وتابع للدولة العثمانية، وتحت حماية إنجلترا، على أن يكون للدولة ممثل لدى أمير الكويت. كذلك قبلت إنجلترا بأن يقوم الألمان بتمديد خط برلين – بغداد إلى البصرة على أن تتولى شركة إنجليزية مد فرع للخط من البصرة إلى الكويت، ولم يتم تمديد هذا الفرع، ولا أدري ما هي الأسباب.

وفي سنة ١٩١٥م عُقدت معاهدة بين الشيخ مبارك والأمير عبد العزيز بن سعود تم فيها اعتراف آل سعود بوضع الكويت الجديد، وبحدودها.

وفي اليوم الثالث من كانون الثاني لسنة ١٩١٦م توفي الشيخ مبارك وتولّى الإمارة من بعده ابنه جابر لمدة قصيرة ثم تولاها ابنه الآخر سالم وبقي مدة خمس سنوات، وتوفي سنة ١٩٢١م، وجاء من بعده الشيخ أحمد ابن جابر الذي بقي في الحكم نحو ثلاثين عاماً وفي عهده ظهر البترول. وأعطى امتيازاً لشركة إنكليزية أمريكية، وآخر لشركة أمريكية، وتوفي سنة ١٩٥٠م، وتولّى بعده الأمير الحالي الشيخ عبدالله السالم، وهو رجل محترم، مستقيم له ذكر حسن في جميع الأوساط، يحب بلده وشعبه ويعمل جهده على إصلاح البلد، وترقيتها، ويحبه الشعب ويجلّه إجلالاً عظيماً.

برزت الكويت في ميدان السياسة العالمية مرتين، المرة الأولى بمناسبة مشروع خط برلين بغداد الذي أخذ امتيازه الألمان وأرادوا به اختراق الدولة العثمانية من الشمال

إلى الجنوب، واستغلال المناطق الواقعة على جانبي الخط الحديدي على أن ينتهي هذا الخط عند رأس كاظمة على خليج الكويت، فيكون لهم في هذا الخليج ميناء عظيم لبواخرهم التجارية ومرسى طبيعي أمين لبوارجهم، يهددون بها الامبراطورية البريطانية في الهند، مما أدى إلى خوف إنكلترا من هذا المشروع الخطير بالنسبة إليها، والذي يعد من أهم أسباب نشوب الحرب العالمية الأولى.

وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى خلا الجو لبريطانيا في هذه المنطقة العربية، وعادت الكويت إلى عزلتها والتي لا تزال إنجلترا تحافظ على هذه العزلة، ولا تريد أن يتصل بها أي قطر عربي.

والمرة الثانية برزت الكويت عندما اكتُشِفَت آبار البترول فيها قبيل الحرب العالمية الثانية، ثم سُدَّت هذه الآبار. وبعد نهاية الحرب عادت إليها الشركة صاحبة الامتياز وهي شركة أمريكية إنجليزية وأخذت تحفر الآبار حتى بلغ عددها نحو ١٤٠ بئراً يتدفق منها الذهب الأسود مستعبد الشعوب في أنابيب ضخمة إلى حاملات النفط الراسية في ميناء الأحمدي على بعد بضعة كيلو مترات من منابعه.

وقد بلغت كمية ما يصدر من النفط كل يوم نحو مليون برميل، ويعادل الاحتياطي الثابت من النفط في أرض الكويت نصف احتياطي الولايات المتحدة الأمريكية. وبحسب الاتفاقية الجديدة بين شركة الزيت الكويتية، وبين حكومة الكويت تقدَّر حصة الكويت من أرباح البترول بنحو ٥٣ مليون جنيه وهي نصف أرباح الشركة.

وأدى اكتشاف منابع البترول في أرض الكويت إلى ذيوع اسمها في جميع أنحاء العالم، فجاءها الناس أفواجاً من مختلف الأقطار، ولقد بلغ عدد غير الكويتيين نحو مائة وعشرين ألفاً منهم خمسة وخمسون ألفاً من الفرس، وخمسة وأربعون ألفاً من العراقيين، وسبعة آلاف لبناني، وأربعة آلاف سوري، وألف وثمانمائة فلسطيني. هذا عدا موظفي شركة البترول من الأجانب والهنود العمال في الشركة، وغيرهم ممن لم يدخلوا في الإحصاء. ونشأت بها مدينة للبترول سموها "مدينة الأحمدي" نسبة إلى الشيخ أحمد الجابر أميرها الذي أعطى امتياز البترول في زمنه.

وهذه المدينة تبعد عن مدينة الكويت بنحو ستة وثلاثين كيلو متر. وقد قضيت فيها يوماً كاملاً زرت آبار البترول ومشيت مع الأنابيب إلى الميناء حيث تصب في البواخر

التي تحمله إلى أوروبا. وهي مدينة عظيمة على أحدث طراز شوارعها معبّدة، وقد زُرعت الأشجار فيها على الجانبين، وفيها ملاعب لكرة القدم، وأندية للموظفين العرب، والإنجليز، ومسجد كبير جميل على الطراز الهندي، وبركة سباحة كبيرة، ومطاعم تُقدم فيها وجبات الطعام بأسعار مخفضة، وسينما، وجميع أنواع التسلية. وكان يرافقني في هذه الزيارة موظف عربي من أهل عكا، ويشرح لي جميع مراحل إنتاج البترول من منبعه إلى مصبه. والجميل في بترول الكويت أنه يخرج من منبعه بضغط من نفسه ولا يحتاج إلى آلات تدفعه، لأنه قريب، ومعه كمية من الغاز يخرج معه من الآبار، إلى أن يمر في محل يفصل الغاز عن البترول، ويسير الغاز بأنابيب خاصة إلى بُعد خمسماية متر ثم يُحرق وتراه دائماً مشتعلاً، وهذا الغاز هو الذي يسمونه "بوتوغاز" وهو ثروة لا تقدَّر، ولا يُستفاد منه إلاَّ قليلاً لعدم الاستعداد له، ولذلك يحرقونه، ويظهر للرائي عن بُعد كأنه شفق دائم.

وميناء الأحمدي معمولة على أعمدة من الحديد الصلب في داخل البحر، بشكل T وتتسع بشكلها الحاضر لتسع بواخر ضخمة تتراوح حمولتها من عشرين ألف طن إلى ثلاثين ألف طن، يمكنها أن تعبىء حمولتها في مدة ست ساعات. ويُعمل الآن على توسيعها لتتسع إلى خمس عشرة باخرة.

وجميع مكاتب الموظفين، والبيوت، فيها تكييف هواء، حتى المسجد سيكون فيه تكييف هواء. وقد اكتُشف البترول في منطقة بين المملكة السعودية والكويت، وأخذت امتيازه شركة أمريكية تسمى "الامين أويل" واتُفق على أن يكون نصف الأرباح للشركة والربع للكويت وربع للمملكة العربية السعودية. وهذه المنطقة لا تقل غزارة عن آبار الكويت.

سكان الكويت معظمهم عرب من القبائل العربية التي أتت من نجد ومعها تقاليدها التي حافظت على الكثير منها. إنهم يتحلون بأخلاق طيبة، مهذبون، تراهم مقبلين على أعمالهم بجد ونشاط، ولباسهم نظيف، وإذا سرت في الشوارع لا تسمع فيها لغواً ولا تأثيماً، ولا يزعجك إلا كثرة السيارات وشدّة أصواتها. وإذا دخلت إلى محل تجاري ومكثت به أطول مدة وأنت تقلّب البضائع ثم خرجت ولم تشتر شيئاً فإنك تقابل وتودع بالترحيب وفي أمان الله.

والأمـان فيها منتشر، ولا تسمع بمشاجرات، وقلما ترى شيئاً منها. وكان آخر إحصاء للمسجونين بآخر سنة ١٩٥٢م في سجن الكويت سبعة وستين سجيناً، منهم ثمانية وخمسون ليسوا من أهل الكويت وتسعة من أهلها ثلاثة من البادية، وستة سجنوا بسبب حوادث السيارات أو لأنهم عجزوا عن تأدية ديون وجبت عليهم. وقلما تقع فيها السرقات.

إن لموقع الكويت بين البحر والبادية أثراً في تعيين طراز معيشة سكانها وأعمالهم وصفاتهم. تعلّم صغارهم السباحة في البحر، وركبه كبارهم للغوص والسفر، وأفادوا من الغوص فجمعوا اللؤلؤ وصار لهم فيه نظام معيّن؛ فاعتاد صغار البحارة إطاعة رؤسائهم من ربابنة المراكب عند خروجهم لطلب اللؤلؤ، وتمرنوا على العمل وتحمل المشاق في المراكب لعدة أشهر. وكان نفعهم من الأسفار التجارية كبيراً، ربحوا الأموال وعرفوا العالم، وكانت أسفارهم وأعمالهم التجارية بمثابة دراسة عظيمة لهم، تخرج فيها رجال أصحاب دراية وحكمة وثقافة عامة.

ومن جهة أخرى جعلتهم حياتهم في البادية يتحملون مشاق العيش فيها، وأسفارهم التجارية البرية والبحرية والصيد والقنص كل ذلك عرفهم بديارهم ومواقعها، وكان لهم من هذا كله درس عظيم. وهم متضامنون كأنهم أبناء أسرة واحدة، تسودهم الألفة، ولا تفرق بينهم الثروة، إذا أفلس تاجر جمعوا له المال حتى يعود إلى عمله أو تجارته، وإذا غرقت سفينة ملاح ساعدوه على بناء غيرها، وإذا احترق بيت أحدهم هبوا لاطفاء النار، وجمعوا ما تيسّر من المال ليعوضوه، ولا أدري هل ستبقى هذه الأخلاق سائدة بينهم أم أنها ستزول، لأنهم سائرون في طريق المدنية الحديثة، ولكثرة الهجرة إليهم، ولا سيما من الفرس والأجانب، وإنها لظاهرة خطرة.

وإنهم أهل جد وعمل كما قدمت، فعندهم أسواق منظمة، فيها المتاجر المملوءة بجميع أنواع البضائع، ويوجد عندهم أسواق مغطاة كما في دمشق، وطريقة عرض البضائع كما هي في دمشق، وهناك سوق خاص، تجد فيه النساء هن البائعات، تجدهن مفترشات الأرض، وحول الواحدة منهن ما عندها من السلع وهي محجبة بحجاب كثيف. وهذا من أعجب ما رأيت من المفارقات العجيبة. وحالة المرأة متأخرة جداً، يُرجى في النهضة الحديثة أن تأخذ مكانها في المجتمع وتسترد حقوقها. في الكويت اليوم

نهضة مباركة، تسير بسرعة هائلة، وتنفق الحكومة بسخاء منقطع النظير على المشاريع العمرانية، وعلى التعليم والصحة، وفيها دوائر حكومية منظمة على أحدث نظام، على رأسها دائرة الأشغال، المعارف، والأمن العام، والصحة. وقد زرت هذه الدوائر جميعها، زيارة طويلة، وأدهشني ما رأيت في دائرة الأشغال من التنظيم، والآلات الحديثة، وقد استخدموا فيها أمهر الفنيين، فيها مائتان وخمسة وعشرون موظفاً فنياً، ما بين مهندس ورسام ومخطط ومسّاح وغيرهم مما لا أعرف اسم صنعته. ويكاد يكون جميع الموظفين فيها فلسطينيين ما عدا قسماً قليلاً من السوريين، وبعض المهندسين الأجانب. وقد ذكر لي السيد جمال هاشم وهو من كبار المهندسين هناك أن الجنرال "اوكنلك" زار هذه الدائرة وجعل يطلعه على ما فيها من آلات حديثة فنية، وكان يقول له هذه من صنع ألمانيا وهذه من صنع أمريكا، وهذه من السويد، وتلك من سويسرا، إلى أن وصل أخيراً إلى خزانة، فقال له هذه من صنع إنجلترا، فقال الجنرال: الحمد لله الذي وجدت شيئاً من صنع بريطانيا في هذه الدائرة، وما أظن أنه يوجد شبيه لهذه الدائرة في البلاد العربية جميعها من حيث التنظيم والاستعداد ووفرة الآلات الفنية الحديثة.

وعمل دائرة الأشغال الآن أغلبه في تخطيط البلد، وهناك مشروع لبناء مدينة حديثة، خارج السور، وتتكون هذه المدينة من نحو ست عشرة وحدة، كل وحدة تتألف من ألف مسكن، فيها جامع، ومدرسة بنات ومدرسة ذكور وبستان أطفال، وحديقة عامة، وسوق وشوارع مخططة على أحدث طراز، وقد بدىء بأول وحدة. والبناء الآن داخل السور ممنوع، ولذلك يوجد في الكويت أزمة مساكن شديدة لكثرة الوافدين المحتاجين للمساكن، وقد ارتفعت أجرة البيوت ارتفاعاً خيالياً، حتى لقد بلغت أجرة المساكن نحو ثمانية آلاف روبية شهرياً، وثمن الأرض لا يُقدَّر هناك.

وأغلب الشركات التي تأخذ التعهدات والأعمال الحكومية الكبيرة شركات أجنبية أبرزها شركة "كات"، وتربح هذه الشركات مرابح خيالية وأرقاماً لا تصدق، والأعمال الحرّة ميسورة لمن معه رأسمال، ولكن لا يجوز لأي إنسان غريب أن يعمل إلاَّ باسم شخص كويتي. ويوجد بالكويت تجار أصحاب رؤوس أموال ضخمة يصل بعضها إلى "خمسة عشر مليوناً" من الجنيهات. وحسابهم هناك بكلمة "لك" وهي كلمة هندية

على ما أظن وتعني "مائة ألف" فيقولون مثلاً فلان عنده "مائة لك" وفلان رأسماله "ألف لك" وهكذا دواليك.

أما المعارف فقد بدأت نهضتها عندهم في مطلع القرن العشرين حيث أُسِّسَت أول مدرسة سنة ١٩١٢م في عهد الشيخ مبارك وسميت باسمه: "المدرسة المباركية". وكان بين المدرسين فيها الشيخ حافظ وهبة سفير المملكة العربية السعودية في لندن اليوم. وبقيت النهضة بطيئة إلى سنة ١٩٣٧م؛ فكان في الكويت أربع مدارس للبنين فقط عدد تلاميذها ٦٠٠ طالب، وعدد المعلمين ٢٦ معلماً.

أما الآن في سنة ١٩٥٢ – ١٩٥٣، فقد صار عندهم أربعون مدرسة منها خمس وعشرون مدرسة للذكور، منها مدرسة ثانوية وهي المباركية، ومعهد ديني، ومدرسة معلمين ومدرسة تجارة، وعدد طلابها سبعة آلاف ومائة وثمانية وثمانون طالباً، وعدد معلميها ثلاثمائة وأربعة وتسعون معلماً، وخمس عشرة مدرسة للبنات عدد طالباتها ثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسون طالبة، ومعلماتها مائة وسبعون معلمة. وكانت موازنة المعارف سنة ١٩٤٩/١٩٥٠ خمسة ملايين روبية، فبلغت في سنة ١٩٥٢/١٩٥٣ اثنين وأربعين مليون روبية، وينتظر أن تصل إلى ثلاثة ملايين جنيه. هذا عدا ما يُنفق على أبنية المدارس والمشاريع الإنشائية. ويُقدَّر ما سينفق على المشاريع الإنشائية لمدة عامين بسبعة ملايين جنيه.

أما المدارس وما فيها من وسائل الإيضاح، والتجهيزات فحدث ولا حرج. وجميع أبنية المدارس في مدينة الكويت ملك للمعارف ما عدا بعض أبنية مدارس القرى. وسيُبنى لهذه المدارس أبنية خاصة قريباً.

وإقبال أهل الكويت على المدارس شديد وعدد الطلاب في ازدياد مضطرد، وقد عملوا مشروع خمس سنوات وسيُنجز القسم الأول خلال سنتين، ويشمل بناء ثلاث مدارس ابتدائية كبيرة، وثلاث بساتين أطفال، ومدرسة صناعية، ومطبخ مركزي، وقد تم وضع الخرائط لهذه الأبنية وبوشر في بنائها، ورأيتها بنفسي والعمل قائم فيها بجد ونشاط.

أما المدرسة الصناعية فإنها من أهم المشاريع التي تقوم بها معارف الكويت، وهو عمل حيوي مهم، والبلد بحاجة إليها. وسوف تكون كافية لتأمين الدراسة لخمسمائة

طالب في النهار، وغيرهم من العمال الراغبين في الدراسة ليلاً. وأما المطبخ المركزي فإنه سوف يقوم بتحضير وجبات الطعام والشرائح إلى جميع الطلبة في مدارس الكويت. وقد أعدت سيارات لنقل الطعام في أوقاته المعينة لكل المدارس.

ومن المشاريع التي سوف تتم في العام المقبل مشروع الدراسة الثانوية الداخلية، وقد بنيت مدرسة ثانوية في مكان يقال له الشويخ، لعلها أكبر مدرسة ثانوية داخلية في الشرق العربي، وقد تم القسم الأكبر منها: البناء الرئيسي، ومساكن الطلبة، ومساكن الأساتذة، والمسجد، وهي تتسع لنحو ٦٤٠ طالباً داخلياً، وتقع هذه المدرسة على ساحل البحر على بعد ستة كيلو مترات من مدينة الكويت، ومساحة أرضها ألفان وخمسمائة دونم، وهي مؤلَّفة من البناء الرئيسي وفيه طابقان وقبة عالية، وله ثلاثة أجنحة، ويحتوي على ١٩ غرفة للدراسة، وثلاثة مختبرات واسعة للكيمياء والطبيعة والأحياء، ومتحف ومدرج وقاعة رسم وأشغال، وقاعة كبيرة للحفلات، ومطعم كبير. ومن أبنية هذه المدرسة المكتبة ومساكن الطلبة، ويتسع كل مسكن منها لثمانين طالباً، وجمنازيوم ألعاب، وهذه الأبنية كلها قد تمت ورأيتها بنفسي، وسيكون في المدرسة أيضاً حوض للسباحة، وملعبان لكرة القدم، وملعبان لكرة السلة، وثلاثة ملاعب للتنس. وستبدأ الدراسة فيها من مطلع العام المقبل، وسيقبلون في المدرسة طلاباً من جميع أبناء الخليج العربي، وقد قبلوا واحداً وعشرين طالباً مغربياً من تونس والجزائر ومراكش.

وتعتني إدارة المعارف ببساتين الأطفال عناية فائقة، وتأخذ الأطفال الذين في سن الرابعة والخامسة، وتوفر لهم كل أسباب الراحة والتسلية والتربية على الطرق الحديثة.

وقد اهتمت بإرسال البعثات إلى الخارج، فبلغ عدد الطلاب الذين يدرسون في مختلف المعاهد مائة وواحداً وخمسين طالباً منهم أربعة وستون يدرسون دراسات جامعية في مصر وانكلترا ولبنان وأمريكا. والباقي في الأقسام الثانوية والابتدائية، وخمسة منهم في دور المعلمين. وإقبال الكويتيين على مهنة التعليم قليل جداً، لأنهم يفضلون العمل بالتجارة، وغيرها من الأعمال التي تدرّ عليهم ربحاً أوفر.

ومن الأمور الحيوية المهمة التي تعتني بها معارف الكويت، العناية بصحة الطلاب والطالبات، وتسهيل معالجتهم، فقد خُصِّصَ عدد من الأطباء والممرضات يشرفون على

الحالة الصحية في المدارس، وجميع الطلاب يُعطون الملابس اللازمة للصيف والشتاء، وجميع ما يحتاج من الكتب، وتُوفَّر لهم جميع وسائل الإيضاح، ويعنون بدقة بالرسم والأشغال اليدوية ويعطونها عناية كبيرة.

أما الرياضة البدنية فلها قسط كبير من الوقت والعناية. وقد حضرت المهرجان السنوي العام، الذي اشتركت فيه جميع المدارس، وكان مهرجاناً موفقاً عرضوا فيه شتى الألعاب والتمارين السويدية بغاية الإتقان، وعرضوا إلى جانبها الألعاب الأهلية بلباسهم العادي؛ فكانت مقابلة طريفة، ومن أطرف الألعاب لعبة شدّ الحبل بين الأساتذة والطلاب وقد تفوق الطلاب على الأساتذة.

والطب مؤمم مثل التعليم في الكويت، فالمستشفى مفتوح للجميع، والعيادة مجاناً لكل مريض، والمعالجة والعمليات الجراحية مع الدواء لكل المواطنين، ويوجد مستشفى مجهز بأحدث الوسائل للرجال والنساء، وفيه عدد من الأطباء ورئيسه طبيب كويتي وهو أول طبيب يتخرج من أبناء الكويت. وفيه قسم خاص بطب الأسنان فيه ستة أطباء، وفيه أحدث الأجهزة. وقد حدثني صديق من أطباء الأسنان انه طلب شراء بعض كتب كمراجع خاصة بطب الأسنان، فقال له الرئيس المسؤول: وهل هناك غير هذه الكتب ؟ قال: نعم يوجد كتالوج كبير. فأخذ الكتالوج وربطه مع الطلب وطلب جميع ما فيه من كتب بالإفرنسية والإنجليزية.

وعندهم مستشفى خاص بالأمراض الصدرية، ويبنون الآن مستشفى من أضخم المستشفيات في الشرق العربي.

وهم سائرون في تنظيم أمورهم، وإكمال نواقصهم، ويعملون على إصلاح بلدهم، وجعلها من أنظم البلدان.

وللنشاط الأدبي والاجتماعي نصيب لا بأس به، فهناك ثلاثة أندية وجمعيات للإرشاد: النادي الثقافي القومي ويصدر مجلة **الإيمان**، ونادي المعلمين ويصدر مجلة **الرائد**، والنادي الأهلي وهو ناد رياضي. وتلقى هذه الأندية تشجيعاً، وتُدفع لها مساعدات مالية من المعارف لأجرة الدار وللمجلة.

والشعب الكويتي يحب الرياضة ويقبل عليها إقبالاً عظيماً، ويزدحم الأهلون في ملاعب كرة القدم، وتسمع الهتافات والتشجيع من كل جانب في أثناء المباراة، ويتحمس النظارة للاعبين باندفاع شديد.

وهناك محطة إذاعة ناشئة تذيع ألواناً من الموسيقى والغناء العربي، وبعض أحاديث اجتماعية وأدبية، والقرآن الكريم. ويعملون على توسيعها وجعلها محطة كبيرة.

وفي الكويت مكتبة عامة تضم نحو ثمانية آلاف كتاب مفتوحة للمطالعين والقراء، وفيها أهم المراجع العربية والأجنبية، ومجموعة مختارة من مختلف العلوم والآداب، وهي في طريق الزيادة والتحسين، وسيُجعَل لها فروع في عدة محلات من مدينة الكويت، ولها قيم نشيط من أهل العلم يسعى بكل جهده لتوسيع المكتبة وجعلها شاملة تفي بغرض كل مطالع ومراجع.

وتعمل حكومة الكويت على توثيق العلاقات بينها وبين جميع البلاد العربية، فقد أُلغيت تأشيرة الجوازات بينها وبين سوريا ولبنان والعراق، وتحاول أن تلغي التأشيرة بينها وبين جميع البلاد العربية. وتعمل على تقوية الصلة وتوثيق الروابط بينها وبين إمارات الخليج العربي جميعها، فقد أوفدت مدير المعارف برحلة إلى أغلب الإمارات ليدرس حالتها الثقافية، والعلمية، وقد زار قسماً كبيراً منها، وكتب تقريراً عنها. ومن تقريره يُعلم أن هذه الإمارات متأخرة جداً علمياً واجتماعياً وثقافياً. وقررت إدارة المعارف بالنسبة لتوصية مدير المعارف في تقريره أن تدفع إعانة مالية لإصلاح بعض المدارس في تلك الإمارات وإرسال كتب ومناهج ليسيروا عليها، وإيفاد مدرسين مدربين للإشراف على شئون التعليم وتوجيه المدرسين الحاليين، فإن المدرسين جميعهم من نوع مدرسي الكتاتيب، وجلب عدد من الطلاب لتعليمهم في مدارس الكويت.

وهذه الإمارات منطقة مجهولة لنا لا نعرف نحن عنها شيئاً، بل إن المختصين عندنا بالجغرافيا لا يعرفون عن تلك المنطقة إلاّ أشياء قليلة. والإنجليز يسيطرون عليها سيطرة تامة، ويضربون عليها ستاراً حديدياً فلا يُسمح لكل إنسان بزيارتها، وطبيعة البلاد وتأخرها، وعدم سهولة الطرق فيها تجعلها بمعزل عن العالم العربي.

وسأعدد لكم هذه الإمارات باختصار:

- الشارجة (الشارقة): وعدد سكانها عشرة آلاف. فيها مدرسة تضم مائة وعشرين طالباً لهم مدرسان. والتعليم في جميع هذه الإمارات تعليم أولي، قراءة وكتابة وحساب وقرآن كريم وبعض المعلومات الدينية.
- عجمان: وعدد سكانها أربعة آلاف. فيها مدرس واحد عنده ستون طالباً.
- رأس الخيمة: عدد سكانها عشرون ألفاً. فيها مدرسة واحدة تضم مائة طالب لهم ثلاثة مدرسين.
- دبي: وعدد سكانها خمسون ألفاً. فيها ثلاث مدارس تضم خمسمائة طالب وثلاثة عشر مدرساً.
- أم القيوين: عدد سكانها ثلاثة آلاف. فيها مدرسة واحدة تضم أربعين طالباً.

هذه الإمارات التي زارها مدير معارف الكويت وأعطى عنها تقريراً. وبقية الإمارات هي:

- قطر: وعدد سكانها التقريبي ثلاثون ألفاً. ولم أعثر على معلومات عن مدارسها وحالتها الاجتماعية. وقد ظهر فيها البترول حديثاً، ويقدّر دخلها من الزيت بنحو عشرين مليون جنيه.
- أبو ظبي: وعدد سكانها عشرون ألفاً. ولم أحصل على معلومات عنها، وهي متأخرة اقتصادياً واجتماعياً.
- البحرين: وعدد سكانها مائة وخمسون ألفاً. وهي أحسن حالاً من جميع هذه الإمارات، فهي غنية من قديم الزمن بتجارة اللؤلؤ وزراعة النخيل، وقد ظهر فيها البترول من نحو عشرين عاماً، وقد تكون فيها مدنية حديثة، وفيها مدارس وبنايات جميلة وحدائق، ولكن أغلبية الشعب لا تزال على حالة تعيسة من الفقر والجوع.
- مسقط والجبل الأخضر: ويقدّر عدد سكان هذا القطر بنحو مليون نسمة، وهو من المناطق المجهولة لدينا ولا أعرف عنه شيئاً أبداً (...).

عدد هذه الإمارات والمشيخات مع الكويت إحدى عشرة إمارة ومشيخة، لو انها وُحِّدت وجُمع ما فيها من ثروة ضخمة وصار لها نظام موحَّد، ودولة واحدة تجمع شملها

لاصبحت بلاداً عامرة تعيش بأحسن حال، ولكن المستعمر (...) لا يريد توحيدها، بل يعملون جهدهم لابقائها على حالها الحاضر تنعم بالجهل والفقر والمرض.

وكذلك حال البلاد العربية، فلو حسبنا ما يدخل العراق والكويت وقطر والبحرين ودولة ابن سعود من الزيت مع موارد البلاد العربية الأخرى، ووحدنا هذا الدخل وصرفناه بعقل وحكمة وإخلاص، لظهر لنا اننا أغنى من أمريكا، ولعشنا بنعمة كبرى أسياداً في بلادنا، ولما استطاع الغرب أن يلعب بنا ويأتي باليهود المشردين ليحتلوا هذا الجزء المقدس من بلادنا. وسيأتي اليوم الذي يتم لنا ما نريد، رغم أنف كل مغرض ومعاند ورغم كل عقبة.

هذا عرض موجز لوضع قطر عربي بدأ ينهض، أرجو أن يكون قد أعطاكم صورة حسنة عنه، وهو لا يزال بأول الطريق إلى النهوض، وإننا نتمنى أن يبقى مستمراً على هذه النهضة المباركة، والسير قدماً، وإلى الأمام. وهناك بعض الأمور الداخلية، أضربت عن ذكرها، وبعض النعرات الإقليمية الضيقة يرويها أصحاب المصالح والأغراض الذين لا قيمة لهم، وقد صمد لهم شباب قومي مثقف نرجو لهم التوفيق وأسأل الله تعالى أن نرى ذلك اليوم الذي تجتمع فيه كلمة العرب، وتتحد فيه بلاد العرب في ظل نظام عادل يكفل للأمة العربية العيشة الهانئة، والأمر في بلادنا السيادة والحرية. والسلام عليكم.

[يوميّات رحلة إلى الجزيرة والخليج العربي]

(١١ نيسان/ إبريل – ١٥ أيار/ مايو ١٩٥٤م)

-١-

[السعودية]

[في الطائرة فوق الصحراء]

في صباح يوم الأحد ١٩٥٤/٤/١١م تحركنا من عمّان على متن طائرة سعودية في تمام الساعة السابعة. كان الجو في عمّان غائماً، والبرد شديداً. وعند حركة الطائرة كانت الأعصاب ثائرة قليلاً ولكنها هدأت بعد أن استوت في الجو، وكان الجو لا يزال غائماً.

ونحن في طريقنا إلى جدة عن طريق المدينة، وبعد مسير ساعة انقشع الغمام وأصبحنا فوق صحراء مخيفة كلها رمال يتخلّلها هضاب وتلال سود كلها صخرية لا نبت عليها، ولا ماء يجري فيها. وتعجبت كيف قطع أجدادنا هذه الصحراء الرملية المنقطعة على أرجلهم، وعلى الدواب، وكيف كانت عزيمتهم وإيمانهم القوي، وكيف نحن الآن عندنا جميع وسائل الراحة والرفاهية والإمكانيات الهائلة وكيف نحن مستضعفون متأخرون متفرقون، مع أننا نملك ثروة هائلة، وعددنا كبير. ذكرت ذلك كله وأنا فوق هذه الصحراء التي لا تنتهي.

وصلنا المدينة المنورة في تمام الساعة العاشرة والدقيقة العاشرة. وعندما قَرُبت الطائرة من المدينة بدأت تهتز وتلعب وهبطنا في المطار. ولم نرَ معالم المدينة المنورة فإن المطار يبعُد عنها عشرين كم. ومطار المدينة يقع في أرض واسعة تكتنفها الجبال السود الجرداء، وهو مطار واسع جداً غير معبَّد بالإسفلت.

مكثنا نحو نصف ساعة شربنا براداً من الشاي. ثم غادرنا المطار في نحو العاشرة والنصف، وبدأنا الطريق بين المدينة وجدة، وهي طريق لا تختلف عن الطريق التي قطعناها من عمّان إلى المدينة؛ كلها صحراء مقفرة وجبال سود وحُمر وألوان مشكّلة

ذكرتني بالآية الكريمة: (ومن الجبال جُددٌ بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود) (١). والحقيقة لا يعرف المرء هذه الآية حق المعرفة حتى يرى هذه المناظر التي تنطبق هذه الآية عليها تماماً.

[جدّة]

وبعد ساعة ونصف وصلنا مطار جدة، وكان النزول سهلاً، ووجدنا في استقبالنا السيد حافظ عبد الهادي القائم بأعمال المفوضية الأردنية في جدة، ومدير المراسم، ووكيل وزارة الخارجية. وذهبنا إلى فندق البساتين، وهو من فنادق الدرجة الأولى، يملكه وزير المالية. وبعد أن استرحنا وتناولنا الغداء، جاء الدكتور حافظ وأخذنا في جولة لطيفة نتعرف فيها على معالم جدة.

جدة بلدة كبيرة وميناء الحجاز بل المملكة العربية السعودية، وهي بلدة قديمة وعريقة بالتجارة، يبلغ عدد سكانها مائة ألف أو يزيدون قليلاً، فيها مبانٍ ضخمة للأمراء والتجار، وفيها شوارع جديدة وميناء عُمل حديثاً كله من الحديد الصلب. ووقفنا أمام قصر خزام وهو قصر الملك، قصر ضخم أنيق جميل المنظر، وكان بُني في زمن المرحوم الملك عبد العزيز بن سعود، وقد صُمم بشكل غريب حيث تصعد السيارة الى الطابق العلوي فيه.

ثم ذهبنا إلى الميناء في جولة قصيرة، وإلى المفوضية البريطانية التي مررنا بجانبها، وكذلك المفوضية الأميركية وهي بلدة قائمة بذاتها.

ومن ثم ذهبنا إلى المفوضية الأردنية حيث تناولنا المرطبات، وشملنا الدكتور حافظ بلطفه وأنسه، وجاء الأخ السيد إسحق خورشيد وكيل مدير البنك العربي، وكلفناه بصرف بعض النقود، وأزعجناه بذلك..

[مكّة المكرمة]

وفي الساعة الخامسة أحرمنا بالعمرة وخلعنا جميع ثيابنا ولبسنا الإزار والرداء فقط، وذهبنا إلى مكة المكرمة.

السيارات بين مكة وجدة خط متواصل لا ينقطع، والطريق بين جدة ومكة المكرمة

---

(١) سورة فاطر، الآية ٢٧.

معبّدة بالإسفلت والمسافة أربعة وسبعون كم، ولا يوجد في كل هذه المسافة إلاّ ثلاث قرى تقريباً، وبعض نقاط للبوليس. والطريق تشبه الطريق الذاهبة من النقب إلى العقبة (في الأردن) تمام الشبه من حيث الجبال على جانبي الطريق والنبات والتربة. ولم نقف إلاّ في مكان واحد اسمه "البحرة" شربنا ماءً وداومنا سفرنا ووصلنا مكة مع الغروب، وتوجهنا رأساً إلى الحرم الشريف، وكان وقت وصولنا وقت صلاة المغرب فصلينا مع الجماعة، ثم قمنا وطفنا بالبيت سبعاً، ثم سعينا بين الصفا والمروة..

الحرم واسع جداً ومنظره مهيب، والكعبة توحي للإنسان بالعظمة والرهبة، وأعجبني ترتيبه وهو مكوّن من أروقة على الداير وفي منتصفه يقع بناء الكعبة، وفي أحد أركانها بالقرنة الحجر الأسود وعليه إطار من فضة، والحجر أصبح مجوّفاً من كثرة اللّمس، وهو ناعم جداً وأظنه من المرمر الأسود. والمسجد الحرام نظيف، وألبسة المصلين نظيفة، وتجد فيه من جميع الملل. أما مكان السعي فهو سوق عادي مغطّى، أرضه فيها رمل وطين وقسم منها مبلط بالحجارة المصقولة.

وبعد السعي انتهت مراسم العمرة وذهبنا إلى المسجد ثانية وصلينا العشاء، ومن ثم ذهبنا إلى "فندق مصر" فبدلنا ألبستنا، وتناولنا العشاء واسترحنا قليلاً، ثم غادرنا مكة المكرمة إلى جدة حيث وصلناها في الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً. وقد وجدنا الدكتور حافظ عبد الهادي لا يزال ينتظرنا في منزله في المفوضية الأردنية، فأمضينا عنده نحو ساعة وودعناه لنلقاه في الساعة الخامسة والنصف من صباح يوم الإثنين في المطار حيث تقوم الطائرة إلى الرياض.

[أسد ونعامتان في الطائرة]

في صباح يوم الإثنين في ١٢/٤/١٩٥٤م استيقظنا حوالي الساعة الرابعة والنصف بعد أن نمنا أربع ساعات تقريباً، وحزمنا أمتعتنا وجاء الدكتور حافظ عبد الهادي وذهبنا إلى المطار مسرعين على اعتبار أن الطائرة ستقوم في الساعة السادسة، وبقينا ننتظر إلى الساعة السابعة والدقيقة العاشرة حتى قامت الطائرة.

مطار جدة كبير وفيه أبنية جميلة، ويوفيه فيها كل ما يطلبه الإنسان، وحركة الطائرات فيه مستمرة ولا سيما في الصباح فإن الحركة فيه دائبة في كل عشر دقائق

تقريباً تقوم طائرة.

قامت بنا الطائرة وحلقت بنا في سماء جدة، وتوغلت في الصحراء ولم نعد نرى إلاَّ الصحراء كما كنّا نشاهد في الطريق بين المدينة المنورة وجدة. وكان معنا في الطائرة راكب غريب، وهو أسد في قفص من خشب وحديد ونعامتان أيضاً في قفص خشبي، وكان الأسد ثائراً لا يهدأ، واقتربت من القفص وصوبت آلة التصوير نحوه فاسترعت نظره ووقف ينظر ماذا سأعمل له، وبعد التقاط الصورة تركته فعاد إلى حركته ودورانه في القفص، فكنت أتخيل أن الأسد خرج من القفص فماذا سيكون حالنا ونحن معلقون في الفضاء (١٩). وكانت إحدى النعامتين تمد رأسها من القفص برقبتها الطويلة كأنها أفعى ضخمة، وعندما تحركت الطائرة خمدت ولم تعد تتحرك.

بعد أن مضى على قيامنا من جدة ساعة تقريباً رأينا أنفسنا فوق منطقة فيها أشجار وبساتين، وبدأت تهبط الطائرة قليلاً قليلاً حتى نزلت في مطار واسع وهو مطار الطائف..

مكثنا في المطار عشر دقائق، ثم قامت الطائرة وتابعت رحلتها في اتجاه الرياض، والطريق لا نرى فيه إلاَّ رمالاً وجبالاً صخرية، وأحياناً نرى سهولاً واسعة ولكنها رملية.

وقبل أن نصل الرياض بنحو نصف ساعة بدأت الطائرة تهبط قليلاً، وعندما تهبط الطائرة يبدأ القلق يساورها وتبدأ مداعباتها وحركاتها غير المحببة، ومنها نرى أشجاراً منسقة، وخُضرة. وقبل أن نصل فوق المطار بعشر دقائق سمعنا صوتاً مزعجاً ودخل الطائرة رياح قويّة فيها صفير وإذا بأحد أبواب النوافذ يطير وينخلع وكانت هذه النافذة بجانب الأسد فدب الرعب في قلبي وخفت خوفاً شديداً ولكني كنت أتشجع، فإني كنت أخاف أن يؤثر هذا على توازن الطائرة فتنقلب، ولكن الله سلم فقد كان المطار قريباً، وبدأت الطائرة تهبط حتى وصلنا في تمام الساعة الحادية عشرة. وكانت المسافة نحو أربع ساعات إلاَّ ربعاً.

[الرياض]

نزلنا في مطار الرياض، فلم نرَ أحداً، ووقفنا برهة تحت جناح الطائرة نستظل من

الشمس ثم سرنا إلى البوفيه وجلسنا ننتظر أن يأتينا أحد فلم يأت إنسان ولم يسأل عنا أحد، مع أن الدكتور حافظ كان قال لنا بأنه أرسل برقية للرياض وأنه سيكون في استقبالنا أناس عن الحكومة فخابت آمالنا.

انتظرنا.. حتى جاءت أمتعتنا، ثم اتصلنا بضابط هناك كان هو المسئول عن المطار فقال إنه لا علم له بشيء عنّا، ثم أخذ يتصل بولي العهد فجاء الجواب بأن يؤمننا إلى الفندق، وأُرسلت لنا سيارة وأعطانا سيارته أيضاً حتى أوصلتنا إلى "فندق الرياض" الذي يبعُد عن المطار سبعة كيلو مترات، وهذا بعد انتظار ساعتين تقريباً، وما كدنا نخرج من المطار حتى توقف سائق السيارة قليلاً، وقال لقد حمي موتور السيارة لأن الماء نفد منه، فميّلنا على مكان قريب أخذ منه الماء الكافي وتابعنا سيرنا إلى الفندق، وأما نحن فكانت حالتنا غير مريحة، لأننا لم نفطر في الصباح وما وصلنا الفندق إلاّ عند الساعة الثانية بعد الظهر فنال منا الجوع والتعب، وأول شيء عملناه في الفندق هو أن طلبنا الغداء...

الفندق فخم جداً، وكبير واسع، مبني على أحدث طراز، يتألف من ثلاثة أقسام كل قسم بناء كامل وكله متصل ببعضه، ويتكون من ثلاث طوابق وفيه صالونات بدون حساب، جميع أرضه مفروشة بالرخام الأبيض وفيه أثاث فخم جداً، وكله مزود بالمكيفات الهوائية، والكهرباء تزين أبهاءه وصالوناته وممراته، وفاخر السجاد متناثر على أرضه، والخزائن الجميلة والأثاث الرائع مبثوث في جميع أنحائه وغرفه. وتنظر إليه وهو في هذه الصحراء فتقول سبحان الله إنه على كل شيء قدير..

بعد أن تناولنا طعام الغداء تحللنا من ألبستنا وقد خُصص إلينا غرفتان بينهما حمام أنيق مجهز بأحدث الوسائل ولهما غرفة صغيرة ملحقة بهما، فوضعنا أمتعتنا فيها وجلسنا نشرب الشاي في إحدى الغرفتين، ونحن في هذه الحالة جاءنا رجل وسلم علينا وقال إنه مندوب ولي العهد، وهو السيد إبراهيم سليمان رئيس ديوان سمو الأمير فيصل، فرحب بنا واعتذر مما حدث لنا وأنهم لم يخبروا بمجيئنا وجلس معنا مدة تقارب النصف ساعة، ثم ودعنا وقال إنه سيأخذ لنا موعداً من سمو الأمير فيصل لنسلم عليه، وودعناه شاكرين وأمضينا بقية يومنا وليلتنا في الفندق.

[سمو الأمير فيصل ولي العهد]

في صباح يوم الثلاثاء ١٣/٤/١٩٥٤م استيقظنا مبكرين وحرَّرت بعض الرسائل إلى عمّان، ثم بعد تناول الفطور، ذهبنا في السيارة وتجولنا في مدينة الرياض ورأينا قسماً من القصور الملكية الفخمة، وشوارع الرياض الحديثة، والقديمة، وبعض مساجدها. والرياض بلد قديمة فيها شوارع ضيقة ودكاكين صغيرة تُعرض فيها البضائع من كل لون، وإلى جانب هذا تُنشأ شوارع واسعة وأبنية ضخمة حديثة. وهي تقع في سهل واسع لا حدود له، وفيها النخيل والبساتين، وكل هذه المزروعات تُسقى بالآبار الارتوازية.

عُدنا بعد هذه الجولة القصيرة إلى الفندق، وبقينا إلى حوالي الساعة الرابعة والنصف حيث جاء السيد عبدالله البخاري مدير المالية، وصحبنا إلى مقر رئاسة الوزراء لنقابل سمو ولي العهد.

دخلنا على سمو الأمير فيصل ولي العهد ورئيس مجلس الوزراء فقابلنا مقابلة ودية ببشاشة وترحيب عظيمين، وجلس إلى جانبنا وترك كرسيه وجعل يتحدث إلينا ويرحب بنا وأننا لسنا ضيوفاً وإنما نحن في بيوتنا. وبعد أن سلمناه كتاب جلالة الملك حسين المعظم والهدية وهي مصحف من طبع دار الأيتام الإسلامية في القدس وآخر لجلالة الملك سعود، أدار الحديث سمو الأمير فيصل في عدة نواح وكان أكثر الحديث يدور حول قضية فلسطين، وكيف أضاعها العرب بأنفسهم وبأعمالهم وبتفرقهم. ومن عبارته: "إن الخصومات القائمة، والدسائس التي تحاك من الخلف بينهم والنعرات التي تُثار هي من أسباب تأخر العرب وتدهورهم وضعفهم". وقال: إنه على أتم الاستعداد لعقد اتحاد مع أية دولة عربية اتحاداً اقتصادياً وثقافياً وسياسياً، وأنه يمد يده للتعاون بكل إخلاص وصدق مع الدول العربية.. ثم قال: والآن، نرجو من الله أن يوفق الأمة العربية جمعاء ويجمع كلمتها.

ودار الحديث في عدة نواح ودام هذا الاجتماع نحو ساعتين، ثم ودعناه شاكرين لهذه المجاملة الطيبة، والمقابلة الأخوية الودية، وقال لنا: "أنتم في بيوتكم ويمكنكم أن تأتوا في كل وقت بدون إذن وبدون سابق موعد، ما عليكم مانع ولا بيننا حدود ولا سدود". وكررنا شكرنا لسموه وانصرفنا.

وسمو الأمير فيصل ركن كبير من أركان الدولة السعودية، بل هو عمادها الأكبر فهو ولي العهد ورئيس الوزراء ونائب الملك. وهو سياسي محنك في السياسة ومزاولتها، وقد حضر معظم المؤتمرات السياسية والاجتماعات الدولية، وهو يبلغ من العمر الآن التاسعة والأربعين. ورحل إلى أوربا وأمريكا عدة مرات وهو يأتي بعد أخيه جلالة الملك سعود ولهما واحد وأربعون أخاً، منهم: محمد، وخالد، وناصر، وسعد، وفهد، وعبدالله، وبندر، وسلطان، ومشعل، ومساعد، وعبد المحسن، ومشاري، ومتعب، وطلال، وعبد الرحمن، وتركي، وبدر، وفواز، ونواف، وماجد، ونايف، وسلمان، وعبد الاله، وأحمد، وسطام، وتامر، وممدوح، ومشهور، وهذلول، وعبد المجيد، ومقرن.

وله ستة أعمام، وهم: محمد، وسعود، وعبدالله، وأحمد، ومساعد، وسعد.

نبذة عن المملكة العربية السعودية

تتألف المملكة العربية السعودية من عدة أقاليم:

(١) نجد، وهو مهد الحكم السعودي، وعاصمته الرياض التي نحن فيها الآن، وأكتب هذه الكتابة وأنا في "فندق الرياض". ولما أنشأ عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل عرشه في الرياض حمل لقب سلطان نجد وملحقاتها، ثم أضاف إلى هذا اللقب لقب "ملك" الحجاز، ثم وحّد اللقبين في سنة ١٩٣٢م فأصبح لقبه ملك المملكة العربية السعودية. أما ملحقات نجد فأهمها: القصيم، وجبل شمر، والحسا أو الإحساء، وحائل، والدهناء والنفود وهما مناطق صحراوية واسعة. والرياض العاصمة في نجد وهي مقر الملك شطراً من السنة، وفيها القصر التاريخي الذي شهد المراحل الأولى من وثبة السعوديين لاسترجاع ملكهم الضائع. وقد اتسع هذا القصر وتوفرت فيه جميع أسباب الراحة.

وقد أُنشيء على بعد ثلاثة كيلو مترات منه "قصر الناصرية" بحدائقه وبركه الواسعة، وقد زرناه أمس بتاريخ ١٤/٤/١٩٥٤م وتجولنا في حدائقه بالسيارة وإذا به جنّة واسعة وارفة الظلال وزمردة خضراء تزين تلك البقعة. له مدخل ذو بوابتين واسعتين: المدخل من التي على اليمين وتنفذ إلى شارع واسع معبّد بالإسفلت، والمخرج من التي على الشمال وتمرّ بشارع مماثل للأول، وبينهما ممر مغروس بالأشجار، وعليه أعمدة

ثُبّت فيها لمبات الكهرباء الضخمة بشكل بديع. ويمتد الشارعان نحو خمسمائة متر، وعلى الجانبين حدائق وملاعب متنوعة، وفيه مسجد لطيف، ومدرسة فخمة للأمراء، وديوان خاص لاستقبال الزائرين، وبناء فخم للأمراء يمكثون فيه إذا كان ليس لديهم في النهار شغل، وفي الليل يذهبون إلى محل منامهم.

وفيه محل مخصّص لاقتناء بعض الحيوانات ؛ ففيه أسد ولبوة ونمر وبعض القرود وثعلب ونعامتان وضبع وذيب وبعض الطيور والغزلان وبقر الوحش.

(٢) الحجاز، وعاصمة الحجاز مكة وهي مقر الملك. وأشهر مدن الحجاز المدينة المنورة، وجدة وهي الميناء التجاري الأكبر في المملكة العربية السعودية إلى الآن، وفيها جميع رجال السلك السياسي. والطائف وهي مصيف الحجاز، وقد مررنا عليها بالطائرة مرور الكرام.

(٣) عسير، وهي الإمارة الواقعة بين الحجاز واليمن، وهي من أخصب مناطق المملكة السعودية، ويسميها الخبراء "سلة خبز المملكة".

(٤) الربع الخالي، وهو المنطقة الصحراوية الرهيبة المجهولة، ويقع في الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية.

وتبلغ مساحة المملكة العربية السعودية نحو المليونين من الكيلو مترات المربعة على وجه التقدير، وعدد سكانها نحو سبعة ملايين نسمة وليس هناك إحصاء رسمي وإنما كل هذا تقدير فقط.

ويحد المملكة العربية السعودية من الشمال: الكويت والعراق والمملكة الأردنية الهاشمية. ومن الشرق: الخليج العربي وقسم من سلطنة عُمان. ومن الجنوب: قسم من سلطنة عُمان وحضرموت واليمن. ومن الغرب: البحر الأحمر.

[سمو الأمير فهد بن فيصل]
[رئيس بلدية الرياض]

في يوم ١٥/٤/١٩٥٤م أمضينا معظم النهار في الفندق. وفي الساعة الرابعة مساءً ذهبت مع فضيلة الشيخ محمد علي الجعبري لزيارة رئيس البلدية في دار البلدية، سمو الأمير فهد بن فيصل. وقد استقبلنا على الباب شاب فلسطيني عرفنا بنفسه

واسمه محمود حمّود من حيفا ورحب بنا ترحيباً عظيماً، ثم دخلنا على الرئيس في غرفة مستطيلة يبلغ طولها نحو ثمانية أمتار وعرضها نحو خمسة، مفروشة بالسجاد الفاخر ومؤثثة بأثاث فاخر. ورحب بنا الرئيس ترحيباً عظيماً، وأخبرنا بأنه لم يمض على تأسيس البلدية أكثر من سبعة أشهر. ومكثنا عنده نحو نصف ساعة دار أثناءها الحديث حول فلسطين وحوادثها. وبعد أن شربنا القهوة العربية والشاي استأذنا وقمنا فوقف يودعنا، ولكنه أصر على أن نزوره في بيته وحدّد لنا موعداً فودعناه شاكرين.

ودار البلدية يظهر أنها مستأجرة لأنها عبارة عن بناء قديم من اللبن كسائر دور الرياض التي دخلناها، لها ساحة في الوسط ويحيط بها الغرف من جميع الجوانب، وتتألف من طابقين على نفس الترتيب، والغرف مسقوفة بالخشب والطين، وفي ساحة الدار رأينا حبلاً مدلى وبه قطعة من جريد النخل ولما سألنا عن الحكمة في وجوده قيل لنا هذا الحبل من أجل تعليق قربة الماء...

[مقابلة ثانية مع سمو الامير فيصل ولي العهد]

في صباح يوم الجمعة السادس عشر من نيسان ١٩٥٤م أخذنا نستعد لمقابلة سمو ولي العهد، وفي الساعة الخامسة عربي أي الحادية عشرة ذهبنا إلى "قصر المربع" وهو القصر القديم الذي كان يجلس به جلالة المرحوم الملك عبد العزيز، وقابلنا سمو الأمير فيصل وكان معه السيد محمد علي رضا وزير الدولة، وبعد أن سلمنا على سمو الأمير والوزير جلس سمو الأمير فيصل بجانب الباب وأجلسنا في الداخل، وجعل يرحب بنا، ثم حصلت فترة صمت قطعها سماحة الشيخ عبدالله غوشة قائلاً: "نحن نشكر سموكم على ما قمتم به نحونا من حُسن ضيافة، وإننا مسرورون جداً في إقامتنا بينكم، وكم كنا نود أن تطول إقامتنا هذه ولكن.." فقال سمو الأمير: "بس ولكن.." وضحكنا؛ فقال سماحة الشيخ عبدالله: "ولكن وراءنا مهمة شاقة وسفرة طويلة، نريد من سموكم أن تتكرموا بالإسراع بإنجاز مهمتنا ولكم منا الشكر".

فقال سموه: "والله إن قضية المسجد الأقصى قضية كل مسلم، وليس المسجد الأقصى لكم وحدكم، هذا للجميع، ونحن نحب أن تنجحوا في مهمتكم، وكم كنت أود لو أن مجيئكم كان بوجود جلالة الملك".

فقال له سماحة الشيخ عبدالله: "إن البرقية التي أرسلها جلالة الملك سعود يقول فيها إن أخي ولي العهد يقوم مقامي وسوف لا يقصّر تجاه هذا الموضوع".

فقال سمو الأمير: "لا نقصر إن شاء الله وأرجو أن تقترحوا عليّ أي شيء تريدونه وأنا أنفذه".

فقلنا له: "نحن لا نستطيع اقتراح شيء وهذا تابع لكم".

فقال: "كم قدّروا تكاليف الإصلاحات في الصخرة والحرم؟".

فقال له الشيخ عبدالله: "نحو ستمائة ألف دينار أو تزيد".

فقال: "هذا مبلغ زهيد بالنسبة لجميع المسلمين".

فقال فضيلة الأستاذ الجعبري: "إن شخصاً واحداً من المسلمين يستطيع القيام بهذا العبء".

فقال سمو الأمير: "إي والله إن واحداً يستطيع أن يدفع هذا المبلغ".

فقال فضيلة الأستاذ الجعبري: "وإنا لمستعدون أن نسجّل اسمه على ركن من أركان عرش الله الأدنى".

ثم قال سمو الأمير فيصل: "لو أن (الجامعة العربية) وزعت هذا المبلغ على الدول، أو لو أن هذا المبلغ يُوزع على الدول العربية والإسلامية ويُفهم حصة كل دولة لكان أوضح. ثم كرر قوله: اقترحوا البرنامج الذي نسير عليه".

فقال سماحة الشيخ عبدالله: "تتبرع الحكومة بمبلغ ومن ثم يُعمل اجتماع ويتبرع الشعب".

فقال: "أنا أُفضّل أن يُعمل اجتماع ويتبرع التجار والمقتدرون أولاً ثم نحن نكمل، وهذا أنجح لقضيتكم". وأكد على ذلك وكرره.

واتفقنا على أن نسافر إلى جدة يوم ١٩٥٤/٤/١٧م ونعقد اجتماعاً يدعو إليه سمو الأمير بواسطة مدير المالية ورئيس ديوانه ويسجّل الحاضرون به ما تجود به أنفسهم، ونعود إلى الرياض يوم الإثنين في ١٩٥٤/٤/١٩م.

ثم قال: "أين تحبون أن تصلوا الجمعة ؟".

فقلنا له: "حيثما تحب".

فقال: "الأحسن أن تصلوا في مسجد الناصرية". وأرسل معنا السيد عبدالله اللنجاوي مدير المالية، وصلينا في "مسجد الناصرية" وهو المسجد الخاص لقصر جلالة الملك سعود. والمسجد واسع ومفروش بالحُصُر وأرضه من الحصباء، وله منبر بسيط بداخل المحراب... وبعد أن قضينا الصلاة انصرفنا إلى الفندق وودعنا السيد عبدالله اللنجاوي على أن يعود إلينا بعد العصر لنذهب إلى "الناصرية".

[مع رشيد عالي الكيلاني في حديقة "قصر الناصرية"]

وبعد تناول طعام الغداء استرحنا قليلاً ثم ارتدينا ألبستنا وتأهبنا للخروج، وبقي فضيلة الأستاذ الجعبري في الفندق لأنه تعب قليلاً من سعال انتابه مع ألم قليل في صدره فأعطيته دواءً للسعال كان معي وحبتين من السلفا وودعناه، وذهبنا إلى "الناصرية" بصحبة السيد عبدالله اللنجاوي، ولما وصلنا إلى داخل الحديقة وجدنا السيد رشيد عالي الكيلاني؛ فسلمنا عليه وجلسنا معه مدة ساعة تقريباً، وأخذنا بأطراف الأحاديث وكان أغلبها يدور حول قضايا العرب وما إلى ذلك، وكان السيد رشيد يجول ويصول في انتقاد العرب وزعمائهم ورؤسائهم بشدة وبصراحة.

[الأمير مساعد بن سعود]

وبعد ساعة من وصولنا حضر الأمير مساعد نجل جلالة الملك سعود، وهو شاب دون العشرين من العمر، أسمر اللون مقبول الشكل، خفيف الروح، فرحب بنا ترحيباً طيباً، والحقيقة أنه مثال الأدب والأخلاق العالية والتربية العربية الأصيلة.

وبقينا جالسين في تلك الجنة إلى الغروب، وأردنا أن نودع الأمير فأبى إلاَّ بعد العشاء. وعندما حان وقت العشاء قمنا إلى مائدة عامرة بألوان الأطعمة الفاخرة، وقد كُتب على رأسها بالزهور عبارة "أهلاً وسهلاً". وبعد العشاء صلينا المغرب وودعنا سمو الأمير الظريف شاكرين له هذه الأريحية ولم يتركنا حتى وعدناه بالعودة مرة ثانية.

أما الحديقة فإنها جنة صغيرة كاملة التنسيق فيها من جميع الأزهار، وما أظن انه يوجد أجمل وأعظم منها من حيث الترتيب والاتساع وما جمعت من زهور وورود، والحق أنها زمردة خضراء في جبين الرياض.

[بالطائرة إلى جدة]

في صباح يوم السبت أمضينا الوقت في الفندق إلى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر. وبعد الغداء توجهنا إلى المطار، وفي الساعة الثانية والنصف قامت بنا الطائرة متوجهة إلى جدة، وكانت الطائرة كبيرة من ذوات الأربعة محركات، ولكن الجو كان مكفهراً والطيران بعد الظهر فوق الصحراء في مثل هذه الحالات مزعج إلى حد كبير، فكانت الطائرة تهتز كثيراً وتمر على جيوب لا حصر لها وبقينا كل الطريق، ومدته ثلاث ساعات، ونحن في قلق وإزعاج والأعصاب متوترة، والساعة في مثل هذه الحالات بطيئة جداً لا تكاد عقاربها تتحرك. وبعد الساعات الثلاث هبطت بنا الطائرة في مطار جدة، ووجدنا مندوباً عن وزارة الخارجية في استقبالنا وذهبنا حالاً إلى "فندق البساتين" الذي حُجِز لنا فيه غرفة من قبل الحكومة السعودية، وكانت الساعة حوالي السادسة وهناك فرق نحو نصف ساعة بين الرياض وجدة.

[الدكتور حافظ عبد الهادي]

حاولنا الاتصال بالدكتور حافظ عبد الهادي تلفونياً فلم نوفق، فأرسلنا له بطاقة وحضر بعدها بنحو نصف ساعة، وجاء مُسلِّماً وعاتباً لعدم إخبارنا إياه بسفرنا، فاعتذرنا له وقلنا بأننا كنا نظن أن الخارجية تخبره. وبعد الاستراحة ذهبنا معه إلى زيارة السيد طاهر رضوان وكيل وزارة الخارجية، وبعد إخباره تلفونياً وجدناه في انتظارنا في داره وجلسنا حول بركة صغيرة في حديقة داره ورحب بنا ترحيباً جميلاً، وهو شاب مهذب وسياسي خبير.

وبعد أن دار الحديث قليلاً سألناه عما إذا كان لديه خبر بعقد اجتماع في جدة من أجل مهمتنا (؟) فقال إنه أُخبِر بسفرنا فقط وأما الخبر فسيكون عند السيد إبراهيم السليمان وكيل وزارة المالية وهو في مكة، واتصل بالسيد إبراهيم السليمان فوجده، ووجد عنده جميع الأخبار، وقال له إنه سيزورنا غداً صباحاً. وبعد أن شربنا القهوة

ودعناه شاكرين له لطفه وكرمه. وذهبنا إلى المفوضية. أمضينا شطراً من الليل في معية إخواننا الأردنيين.

[إبراهيم السليمان وكيل وزارة المالية]

في صباح يوم الأحد الثامن عشر من نيسان ١٩٥٤م حوالي الساعة العاشرة صباحاً حضر السيد إبراهيم السليمان ورحب بنا وجلسنا معه نتبادل التحيات، وأخذنا بأطراف الحديث، فقال: إن عقد الاجتماع يوم الأحد، اليوم، غير مناسب ولا يجدي نفعاً والأفضل أن يكون الاجتماع يوم الإثنين غداً حتى نتمكن من دعوة أكبر عدد ممكن من التجار وأصحاب الأعمال، وسيكون الاجتماع حفلة تكريم لكم في دار معالي الشيخ حمد السليمان وزير الدولة، فوافقناه شاكرين، ثم ودعنا وبقينا مع الدكتور حافظ وقد عمل لنا حفلة عشاء دعا إليها كبار رجال الدولة السعودية والسلك السياسي العربي.

[سهرة دبلوماسية عربية في دار المفوضية الأردنية]

أمضينا بقية النهار ما بين التجوال في أسواق جدة وشراء بعض الحاجات، قبيل الغروب على شاطىء البحر، وغروب الشمس على الشاطىء رائع ساحر. وبعد الغروب جئنا الى المفوضية، وحضر المدعوون: القائم بأعمال المفوضية المصرية وسكرتيره، والقائم بأعمال المفوضية اللبنانية، والقائم بأعمال المفوضية العراقية، والسيد سمير شما من كبار موظفي الخارجية السعودية، ووكيل وزارة الخارجية السيد طاهر رضوان، والسيد عاكف الفايز. وأنسنا بهم في تلك الحفلة العائلية وأمضينا سهرة لذيذة، وقرب الساعة الثانية عشرة ودعنا الجميع وذهبنا إلى الفندق.

[صورة للحجر الأسود وباب الكعبة المشرفة]

في صباح الإثنين ١٩ نيسان ذهبنا إلى مكة المكرمة نحو الساعة الثامنة والنصف، ووصلنا في تمام الساعة التاسعة والنصف. والطريق كما قلت سابقاً (٧٤) كم تمرّ على أربعة أماكن هي: "الشميسي"، ثم "أم السلم"، ثم "بحرة"، ثم "حَدًّا"، وتوجهنا رأساً إلى الحرم، وعند وصولنا إلى قرب باب الحرم لقينا السيد عبد الرحمن صبري فرافقنا إلى الحرم، ودخلنا إلى غرفة الآغوات الملاصقة إلى بئر زمزم وجلسنا في

نافذة تطل على الكعبة المشرفة، وكان معي آلة تصوير فأخذت منظرين للحجر الأسود، وباب الكعبة، فرآني أحد الجنود وقامت قيامته مع بعض المصلين من العوام وحصلت دوشة، وأبلغوا دائرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الموجودة في الحرم نفسه، وأنا لم أعبأ بأحد فذهبت وطفت في البيت وصليت في مقام إبراهيم، وبعد انتهائي من الصلاة جاءني جندي لطيف وقال الشيخ ينتظرني. والشيخ هذا هو الشيخ ناصر بن إبراهيم المبارك وكيل رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مكة المكرمة، فذهبت معه ولحقني سماحة الشيخ عبدالله والسيد عبد الرحمن صبري!

دخلنا على مكان مرتفع قليلاً وإذا هناك جماعة نحو السبعة جالسون على مقاعد لا بأس بها، وسلمت فلم أسمع من واحد جواباً، ثم قالوا أدخل على الشيخ فدخلت وبقي الأستاذ الشيخ عبدالله جالساً عند الهيئة الموقرة... وسلمت على الشيخ ناصر فلم يرد السلام... وسألني عن التصوير وأليس التصوير حراماً وممنوعاً، وجعل يعظ، فسكت حتى أتم كلامه، فقلت له: إننا نعلم واجبنا، وحقوق بيت الله، وما جئنا إلى هذا المكان الطاهر إلاّ للزيارة ولاعتقادنا أنه أشرف مكان في العالم، ونحن لسنا جهلاء، ولا تحتاج المسألة إلى كل هذه المظاهرة، فإن الأجانب سُمح لهم بالتصوير ونُشر في مجلات أمريكا، وأرجو أن يُعلم بأننا نحرص كل الحرص على حرمة الأماكن المقدسة. فتراجع وطلب القهوة، وقال: نحن لا نعمل هذا التشديد إلاّ من أجل المحافظة على بيت الله، وإذا قصرنا سوف تلوموننا أنتم بأنفسكم. وكنت أحب أن أختصر الحديث لأننا نحب أن نتجول في أسواق وشوارع مكة، فودعته. وكان سماحة الشيخ عبدالله يجادل الجماعة التي في الغرفة المجاورة وأسكتهم حتى قالوا له وفوق كل ذي علم عليم.

[جولة في أسواق مكة وبعض مزاراتها)

ثم انصرفنا وتجولنا بصحبة الأخ الشيخ عبد الرحمن صبري في أسواق مكة، وزرنا المكان الذي وُلد فيه سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وقد بُني عليه مدرسة، وبيت السيدة خديجة، وقد بُني عليه مدرسة أيضاً. ثم جلنا وذهبنا إلى الحرم وكان وقت صلاة الظهر قد حان فصلينا الظهر، وبعد الصلاة رأينا الأخ الشيخ عبد المعز عبد الستار وهو صديق قديم من علماء الأزهر، وقد جاء إلى مكة من أجل حضور الفحص منتدباً من مصر، وسلمنا عليه سلاماً حاراً وودعناه، وعدنا إلى جدة.

[اجتماع في بيت الشيخ حمد السليمان]

بعد أن استرحنا قليلاً، وكانت الساعة الرابعة، جاءنا الدكتور حافظ وذهبنا إلى بيت الشيخ حمد السليمان فوجدنا استعداداً هائلاً من المقاعد الفاخرة والسجاد الوثير، واستقبلنا الشيخ إبراهيم السليمان ودخلنا إلى حديقة واسعة وسلمنا على صاحب الدار معالي الوزير، وجلسنا وتوافد المدعوون من كبار التجار، وبعد ساعة من وصولنا وقف الشيخ إبراهيم السليمان وألقى كلمة طويلة، ورحب بنا ترحيباً طيباً، وحثَّ الحضور على التبرع لهذا المشروع الجليل، وشكر من حضر وختمها بأبيات رقيقة. ثم قام سماحة الشيخ عبد الله وردَّ عليه بكلمة مختصرة شكر فيها الحكومة والشعب وجلالة الملك سعود وسمو ولي العهد وصاحب الدعوة الشيخ حمد السليمان، وبيَّن مهمتنا لهم باختصار، وإننا حضرنا إلى هذه المملكة وبدأنا بها لأن فيها أول بيت وُضع للناس، ولأنها قدوة العرب والمسلمين، وكانت كلمة موفقة.

ثم تُليت قائمة التبرعات فبلغت (١٧٣،٧٠٠) مائة وثلاثة وسبعين ألف وسبعمائة ريال. ووقف الشيخ حمد السليمان وقال: هذه قائمة أولى وستتبعها قائمة أخرى إن شاء الله لأن قسماً من التجار كان غائباً. فشكرناه على اهتمامه. ثم دعانا إلى البوفيه، وإذا فيه مائدة فاخرة تكفي لخمسمائة مدعو وأكثر فتناولنا الشاي وبعض الفواكه، ثم ودعناه شاكرين ممنونين.

ذهبنا بعد هذه الحفلة الرائعة إلى دار المفوضية الأردنية بصحبة الدكتور حافظ وأمضينا نحو ساعتين. وحضر السيد عرفات الدجاني والسيد حامد أبو ستة والسيد سمير شما، وبعد أن تجاذبنا أطراف الحديث وسمرنا معهم مدة لطيفة، ودعناهم وذهبنا إلى فندق البساتين، ونمنا مبكرين.

[عودة إلى الرياض]

واستيقظنا صباحاً في نحو الساعة الخامسة، وجاء الدكتور حافظ، وبعد أن أفطرنا فطوراً خفيفاً ذهبنا إلى المطار فوجدنا السيد عرفات الدجاني هناك، ولم يطل الوقت فودعنا الإخوان وقامت بنا الطائرة في تمام الساعة السادسة. وكان الجو لطيفاً والطائرة من ذات الأربعة محركات، وقطعت الطريق بنا في نحو ساعتين ونصف.

ووصلنا الرياض في تمام الساعة الثامنة والنصف، فوجدنا فضيلة الشيخ محمد علي الجعبري ينتظرنا في المطار، وسلمنا عليه ووجدناه بصحة جيدة والحمد لله. وكان في استقبالنا أيضاً موظف عن وزارة المالية، والسيد كمال نجم سكرتير الأمير عبدالله ابن عبد الرحمن. وبعد أن جلسنا قليلاً في المطار وتناولنا شراب المانجا، ذهبنا إلى الفندق وأمضينا بقية اليوم في الفندق وشرحنا للأستاذ الجعبري ما حصل معنا، وسرّ بتوفيقنا.

[لقاء مع سمو الأمير عبدالله بن عبد الرحمن]

وفي مساء يوم الثلاثاء ١٩٥٤/٤/٢٠م الذي وصلنا فيه الرياض، قال فضيلة الأستاذ الجعبري إنه أخذ موعداً من سمو الأمير عبدالله بن عبد الرحمن ليزوره في المساء، فذهبنا معه، وأمضينا عنده نحو نصف ساعة. وبعد ذلك ودعناه..

[مقابلة ثالثة مع سمو ولي العهد]

في صباح يوم الأربعاء ١٩٥٤/٤/٢١م ذهبنا وقابلنا سمو الأمير فيصل، ووجدنا عنده سمو الأمير فهد وزير المعارف، والسيد محمد علي رضا وزير التجارة. وكان استقباله ظريفاً، ورحب بنا وجلسنا نخبره بما حصل معنا في جدة وكانت الأخبار عنده. ورأينا من حديثه أنه يحب لو تأخرنا ورأينا جلالة الملك سعود، فقال سماحة الشيخ عبدالله: "إذا رأيت سموكم أن نذهب إلى الكويت والبحرين وقطر ثم نعود فيكون جلالة الملك سعود حضر فنتشرف بمقابلته ونقضي مهمتنا". فرحب بذلك وقال: "لكم ما تشاؤون". وأمر باتخاذ الترتيبات لنسافر إلى الظهران، فودعناه شاكرين.

وفي ذلك المساء اتصل بنا الشيخ عبدالله اللنجاوي وقال: "لا يوجد طائرة تقوم إلى الكويت أو الظهران إلا يوم السبت، وإنما يوجد قطار يسافر إلى الظهران غداً ولكنه متعب". ففضلنا السفر فيه ولو تعبنا حتى نكون يوم الجمعة في الكويت، وبتنا على هذه النية.

[في قطار الصحراء إلى الظهران]

وفي صباح يوم الخميس ١٩٥٤/٤/٢٢م ذهبنا في نحو الساعة الخامسة والنصف إلى محطة سكة الحديد وهي قريبة من الفندق جداً، ووضعنا أمتعتنا في القطار وركبنا فيه.

ولكن ندمنا لأنه غير مريح، فضلاً عن قذارته وقذارة الركاب، ولكن رغم كل هذا توكلنا على الله وسافرنا فيه. وبدأت رحلة القطار في تلك الصحراء المملّة، واستغرقت الرحلة يوماً كاملاً أي اثنتي عشرة ساعة، ومررنا على "الخرج" و"عين حرض"، و"الهفوف" وهي تقريباً عاصمة منطقة الإحساء، وفيها نخيل كثير ومياه غزيرة. وهذه الأمكنة التي ذكرتها وقطعناها هي "الدهناء" التي قال الشاعر العربي قديماً فيها:

يمرون بالدهنا خفافاً عيابهم ويرجعن من دارين بجر الحقائب

فرأينا "الدهناء" التي كنا نقرأ عنها في الكتب، وكنت أتذكر ويمر بخاطري كيف كان يقطعها الفاتحون قديماً على الإبل وعلى أرجلهم، وكم لاقوا من الصعاب وما نراه من مؤذيات. أما القطار فكان ركابه عجباً من العجب...

وصلنا محطة الظهران قرب الغروب، فوجدنا شاباً في استقبالنا اسمه حمد عبدالله سكرتير الشيخ عبدالله ابن عدوان الذي هو وكيل المالية ووكيل سمو الأمير فيصل في جميع أموره الخاصة، وجاء أيضاً السيد ربحي الحسيني ونقلونا إلى الفندق، ونسينا كل تعبنا عندما وصلنا الفندق واستقر بنا المقام وشربنا القهوة. وجاء فور وصولنا الشيخ عبدالله ابن عدوان وسلّم علينا واعتذر لعدم تمكنه من لقائنا على المحطة لأنه كان في وداع سمو الأمير سعود الكبير أحد أبناء عم جلالة الملك، وهو شيخ كبير ذهب إلى ألمانيا ليتداوى. وبعد أن مكث قليلاً قال: "سأذهب الآن لآخذ لكم موعداً مع الأمير سعود بن جلوي أمير المقاطعة لنزوره". فذهب وقمنا نحن نغسل ما علينا من غبار ورمال ونصلح من شأننا، وعاد بعد ساعة وقال: "غداً صباحاً نزور الأمير لأنه على موعد مع جماعة". فشكرناه وودعناه، وقمنا نحن إلى العشاء.

[الخُبَر وأميرها الشيخ عبد العزيز الماضي]

وبعد ذلك ذهبنا إلى الخُبَر وهي بلدة تبعد نحو سبعة كيلومترات عن الظهران، وهناك بعض الإخوان من القدس والخليل في "فندق المطلوب"، واجتمعنا بهم وسلمنا عليهم وكانوا مسرورين جداً وأمضينا معهم سهرة طيبة، ثم تعرفنا على أمير الخبر وهو الشيخ عبد العزيز الماضي، وهو رجل لطيف مرح، وجلسنا معه نحو نصف ساعة، ولم يتركنا حتى أعطيناه وعداً بأننا سنرجع ونزوره ثانية إن شاء الله.

وعدنا إلى الظهران، ونمنا بدون حركة من التعب. والحقيقة أن السفر قطعة من العذاب سواء أكان في القطار أم السيارة أم الطائرة، فالقطار والسيارة يزعجان الجسم إذا كان السفر طويلاً في مثل هذه الطرقات، وأما الطائرة فإن الإنسان مهما أوتي من شجاعة فإن أعصابه لا تهدأ ولو حاول أن يظهر بمظهر الشجاعة، ولا يطمئن أبداً.

[الدمام ولقاء مع الأمير]
[سعود بن جلوي]
[والشيخ عبدالله ابن عدوان]

وفي صباح يوم الجمعة في ١٩٥٤/٤/٢٣م استيقظنا مبكرين وكنا أخذنا قسطاً من الراحة، وبعد أن تناولنا طعام الإفطار، ذهبنا إلى الدمام، وهي مركز الحكومة وفيها مقر الأمير سعود بن جلوي حاكم المنطقة. وهي الميناء الذي سيكون له مستقبل عظيم، وتبعد عن الظهران بنحو (٢٥) كم.

وصلنا الدمام وزنا الشيخ عبدالله ابن عدوان، وبعد أن شربنا عنده القهوة ذهبنا معه في سيارته إلى زيارة الأمير سعود بن جلوي. وهذا الأمير مشهور عندهم في القوة والجبروت والعدل، فإن الجميع يتحدثون بعدله وإنصافه وعدم محاباته لأحد وانه لا تنفع عنده الوساطة...

دخلنا عليه وهو جالس في ديوان واسع وعنده بعض الزوار فاستقبلنا وحيانا بهدوء واتزان، وجلسنا عنده نحو ربع ساعة شربنا القهوة والشاي، وهو صامت، وحاولنا أن نجعله يتحدث فلم يزد على كلمة أو كلمتين. وبعد ذلك ودعناه وانصرفنا... وقيل لنا إن هذا الإنسان لا يتحدث فهو قليل الكلام جداً، وقد زار أوروبا، وعنده طبيب إفرنسي.

[دارين]

خرجنا من عنده والقصر الذي يجلس به على ساحل البحر، ويوجد مقابل القصر قلعة قديمة بداخل المياه، سألنا عنها فقيل لنا إنها من بناء أحد أجداد السعوديين منذ مائة وستين سنة. ويوجد مقابل الدمام قرية في شبه جزيرة، سألنا عنها فقيل لنا هذه "دارين" التي قال فيها الشاعر: " ويرجعن من دارين بجر الحقائب "، وكانت محلاً لصيد اللؤلؤ...

-٢-

[الكويت]

[السفر ولقاء الشيخ عبدالله بن مبارك]

غادرنا الدمام إلى الظهران فوجدنا الطائرة على وشك القيام، وقد أعدوا لنا جوازات السفر وأشروا عليها بالعودة لأننا سنعود بعد زيارتنا للكويت والبحرين وقطر. وركبنا الطائرة وتحركت بنا وكان الجو هادئاً صافياً. ومررنا بالبحرين وكانت الطائرة تطير فوق الساحل إلى الكويت. وقد قطعنا المسافة بساعة ونصف ووصلنا الكويت في تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً فلم نجد أحداً في المطار، والظاهر أنه لم تصل البرقية المرسلة من الظهران، واهتم موظفو المطار في الأمر فاتصلوا بالشيخ عبدالله بن مبارك وبأمير الكويت، وبعد نحو ساعة ونصف أُرسلت لنا سيارة من الأمن العام وذهبنا فيها إلى "فندق الخليج" وهو حديث لم يمض على إنشائه ثلاثة أشهر، وقد تركنا أمتعتنا بالمطار، وبقينا في الفندق نحو ساعتين. وجاء بعد ذلك السيد هاني القدومي من موظفي الأمن العام، ورحب بنا واعتذر بأن الحكومة لا علم عندها بوصولنا، وذهبنا معه إلى دار الضيافة فوجدنا الشيخ عبدالله بن مبارك ينتظرنا فيها فسلمنا عليه، ورحب بنا واعتذر بأنه لا علم عنده بوصولنا، فشكرناه على هذا اللطف والكرم. وبعد أن جلس معنا برهة ودعنا على أن نلقاه في الغد لنقابل سمو الأمير عبدالله السالم أمير الكويت.

[أمير الكويت.. "الشيخ العود" عبدالله السالم الصباح]

نزلنا بدار الضيافة وهي دار فخمة مؤثثة بأثاث فاخر نظيف وفيها جميع وسائل الراحة، وخُصِّص لكل واحد منا غرفة كاملة، ووضعوا سيارة تحت تصرفنا. وبعد أن استرحنا قليلاً وغيّرنا ملابسنا، خرجنا بالسيارة وتجولنا في الشوارع قليلاً ثم عدنا إلى الدار، وجاءنا بعض الإخوان... وبعد العشاء ذهبت مع الأخ السيد محسن قطان وتجولنا بسيارته نحو ساعة وعدت إلى الدار.

في صباح السبت ٢٤ من نيسان ذهبنا إلى زيارة الشيخ عبدالله بن مبارك فوجدناه جالساً في ساحة دار الأمن العام وحوله كثير من الزائرين وأصحاب المصالح والمراجعين، وهو جالس بكل بساطة، ويأتيه صاحب الحاجة ويراجعه فيقضي له ما يمكن أن يقضيه

أو يحوله إلى من يساعده في مهمته. ومن جملة المراجعين رجل عادي وقف أمامه وقال له: "إن فلاناً يخطب فلانة". وكان يحكي معه بصوت خافت فقال له: "ما يخالف". وانصرف الرجل!

وبعد تناول القهوة العربية الجيدة ركبنا معه بالسيارة وذهبنا إلى "قصر السيف" وزرنا "الشيخ العود" كما يسمونه وهو الأمير عبدالله السالم الصباح شيخ الكويت، وهو رجل بسيط جداً هادىء قليل الكلام، فرحب بنا ولامنا على عدم إخباره بمجيئنا فبسطنا له عذرنا، وأعطيناه كتاب جلالة الملك حسين والهدية. وشرح له الشيخ عبدالله مهمتنا، فقال: "إن هذه المهمة تخصّ كل عربي ومسلم وليست لكم، وأنا مهتم بها جداً وإن شاء الله سيحصل خير".

وبعد جلوسنا برهة أخذ يسألنا عن وضعية الحرم وأين يقع جامع عمر وكم المسافة بين الصخرة والمسجد الأقصى، وجعلنا نشرح له ذلك، ومن ثم قمنا وودعناه.

عدنا إلى مقرنا، وعند الغداء حضرت بعثة الشرف وهي مؤلّفة من الشريف ناصر والسيد عبدالله الزريقات والسيد محمد السعدي، فسلمنا عليهم وفهمنا منهم أنهم جاءوا ليرافقوا الشيخ عبدالله السالم إلى عمّان غداً صباحاً.

أمضينا بقية اليوم في الدار وفي بعض التجوال في السيارة.

[وداع "الشيخ العود" المؤثر لشعبه وهو يغادر البلاد]

وفي صباح يوم الأحد الخامس والعشرين من نيسان ١٩٥٤م استيقظنا مبكرين من نحو الساعة الثالثة والنصف، وبعد أن شربنا القهوة وجلسنا نتحدث قليلاً إلى الساعة الخامسة، ذهبنا إلى المطار لنودع الشيخ العود في سفره إلى الأردن. وكان في المطار خلق كثير من الأمراء والأجانب والموظفين وتجار الكويت، وجاء الأمير في نحو الخامسة والنصف وسلمنا عليه، وبعد أن استراح قليلاً ذهب إلى الطائرة ووقف يودع الناس، وبعد أن سلّم عليه الجميع صعد الى الطائرة ووقف ببابها والتفت إلى المودعين وقال:

أذكرونا مثل ذكرانا لكم ... رب ذكرى قربت من نزحا
واذكروا صبّاً إذا غنى بكم ... شرب الدمع وعاف القدحا

فكان موقفاً مؤثراً من رجل كبير السن يودع شعبه بهذين البيتين، ولا شك أن هذا يدل على نفسية رقيقة، وقلب طاهر...

[تبرع أمير الكويت لإعمار الأقصى والصخرة المشرفة]

عُدنا من المطار، وبعد تناول طعام الإفطار ذهبنا إلى الشيخ عبدالله بن مبارك وأخذنا له هديته، وبعد مقابلته قال لنا: "إن سمو الأمير تبرع بعشرين ألف دينار، وأوصى أن يُجمع من التجار ما يمكن جمعه، وأن هناك لجنة تبحث في هذا الموضوع الآن". وودعناه شاكرين ورجعنا إلى دار الضيافة.

[زيارة إلى الشيخ فهد السالم الصباح]
[رئيس دائرة الأشغال والصحة والبلدية]

وفي الساعة العاشرة كان موعدنا لزيارة الشيخ فهد وهو أخو سمو الأمير عبدالله السالم ورئيس دائرة الأشغال والصحة والبلدية، وله سمعة طيبة ولا سيما الذين يشتغلون معه، فجاءنا السيد كمال ناصر وذهبنا معاً إلى دائرة الأشغال، فوجدناها تغص بالمراجعين وأصحاب المصالح، ودخلنا غرفة الشيخ فهد وكان عنده بعض مشايخ من سوريا لم نتعرف عليهم إذ خرجوا عند دخولنا، فاستقبلنا الشيخ فهد وطلب لنا الشراب، وكان يشتغل في إمضاء الأوراق، ونحن لما رأيناه على هذه الحالة استأذنا وتركناه، وما كنا في زيارتنا تلك إلاَّ مُسلِّمين فقط.

[حفلة سمر في نادي المعلمين]

وفي عصر هذا اليوم جاءنا السيد حمد رجيب زائراً ومكث مدة ثم دعانا لحضور حفلة سمر في نادي المعلمين حيث يوجد فريق من نادي ميناء البصرة يزور الكويت، فذهبت أنا وفضيلة الشيخ الجعبري والدكتور سعيد الأفيوني، وكان النادي غاصاً بالمدعوين، وأمضينا ليلة ممتعة وكانت الحفلة موفقة تخللها كثير من المتنوعات والموسيقى والغناء، وقد غنى بعض الكويتيين قطعة من الغناء الكويتي القديم وهو قريب إلى الموشحات الأندلسية، وغنى فريق من أعضاء نادي البصرة أغنية من أغاني شمال العراق لا بأس بها. وقام معلم مصري فألقى عدة نكات لطيفة، ووزعت أوراق منمرة على الجميع،

ثم جرى سحب يانصيب وكان طريفاً جداً فالبعض كان نصيبه مصاصة أولاد، والبعض لعبة، والبعض أحمر شفايف. وكان الذي يوزع الجوائز المعلم المصري وكان تعليقه طريفاً جداً على كل واحدة (من هذه الجوائز)، وكان نصيب فضيلة الأستاذ الجعبري بورزان صغير فعلق عليه (المعلم) بأنه يدعو إلى النفير العام. وبعد تناول الشاي والفواكه انصرفنا في نحو الساعة الحادية عشرة وشكرنا السيد حمد والأعضاء الذين أتاحوا لنا هذه الفرصة الطيبة.

[زيارة إلى الشيخ عبدالله الجابر]
[رئيس المحاكم والمعارف والأوقاف]

في صباح يوم الإثنين ٢٦ (نيسان) ذهبنا نحو الساعة التاسعة إلى زيارة الشيخ عبدالله الجابر رئيس المحاكم والمعارف والأوقاف، وكان استقباله لنا طيباً ومكثنا عنده نحو نصف ساعة تبادلنا (فيها الحديث في) شتى الموضوعات، وتطرقنا إلى موضوعنا وسألناه باعتباره هو رئيس لجنة التبرعات، فقال: "إنكم جئتم بوقت غير مناسب لأنه يوجد الآن لجنة من العراق تطلب تبرعات لمنكوبي الفيضان، وقد قررت اللجنة أن تدعو تجار الكويت غداً في المدرسة المباركية". وأطلعنا على بطاقات الدعوة، ومع هذا ستبحث اللجنة في موضوعنا وترد علينا الخبر في ذلك، فشكرناه مودعين.

["مدرسة الشويخ الثانوية" ومديرها وبعض أساتذتها]

وذهبنا من عنده إلى "مدرسة الشويخ الثانوية"، وهي ليست مدرسة وإنما هي مدينة في مبانيها الضخمة، وأرضها الواسعة، وفيها مسجد فخم ودور للمعلمين على أحدث طراز، ومبانٍ لسكن الطلاب الداخليين، وقاعة فخمة جداً للمحاضرات والسينما. وبعد أن طفنا بها جلسنا مع مديرها السيد عبد المجيد مصطفى وهو مصري صعيدي، وإنه لرجل طيب، رقيق، ظريف جداً، قريب إلى القلب، يتحلى بشمائل طيبة ونفس عالية. وبعد أن تحدثنا معه قليلاً كانت الساعة قرب الثانية عشرة فودعناه شاكرين له لطفه وظرفه. وكان يرافقنا في التجوال السيد زهير الكرمي وهو من المعلمين البارزين في المدرسة، والسيد حسن صالح صبح وهو من معلمي اللغة العربية ومسئول الآن عن القسم الداخلي. والقسم الداخلي الآن فيه عشرون طالباً مغربياً فقط.

ورجعنا إلى الدار، وبعد أن صلينا الظهر واسترحنا قليلاً جاءنا السيد حيدر الشهابي وهو من شباب فلسطين الطيبين وكان قد دعانا إلى الغداء فذهبنا معه إلى داره وتناولنا غداءً فاخراً، وعدنا شاكرين.

وفي مساء الإثنين (أيضاً) ذهبنا إلى دار السيد عبد الرزاق بدران وأمضينا عنده سهرة طريفة عرض علينا فيها صوراً ملونة من مناظر الكويت والأردن ومن آثار البتراء وجرش، وكانت ليلة ممتعة أنسنا فيها بلطف الأخ بدران وأنسه مع نخبة من إخواننا الطيبين.

في يوم الثلاثاء ٢٧ (نيسان) لم يكن عندنا برنامج مهم قبل الظهر ووقت الغداء، فذهبنا إلى دار السيد (...)(١) ناصر الدين وهو من الشباب الممتازين، وقد جمع عدداً من إخواننا الفلسطينيين وتناولنا طعام الغداء معهم وكان اجتماعاً لطيفاً.

وفي المساء أمضينا السهرة عند الأخ السيد بشير شما، وجاء السيد عبد الرزاق بدران وعرض أيضاً من صوره الشيقة من مناظر الخليج وساحل عُمان، وكانت ليلة أنيسة مع إخوان كرام.

["مدرسة الصديق" ومديرها]

وقد زرنا قبل ظهر هذا اليوم مدرسة الصديق ومديرها السيد حمد رجيب، وهي مدرسة مبنية حديثاً، وفيها من البذخ والترف ما يعجز عنه القلم، ولكن إذا قدَّر الله وطُبعت هذه المذكرات ستوضح الصور ماهية هذا الترف(٢).

[ميناء ومدينة "الأحمدي"]

في يوم الأربعاء صباحاً ذهبنا الى "الأحمدي" وهي ميناء الكويت لنقل الزيت، وقابلنا في الأمن العام السيد (...)(٣) الهنيدي، ثم جاء السيد عبد الكريم الشوا وذهب معنا في جولة طيبة في مدينة الأحمدي، وهي مدينة حديثة لموظفي الشركة والعمال ؛ فيها

(١) فراغ في الأصل المخطوط.

(٢) للأسف لم نعثر بين أوراق المؤلِّف ومحفوظاته على هذه الصور.

(٣) فراغ في الأصل المخطوط.

جميع وسائل الراحة، وبها مسجد كبير له مئذنتان. ثم ذهبنا إلى الميناء وهي ميناء تأتي في الدرجة الثانية بين موانىء العالم التي يُنقل منها الزيت.

وبعد تجوالنا نحو ساعتين مررنا على بيت السيد عبد الكريم الشوا، وتناولنا القهوة واسترحنا عنده قليلاً، ثم غادرنا "الأحمدي" شاكرين للسيد عبد الكريم لطفه وكرمه.

[زيارة إلى الشيخ فهد علي السيف]

وفي مساء الأربعاء، حوالي الساعة الخامسة، جاء السيد كمال ناصر والسيد جمال هاشم والسيد طلعت الغصين، وذهبنا برفقتهم إلى بيت الشيخ فهد علي السيف قرب دار الضيافة التي نحن فيها، وذلك بناء على ترتيب عمله لنا الإخوان وكلهم يشتغلون في معية الشيخ فهد. وكان استقباله لنا عظيماً وجعل يعتذر عن استقباله السابق، وجعل الشيخ عبدالله والشيخ الجعبري يعاتبانه وهو يحاول أن يحيل الموضوع موضوع مزح وسرور. وبعد أن تناولنا الشاي والقهوة ودعناه فخرج الى السيارة وودعنا بكل حفاوة وترحاب كما تلقانا وكفر عن استقباله السابق، والمثل العربي يقول "البشاشة خير من القرى"...

وفي المساء ذهبنا إلى دار الأخ السيد محسن قطان وسهرنا عنده سهرة هادئة لطيفة، حضرها السيد درويش المقدادي والسيد خليل البيطار. وقبل أن نذهب إلى دار الأخ السيد محسن حضر السيد عبد العزيز الحسين مدير المعارف والسيد عبد اللطيف شملان، وبعد أن جلسا قليلاً دعانا السيد عبد العزيز لزيارة معرض مدارس البنات في صباح يوم الخميس، وقال إنه ينتظرنا في مكتبه وودعناه شاكرين...

[دائرة المعارف و"مدرسة طارق"]

في صباح يوم الخميس ٢٩ (نيسان) ذهبنا نحو الساعة الثامنة والنصف إلى دائرة المعارف، ومنها ذهبنا إلى "مدرسة طارق" وهي من المدارس الحديثة، وقد بُني هذا العام أربع مدارس مثلها، وهي: هذه المدرسة، و"مدرسة صلاح الدين" وهي أفخمها، و"مدرسة الصديق" وقد أشرنا إليها سابقاً، ومدرسة أخرى نسيت اسمها... والحقيقة أنها مدارس فخمة وفيها كثير من الأشياء التي لا لزوم لها.

جلسنا نحو نصف ساعة حتى جاء الشيخ عبدالله الجابر وهو رئيس المعارف وافتتح المعرض، وتجولنا معه نحو نصف ساعة ثم اعتذرنا له وطلبنا أن ننسحب فقال: "بكل سرور على كيفكم". وطمأننا بأنه هو مهتم بموضوعنا وأنه أنهى تقريباً الجمع إلى منكوبي العراق، وبعد مدة سيباشرون في الجمع لمسجد الصخرة، فشكرناه وودعناه، وجاءت عقيلة الأستاذ المقدادي ترافقنا والسيد عبد العزيز الحسين، وشربنا الشاي وانصرفنا شاكرين لهم هذا اللطف.

خرجنا من المدرسة وذهبنا رأساً إلى الأمن العام، حيث زرنا السيد هاني القدومي وأعلمناه أننا سنسافر بعد غد أي يوم السبت، فقال: "أرى أن تذهبوا الآن إلى "قصر السيف" لوداع الشيخ عبدالله بن مبارك لأنه غداً لا يمكن لقاؤه". فذهبنا ووجدناه هناك وودعناه، وأمر مرافقه بأن يحجز لنا ثلاثة مقاعد في الطيارة إلى البحرين ويرسل برقية إلى شيخ البحرين.

وذهبنا إلى دار الضيافة، وبعد العصر ذهبنا إلى دار السيد طلعت الغصين وكان دعانا إلى حفلة شاي، ووجدنا من جملة المدعوين السيد عبد اللطيف الحمد أحد كبار تجار الكويت ومن أغنى أغنيائها، ومدير الأوقاف، والشيخ عبد العزيز الحمد أحد علماء الكويت، وبعض الإخوان، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث مدة، وقام السيد عبد اللطيف الحمد مودعاً لأنه على موعد مع الشيخ فهد، وبقينا نحن إلى قرب المغرب، ثم قمنا مودعين فدعانا الشيخ عبد العزيز الحمد لأن نتناول عنده القهوة واعتذر بأنه لا يوجد عنده مثل الأخ طلعت من أنواع الكيك والفواكه، فأجبنا دعوته بكل سرور لأنه رجل طيب مخلص.

ودعانا السيد عبد العزيز العلي المطوع على الغداء، وهو من كبار تجار الكويت، ودعانا مدير الأوقاف على العشاء، فصار يوم الجمعة مزدحماً بشكل مزعج ونحن مدعوون عند الأخ السيد الدكتور سعيد الأفيوني على سهرة.

وفي المساء ذهبت إلى دار السيد خليل البيطار، وكان عنده بعض الإخوان، وبقيت عنده نحو ساعتين وعدت إلى الدار.. فوجدت الشيخين جالسين وعندهما بعض الإخوان، فجلسنا نسمر وجاء الدكتور سعيد والأخ خليل وأمضينا بقية السهرة في تلك الليلة.

وفي صباح الجمعة كان السيد جمال هاشم دعانا لبيته لنشرب عنده الشاي في الساعة العاشرة، فاعتذرت أنا وذهب الإخوان. أما أنا فذهبت برفقة الدكتور سعيد واشتريت بعض الأغراض، وذهبت بعدها إلى دار السيد عبد الرزاق بدران وأمضيت عنده نحو ساعتين وأخذت من عنده بعض الصور التي التقطها لمناظر من مدارس الكويت، ورجعت إلى دار الضيافة.

وبعد صلاة الجمعة ذهبنا إلى دار السيد عبد العزيز العلي، وتناولنا الغداء، وفي تمام الساعة الثالثة والنصف ذهبنا إلى دار الشيخ عبدالله الجابر وأعطيناه المصحف وودعناه. وذهبنا من هناك إلى دار الشيخ عبد العزيز الحمد وشربنا عنده القهوة وأنسنا به وبإخوانه مدة غير قليلة. وجاء ونحن جالسون ثلاثة مشايخ من جهة حلب قالوا انهم جاؤوا ليجمعوا لمنكوبي الفيضان في شمال سوريا.

ودعنا الشيخ عبد العزيز، وفي المساء بعد صلاة المغرب ذهبنا إلى دار مدير الأوقاف وهي قريبة جداً من منزلنا وتناولنا طعام العشاء، وكانت مائدة فخمة كبيرة جداً، وتعرفت على الشيخ (...)(٥) من علماء الاحساء، وهو مالكي المذهب، وقال لي: "إن أهل الاحساء جميعاً فيهم المالكية والشافعية والأحناف". وتحدثنا طويلاً... ثم انصرفنا شاكرين للداعي كرمه ولطفه.

أمضينا بقية السهرة عند الدكتور سعيد، وقد جمع لنا إخواننا وأنسنا بهم وكانت سهرة لطيفة ذكرتنا بليالي عمان وسهراتنا مع إخواننا...

وحوالي الساعة العاشرة استأذنا وذهبنا إلى دار الضيافة وحزمنا أمتعتنا ونمنا نوماً خفيفاً نرقب الفجر لأن الطائرة ستقوم في تمام الساعة الخامسة صباحاً كما أخبرونا، وأن علينا أن نكون في المطار حوالي الخامسة...

---

(٥) فراغ في الأصل المخطوط.

-٣-

[البحرين]

في صباح يوم السبت في ١ أيار ١٩٥٤م استيقظنا نحو الساعة الثالثة صباحاً. ولم أنم في تلك الليلة جيداً.. لا أدرى لَم كان ذلك!؟ هل لأني عازم على السفر أو من قلة المشي والحركة!؟ لأن أكثر تحركنا بالسيارة، وأنا إذا لم أتعب لا أنام طويلاً. وجاءنا السيد درويش المقدادي حوالي الساعة الرابعة والنصف وذهبنا برفقته إلى المطار، فوجدنا أغلب العمال والموظفين هناك نائمين، وسلمنا الحقائب لموظف الطيران وجلسنا في البوفيه ننتظر الطائرة التي سنركب فيها وهي من طائرات "شركة طيران الشرق الأوسط" اللبنانية، وقد تأخرت فوصلت المطار نحو الساعة السادسة والثلث.

[إلى مطار المحرق]

في تمام الساعة السابعة تقريباً غادرنا الكويت، وطارت الطائرة على شاطىء الخليج العربي، وكان الجو هادئاً، وكنت أتأمل طوال الطريق في الشاطىء الذي نطير فوقه وكله رمال لا سكان حوله إلاّ قرية صغيرة لا أدري ما هي وما اسمها، وكنا نرى بعض الجزر الصغيرة جداً وهي غير مأهوله، وبعد مضي ساعة ونصف رأينا الظهران والدمام، ثم نزلنا في البحرين، في مطار المحرق، فوجدنا رجلاً ينتظرنا (السيد عبدالله بن علي) فسلم علينا ومررنا بموظف الجوازات وأعطانا الجوازات حالاً، وجلسنا قليلاً وشربنا الشاي حتى جاءت الحقائب، وذهبنا إلى الفندق، ونزلنا في فندق البحرين وهو كما قالوا أحسن فندق. وبعد أن جلس السيد عبدالله معنا قليلاً ودعنا وقال إنه سيعود إلينا بعد أن يأخذ موعداً من عظمة الشيخ سلمان شيخ البحرين، فشكرناه وذهبنا إلى الغرفة التي خُصصت لنا وأبدلنا ملابسنا ونمنا مدة ساعة.

[جولة في المنامة]

وبعد العصر، في حدود الساعة الرابعة، خرجت أنا والأستاذ الجعبري وتجولنا نحو ساعة في شوارع المنامة وأسواقها، ووجدنا فيها متاجر فخمة وأغلب أصحابها هنود وفرس وأجانب، والطابع الهندي والبضائع الهندية تغلب على كل شيء، وجعلنا نخرج من متجر وندخل آخر ونقلب البضائع ونتفرج، وعدنا في طريقنا إلى الفندق. وقبل

وصولنا الفندق بنحو مائة متر اعترضنا شاب لطيف وسلَّم علينا فرددنا عليه السلام، فدعانا إلى محله فدخلنا معه فعرفنا بنفسه واسمه إدوارد من حيفا وهو يشتغل مع إميل البستاني، فجلسنا عنده وشربنا الشاي وتحدثنا معه قليلاً وانصرفنا إلى الفندق، فوجدنا الشيخ عبدالله غوشة ينتظرنا على أحرّ من الجمر لأن السيد عبدالله جاء، وقد أخذ لنا موعداً من الشيخ سلمان آل خليفة لمقابلته في ذلك الوقت، فذهبنا إلى مكان اسمه "الرَفَع" يبعد عن المنامة بنحو عشرين كم.

[أمير البحرين الشيخ سلمان آل خليفة]

وصلنا نحو الساعة الخامسة والثلث، وبعد استراحة قليلة ذهبنا إلى مقابلة الشيخ، فوجدناه جالساً في ديوان كبير يبلغ طوله نحو ثلاثين متراً وعرضه نحو خمسة عشر متراً، وفيه أثاث وفرش من أفخر ما رأينا، وفي سقفه أربع عشرة مروحة وسبع ثريات من الزجاج الفاخر، والشيخ جالس في الصدر ومعلق في وسطه خنجر، وعلى الخنجر ساعة ومسبحة، وهو يبلغ من العمر قريب الستين. وسلمنا عليه ورحب بنا بصوت متهدج، وأبلغناه تحيات جلالة الملك حسين، وسلمناه رسالة دولة رئيس الوزراء، فتلاها وجعل يقول إن جلالة الملك حسين أخوه وولده، وهو يحبه لأنه من السلالة الهاشمية، وأن البلاد العربية يد واحدة والمعول على ما في القلوب.

وبعد أن شربنا القهوة وجلسنا نحو عشر دقائق دعا بالطيب فتطيبنا وقمنا، وهذه عادته إذا أراد صرف من عنده، وتركناه شاكرين.

[برقيتان بالإنجليزية !!]

رجعنا إلى الفندق وأمضينا تلك الليلة، وفي صباح الأحد ١٩٥٤/٥/٢م ونحن نتناول طعام الإفطار جاء السيد عبدالله وجلس قليلاً، ثم سألنا هل نحن سنمكث كثيراً في البحرين أم نريد الإسراع؟ فقلنا له: "نحن نحب أن تنتهي مهمتنا بأسرع وقت". فقال: "إن الشيخ سلمان أمر بمبلغ ثلاثة عشر ألف روبية، وأنتم في الوقت الذي تحبون السفر فإننا على استعداد لنهيء لكم أسبابه". فقلنا: "نحن نحب أن نقابل الشيخ". فقال: "لا يمكن مقابلته اليوم وإنما بعد رجوعكم من قطر بالإمكان مقابلته". فقلنا له: "نريد السفر غداً". فقال: "سأذهب وأحجز لكم ثلاثة مقاعد في الطائرة". فقلنا له:

"نريد أن ترسلوا برقية إلى الشيخ علي بن عبد الله آل ثان شيخ قطر". فقال: "هذا من شأنكم ونحن لا نرسل برقية بهذا الخصوص". فذهبت إلى البريد وأرسلت برقية إلى الشيخ علي بن عبد الله آل ثان، وبرقية إلى السيد خالد الدجاني، وقد كتبت البرقيتين باللغة العربية، فقال لي الموظف: "يجب كتابة البرقية باللغة الإنجليزية فإن جميع المخابرات هنا باللغة الإنجليزية". فقلت: "إنا لله وإنا إليه راجعون". وأعدت كتابة البرقيتين باللغة الإنجليزية وأعطيتهما للموظف، وهو ابن عرب على ما يظهر من لباسه ولسانه.

عدت إلى الفندق وبعد وصولي بمدة وجيزة جاء السيد عبدالله وأعطانا تذاكر الطائرة ذهاباً وإياباً إلى قطر، وقال: "غداً الساعة الثالثة والربع تكونون بالمطار". وتركنا قائلاً: "سأعود إليكم غداً".

[جولة في "المحرق" و"المنامة"]

بقينا في الفندق إلى حدود الساعة الخامسة مساءً وبعدها نزلنا وتجولنا قليلاً، ثم ركبنا سيارة أجرة وذهبنا إلى "المحرق"، ويوجد ممر وجسر بين "المنامة" و"المحرق" يبلغ طوله ثلاثة كيلو مترات، وتجولنا في المحرق ثم عدنا إلى المنامة وتجولنا فيها أيضاً، وقد استمرت هذه الجولة نحو الساعة، تفرجنا فيها على جميع الجزيرتين في البحرين، وهي تشتمل على "المنامة" العاصمة وفيها مبانٍ جميلة، وميادين منسقة، وبعض حدائق صغيرة عامة للبلدية، وقصر فخم للشيخ من زمن والده الشيخ حمد، وقصر جديد يُبنى الآن للشيخ سلمان آل خليفة الأمير الحالي، وقصور للأغنياء، وللأجانب ؛ ثم في الجزيرة الثانية "المحرق" و"القضيبة" وهي قرية صغيرة. ويوجد على بعد عشرين كيلو متر غرب "المنامة" مكان اسمه "الرفع" فيه قصر الشيخ وقصر الضيافة وبعض بيوت حوله.

["عين عذاري"]

رجعنا إلى الفندق وما كدنا نستقر فيه حتى جاء السيد محمد الشريف أحد الشباب الخلايلة فسلم علينا وجلس معنا، وبعد ذلك طلب إلينا أن يأخذنا في سيارته لنتفرج على البحرين، فأجبناه شاكرين، وأخذت معي آلة تصوير، وذهبنا إلى مكان يسمى

"عين عذاري" ، وفي الطريق رأينا مسجداً أثرياً اسمه "مسجد الخميس" ، وقفنا عنده، والمسجد مهدم ما عدا المئذنتين، فأخذت بعض الصور، ثم رجعنا الى فندق B.O.A.C وهو فندق لشركة الطيران المعروفة بهذا الاسم حيث ينزل به السيد محمد الشريف، فتناولنا بعض المرطبات، ثم ركبنا سيارته وذهبنا إلى "المحرق" ثم إلى "القضيبة" ثم عدنا إلى "المنامة" ، وكانت أنوار الظهران تُرى من البحرين واضحة حيث المسافة بينهما نحو خمس عشرة دقيقة بالطائرة. ورجعنا إلى فندق الشركة المذكورة وتناولنا العشاء بدعوة من السيد محمد الشريف، ثم أوصلنا إلى الفندق وودعناه شاكرين له هذه الجولة اللطيفة وكرمه وأريحيته. وذهبنا إلى الفراش مشتاقين إلى النوم...

-٤-

[قطر]

في صباح يوم الإثنين ١٩٥٤/٥/٣م كنا نتوقع أن يكون أول رمضان فسألنا فقيل لم يثبت رمضان. تناولنا الفطور وخرجت والأستاذ الجعبري نتجول بالشوارع قليلاً ومعي بعض الأفلام تحتاج إلى غسيل، فأعطيتها لمصور على أن أعود إليه بعد رجوعنا من قطر، واشترينا بعض الأغراض وعدنا إلى الفندق نعد أمتعتنا للسفر إلى قطر.

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر جاء السيد عبدالله بن علي وصحبنا إلى المطار، وبعد أن أنهى معاملة الجوازات والجمارك قال لنا: "إن الطائرة ستقوم عند تمام الساعة الرابعة". فذهبنا إلى البوفيه وشربنا الشاي وجلسنا نتحدث إلى قرب الساعة الثالثة والنصف، وجاءنا السيد عبدالله وقال: "تفضلوا إلى الطائرة". فذهبنا إليها وإذا بها طائرة صغيرة تحمل تسعة ركاب فقط.

[أمير قطر الشيخ علي بن عبدالله آل ثاني]

قامت الطائرة في تمام الساعة الرابعة من "مطار المحرق"، وبدأت طيرانها بين الجزيرتين فكنا نرى "المحرق" و"المنامة" في وقت واحد ولكنها أقرب إلى "المحرق"، وكان طيرانها فوق الماء كل الوقت، وكنا مرتاحين جداً.

وبعد خمس وثلاثين دقيقة كنا فوق "الدوحة" التي هي عاصمة قطر، ونزلنا في المطار وكان في استقبالنا السيد خالد الدجاني أحد كبار الموظفين وهو من أصدقاء فضيلة الأستاذ الجعبري، وكنا أرسلنا له برقية من البحرين. والسيد حسين مراد سكرتير الشيخ علي حاكم قطر. وذهبنا برفقتهما إلى "قصر الضيافة" وهو قصر كبير فخم ومكانه على شاطيء البحر، وخُصص لنا غرفة كبيرة مساحتها نحو ١٢ X ٦ وبجانبها حمام على أحدث طراز وثلاجة.

وبعد أن استرحنا قليلاً ذهبنا لنسلم على الشيخ علي بن عبدالله الأمير، فوجدناه جالساً أمام القصر وحوله بعض الرجال، فسلمنا عليه وجلسنا بجانبه، وقدمنا له المصحف هدية ورسالة رئيس الوزراء، فرحب بنا وسأل عن جلالة الملك وعن الحالة

في البلاد، ثم شربنا القهوة، وبعد نحو عشرين دقيقة من جلوسنا استأذنا ورجعنا إلى محلنا.

[التدخين منكر]

وبعد رجوعنا طلبنا من السيد خالد الدجاني والسيد حسين مراد أن نذهب إلى طبيب ليفحص الشيخ الجعبري لأنه يشكو من تحت ابطه ألماً، فقال السيد حسين: "سأحضر الطبيب إلى هنا". وذهب حالاً وعاد ومعه الدكتور وهو لبناني سبق له أن اشتغل في الجيش العربي [الأردني]مدة قليلة، فبعد أن فحص الأستاذ أخذه معه ليعالجه عنده، وذهبنا أنا وسماحة الأستاذ عبدالله غوشة مع السيد خالد الدجاني إلى بيته وجلسنا عنده لنشرب القهوة، لأننا في كل سفرتنا لم نشرب قهوة جيدة إلا مرة في الكويت، وإلا فإن جميع القهوة التي تُقدم لنا قهوة تُعمل على الطريقة الإفرنجية ونحن لا نستسيغها. وليدخن الأستاذ الشيخ عبدالله بعض السجاير لأن السيد خالد نصحه بأن لا يدخن علناً لأن الناس في قطر يعتبرون الدخان منكراً كبيراً ولا سيما من المشايخ.

[في مجلس أمير قطر]

بعد نحو نصف ساعة عدنا إلى مقرنا حيث صلينا المغرب. وجاء وقت العشاء فمدوا سجادتين كبيرتين على السطح أمام المكان الذي ننزل به، وجاء الشيخ علي وجلس في مجلسه وهو مجاور لمكاننا، ولبسنا لندخل عنده فجاء ولده الشيخ أحمد، والشيخ عبدالله بن درويش، وبعض كبار الشخصيات، وسلموا علينا ورحبوا بنا ترحيباً حاراً، وذهبنا إلى مجلس الشيخ وهو عبارة عن قاعة كبيرة يبلغ طولها نحو خمسة وعشرين متراً وعرضها نحو اثني عشر متراً، وسلمنا على الشيخ وجلسنا معه، وكان في المجلس بعض رجال قطر ودكتور افرنسي وشخص آخر قيل لنا إنه مهندس لبناني يشتغل مع آل درويش، وآل درويش هؤلاء من أصحاب النفوذ في البلد. وبعد مدة قصيرة قمنا مع الشيخ إلى العشاء فإذا مائدة كبيرة عليها منسف كبير فيه خروفان، وعدد كثير من الأطعمة وأكثرها لم نعرف اسمها لأنها غريبة عن أطعمتنا. وبعد العشاء ذهبنا إلى مسجد القصر وصلينا العشاء، ولم يكن قد ثبت رمضان بعد فلم نصل التراويح. وبعد صلاة العشاء ذهبنا مع السيد خالد إلى داره.

فاتني أن أذكر حديثاً دار على العشاء، فقد سأل الشيخ علي عن "البلقاء" وعاصمتها، وسأل عن عشائر البلقاء، فقلت له: فيها عشاير كثيرون وأهمها "العدوان" و"الصخور"، وأن مشايخ البلقاء هم العدوان. وسبب السؤال فيما علمت مؤخراً أن رجلاً جاء إلى قطر وادعى أنه ممدوح بن ماجد العدوان شيخ مشايخ البلقاء، وأكرموه، وقد أنعم على السيد خالد بقطعة أرض من جبل اللويبدة في عمّان مساحتها ثلاثون دونماً، وأنعم على شخص آخر ببيتين في "الشونة"، وفي النتيجة أعطاه الشيخ ثلاثة آلاف روبية أي ما يعادل مائتين وثلاثين ديناراً. ولم أكن أعرف هذه الحكاية وإلاّ فإن القضية واضحة فالرجل الذي يعطي ثلاثين دونماً في جبل اللويبدة قيمتهم على الأقل خمسة وأربعون ألف دينار كيف يقبل ثلاثة آلاف روبية !؟ وأنا لا أعرف أحداً اسمه ممدوح العدوان . . .

[أخبار تغيير وزاري في الأردن]

أمضينا سهرة طيبة عند السيد خالد الدجاني، وسمعنا أخبار [إذاعة]"الشرق الأدنى" وأن السيد توفيق أبو الهدى ألف الوزارة بعد استقالة السيد فوزي الملقي، وأن الوزارة كما يأتي: السيد أنور نسيبة للدفاع والمعارف، وجمال طوقان للخارجية، وسابا العكشة للعدلية، وأنسطاس حنانيا للأشغال، وهاشم الجيوسي للداخلية، وعبد الرحمن خليفة للمالية وقائم بأعمال قاضي القضاة، وخلوصي للاقتصاد، وأحمد الطراونة للزراعة، ووصفي ميرزا (...) (٦). وسمعنا إذاعة القدس فقالت: إن السيد توفيق أبو الهدى لا يزال يوالي استشاراته وقد نجح في تأليف الوزارة. ولم تسمِ الوزراء.

[رأي القوم في السينما]

وبعد ذلك عرض لنا فلماً عن زيارة الشيخ أحمد بن علي (للهند)، ثم فلماً أجنبياً راقصاً، ثم فلماً مضحكاً، ثم فلماً روسياً راقصاً، ثم فلماً هندياً يمثل عرباً في الهند، وكلها أفلام قصيرة. وذلك كله في جهاز راديو وفيه أيضاً جرامفون.

وسألناه عن رأي القوم في السينما، فقال: إنها منكرة ولم يُسمح بها أبداً، ولكنها في بعض البيوت موجودة، وهذا الراديو جاء هدية من الشيخ أحمد. وامتدت السهرة

---

(٦) فراغ في الأصل المخطوط.

إلى نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وكان قد ثبت رمضان، وضُربت ثلاث طلقات من مدفع إشارة إلى ذلك، فقمنا ورجعنا إلى منزلنا بسيارة السيد خالد وودعنا وشكرناه على هذه الليلة الممتعة، وبقينا في سهرتنا إلى وقت السحور وتسحرنا حوالي الساعة الثالثة والنصف ونمنا بعدها.

[شذرات من تاريخ قطر]

في أثناء السهرة سألنا السيد خالد إذا كان يعرف شيئاً عن تاريخ قطر والعائلة الحاكمة، فقال: "منذ مائة سنة جاء رجل متدين من أهل العلم، من الحوطة في نجد، اسمه محمد، إلى قطر، وجعل يشتغل بالتجارة ويعظ الناس ويعلمهم أمور دينهم. وكانت قطر تابعة للبحرين تدفع الضرائب أو الجزية كل سنة لأمراء البحرين. ووُلد للشيخ محمد ولد اسمه قاسم، وكان ذا شخصية قوية وذكاء وقّاد، فاشتغل أيضاً بالتجارة وجمع مبلغاً كبيراً من المال، فاشترى أسلحة وجعل له أتباعاً وماشية كبيرة. وفي سنة من السنين جاء رسول من البحرين يطلب المبلغ المقرر دفعه سنوياً على قطر وكانت تلك السنة فيها ضيق على الناس، فطلبوا أن يؤجل الدفع إلى السنة المقبلة، فأبى وهدد بأنه إذا لم يدفع المبلغ سيأتي بالرجال وينهب الأسواق، فجمع قاسم الناس وتشاوروا وصمموا على أن يحاربوا ويدفعوا عنهم هذا العدوان، وفعلاً حدث أن جاء رجال البحرين عازمين على النهب والسلب وحصلت معركة كبيرة كان الفوز فيها لقاسم ورجاله من أهل قطر، وذهب الذين نجوا من رجال البحرين خائبين.

بعد مدة بعث أمراء البحرين رسولاً يطلب المفاوضة لإجراء التفاهم، وطلبوا أن يرسلوا لهم رجلاً يتفاهمون معه، فأرسل قاسم أخاه أحمد، فلما وصل البحرين أمسكه أمير البحرين وسجنه وأرسل يقول: إن هذا أسير حتى يُرسل المبلغ المطلوب. فلم يرد عليه قاسم وقال: افعلوا به ما شئتم. وبعد مدة أرسل أمير البحرين حملة كبيرة في عدة مراكب لتهاجم قطر وتطوعهم، فقام قاسم ورجاله وردوا هذه الحملة وأسروا خمسة من أمراء البحرين وأكرموهم ووضعوهم في مكان أمين، وأرسلوا إلى أمير البحرين بأنهم سيقتلون هؤلاء الخمسة مقابل الشيخ أحمد الذي عنده، فخاف أمير البحرين وأرسل الشيخ أحمد، فأطلق قاسم الذين عنده وأرسلهم مكرمين معززين، وبذلك استقرت

مشيخة قطر له، وتزوج عدداً من النساء على عادة مشايخ العرب، فأنجب نحو خمسين ولداً عاش منهم وكبر خمسة عشر رجلاً، فأسكن كل واحد في مكان مع قسم من العبيد، والرجال يختطون لهم بلدة أو قرية، ويحفرون الآبار، ويزرعون الأشجار، وهكذا نشأت عدة قرى أهمها ما يلي:

العاصمة "الدوحة"، وهي بلدة واسعة على شاطيء البحر فيها قصر الأمير، وقد نزلنا فيه، وفيها مقر القنصل البريطاني، وللشيخ مستشار بريطاني رجل مسن خدم (٢٥) سنة في السودان، ويوجد أيضاً عدد من الضباط والشرطة البريطانيين. وفي الدوحة مدرسة ابتدائية فيها عشرة معلمين ونحو(٣٤٠) طالباً ولها بناية جميلة ودار للمعلمين للسكن. ولا يوجد ميناء منظمة، وهناك فرضة صغيرة خاصة للشيخ أحمد بن علي ولي عهد الإمارة يقف عليها يخت صغير له وبعض مراكب الصيد، وفرضة أخرى عامة صغيرة أيضاً، والبواخر التجارية تقف في عرض البحر وتذهب إليها القوارب لتأخذ البضائع.

و"الدوحة" تشكل نصف دائرة على البحر وأظنها سميت "الدوحة" لذلك، ولا يوجد فيها أشجار لأن الماء قليل حيث يشربون من الآبار وهي قليلة، ويشتغلون الآن في مشروع مياه حيث يوجد مكان فيه عدة آبار سينقلون منه الماء في الأنابيب، والماء عذب لا بأس به. وعلى بعد ستة كيلو مترات "مطار الدوحة" وهو مطار ناشىء لا يزال يحتاج إلى كثير من التعمير والتجهيزات.

وموقع "الدوحة" بل جميع قطر سهل واسع جداً لا حدود له، وهي قابلة للتوسع وفيها عمران حديث: بيوت للموظفين وهي في طريق التقدم وكل هذه الإحداثات بنت سنتين تقريباً ولها مستقبل عظيم...

ويحكم قطر الآن الشيخ علي بن عبدالله آل ثاني، أصله كما تقدم من نجد، وهو رجل متدين ويظهر عليه أنه مخلص، ولكنه لم يخرج من بلده ولا يعرف شيئاً عن العالم العربي، وقد جاءته هذه الثروة فجأة فهو منصرف إلى عمله في هذا النطاق، وساعده الأيمن الذي يحكم البلد ولده أحمد؛ لم نجتمع معه إلا برهة قليلة جداً فلم أتمكن من الحكم عليه، ولا أدري ما هي اتجاهاته وما هي أفكاره نحو العالم العربي.. وما هي معلوماته...

وللشيخ أعوان في مرتبة الوزراء وهم أبناء الدرويش وأفتحهم الشيخ عبد الله الدرويش وهو رجل ذكي سافر كثيراً، ويظهر عليه أنه متتبع الأخبار، والشيخ عبدالله هذا هو كل شيء من الناحية المالية والإدارية، وهو ذو ثروة واسعة. وأصل آل الدرويش من إيران، يقولون إنهم عرب الأصل نزحوا إلى قطر وبدأوا يعملون إلى أن وصلوا إلى هذا المركز، وهم إجمالاً متدينون.. وأينما ذهبت في "الدوحة" أو في شركة البترول تجد المخازن كُتب عليها شركة أبناء الدرويش فخرو..

وبقية الأماكن التي عرفتها هي: "الخور"، "الوكرة"، "الضعاين"، "السميسمة"، "الغويرط"، "الذخيرة"، "الغارية"، "الروس"، "ابا الظلوف"، "الريان".

وقطر تكوّن شبه جزيرة تقريباً.. وللبترول الآن موقعان: "مسيعيد"، و"الدخان".

وفي "الدوحة" مستشفى وعدد من الأطباء وغالبيتهم من لبنان، وطبيب أسنان، وعدد من الممرضات الإنجليزيات . . .

[غرة رمضان وجولة في أسواق قطر]

أصبحنا يوم الثلاثاء الرابع من شهر أيار صائمين، وبقينا في منزلنا بين نوم وقراءة إلى قرب الساعة الرابعة بعد العصر ولم يأتنا أحد، وبعد الساعة الرابعة جاء السيد خالد الدجاني وجلسنا نتحدث معه.

وفي حوالي الخامسة والنصف ذهبت أنا والأستاذ الجعبري إلى السوق لنستطلع أحواله ونرى على أية صورة يكون، فتجولنا في الأسواق كلها وهي عبارة عن أسواق مغطاة بالحُصُر، ضيقة جداً، تنقصها النظافة والترتيب، غالب الباعة والتجار من الفرس أو الهنود. المحلات الكبيرة المنظمة قليلة وتكاد تكون غير موجودة، والأسعار ليست رخيصة كما كنا نتوقع. وبعد جولة دامت نحو ساعة رجعنا إلى قاعدتنا سالمين.

وعند الغروب جاءت مائدة صغيرة مكونة من التمر والبطيخ، وأكلة تسمى "الهريسة"، وهذا هو الفطور، والعادة أن الصائم يفطر إفطارا خفيفاً ثم بعد صلاة المغرب بنحو نصف ساعة يأتي العشاء، وجاءت المائدة الثانية وهي كالعادة خروف على منسف كبير من الأرز، وأشكال ثانية من أنواع الأطعمة، والفواكه والمشمش الهندي أغلبها، وكذلك

الموز وهو يأتي بالطائرات من لبنان. وتصور وأنت في قطر تأكل فاكهة لبنان الطازجة.. إنها من محاسن القرن العشرين ومن فضائل الطيران على العالم. ويسمون الفواكه، الخضار، ولا يعلمون أسماءها بالتفصيل...

بقينا بعد الإفطار مدة وجيزة ذهبنا بعدها إلى دار السيد خالد الدجاني وأمضينا عنده سهرة لطيفة، وسمعنا بعض الأخبار والموسيقى من الراديو، ثم عدنا إلى منزلنا ونمنا مبكرين أي في حدود الساعة الثانية عشرة.

وحوالي الساعة الثالثة استيقظنا إلى السحور، وجاءت المائدة كالعادة منسف كبير وفواكه، ولم نستطع أن نأكل لأن نفوسنا عافت الزفرة والمناسف، فأكلنا الفواكه وذهبنا إلى النوم.

[تبرع أمير قطر لإعمار الأقصى والصخرة المشرفة]

أصبحنا في اليوم الثاني من رمضان الخامس من الشهر الخامس، وقرب الساعة العاشرة جاءنا شاب وسأل بأي اسم يكتب الحوالة المالية التي تبرع بها الشيخ فأعطيناه اسم "لجنة تعمير الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى، عمان – البنك العربي"، وبعد ذهابه بنحو ثلث ساعة جاء المستشار المالي للشيخ علي وسلم بلغة عربية واضحة وجلس وجعلنا نتحدث معه، وأبلغنا أن الشيخ تبرع بمبلغ خمسة عشر ألف جنيه استرليني، وطلب منا أن نعطيه الاسم الذي يُحوَّل المبلغ إليه فأعطيناه العنوان السابق واستأذن وذهب.

["الريان"]

بقينا في منزلنا إلى قرب الساعة الرابعة حتى جاء السيد خالد ولبسنا وخرجنا نتجول، فذهبنا إلى "الريان" وهي قرية تبعد عن الدوحة بنحو عشرة كيلو مترات، وفيها قصر للشيخ عبدالله والد الشيخ علي الحاكم الحالي، وهو شيخ كبير في السن مقعد لم نتمكن من رؤيته. وفي هذه القرية عدة بساتين فيها النخيل وأشجار أخرى من الفواكه، فذهبنا إلى بستان الشيخ عبدالله ودخلناه، وإذا به بستان كبير أغلب أشجاره النخيل والدوم وفيه أنواع أخرى، وفيه بئر ماء كبيرة تخرج (٤ إنش) من الماء وعليه موتور، وأخذنا بعض الصور وتجولنا قليلاً وغادرناه.

["مسيعيد" و"الوكرة"]

ذهبنا من "الريان" عائدين إلى "الدوحة"، ثم اتجهنا إلى مكان اسمه "مسيعيد" والناس يسمونه "أم سعيد"، وفي الطريق مررنا بقرية اسمها "الوكرة" مرَّ ذكرها عندما عددت الأمكنة الشهيرة، وهي قرية لا بأس بها على شاطيء البحر ويقولون إنها كانت مقر "المهلهل" الزير سالم صاحب القصة المشهورة؛ ومنها ذهبنا إلى "مسيعيد" وهي تبعد عن "الدوحة" بمدة (٣٥) دقيقة في السيارة، وهي الميناء لنقل البترول وفيها مكاتب للشركة وبيوت للموظفين على الطراز الحديث، تجولنا فيها مدة نصف ساعة، ووقفنا بالميناء على البحر وهو ميناء صغير جداً. وعدنا بعد ذلك إلى "الدوحة"، وكان وصولنا قرب الغروب فذهبنا إلى بيت السيد خالد الدجاني حيث أعد لنا طعام الإفطار، وتناولنا عنده طعاماً فاخراً ولا سيما اللبن الرايب فإننا قد مضى علينا مدة لم نطعمه فكان عندنا أفضل طعام والسلطات الجيدة والحليب المطبوخ اللذيذ، كل هذه أطعمة بلادنا ولا يعرف قيمتها الإنسان إلا بعد أن يبعد عن بلده.

[زيارة الشيخ عبدالله الدرويش ولقاءات مع بعض الإخوان]

بعد الإفطار ذهبنا الى بيت الشيخ عبدالله الدرويش فوجدناه جالساً في ساحة الدار، وكثيراً ما يفضلون الجلوس في الخلاء لأن الهواء يكون أطيب والجلوس في الهواء الطلق أمتع، فأدخلنا في صالون فخم مفروش بفاخر الأثاث وفيه سجادة فاخرة جميلة على قدره، وجلسنا نتحدث فأخبرنا بأنه تبرع هو وإخوانه بألفي جنيه استرليني، فشكرناه على هذا الكرم، وبعد أن شربنا القهوة ودعناه وذهبنا إلى المنزل.

بقي الأستاذ الشيخ عبدالله في المنزل وذهبنا أنا والأستاذ الجعبري إلى زيارة السيد علي بن أحمد الأنصاري أحد موظفي الديوان، وجاء السيد خالد أيضاً، ومكثنا عنده نحو نصف ساعة وعدنا بعد ذلك إلى مقرّنا، وما كدنا نستقر حتى جاءنا الشيخ جاسم الدرويش، وهو أخو الشيخ عبدالله الكبير، رجل متدين، كبير السن؛ فجلس معنا نحو نصف ساعة وودعنا وانصرف.

بعد ذلك قال الأخ السيد خالد: "الأحسن أن تذهبوا إلى داري لنسهر هناك ونسمع الأخبار وتتسحروا سحوراً خفيفاً". فذهبنا معه وسهرنا سهرة لطيفة وعرض لنا فلماً عن احتلال الحلفاء لإيطاليا وفلماً آخر من الهند، وسمعنا الأخبار، وتسحرنا سحوراً لطيفاً، وعدنا إلى قاعدتنا...

[هدية مشكورة.. ولكن !]

في صباح اليوم الثالث من رمضان الموافق ١٩٥٤/٥/٦م استيقظنا في نحو الساعة الثامنة والنصف لأننا عازمون على السفر ونريد أن نودع الشيخ علي ومن نستطيع من الإخوان.

في نحو الساعة العاشرة جاءنا السيد حسين مراد سكرتير الشيخ وأعطانا ثلاثة ظروف ظننا أن فيها بعض الهدايا كالساعات، وقلنا له: "نريد أن نودع الشيخ ونسافر اليوم بعد الظهر". فقال: "سأعمل الترتيب لكم". وذهب. فتحنا الظروف فإذا في كل واحد مبلغ ألف روبية، وتشاورنا مع بعضنا فصممنا على ردها بلطف. وبعد صلاة العصر ذهبنا في نفس القصر الذي نحن فيه إلى مجلس كبير ووجدنا الشيخ علي جالساً فسلمنا عليه وودعناه شاكرين، وبعد أن جلسنا نحو ربع ساعة استأذنا وخرجنا.

جاء السيد حسين مراد نحو الساعة الرابعة فأعطيناه المبلغ الذي جاءنا به وشكرناه، وقلنا له أن يبلغ الشيخ علي بأننا لا نأخذ مالاً، ولو كانت الهدية شيئاً تذكارياً لقبلناه، ونحن على كل حال نشكر الشيخ على هذه الهدية.

وحزمنا أمتعتنا وذهبنا إلى المطار، وفي حدود الساعة الخامسة والربع قامت بنا الطائرة متوجهة إلى البحرين...

-٥-

[عودة إلى البحرين]

بعد مغادرتنا الدوحة بخمس وثلاثين دقيقة كنا في مطار المحرق بالبحرين، وذهبنا إلى فندق البحرين.

اتصلنا فور وصولنا بالسيد عبدالله بن علي بالرفع، فلم نجده وقالوا لنا إنه متى جاء سيتصل بكم. وبعد أن تناولنا طعام الإفطار جلسنا نشرب الشاي في صالون الفندق، فجاءنا أحد الخدم يقول: "التلفون" ؛ فذهبت وتكلمت معه، وبعد السلام قلت له: "نريد في هذه الليلة أن نقابل الشيخ سلمان لنسلم عليه ونودعه". فقال: "سأعمل لكم الترتيب وأتصل بكم". ومضت الليلة ولم يتصل بنا.

استيقظنا يوم الجمعة الرابع من رمضان المبارك ١٩٥٤/٥/٧م نحو الساعة التاسعة والنصف، وعزمنا على السفر إلى الظهران، وبينما نحن في الصالون نتحدث إذ جاء السيد عبدالله بن علي وسلمنا عليه وذهبنا إلى الغرفة وجعلنا نتحدث عن عدم اتصاله بنا الليلة الماضية، وأسمعه الشيخ عبدالله بعض الكلمات تأثر منها وقال: "أنا مأمور وقد أخبرت الشيخ سلمان بمجيئكم وقال إنه سيتصل بي ليدعوكم الى مقابلته ولم يتصل"...

واتصلنا بمكتب الطيران فوجدنا ثلاثة مقاعد في الطائرة التي تسافر الساعة الثالثة بعد الظهر، وذهبنا لنحجز المقاعد فوجدنا السيد عبدالله هناك وأقسم أن لا يدفع أحد منا شيئاً وحجز هو... وودعناه. وعندما حانت الساعة المحددة ذهبنا إلى المطار، وبعد التأشير على الجوازات تذكرت أنّا نسينا الصندوق الذي به مجسّم الصخرة وكنا قد اشتريناه من القدس وأخذناه معنا، فخابرنا الفندق فقالوا إنه موجود، وأوصيناهم أن يرسلوه إلى المطار، وجاء الطيار وقال: "إن أمتعتكم كثيرة وأرجو أن نؤخر بعضها إلى الساعة الخامسة والنصف وسأحضرها لكم في الرحلة الثانية، لأن الطائرة تقوم نحو أربع مرات بين البحرين والظهران". فقلنا له: "لا مانع على أن تحضر معك صندوقاً نسيناه في الفندق". فقال: "بكل سرور"...

-٦-

[عودة إلى السعودية]

ركبنا الطائرة من "مطار المحرق" وقامت في الساعة الثالثة والدقيقة العاشرة، وما مضى على قيامها نحو سبع دقائق إلا والظهران أمامنا، ونزلنا "مطار الظهران" بعد قيامنا من البحرين في مدة أربع عشرة دقيقة والمسافة قريبة جداً.

سلمنا جوازات السفر للموظف في الظهران، ولم نكن أخبرنا أحداً بمجيئنا فجاء موظف الجوازات وسألنا: "هل أخبرتم أحداً بوصولكم ؟" فقلنا له: "لم نخبر أحداً لأنه لم يكن لدينا وقت". فقال: "اذهبوا أنتم للفندق وأنا سأتولى ذلك بنفسي". فشكرناه، واستأجرنا سيارة وذهبنا إلى الفندق وهو بنفس المطار بل إن اسمه "فندق مطار الظهران". ووضعنا أمتعتنا وحاولنا الاتصال بالشيخ عبدالله ابن عدوان فلم نجده، وذهبنا إلى غرفتنا واسترحنا إلى أن قرب وقت الإفطار فذهبنا إلى المطعم وأفطرنا، ورأينا بعض الأشخاص الذين نعرفهم وكان منهم مهندس قديم يشتغل في بلدية الخليل وأحيل على التقاعد وجاء إلى الظهران منذ ست سنوات وأصبح من كبار الأغنياء، وهو صديق الشيخ محمد علي الجعبري، فجلس معنا، وبعد أن تناول طعام العشاء قال: "عندي سيارة وسأضعها تحت تصرفكم". وقمنا نمشي قليلاً فجاءنا شاب ومعه ورقة باسمنا وإذا به سائق سيارة أرسله الشيخ عبدالله ابن عدوان، فقلنا له: "انتظر هنا". وشكرنا السيد (...) (٧) وذهبنا الى غرفتنا حيث صلينا المغرب.

[إلى "الخُبَر"]

بعدها ذهبت أنا والشيخ عبدالله إلى المطار لنرى هل جاءت بقية أمتعتنا والصندوق، فوجدناها موجودة وأخذناها ورجعنا إلى الفندق، ووجدنا الشيخ محمد علي الجعبري ينتظرنا فركبنا السيارة وذهبنا الى "الخُبَر" وهي تبعد عن الظهران بنحو سبعة كيلو مترات؛ مدينة ناشئة على شاطيء البحر وفيها أسواق حديثة ومتاجر فخمة، وذهبنا إلى "فندق المطلوب" وقضينا به مدة عند إخواننا، ثم بقي الشيخ عبدالله جالساً وذهبت

---

(٧) الاسم غير واضح.

أنا والشيخ الجعبري مع الأخ السيد محمود الشريف(٨) لغرفته وجلسنا عنده مدة، ثم نزلنا إلى السوق نتجول فيه، ودخلنا بعض المتاجر، ثم زرنا الشيخ عبد العزيز الماضي أمير الخُبَرَ وأمضينا عنده نحو نصف ساعة وودعناه على أن نفطر عنده غداً.

رجعنا إلى الفندق فوجدنا الشيخ عبدالله لا يزال جالساً هناك، وجلسنا مدة وأردنا أن نستأذن فأبوا إلا بعد السحور، وبقينا الى أن تناولنا سحوراً شهياً، وودعنا الإخوان شاكرين.

[جولة في الظهران]

أصبحنا يوم السبت الخامس من رمضان المبارك في فندق مطار الظهران، وأمضينا أغلب النهار ونحن بين نوم وقراءة وكتابة، وعند الساعة السابعة حسب توقيت الظهران جاءنا السيدان اسماعيل وصلاح الناظر وركبنا السيارة وذهبنا في جولة في مدينة الظهران، وهي مقسمة إلى ثلاثة أقسام:

- الأول وهو الدرجة الثالثة: الحي السعودي، وفيه العمال السعوديون وهم خليط من نجديين وغيرهم، وبقربهم بعض الباكستانيين، ولهم مسجد صغير أنيق الشكل، وبعد أن تجولنا فيه قليلاً انتقلنا الى القسم الثاني.
- القسم الثاني، وهو مكان الموظفين العرب، وهو يأتي بالدرجة الثانية، منظم وفيه تكييف الهواء ونظيف، وأسباب الراحة موفرة فيه.
- القسم الثالث، وهو الدرجة الأولى، الحي الأمريكاني، وهو مدينة حديثة على أحدث طراز، الشوارع منظمة وعريضة ومعبدة بالأسفلت، وكل بيت وله حديقة منسقة، وفيه سينما كبيرة ومطعم فخم، وبركة سباحة واسعة وملاعب مختلفة، ومستشفى فيه جميع الأجهزة والمعدات، وأما المخازن والمستودعات فحدث عنها ولا حرج، والسيارات المرصوصة بدون عدد، وهناك بعض البيوت الخشبية المتنقلة.

وبعد أن جلنا جولة سريعة فيها، ذهبنا إلى "الخُبَرَ" حيث إننا مدعوون لتناول طعام الإفطار عند السيد صلاح الناظر في "فندق المطلوب"، ووصلنا قبيل المغرب بنحو ربع

(٨) ورد الاسم في موضع آخر من هذه اليوميات "محمد الشريف".

ساعة، ووجدنا نحو ثلاثين رجلاً كلهم من فلسطينٍ، فسلمنا عليهم وجلسنا نتحدث حتى جاء وقت الطعام فقمنا إلى مائدة شهية فخمة، وأخِذت لنا عدة صور.

[الدمام وزيارة أمير الإحساء سعود بن جلوي]

بعد صلاة المغرب استأذنا وذهبنا إلى الدمام، إلى بيت الشيخ عبدالله ابن عدوان، حيث كنّا على موعد معه لنذهب ونسلّم على الأمير سعود بن جلوي أمير منطقة الإحساء، وبعد أن مكثنا في بيت الشيخ عبدالله نحو ساعة ذهبنا إلى الأمير سعود وسلمنا عليه، وبعد أن شربنا الشاي سأله الشيخ عبدالله فيما إذا يحب أن يجمع لنا التجار ونتحدث إليهم عن موضوعنا لعلهم يتبرعون بما تجود به أنفسهم؛ فرحب بذلك وكلّم ابن عدوان، ثم ودعناه، وخرج معنا الشيخ عبد الله بن عدوان وقال: "سأبقى هنا أنا وسأتصل بكم في الفندق عما نتخذه من ترتيبات لهذا الموضوع". وشكرناه وذهبنا إلى زيارة السيد (...) (٩) بدر لأننا وعدناه من قبل ونحن على مائدة الإفطار، وشربنا عنده بعض المرطبات، وسمعنا "أخبار القدس" التي تذاع في الساعة التاسعة، وكانت الساعة في الظهران الثانية عشرة في منتصف الليل. ثم عدنا إلى الفندق ننتظر تلفوناً من الشيخ عبدالله ابن عدوان، وبعد ساعة عدت أنا والشيخ عبدالله الى "الخُبَر" وبقي الأستاذ الجعبري في الفندق.

أمضينا نحو ساعتين في "الخُبَر" وتسحّرنا ورجعنا إلى الظهران، إلى الفندق، فوجدنا الأستاذ الجعبري يستعد للنوم وسألناه: "هل من خبر؟" فقال إن الشيخ عبدالله ابن عدوان كلّمه بالتلفون الساعة الثانية عشرة. وأوينا إلى فراشنا.

في اليوم السادس من رمضان استيقظت مبكراً نحو الساعة الثامنة والنصف وأمضيت نحو ساعة في القراءة، وفي حدود الساعة الحادية عشرة جاءني خادم الفندق وقال "إن السيد محمد العورتاني ينتظرنا في مكتبه بالمطار" وهو قريب جداً إلينا؛ فذهبت إلى غرفة الشيخين وهي تبعد عن غرفتي بمسافة أربعين متراً فوجدتهما مستغرقين بالنوم فأيقظتهما وأخبرتهما بذلك، فقام الأستاذ الجعبري وتردد الأستاذ غوشة، وذهبت أنا والأستاذ الجعبري إلى مكتب السيد محمد العورتاني قائد المطار، فوجدنا عنده السيد

---

(٩) فراغ في الأصل المخطوط.

إسماعيل الناظر، ومكثنا نحو نصف ساعة، ثم ذهبنا إلى بيت السيد إسماعيل وبقينا فيه إلى الساعة الثانية.

[زيارة (آرامكو)]

بعدها ذهبنا إلى مكتب شركة (آرامكو) حيث ينتظرنا مساعد المدير بناءً على موعد سابق فقابلناه، وهو أمريكي اسمه كلارك سايفر، رجل دمث لطيف، ومكثنا في مكتبه قرابة ساعة وهو يتحدث إلينا عن الشركة بصفة عامة، وقال من جملة حديثه: "إن الشركة بدأت عملها في التنقيب عن الزيت منذ عشرين عاماً، وأول منطقة بدأت فيها هي الظهران وحفرت سبع آبار، ولم تحصل على نتيجة، وكلفها ذلك عشرات الملايين من الدولارات، وكادت تيأس حتى جاء أحد الخبراء وعاد إلى البئر رقم (٧) وعاود العمل فيه فتفجر الزيت منه بكمية هائلة، ومنه بدأت العمل وأسست في الظهران نواة عملها، ثم توسعت فاكتشفت منطقة "بقيق" ثم "رأس تنورة"، وتوسع عملها الى أن أصبحت تنتج يومياً نحو مليون برميل من الزيت. ثم ذهب معنا في جولة في مدينة الظهران أطلعنا فيها على البئر رقم (٧) وكيف يستخرجون البترول، ثم إلى بعض المعامل، ثم المستودعات وورشات التصليح، ثم الملاعب وبركة السباحة وكانت غاصة بالأطفال والنساء والرجال، ثم السينما والنادي وغيرهما، ولم يترك محلاً إلا وأطلعنا عليه، واستغرقت الجولة ساعتين، وبعدها شكرناه على هذه الجولة اللطيفة وودعناه.

ذهبنا بعدها إلى دار السيد اسماعيل الناظر وبقينا الى قرب الساعة السادسة، ثم عدنا إلى الفندق ومكثنا إلى قرب الغروب، وبعد ذلك ذهبنا إلى "الخُبَر" حيث كنا مدعوين عند أمير "الخُبَر" الشيخ عبد العزيز ابن ماضي لتناول طعام الإفطار وعمل لنا الدعوة في "فندق المطلوب"، وبعد تناول طعام الإفطار استأذن لأنه يريد أن (يدعو) بعض التجار لحضور الاجتماع الذي سيُعقد من أجل جمع التبرعات، فشكرناه على دعوته وأريحيته.

[اجتماع التجار المتبرعين في قصر أمير الاحساء]

بقينا في الفندق إلى أن حان وقت الاجتماع، فذهبنا إلى مقر الأمير سعود بن جلوي وسلمنا عليه، وبعد أن شربنا القهوة أرشدنا إلى مكان الاجتماع فذهبنا إلى الشيخ

عبدالله ابن عدوان ورافقنا إلى المكان، وهو قصر فخم على شاطيء البحر بناه الأمير سعود حديثاً وكلّفه مليون وخمسمائة ألف ريال سعودي، ودخلنا إلى قاعة الاجتماع وقدرت طولها بنحو (٢٨) متراً وعرضها بنحو (١٢) متراً، فيها خمس عشرة سجادة فاخرة وعدد كبير من لمبات النيون الكهربائية، ووجدنا عدداً كبيراً من التجار، وبعد السلام عليهم جلسنا إلى أن تكامل العدد، فوقف الشيخ عبدالله ابن عدوان وألقى كلمة قصيرة عرَّف الحاضرين بنا وأخبرهم بمهمتنا، وقدَّم الشيخ عبدالله غوشة فألقى كلمة شكر فيها جلالة الملك سعود وسمو الأمير فيصل ولي العهد والحكومة السعودية والشعب، وشرح للحاضرين مهمتنا وختمها بالشكر أيضاً للجميع وجلس، فقام الأستاذ الجعبري وألقى كلمة حمس فيها الناس وبينَّ أخطار اليهود ونواياهم ضد العالم العربي والإسلامي أجمع، وشكر الحاضرين وجلالة الملك سعود، ثم بدأت التبرعات وكانت القائمة أربعة وثلاثين ألف ريال وثمانمائة وسبعين ريالاً، ثم أعطينا الشيخ عبدالله اسم اللجنة التي يُحوَّل إليها المبلغ وشكرناه على ما قام به من جهد، وانصرفنا إلى الفندق.

[زيارة المستر أوليجر مدير (آرامكو)]

في صباح اليوم السابع من رمضان أصبحنا كالعادة نحو الساعة العاشرة، جلست أقرأ فجاء الأستاذ الجعبري وقال: "نريد أن نذهب إلى البنك لنأخذ بعض الفلوس"، فقمت ولبست ثيابي، وجاء في أثنائها السيد إسماعيل الناظر وذهبنا في سيارته إلى "الخُبَر" وصرفنا فلوساً من "البنك البريطاني"، وتجولنا قليلاً في السوق، ثم ذهبنا إلى بيت السيد إسماعيل... ثم ذهبنا إلى مكتب الشركة لنقابل المستر أوليجر مدير الشركة؛ فإنه رغب بأن نزوره ونتحدث إليه، وقابلناه في مكتبه وهو رجل يفهم اللغة العربية جيداً ولكنه قليل التحدث بها، وقال إنه مضى عليه عشرين عاماً في المملكة العربية السعودية، وقال إن شعوره مع العرب ويحبهم ويجب أن يكونوا يداً واحدة، وهو يكره اليهود. وأعطانا كتاباً مفصلاً عن الزيت في العالم العربي والشرق الأوسط. وقال إنهم ينقّبون عن الزيت في الربع الخالي منذ سنتين ونصف، وقد تفجرت المياه بشكل غزير في بعض الآبار، وهذا عندهم وبنظرهم أهم من الزيت لأن تلك المناطق الواسعة إذا كان فيها مياه كافية فإنها ستكون صالحة للاستغلال والسكن.. وبعد أن مكثنا عنده نحو ساعة دعا المصور وأخذ لنا عدة صور لينشرها في مجلتهم فإنهم يخرجون مجلة

أسبوعية. ثم قلنا له: نريد أن نزور "رأس تنورة" لأن فيها مصفاة كبيرة للزيت. فعمل لنا ترتيباً لزيارتها ليلاً لأنه يكون الطقس أبرد وزيارتها ليلاً أجمل، فودعناه شاكرين.

["رأس تنورة" ومصفاة النفط]

رجعنا إلى الفندق واسترحنا إلى ما بعد المغرب، وجاء السيد إسماعيل وذهبنا إلى "رأس تنورة" بعد الساعة التاسعة والنصف، والمسافة بين الظهران ورأس تنورة خمسة وستون كيلو متر والطريق معبّدة وكلها سهل، وعند وصولنا وجدنا مدير المحل ومعه رجل آخر في انتظارنا، وركبت أنا والشيخ عبدالله بسيارة المدير، وركب الرجل الآخر بسيارة السيد إسماعيل ودرنا في جميع المكان، وكان يشرح لنا عن كل نقطة وقال: "إن هذه المصفاة كلفت أربعمائة مليون دولار، وهي تكرر يومياً نحو مائتين وخمسين ألف برميل من الزيت، وفيها ميناء كبير تأتيه البواخر وتعبيء منه، وهي مدينة كاملة فيها جميع وسائل الراحة للموظفين والعمال، فيها سينما وناد ومدرسة ومستشفى وكل ما يحتاجه الإنسان، وموقعها جميل على البحر ومنظرها بالليل بديع جداً".

وبعد أن تجولنا مدة ساعة ونصف عدنا إلى الفندق، فوجدنا الشيخ عبدالله ابن عدوان ينتظرنا وقد أحضر لنا جوازات السفر وتذاكر الطائرة والقائمة بأسماء الذين تبرعوا في الليلة الماضية، وقال: "السفر غداً صباحاً في حدود الساعة الثانية عشرة صباحاً بالتوقيت العربي". وودعنا وذهبنا نحن إلى فراشنا، وكانت الساعة قرب الثالثة والنصف.

[عودة إلى الرياض]

استيقظت مبكراً نحو الساعة الخامسة والنصف فإني لم أنم أكثر من ساعتين، وحزمت أمتعتي ولبست وإذا بموظف من موظفي الفندق يأتي مسرعاً ويقول: "يجب أن تذهبوا حالاً إلى المطار". فركبنا السيارة ووضعنا أمتعتنا فيها وذهبنا إلى المطار، وقبيل الساعة السابعة قامت الطائرة متجهة إلى الرياض.

["الهفوف"]

بعد مضي نصف ساعة كنا نحلق فوق بلدة "الهفوف" وهي من أكبر مدن نجد وكانت عاصمة الإحساء، وفيها النخيل والبساتين بكثرة، وكان منظرها من الطائرة جميلاً

جداً، ونزلت الطائرة في "مطار الهفوف"، والمطار فيه بناء جميل، ومكثت الطائرة مدة خمس وأربعين دقيقة ثم قامت، والمطار لا يبعد عن البلد كثيراً — نحو كيلو متر واحد فقط.

[دار الضيافة في "قصر المربع"]

بعد أن قامت الطائرة من "الهفوف" بمدة ساعة وعشر دقائق كنا نحلق فوق الرياض، ودارت الطائرة بنا فوق المدينة ثم نزلت في المطار، ولم نجد أحداً فأخبرنا قائد المطار السيد حمود، وهو ضابط برتبة رئيس، فأخبر القصر، وبعد قليل جاءنا السيد عبدالله بلخير سكرتير جلالة الملك سعود ورحب بنا وأخذنا إلى دار الضيافة، في "قصر المربع" وهو قصر جلالة الملك عبد العزيز بن سعود المرحوم، وهي دار فخمة، وأدخلنا إلى صالون لنستريح به فيه تكييف الهواء والفرش والأثاث الفاخر، وعندما استقر بنا المكان جاءت القهوة والماء البارد، وبعد استراحة قليلة ذهبنا إلى غرفنا وإذا بها غرف كبيرة جداً فيها كل وسائل الراحة، وفيها الأثاث الملوكي. وودعنا السيد عبدالله بلخير وقال: "سأعود إليكم عند المغرب".

وأخذت حماماً ونعمت به، وبعد ذلك خرجت وإذا الفطور جاهز فأفطرنا ورجعنا إلى غرفنا واسترحنا فيها إلى قرب المغرب.

[مقابلة جلالة الملك سعود وحديث جلالته حول قضية فلسطين وتبرعه لإعمار الأقصى والصخرة المشرفة]

عندما أذن آذان المغرب صلينا، فجاء السيد عبدالله وقال: "إن جلالة الملك ينتظركم لتتناولوا طعام الإفطار في معيته"، وذهبنا مسرعين فوجدنا جلالته قد فرغ من الصلاة ويتأهب للذهاب إلى المائدة، فسلمنا عليه ورافقناه إلى المائدة، ودخلنا قاعة الطعام فوجدنا بها مائدة تتسع لمائة شخص تقريباً، وجلس على رأس المائدة وحوله الأمراء والوزراء، وكان جلوسنا على يمينه بالقرب منه، وتناولنا طعام الإفطار، وكان يسألنا أثناء الأكل عن الطقس وعن راحتنا ويلاطفنا إلى أن انتهى من الطعام.

وبعد ذلك وقف الملك في الحديقة وقال: "نحن نشرب القهوة وقوفاً وبعدها ننتشر، فإذا طعمتم فانتشروا فإن رمضان له ظرف خاص". وأوصى السيد عبدالله بلخير أن يأتينا صباحاً ويصحبنا إلى عند جلالته في حدود الساعة الرابعة عربي، وودعناه شاكرين له هذا الكرم العربي والصراحة العربية والروح الطيبة.

وفي صباح اليوم التاسع من رمضان المبارك صحونا مبكرين وأخذنا نستعد للخروج، وفي الساعة الثالثة حسب التوقيت العربي صباحاً جاء السيد عبدالله بلخير وقال: "إن جلالة الملك يدعوكم". فذهبنا معه إلى "الناصرية" ودخلنا في حديقتها الرائعة إلى داخل القصر، وجلسنا في قاعة فخمة ننتظر الإذن، وبعد دقائق قليلة استدعينا فدخلنا على جلالة الملك سعود، وبعد أداء التحية رحب بنا ترحيباً طيباً وأخذ يتكلم عن حالة العرب عامة وقضية فلسطين وأنه مهتم بها، وأنه سوف لا يدخر وسعاً في السعي إلى إيجاد حل لها، وتكلم عن تخاذل العرب، واستمر في حديثه بهذا المعنى نحو نصف ساعة حديثاً مستفيضاً، وكان يتكلم بلهجة عاطفية، وأنه هو من بيت يدعو إلى الدين لا المُلك، وأن المُلك وأغراضه وغروره لا تهمه أبداً، ونحن سكوت إلى أن فرغ من كلامه فأخذنا في بعض المجاملة والتحيات.

ثم التفت جلالته إلينا بعد أن انتهى الحديث فقال: "تريدون أن تبحثوا معي بحثاً خاصاً؟".

فشكره الشيخ عبدالله غوشة على ما لقينا من ترحيب في جميع المملكة السعودية من جميع الطبقات، ثم شرح له غرضنا؛

فقال جلالته: "لقد قرأت كتاب جلالة الملك حسين المعظم وإني أشكره على هذا الاهتمام بالصخرة المشرفة والمسجد الأقصى، وأشكر القائمين على هذا الموضوع جميعاً، وإني أتبرع لهذا المشروع بمائة ألف دينار، وكم كنت أود أن أقوم بنفسي بجميع ما يكلف ولكن هذا أمر يخص المسلمين جميعاً، ولا أحب أن يحرموا من الثواب، فاذهبوا أنتم وطوفوا بالبلاد العربية والإسلامية فإذا جمعتم المبلغ المطلوب فبها ونعمت، وإلا فإني أتعهد بأن أسدد ما يتبقى مهما كان ولا أريد بذلك إلا وجه الله".

فشكرناه على هذا الكرم العظيم وهذه الروح الطيبة ودعونا له، وقمنا مودعين معجبين.

رجعنا إلى دار الضيافة فوجدنا السيد جمال الحسيني على الباب جاء زائراً لنا فصعد معنا، وجلسنا معه نحو ساعة تداولنا فيها شتى الأحاديث وأهمها حديث تبرع جلالة الملك السخي، ثم كتبنا برقية لجلالة الملك حسين شرحنا فيها خلاصة ما دار من الحديث وأنبأناه عن التبرع وصحبناها شكرنا لجلالة الملك سعود المعظم.

وذهب السيد جمال وأمضينا نحن بقية يومنا في دار الضيافة نستعد للسفر غداً في اليوم العاشر من رمضان، فقد أخبرنا جلالة الملك سعود بأننا مسافرون وودعناه عند قيامنا من عنده.

أخبرنا السيد عبدالله بلخير أن السفر غداً صباحاً وأنه سيخبرنا عن موعد السفر مساءً، وبقينا نحن ننتظر إلى ساعة متأخرة من الليل فلم يأت. وفي الصباح، صباح اليوم العاشر من رمضان، استيقظنا نحو الساعة السابعة على اعتبار أننا سنسافر مبكرين إلى جدة، وبقينا ننتظر الى الساعة الثانية عشرة حتى جاء مدير الضيافة وأخبرنا أن السيد عبدالله بلخير مريض وأنه هو سيقوم مقامه بأمر سفرنا، وقال: "بعد ساعة سنذهب إلى المطار".

وبعد نصف ساعة جاءنا شاب يحمل صرة صغيرة وقال: "هذه هدية من جلالة الملك". وهي عبارة عن عباءة وحطة، ثم بعد قليل أتى بساعات ذهبية أيضاً. ثم جاء مدير الضيافة وقال: "لنذهب إلى المطار". فأخذنا جميع أمتعتنا وذهبنا إلى المطار، وكان الوقت نحو الواحدة والنصف والحر شديد لا يُطاق، فوضعنا الأمتعة وبقينا ننتظر نحو ساعة ونصف ولم نستطع أن نأخذ خبراً حقيقياً عن السفر لأنه لا يوجد في المطار أي موظف، وإذا أردنا أن نتكلم بالتلفون لا نأخذ جواباً لأن عامل التلفون نائم وجميع الموظفين نائمون، وهكذا تشل الحركة نهاراً في رمضان، وبعد أن يئسنا تركنا جميع أمتعتنا في المطار وعدنا إلى دار الضيافة، وبقينا طيلة ذلك اليوم ولم نأخذ علماً صحيحاً عن السفر، وفي المساء جاءنا خبر بأن السفر غداً صباحاً مع طلوع الشمس، فبتنا على هذه النية.

[عودة إلى جدة]

استيقظنا صباح يوم الجمعة نحو الساعة الخامسة ولم نكن نمنا أكثر من ثلاث ساعات، وذهبنا إلى المطار ولم تقم الطائرة إلاّ بعد الساعة الثامنة والنصف، ومرت بنا على "الطائف" فنزلنا في المطار وإذا بالجو لطيف والهواء عليل، فتذكرنا هواء عمّان والقدس والخليل، وبعد نحو خمس عشرة دقيقة قامت بنا متوجهة إلى جدة، فوصلناها نحو الساعة الثانية عشرة والنصف، ولم نجد أحداً في المطار فاستأجرنا سيارتين إلى "فندق البساتين"، ووضعنا الأمتعة وجلسنا نستريح، فجاء موظف الضيافة وقال: "لقد انتظرناكم أمس فلم تأتوا..!؟" فقلنا له: "لم نجد طائرة وتأخرنا إلى اليوم". فقال: "سأخبر القائم بأعمال المفوضية الأردنية، وسأرسل لكم سيارة". وبعد نحو ساعتين جاء السيد حافظ عبد الهادي وسلَّم علينا مستغرباً عودتنا، وقال: "لقد وصلتنا أمس برقية بتوقيع الوفد الأردني ولا أعلم عنكم شيئاً ولم تأتوا..!" فشرحنا له قصة سفرنا وسبب تأخرنا وجلسنا نتحدث، ثم قال: "الأفضل أن نذهب إلى المفوضية وهناك نأخذ مواعيد الطائرات، ونعمل إذا أمكن ترتيباً تذهبون فيه إلى المدينة المنورة في طريقكم إلى عمّان". فقال الشيخ عبدالله: "أنا متعب جداً أريد النوم، وعندما تقررون الذهاب إلى مكان تمرون عليّ فأذهب معكم".

ذهبنا إلى المفوضية وراجع قائمة موعد سفر الطائرات فوجد أن طائرة تقوم يوم الأحد من جدة إلى المدينة المنورة إلى بيروت، فاتصل بوكيل وزارة المالية وطلب منه أن يعمل ترتيباً نزور فيه المدينة يوم الأحد وصباح يوم الإثنين نذهب في الطائرة التي تقوم من جدة إلى بيروت عن طريق المدينة إلى عمان إذا أمكن وإلاّ إلى بيروت؛ فكان جوابه مبدئياً بالإيجاب، وقال إنه سيتصل بنا بعد المغرب.

[إلى مكة المكرمة وزيارة بيت الله الحرام]

بعد الساعة الرابعة توجهنا إلى مكة المكرمة فوصلناها قرب المغرب، وذهبنا إلى دار السيد خميس نصار أحد الفلسطينيين الساكنين في مكة وهو صاحب ثروة طائلة ومُلك كبير، ودخلنا داراً واسعة ذات بناء كبير ضخم، وتناولنا عنده طعام الإفطار، ثم توجهنا إلى زيارة بيت الله الحرام، وطفنا بالبيت العتيق سبعاً، ثم صلينا العشاء وخرجنا إلى أسواق مكة فاشترينا بعض الهدايا واستغرق معنا(ذلك) وقتاً طويلاً، وبعد منتصف الليل عدنا إلى جدة.

أمضينا يوم السبت ١١ رمضان في جدة، وبعد العصر خرجنا وتجولنا قليلاً في الأسواق، ثم ذهبنا إلى "البنك العربي" حيث صرفنا بعض الفلوس، وقبل الغروب عدنا إلى الفندق، وبعد العشاء ذهبنا إلى السوق قليلاً، ثم زرنا السيد عبدالله السعد أحد مساعدي وزير المالية، وبعد فترة قليلة ودعناه وكان أخبرنا بأن ترتيب السفر أصبح كاملاً على أن نسافر غداً يوم الأحد إلى المدينة المنورة، ويوم الإثنين صباحاً تأتينا الطائرة الذاهبة إلى بيروت وتنزلنا في عمّان وهي في طريقها إلى بيروت؛ فشكرناه على هذه الروح الطيبة وانصرفنا من عنده إلى السوق فأخذنا بعض الأغراض وعدنا إلى الفندق. وكان الوقت متأخراً قرب الفجر فتمنا نحو ساعتين ثم استيقظنا، وجهزنا أمتعتنا وذهبنا إلى المطار فوجدنا الطائرة مستعدة للقيام فأخذنا قسماً من أغراضنا والباقي استبقوه في المطار لأن حمولة الطائرة كاملة على أن يُرسل إلينا في طائرة الغد التي تأتي لتقلنا إلى عمّان.

[المدينة المنورة
وزيارة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم)
والمسجد النبوي الشريف]

قامت الطائرة بنا يوم الأحد ١٢ رمضان صباحاً في نحو الساعة الخامسة والنصف، وفي تمام الساعة السابعة كنا في مطار المدينة المنورة، وركبنا السيارة وتوجهنا إلى المدينة، والمسافة بين المطار والمدينة نحو خمسة عشر كيلو متر.

نزلنا في "فندق التيسير" وهو على ما أظن الفندق الوحيد في المدينة، وهو بناء قديم جداً تنقصه جميع وسائل الراحة والنظافة... وذهبت إلى الحرم النبوي الشريف بعد أن استرحت قليلاً، ودخلت من الباب المجيدي وهو من الجهة الشمالية، وتقوم العمارة من جهته، فقد عملوا على توسعة المسجد فأضافوا له قسماً من الشمال والشرق، وسيكون اتساعه عظيماً عندما تتم هذه العملية.

توجهت من باب المجيدي إلى داخل الحرم، ولما صرت قرب القبلة وجدت الشيخ محمد علي الجعبري جالساً على دكة خشبية يُقال لها "دكة الأغوات"، فسلمت عليه وقام معي وزرنا النبي محمداً سيد الوجود (صلى الله عليه وسلم) وصاحبيه الكريمين أبي بكر وعمر، وقد تملكني شعور غريب عندما وقفت بالمواجهة، وأخذت أستعيد

الذكريات القديمة، فإذا أنا واقف أمام سيد البشر، الذي قلب الكون وأحدث أكبر نظام في العالم. تاريخ حافل، يجمعه ويضمه هذا المكان العظيم، تاريخ الأمة العربية، والإسلام. وجعلت صور الماضي تمر في مخيلتي وما أعظمها من صور، وجعلت أتلفت في هذا المسجد العظيم، وأرى كيف كان يجلس فيه النبي العظيم يُلقي تعاليمه على أصحابه، وتزوره الوفود من جميع الأقطار ويُرسل رسله إلى الملوك في مشارق الأرض ومغاربها، ويعظ ويخطب، ويرشد ويعلم ومتى كان ذلك، كان في وقت الناس فيه نيام، والجهل مخيم على البشر، والظلم منتشر في أرجاء المعمورة، كل هذا كان يجول في خاطري وأنا واقف أمام سيد الوجود مطرق لا أستطيع أن أقول شيئاً إلاّ الصلاة على رسول الله، فقد انعقد لساني، وملكتني رهبة المكان، وعظمة صاحب ذلك المقام، وبقيت مدة وأنا لا أعي، ثم أفقت من تلك الغمرة، ودعوت بما حضرني من كلمات وصليت ركعتين، ثم ذهبت إلى المكان الذي بين المنبر والمقام وهو المسمى بالروضة لقوله عليه الصلاة والسلام: "ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة" ؛ فصليت ركعتين، ثم جلست أنا والأستاذ الجعبري بعد أن طفنا بجميع أركان المسجد، جلسنا برهة وخرجنا بعدها متوجهين إلى الفندق. وفي طريقنا سأل الأستاذ عن بيت فياض الخضرة فدلنا عليه طفل صغير، ولم نجد السيد فياض بل وجدنا ولده عبد السلام فرحب بنا ودخلنا البيت واسترحنا قليلاً، وأخبرنا بأن والده ذهب إلى لبنان ليعالج والدته لأنها مريضة، فتركت الأستاذ الجعبري في بيت السيد فياض الخضرة وذهبت إلى الفندق لأستريح به قليلاً، فجاء بعد ذلك الأستاذ ومعه السيد عبد السلام، وبعد أن استرحنا قليلاً طلبت من السيد عبد السلام أن يدلني على بيت المرحوم الشيخ محمد الخضر الشنقيطي، فقال إنه لا يعرفه ولكن سيذهب معي ويسأل عنه، فذهبنا وسألنا أحد التجار فدلنا عليه، فذهبنا ووجدت الشيخ محمد عبدالله وسلمت عليه ومكثت عنده إلى قرب الظهر، ثم رجعنا إلى الحرم وصلينا الظهر، وبعدها ذهبت إلى الفندق وذهب السيد محمد عبدالله الشنقيطي إلى بيته على أن نلتقي في صلاة العشاء في المسجد،...

[نهاية ما دوّنه الشيخ إبراهيم القطان عن هذه الرحلة]

مصر وبلاد النوبة

كانون الثاني/ يناير ١٩٦٠م

أيها الحفل الكريم،

فاتحة حديثي هو جزيل شكري لرابطة راهبات الوردية إذ شرفتني بافتتاح هذه الدورة من المحاضرات.

وشكري الجزيل لكم أيها السيدات والسادة لتلطفكم بالحضور، ولصبركم على سماع هذه المحاضرة.

(١)

الإدارة الثقافية فرع هام من الجامعة العربية، فهي تعقد اجتماعات دورية كل سنة غير ما تقوم به من عقد مؤتمرات وحلقات لغوية، ونشاط عظيم في مختلف النواحي الثقافية لخدمة الأمة العربية.

وقد عقدت اللجنة الثقافية دورتها الرابعة عشرة في الحادي والعشرين من شهر كانون الثاني مطلع هذا العام بمقر الأمانة العامة الجديد للجامعة العربية بالقاهرة. ويرأس هذه الإدارة الدكتور طه حسين ولكنه مريض شفاه الله؛ فناب عنه الدكتور يحيى الخشاب.

وقد حضر ممثلون عن جميع الدول العربية وحكوماتها ما عدا تونس. وكانت الأبحاث التي دارت في هذه الدورة على جانب عظيم من الأهمية جديرة بالاهتمام والعناية منها: وضع دائرة معارف عربية مفصَّلة. وإننا بأمسّ الحاجة إلى تحقيق هذا المشروع فإن المكتبة العربية مفتقرة إليه فنرجو أن تنشط الهمم إلى إظهاره إلى الوجود.

ومن الأبحاث المهمة أيضاً إنشاء مركز التخطيط التربوي، وهو مركز لتدريب كبار موظفي التربية والتعليم وغيرهم من رجال التعليم في البلاد العربية تدريباً عالياً، وقد أقرّته منظمة "اليونسكو" في مؤتمرها العام الحادي عشر، وقد تقرر أن يكون في بيروت. وقد وُضع لهذا المشروع نظام وتوصيات قدمته اللجنة للحكومات العربية، وسيكون لهذا المشروع الجليل أثره الكبير في حقل التربية والتعليم.

وكذلك كان من الأبحاث إنشاء مركز تبادل القيم الثقافية بين الشرق والغرب، وسيكون مكانه في دمشق، وقد وضعت اللجنة التوصيات اللازمة بأن يقوم بين المركزين المذكورين التعاون والتنسيق بحيث يكمل أحدهما الآخر إلى الحدّ الذي يكوِّنان فيه وحدة متكاملة تؤدي رسالة هامة وهي إبراز حضارة العرب إلى البلاد الغربية، كما تبرز حضارة الغرب إلى البلاد العربية.

ومن الأبحاث التي كانت في اللجنة موضوع اللغة العربية في "اليونسكو"، لأن منظمة "اليونسكو" أقرَّت اللغة العربية وستكون من اللغات المتداولة فيها، ولذلك قدمت اللجنة التواصي الأكيدة للحكومات العربية بالعناية بتهيئة فئة صالحة من الشباب العربي للقيام بأعمال الترجمة والتحرير في منظمة "اليونسكو"، وذلك بأن توفد مبعوثين من الشباب ليلتحقوا بالمعاهد الخاصة بالترجمة الفورية والاختزال حتى تستخدم هؤلاء الشباب في هذه الأعمال في منظمة "اليونسكو".

وكذلك أوصت اللجنة الحكومات العربية بالاشتراك في مؤتمر المستشرقين بعدد كافٍ من الأساتذة المتخصصين في مواد المؤتمر، وأن يُنسَق العمل بين وفود هؤلاء الأساتذة حتى يكون لكل فرع من دراساته من يمثل العرب فيه بقوة، لأن هذا المؤتمر يستغله اليهود في الدعاية لهم، وتشويه الحقائق التاريخية ومحاولة الدسّ وقلب الحقائق.

لذلك أوصت اللجنة الثقافية، الحكومات العربية، بأن يهتموا بهذا المؤتمر الذي يُعقد دورياً وكل مرة في قطر من الأقطار.

ومن الأبحاث الجليلة التي كانت على جدول الأعمال موضوع التأليف والترجمة والنشر، وذلك بإشراك المؤلفين والمترجمين من البلاد العربية كافة، وتشجيع هذه الحركة بأقصى ما يمكن من الاستطاعة.

وقد وافقت اللجنة على أن يُعقد المؤتمر الثقافي الخامس الخاص بالكتاب المدرسي في المملكة المغربية في أوائل شهر تموز سنة ١٩٦١، وذلك في موعد عقد ندوة التعريب التي دعت إلى عقدها الحكومة المغربية للنظر في أمور المصطلحات والترجمة والاتفاق على نصوص موحدة.

وستعقد حلقة لدراسة مشكلات التعليم الجامعي في منتصف شهر نيسان في ليبيا.

وحلقة أخرى ستعقدها اللجنة لدراسة تيسير تداول الكتاب العربي ونشره، في منتصف حزيران في لبنان.

مما قدمت يتضح لكم أهمية الإدارة الثقافية وما تقوم به من خدمات جليلة في سبيل الأمة العربية، وفقنا الله جميعاً لعمل الخير.

(٢)

وكان من جملة الأبحاث على جدول الأعمال: موضوع إنقاذ آثار النوبة. والسبب في ذلك أن هذه الآثار قيّمة جداً، ولا تقدَّر بثمن كما قال بعض الخبراء العالميين، وستغمرها المياه بسبب مشروع السد العالي، وستغمر بلاد النوبة بكاملها. وقد وجهت الجمهورية العربية لمنظمة "اليونسكو" مذكرة تطلب فيها العمل على معونتها بإنقاذ هذه الآثار، فلبت "اليونسكو" طلبها؛ ففي مساء يوم ٨ آذار من سنة ١٩٦٠م في احتفال كبير بمنظمة "اليونسكو" بباريس ضم شخصيات بارزة في المجال الدولي، وقف الدكتور فيتورينو فيرونيز المدير العام "لليونسكو" ووجّه نداءً دولياً لإنقاذ آثار النوبة.

مما قاله في هذا النداء إن هذه الآثار ليست ملكاً لأحد إنها للعالم أجمع مثل حكمة أرسطو واللوحات الفنية العالمية، وسمفونيات بيتهوفن، إنها ملك الجميع، ولذلك يجب علينا أن نعمل على إنقاذها.

وتلقفت صحف العالم ذلك النداء ووكالات الأنباء. وقد لبّى كثير من الدول ذلك النداء وأُرسِلت عدة بعثات لتعمل ما بإمكانها لإنقاذ هذه الآثار.

وقد وُضع البحث على جدول أعمال اللجنة الثقافية ليقوم المندوبون العرب بدورهم ويعملوا ما بوسعهم للمشاركة في ذلك. وإتماماً للبحث نظمت لنا مصلحة الآثار هذه الرحلة لبلاد النوبة للاطلاع على هذه الآثار.

وأرجو أن تسمحوا لي أيها السادة أن أنقلكم ساعة من الزمن إلى ذلك الإقليم لنتجول فيه معاً، وتأخذوا فكرة عابرة في هذه الفترة الوجيزة عن هذه الآثار التي يرجع تاريخها إلى نحو أربعة آلاف سنة والتي تعاقب عليها عدة دول وأمم مختلفة.

وسترون كيف كان القوم يسجلون حياتهم اليومية في حالتي السلم والحرب، وأعيادهم وطقوسهم الدينية، وجميع ما يتعلق في حياتهم على جدران معابدهم وتماثيلهم، ومقابرهم:(١)

صور تريك تحركاً ... والأصل في الصور السكون
ويمر رائع صمتها ... بالحسّ كالنطق المبين
صحب الزمان دهانها ... حيناً عهيداً بعد حين
خدع العيون ولم يزل ... حتى تحدّى اللاّمسين
غلمان قصرك في الركا ... ب يناولون ويطردون
والبوق يهتف والسها ... م ترن، والقوس الحنون
وكلاب صيدك لهث ... والخيل جن لها جنون
والوحش تنفر في السهو ... ل وتارة تثب الحزون
والطير ترسف في الجرا ... ح وفي مناقرها أنين

هذا كله وأكثر من هذا الوصف موجود في هذه المعابد. وأرجو أن لا أُدخل عليكم الملل في هذه الفترة التي سنتجوَّل فيها معاً. أما بقية بلاد النوبة ذاتها فلا يوجد فيها مدن ذات أهمية ولا قرى تستحق الذكر لأن معظم أراضيها التي كانت تزرعها غطتها المياه منذ سنة ١٩٠٢م عندما أُنشئ خزان أسوان، وفي سنة ١٩٣٤م عندما عُمِلَت التعلية الثانية للخزان؛ ولذلك ترى قرىً جافة على شاطئ النيل ووراءها صحراء ورمال، إلاَّ ما ندر من البلدان وذلك قليل.

تمتد بلاد النوبة من أسوان جنوباً إلى وادي حلفا في السودان بطول ٣٥٠ كيلو متر، وتنتشر قرى ذلك القطر على شاطئ النيل بشكل تكاد تكون متصلة، ويوجد فيها آثار عظيمة، وقديمة جداً مما يدل على أهمية هذه البلاد وثرائها. وتدلّ هذه الآثار على أن هذه البلاد قديمة جداً قِدم التاريخ، ويسكن هذا الإقليم شعب يغلب عليه لون السواد

---

(١) ديوان شوقي، ١/ ٢٥٢ (توثيق وتبويب وشرح وتعقيب: الدكتور أحمد محمد الحوفي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٧٩).

والسمرة، وتدلّ هذه الآثار على أنه كانت هناك صلات بين الحضارات المختلفة في مصر والنوبة والسودان في عصر ما قبل الأسرات.

وقد زاد اهتمام الملوك بالنوبة، وذلك لأهميتها كطريق للتجارة إلى الجنوب، ولغناها بالذهب، والأحجار... والأخشاب. وقد تعاقب على حكم هذه المنطقة الفراعنة والبطالمة والرومان. وفي خلال القرون الأولى للعهد المسيحي كانت تسكن بلاد النوبة قبائل "نوباتي" الذين كانوا في منازعات مستمرة مع شعب قوي ظهر في الأفق يُعرف باسم شعب "البليمي" حتى اضطر الرومان لإرسال حملة بقيادة "ماكسيمينيوس" القائد العام للقوات في مصر، فاستطاع أن يهزم هذا الشعب وأن يعقد هدنة معهم لمدة مائة عام.

وقد أخذت المسيحية بعد الاعتراف بها رسمياً تنتشر في بلاد النوبة تدريجياً فأُقيمت الأديرة وحوِّل كثير من المعابد إلى كنائس كمعبد "وادي السبوع" ومعبد "أبو عودة".

ولما دخل العرب مصر توغلوا في النوبة حتى اعتنق الناس الإسلام، ولم تلبث أن تحوَّلت تلك المعابد والأديرة إلى مساجد للعبادة، وأخذت الثقافة العربية تنتشر في هذه البلاد.

وهكذا ترون كيف كانت بلاد النوبة مسرحاً للأحداث التاريخية وللمباني والمنشآت المعمارية، ويعتبر عهد الدولة الوسطى والحديثة من الفراعنة العصر الذهبي للنوبة، ولهذين العهدين بصفة خاصة يرجع الفضل لبناء وإشادة هذه المنشآت الضخمة من معابد، وهياكل، وللعهد اليوناني والروماني كذلك يرجع الفضل لبناء المعابد الجميلة كمعبد فيله، وقرطاسي، وكلابشه، تلك المعابد التي يهتم بها الناس اليوم لإنقاذها من الغرق وحمايتها.

هذه لمحة عن بلاد النوبة قدمته قبل الكلام على آثارها ومعابدها.

(٣)

كانت الرحلة من القاهرة إلى أسوان بالقطار والمسافة نحو ثمانمائة كيلومتر، ومن أسوان هُيأت لنا باخرة صغيرة مجهزة بأحدث الوسائل واسمها "شيخ البلد"، وفي حدود

الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الأحد التاسع والعشرين من كانون الثاني أقلعت بنا الباخرة من أسوان متجهة إلى الجنوب في النيل، وكم كانت الرحلة جميلة، ولطيفة، فقد كان القمر ساطعاً، والجو هادئاً، والنيل صافياً، فكان ذلك كله يشكِّل جواً ساحراً. وذكرت قصيدة أمير الشعراء شوقي في النيل، وأنا أسرح الطرف في هذا النهر العظيم، ومن أولى من شوقي أن ينظم في النيل ويخاطبه ويعظمه، وكنت أردِّد هذه الأبيات:(٢)

من أي عهد في القرى تتدفق ... وبأي كف في المدائن تغدق

ومن السماء نزلت أم فجرت من ... عليا الجنان جداولاً تترقرق

تسقي وتطعم لا إناؤك ضَائق ... بالواردين ولا خوانك ينفق

والماء تسكبه فيسبك عسجداً ... والأرض تغرقها فيحيا المغرق

وهي قصيدة عامرة حافلة ذكر فيها تاريخ النيل، وعادات الفراعنة، واحتفالاتهم وطقوس ديانتهم، وتعرض لجميع ما يستحق الذكر، وقد أبدع وأجاد، ولم يترك شيئاً يتعلق في النيل وحضارته إلاَّ تعرَّض له بأجمل منطق وأحلى عبارة. (٣)

فيه محل للأقانيم العلى ... ولجامع التوحيد فيه تعلّق

تابوت موسى لا تزال جلالة ... تبدو عليك له ورياً تنشق

وجمال يوسف لا يزال لواؤه ... حوليك في أفق الجلال يرنق

ودموع اخوته رسائل توبة ... مسطورهن بشاطئيك منمق

وصلاة مريم فوق زرعك لم يزل ... يزكو لذكراها النبات ويسمق

وخطا المسيح عليك روحاً طاهراً ... بركات ربك والنعيم الغيدق

وودائع الفاروق عندك دينه ... و لواؤه و بيانه و المنطق

بعث الصحابة يحملون من الهدى ... والحق ما يحيي العقول ويفتق

---

(٢) ديوان شوقي (تبويب الحوفي)، ١/ ٢٣٣ - ٢٣٤.

(٣) نفسه، ١/ ٢٤٢.

وهي قصيدة طويلة رائعة أعتذر إذ أنشدت هذه الأبيات منها فقط. وكنت أُردد ما أحفظه منها في معظم الأوقات ولا سيما هذه الأبيات الأخيرة.

واستمرت هذه الرحلة في النيل مدة أسبوع ونحن نتنقل من مكان إلى مكان في جو لطيف وهدوء نتمتع بجمال الطبيعة، وزرنا بها آثار النوبة وهي تشتمل على نحو ١٧ معبداً.

وسأتكلم على ما يمكن منها بإيجاز لأن الوقت لا يسمح بالتفصيل ولا يتسع للكلام عليها جميعاً:

أول هذه المعابد معابد فيله: توجد هذه المعابد في جزيرة فيله، وهي عبارة عن مجموعة من المعابد بُنِيَت في عهود مختلفة، أقدمها معبد الملك "نيكتاينيو" الأول الذي بناه للإلهة "حتحور" والإلهة "ايزيس"، ولآلهة جزيرة "بجه" أو "سنموت" كما كان يسميها المصريون القدماء. وقد قام بترميم هذا المعبد الملك بطليموس الثاني، ويرى فيه المرء عدة مناظر للملك وهو يقدم القرابين للآلهة "خنوم"، و"ساتت"، و"أوزيريس"، و"إيزيس"، و"موت" وغيرها.. وإلى جوار هذا المعبد في الطرف الجنوبي لرواق الأعمدة الشرقي المؤدي إلى معبد الإلهة إيزيس يوجد معبد إله الشمس "ارسينونيس" الذي يرجع إلى العهد البطلمي.

ويقع بين معبد "نيكتاينيو" ومعبد "إيزيس" رواق من الأعمدة يتألف الآن من ٣١ عموداً ذات تيجان على شكل الزهور، وأوراق النخيل، وتعد هذه الأعمدة أجمل ما في معابد فيله.

أما رواق الأعمدة الشرقي فلم يكتمل، ويتألف من سبعة عشر عموداً، منها ستة أعمدة كاملة وبين هذا المعبد وصرح المعبد الكبير توجد البوابة التي بناها بطليموس الثاني الذي يمثل عليها وهو يرقص أمام "خنوم"، و"حتحور"، و"أوزيريس"، و"إيزيس".

وفي الجانب الغربي للمعبد، قرب الصرح الثاني توجد البوابة التي بناها هدريان، وإلى الجنوب من هذه البوابة يوجد مقياس النيل الذي لا تزال توجد على حوائطه نقوش باللغات الديموطيقية، والهيراطيقية، والقبطية.

وإلى الشمال من بوابة هدريان يوجد معبد الإله "حورنديتوس" الذي تقع في شماله كنيسة ترجع إلى العهد المسيحي وإلى الجنوب توجد بقايا معبد الامبراطور أوغسطس. وفي شرق الصرح الثاني لمعبد "إيزيس" يوجد معبد الإلهة "حتحور" الذي يرجع إلى العصر البطلمي، وإلى الجنوب يقوم كشك تراجان، الذي يسترعي بأعمدته الجميلة الأنظار، ويتألف من قاعة مستطيلة يحيط بها أربعة عشر عموداً تيجانها على شكل الأزهار، وترتكز عليها كتل ضخمة من الأحجار تحمل الأعتاب والكورنيش.

هذه المعابد في جزيرة فيله المسماة "أنس الوجود" وهي التي قال فيها شوقي قصيدة رائعة جاء فيها: (٤)

قف بتلك القصور في اليم غرقى	ممسكاً بعضها من الذعر بعضا
كعذارى أخفين في الماء بضاً	سابحات به وأبدين بضا
مشرفات على الزوال وكانت	مشرفات على الكواكب نهضا
شاب من حولها الزمان وشابت	وشباب الفنون ما زال غضا
رب نقش كأنما نفض الصا	نع منه اليدين بالأمس نفضا
ودهان كلامع الزيت مرت	أعصر بالسراج والزيت وضا
و خطوط كأنها هدب ريم	حسنت صنعة وطولاً وعرضا
و محاريب كالبروج بنتها	عزمات من عزمة الجن أمضى
يا قصوراً نظرتها وهي تقضي	فسكبت الدموع والحق يقضى

وبعد أن غادرنا جزيرة فيله، مررنا بمنطقة معبد دابو حيث كان يقوم المعبد الذي بناه في عهد البطالمة الملك النوبي "ازخر آمون"، وهو المعبد الذي قامت مصلحة الآثار ومركز تسجيل الآثار بتسجيله ونقله في أغسطس وسبتمبر١٩٦٠م بمعاونة الخبراء الهولنديين والبلجيكيين.

(٤) ديوان شوقي (تبويب الحوفي)، ١/ ٢٢٧ – ٢٢٨.

ثم مررنا بمنطقة دهميت ووصلنا معبد قرطاسي الذي يقع على الشاطيء الغربي على بعد حوالي ٤٥ كيلومتر من خزان أسوان، ويرجع المعبد إلى العصر الروماني ويعتبر من أجمل معابد النوبة، ويقوم فوق رصيف حجري، وللمعبد مدخل في الشمال له عمودان بتيجان على شكل رأس حتمور بينهما باب، ويُشاهَد في المعبد أيضاً بقايا أربعة تيجان على شكل الزهور، وقد أجاد الفنان نحتها حتى استرعت الانتباه.

وحوالي الساعة الثامنة مساء وصلنا قرية اسمها "كلابشه" وأمضينا تلك الليلة في الباخرة. وفي الصباح زرنا المعبد، وقد كُرِّس هذا المعبد لعبادة إله النوبة "مندوليس". ويرجع المعبد الحالي إلى عصر البطالمة وعصر الرومان – أوغسطوس وكاليجولا وتراجان. وقد بُني على أنقاض معبد من عصر الملك امنوفيس الثاني من الأسرة الثامنة عشرة، ولعل هذا يفسِّر لنا عبادة بعض الآلهة المصرية في هذا المعبد مثل "آمون"، و"رع"، و"خنوم، و"مين"، و"بتاح".

ويعد هذا المعبد من أجمل معابد النوبة بعد "أبو سمبل" يدخل إليه من فناء واسع كانت تحيط به في الأصل أعمدة من جهات ثلاث، وبعد الفناء ندخل بوابة تؤدي إلى صالة الأعمدة، وبعد هذا نمر بغرفتين تؤديان إلى قدس الأقداس.

يمتاز هذا المعبد بأعمدة جميلة ذات تيجان على هيئة الزهور، ونقوش تمثل الأباطرة الرومان وهم يتعبدون أمام الآلهة، ويقدمون لها القرابين من العطور، والزهور، والملبس والشراب. كما يُرى الملك امنوفيس الثاني وهو يقدم القرابين، كما تحوي جدران المعبد رسوماً ترجع إلى العهد المسيحي عندما تحوَّل إلى كنيسة.

وبعد ذلك سرنا في النيل جنوباً إلى قرب الساعة العاشرة والنصف صباحاً حيث وصلنا معبداً يسمى "بيت الوالي"، وهو معبد منحوت في الصخر وهو من المعابد الضخمة التي شيدها الملك رمسيس الثاني في النوبة، طوله نحو أربعين متراً، ويتكون هذا المعبد من مدخل يليه فناء مكشوف، تليه صالة الأعمدة ثم قدس الأقداس، وتتميز جدرانه بالنقوش البديعة التي تمثل الملك رمسيس الثاني وأبناءه في عرباتهم الحربية، في فتوحاتهم في الجنوب والشمال، كما نشاهد الأسرى، والجزية المقدمة من الحلي والحيوانات المختلفة المنقوشة نقشاً كله حركة وجمال.

وعلى جدران قدس الأقداس وصالة الأعمدة نرى الملك رمسيس الثاني وهو يقدم القرابين للآلهة مثل "آمون" ، "رع" ، "خنوم" ، و"سانس" ، وما زالت تحتفظ بألوانها الزاهية ونقوشها الجميلة.

ومررنا بطريقنا على قرية كبيرة اسمها "الدكة" وفيها معبد بناه الملك النوبي "ارجا مون" في عهد البطالسة، وقد وُجدت بعض الأحجار المنقولة التي تحمل نقوشاً من عهد الملكة حتشبسوت وتحوتمس الثالث (الأسرة الثامنة عشرة)، وسيتي الأول ومرنبتاح (الأسرة التاسعة عشرة)، وقد أكمل المعبد بعض ملوك البطالمة والأباطرة والرومان.

ولا يزال صرح هذا المعبد في حالة جيدة، وقد كرس هذا المعبد لعبادة الإله "تحوت" إلة الحكمة، وإن كانت قد عُبِدت به بعض الآلهة الأخرى مثل "خنوم" و"إيزيس"، كما تحوَّل فيما بعد إلى كنيسة كغيره من معابد النوبة. ولا تزال تظهر به الرسوم التي تمثل القديسين.

وسرنا في ذلك النهار بطوله إلى الساعة السابعة مساء ووصلنا مكاناً يسمى "وادي السبوع"، وقد بنى هذا المعبد رمسيس الثاني للإله "آمون رع"، و"رع مورافتي"، و"بتاح"، ورمسيس الثاني نفسه.

وتصل إلى المعبد من بوابة حجرية في الجدار الجنوبي وعلى جانبيها تماثيل رمسيس الثاني، ثم نمر بالفناء الأول الذي تقوم على جوانبه ستة تماثيل على هيئة أبي الهول برأس آدمي، ثم ندخل إلى فناء ثانٍ به أربعة تماثيل على هيئة أبي الهول، برأس الصقر، اثنان على كل جانب.

وفي حدود الساعة التاسعة تحركت بنا الباخرة "شيخ البلد" متجهين إلى قرية اسمها "عمدة"، ومررنا بقرىً كثيرة على شاطىء النيل، وتكاد هذه القرى تكون متصلة لكثرتها. وفي تمام الساعة الواحدة والثلث ظهراً وصلنا قرية عمدة وأسرعنا إلى المعبد.. ويعتبر هذا المعبد من أهم معابد النوبة فقد بناه الملك تحوتمس الثالث، وأضاف إليه الملك أمنوفيس الثاني بعض النقوش، كما زاد عليه الملك تحوتمس الرابع، وقد ألَّه الملك رمسيس الثالث فيه أيضاً. وسيتم نقل معبد عمدة في شتاء ١٩٦٠ – ١٩٦١م.

وبعد أن فرغنا من زيارة هذا المعبد أقلعت بنا الباخرة متجهين إلى الجنوب ومررنا بمكان اسمه "الدر"، وفيه معبد، ثم مكان اسمه "توماس" وقد اشتهرت "توماس" شهرة كبيرة لما تحويه من نقوش متعدِّدة ترجع إلى العصور المختلفة كالدولة القديمة، والدولة الوسطى، والدولة الحديثة، وتقع "توماس" على رأس طريق القوافل القادمة من قلب الصحراء، ولهذا كثُرت على صخورها النقوش التي تركها رجال الرحلات الذين زاروا هذه البقاع وشقوا بقوافلهم الطرق الصحراوية الوعرة.

ومررنا بمعبد الليسيه: ويرجع تاريخ هذا المعبد لعهد الأسرة الثامنة عشرة، وقد بناه الملك تحوتمس الثالث. واستمرت الباخرة سائرة بنا في ريح طيبة وجو جميل إلى تمام الساعة الخامسة مساء حيث وصلنا بلدة "عنيبة"، وهذه البلدة مركز بلاد النوبة، فيها شوارع منظمة وفيها كهرباء ومستشفى ومركز حاكم البلد، ومركز بوليس ومدرسة داخلية. وهي في منبسط من الأرض، وفيها أشجار ونخيل وبساتين. وفيها من الآثار مقبرة من عهد الملك رمسيس السادس منحوتة في الصخر، ولم يبق من آثار هذه المقبرة سوى غرفة صغيرة تحمل جدرانها نقوشاً لا تزال تحتفظ بألوانها الزاهية تمثّل ألواناً من الحياة والطقوس الدينية، وسكانها نحو ثلاثة آلاف نسمة.

وتجاه "عنيبة" في الشاطئ الشرقي توجد المنطقة الأثرية المعروفة باسم "قصر ابريم"، وترجع هذه المنطقة إلى العهد الفرعوني حيث كانت نقطة للدفاع عن هذه المنطقة، وفي أسفل الصخر على شاطئ النيل، نُحِتت هياكل ابريم، وعدد هذه الهياكل خمسة، منها أربعة هياكل منقوشة بنقوش ترجع إلى الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة لأنه يوجد نقوش وصور للملكين تحوتمس الثالث ورمسيس الثاني، وللملكة حتشبسوت، أما الرابع فقد وُهِب للملك امنوفيس الثاني الذي يُشاهَد وهو يتلقى الجزية من أهالي الجنوب. كما تحوي الهياكل المناظر المعتادة التي تمثِّل الملوك في حضرة المعبودات.

وفي الساعة السابعة مساء تحركت بنا الباخرة وسرنا متجهين إلى الجنوب، ووصلنا إلى أبي سنبل حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً. وفي الصباح وجدنا أنفسنا تجاه معبد "أبي سنبل"، ويوجد في أبي سنبل معبدان: معبد ضخم كبير، ومعبد صغير، وبينهما مسافة قصيرة.

يُعتَبَر معبدا أبو سنبل من أعظم معابد مصر القديمة إن لم يكونا أروعها جميعاً، وقد بنى المعبدين الملك رمسيس الثاني: المعبد الكبير لعبادة المعبودين "آمون رع" و "رع حورا ختي"، والثاني لعبادة الإلهة "حتحور"، ويُعرف بالمعبد الصغير أو معبد "نفرتاري" زوجة رمسيس.

وتبلغ واجهة المعبد الكبير ٣٣ متراً في الارتفاع، و٣٨ متراً عرضاً وفي واجهته أربعة تماثيل ضخمة، يبلغ ارتفاع كل منها ٢٠ متراً أحدها قد كُسِر جزؤه العلوي. وفي أعلى التماثيل الأربعة يوجد إطار يحتوي على نقش بأسماء وألقاب رمسيس الثاني، تعلوه زخرفة على هيئة الحيات المقدسة، ثم في الأعلى صف من تماثيل القردة. وفوق بوابة المعبد نحت تمثال الإله "حور ختي". وبجانب أرجل التماثيل الأربعة توجد تماثيل عائلة رمسيس الثاني كامه وزوجته المحبوبة نفرتاري وبناته وأبنائه، كما توجد مناظر الأسرى على قواعد هذه التماثيل.

وعلى الشرفة تقع مقصورتان، الأولى للإله "رع حورا ختي"، والثانية للإله "تحوت"، وقد نُحِت في الصخر نصب زواج رمسيس الثاني من ابنة ملك الحثيين.

وبعد أن نمرّ من الداخل نصل إلى صالة الأعمدة، التي تحتوي على ثمانية أعمدة على الوجه الأمامي لكل منها تمثال للملك رمسيس الثاني، ارتفاع التمثال نحو ثمانية أمتار والسقف مزين بصور للصقر المجنح والنجوم.

أما المناظر الموجودة على جدران صالة الأعمدة فذات أهمية تاريخية حيث تتمثَّل على هذه الجدران مناظر معركة قادش التي خاضها رمسيس الثاني ضد الحثيين، وزين بها الجدار الشمالي لصالة الأعمدة حيث ترى الجيش وهو يزحف نحو المدينة، والمعسكر وقد اكتظ بالجند والعربات الحربية، ثم نجد أسيرين وهما يُجلدان حتى يعترفا بمواقع الجيوش الحثية، ثم رمسيس الثاني وهو يعقد مجلس الحرب ثم التحام الجيشين، وانقضاض رمسيس الثاني بعربته على العدو الذي أحاط به من كل جانب، كما تُشَاهَد مدينة قادش، والجيش الحثي وهو يتقهقر عنها، ثم رمسيس الثاني بعد انتصاره وهو يُحصي الأيدي المقطوعة ويشدّ الأسرى.

وعلى الجدار الجنوبي نجد بعض المناظر التي تمثل رمسيس الثاني وهو يحرق البخور أو يتعبَّد أمام الآلهة، كما يرى وهو يطلق سهامه على إحدى القلاع التي يتساقط منها الأعداء بينما يطلب الآخرون الرحمة. ويحاول أحد الرعاة إخفاء ماشيته.

ويُرى في مكان آخر رمسيس الثاني يطأ عدداً من الأسرى ويطعن آخر برمحه، ثم يعتلي مركبته وبجانبه أسده الأليف، ويعود مظفراً إلى وطنه بعد النصر.

وتلي صالة الأعمدة صالة أخرى أصغر حجماً، تحتوي على أربعة أعمده مربعة يُمَثَّل عليها رمسيس الثاني مع الآلهة التي تحتضنه أحياناً، وتحوي جدران هذه الصالة نقوشاً دينية تمثِّل رمسيس الثاني وهو في حضرة الآلهة.

وفي جوانب هذه القاعة عدة غرف لحفظ القرابين. ثم ندخل بعد ذلك إلى قدس الأقداس حيث نجد في نهايته أربعة تماثيل للآلهة "بتاح" و"آمون" و"رمسيس" و"رع حورا ختي"، وتبلغ المسافة بين هذه التماثيل ومدخل المعبد ٦٣ متراً. وهذا المعبد من مدخله إلى آخره بأعمدته وبكل ما وُضِعَت منحوتاً في الصخر قطعة واحدة. فهو من أروع وأعجب الآثار القديمة الموجودة في العالم.

أما المعبد الصغير والذي يقع إلى الشمال من المعبد الكبير، فقد نحته في الصخر أيضاً رمسيس الثاني لزوجته المحبوبة نفرتاري، وللإلهة "حتمور"، وتزين واجهته ستة تماثيل تمثِّل أربعة منها الملك رمسيس الثاني، وإثنان زوجته الملكة نفرتاري، ومن الداخل نقوش وصور كالعادة تمثِّل ألواناً من الحياة والطقوس الدينية.

وإلى جانب هذه المعابد تنتشر على ضفتي النيل في بلاد النوبة المدن والجبانات الأثرية التي كُشف البعض منها ولا يزال البعض الآخر مطموراً تحت الرمال في حاجة إلى جهود العلماء للكشف عنه.

هذا المعبد بوصفه وضخامته ستغمره المياه إذا بقي في مكانه وكذلك جميع بلاد النوبة بمدنها وقراها وآثارها على مسافة ثلاثمائة وخمسين كيلو متر طولاً بعرض عشرين كيلو متر، وذلك بعد استكمال بناء السد العالي الذي تقرر أن يتم في سنة ١٩٦٧. ولذلك بدأ الاهتمام في هذه المنطقة.

والرأي الآن أن قسماً كبيراً من هذه المعابد سُجِّل وسينقل إلى أماكن عُيِّنَت له. وأما آثار "معبد أبي سنبل" فهناك رأيان لعلماء الآثار: رأي يقول ببناء سد حولها يمنع تسرُّب الماء إليها وهذا يكلِّف نحو ٣٠ مليون جنيه.

أما المشروع الثاني فهو يقضي بنشر المعبد وفصله عن الجبل ورفعه ستين متراً إلى أعلى الجبل، ويكلِّف هذا المشروع نحو عشرين مليوناً من الجنيهات، ولا ندري أي المشروعين سيُكتَب له النجاح.

هذه الآثار التي ذكرتها باختصار قدَّر قيمتها خبير عالمي بأكثر من ٢٠٠٠ مليون جنيه. وقال خبير عالمي آخر: إن هذا التقدير جزافي فهذه الآثار لا يمكن تقديرها بمال. وبعد زيارة هذين المعبدين الهائلين وسماع هذه التفصيلات من مفتش الآثار السيد أوزدريس غبريال الذي كان يرافقنا طيلة هذه الرحلة ذهبنا إلى بلد اسمها "بلانه" وهي تبعُد عن وادي حلفا والحدود السودانية بنحو سبعة كيلو مترات، وهي قرية متواضعة ولكن يوجد فيها أشجار النخيل بكثرة وتزرع قصب السكر والخضار والفواكه، وفيها مركز بريد ومركز جمرك وبعض المتاجر الكبيرة. وبعد أن تجولنا نحو ساعتين قفلنا عائدين إلى أسوان ومنها إلى الأقصر حيث زرنا آثارها العظيمة.. معبد الأقصر، والكرنك، ووادي الملوك.

وإنها لمن أروع وأجمل الآثار الموجودة في العالم لما تحويه من فن وضخامة وروعة وثروة.

وختاماً أكرر شكري للداعين إلى هذه المحاضرة وللحاضرين جميعاً، وأتمنى لكم أطيب الأوقات، والسلام عليكم.

"المغرب الإسلامي العربي"

تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٠م

(١)

كانت زيارة المغرب العربي حلماً من الأحلام اللذيذة التي تطوف في ذهني وتداعب خيالي منذ زمن بعيد، وكم منيت النفس، وكم رسمت الخطط لتلك الزيارة، ولكنها لم تتحقق ولم أستطع تنفيذها، لأن نطاقاً حديدياً من الاستعمار الفرنسي البغيض كان مضروباً حول المغرب العزيز، فلا يسمح لعربي زيارته أو دخوله.

ذهب الاستعمار وزال ذلك النطاق، وفُتِحَت الأبواب وتحقق الحلم فزرت المغرب والتقيت بإخوان هناك كِرام، وأهل أعزاء. ورأيت شعباً عظيماً له مميزات جمة وصفات كريمة، إيمان قوي، وعقيدة راسخة، وتمسُّك بدينه مع الاعتزاز به، وكلمة عربي عندهم ترادف كلمة مسلم، لا يفرقون بينهما أبدا.

يؤمنون بقضيتهم وقد جاهدوا وكافحوا، وصمدوا صمود الأبطال الجبابرة أمام القوة والبطش والطغيان حتى طردوا المستعمر وحققوا استقلالهم.

وهم في وحدتهم الآن واستقلالهم متماسكون ملتفون حول مليكهم العظيم، المجاهد المناضل، يبنون ويمشون إلى الأمام بخطى ثابتة، وعزم وتصميم.

وقد اجتمعت مع كثير من الشباب والرجال وشخصيات من رجال المغرب فلم أجد أي فرق بين أمانيّ وأمانيهم، مصلحتنا واحدة، ولغتنا واحدة، وديننا واحد، وهدفنا واحد، يحبون هذا الشرق العربي، ويتوقون إلى سماع أخباره، ويتتبعون قضاياه، ويهتمون بها كما يهتمون بقضاياهم. وكتب الشرق ومجلاته وصحفه بين أيدي أبناء المغرب يطالعونها بشغف وشوق، ويتعرفون منها ومن الإذاعة على كل ما يجري عندنا.

وقد شهدت منظراً لا أنساه أبداً ونحن في طريقنا إلى جامع القرويين يوم افتتاح الاحتفال بمرور أحد عشر قرناً على تأسيس هذا الجامع العظيم، فقد كنا نخترق شوارع فاس القديمة، وخرج أهل فاس بأجمعهم يحيوننا ويهتفون بهتافات عديدة منها تحية للعروبة والإسلام، وللشرق وأبنائه، ومنها "مرحباً بالحبايب".. "مرحباً وأهلاً بإخواننا

وأهلنا".. تكرر هذه الهتافات على أسماعنا ونحن نحييهم بالتحيات مؤشرين بأيدينا، والدموع تنهمر من أعيننا فرحاً وغبطة. وقد افتتح جلالة الملك محمد الخامس المعظم هذا الاحتفال الكبير بخطاب رائع بدأه بقوله: "حضرات السادة: يسرنا كثيراً أن نفتتح في هذا اليوم العظيم الحفلات والمهرجانات المقامة بمناسبة ذكرى مرور أحد عشر قرناً على تأسيس جامعة القرويين، ويطيب لنا أن نرحب بحضرات المثلين الجامعيين وكافة الأساتذة المحترمين الذين تجشموا عناء السفر ووفدوا على بلدنا لحضور هذه الحفلات مجددين بذلك ما بيننا من صلات علمية وممهدين السبيل لتعاون أوثق بين بلدنا وبلدانهم في الميدان الثقافي".

ورأيت بلاداً حباها الله بنعمة كبرى من الجمال والجلال، وكستها الطبيعة حلة زاهية من الخضرة والألوان المبهجة، وأجرت خلالها الأنهار، وفجرت في أعالي جبالها وسفوحها الينابيع، وإذا كُتِب لك أن تتجول بين هذه الجنات رأيت صوراً شتى من الجمال الرائع ولوحات فنية من صنع الله عزَّ وجل، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقد كان إخواننا كراماً حقاً، فطافوا بنا خلال هذه الجنات من الرباط إلى طنجة وضواحيها، فتطوان وما حولها، ومنها إلى مكناس، ومولاي إدريس، ومنطقة زرهون ثم إلى افران التي هي من أجمل المصايف حيث تتربع وسط جبال الأطلس وبين غابات الأرز ومختلف الأشجار، والينابيع، وقد أمضينا فيها يوماً كاملاً نتمتع بمناظرها الخلابة، ونأنس بأحاديث إخواننا وكرمهم، ونشاهد الفرسان يطاردون على خيولهم ويقومون بمختلف ألعاب الفروسية، والشباب والشابات يرقصون الرقص المحلي ويغنون بأهازيج محلية... ومن افران ذهبنا إلى فاس ومررنا بطريقنا في غابات الأرز، والبحيرات، والأشجار والأنهار مناظر لو رآها المتنبي لنسي شعب بوان وأنشد فيها من غرر القصائد وقال فيها أحسن الأشعار.

دخلنا فاس مساءً، وكان أول شيء استقبلنا فيها "دار الشبيبة"، فقد كانت تعج بالشباب والشابات والوجهاء من أبناء فاس الكرام، استقبلونا بالترحيب والتأهيل، وقُدِّمت لنا كؤوس الشاي الأخضر والمرطبات، وهناك تسلم كل واحد منا برامج الاحتفال والدعوات لمدة أيام الاحتفال، واسم الفندق الذي أُعد له، ورقم الغرفة، وبعد استراحة

قليلة في ذلك النادي الزاهر ذهبنا إلى أمكنتنا وأخذنا قسطاً وافراً من الراحة، لنقوم في اليوم التالي بزيارة فاس وضواحيها.

وأمضينا في فاس أربعة أيام حضرنا بها الاحتفال بعيد جامعة القرويين، ودعينا إلى دعوات فخمة في بيوت مبنية على الطراز الأندلسي، وقد دهشنا مما رأينا من جمال في البناء وإتقان في الصنعة، وزخرفة فنية بديعة، ونوافير المياه الجميلة والأثاث الفاخر، والساحات الفسيحة المبلطة بالرخام الأبيض.

وفاس تعتبر أقدم مدينة إسلامية في المملكة المغربية إذ يرجع تاريخ تأسيسها إلى سنة ١٧٢هـ(•)، وتنتصب فيها مائتان وخمسون منارة تقتدي كلها بصومعة جامع القرويين الذي يعتبر – إلى جانب أنه مسجد – أقدم مدرسة في العالم، حيث ظلّ منذ تأسيسه سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) مركزاً يشع على أطراف البلاد. ولهذا كانت فاس العاصمة الفكرية للمملكة المغربية.

وقديماً عَرَفت مدارس فاس وخاصة القرويين الشهيرة أساتذة وعلماء فطاحل كانوا يدرّسون أصول الفلسفة والحساب وعلوم الفلك والطب وأصول الموسيقى، إلى جانب العلوم الشرعية واللغوية.

ولابد من إعطاء لمحة عن جامع القرويين، فقد شهد عبر هذه القرون آلاف العلماء، ممن كانوا نبراساً يهتدى بهم، ومئات من القادة ممن كانوا مضرب المثل، وعشرات الملوك والرؤساء ممن تأرجت بذكرهم صفحات التاريخ. ولما دخلت ذلك الجامع العظيم وتحدثت إلى قسم من علمائه ورجاله واستعرضت ذلك التاريخ الهائل والمجد العظيم تمثّلت بقول أمير الشعراء:(١)

حتى ظننّا الشافعي ومالكاً　　　وأبا حنيفة وابن حنبل حُضَّرا

(•) على يد مولاي إدريس الثاني، وقد دعا إلى الله يوم شرع في بنائها قائلاً : "اللهم إجعلها دار علم وفقه، يُتلى بها كتابك، وتُقام بها حدودك، واجعل أهلها متمسكين بالسنّة والجماعة ما أبقيتها" . ولقد اَستُجيبت دعوة المولى إدريس فهي لا تزال دار علم وفقه إلى يومنا هذا ونرجو لها البقاء والازدهار ما بقيت الدنيا.

(١) ديوان شوقي، ١/ ٤٦٢ (توثيق وتبويب وشرح وتعقيب: الدكتور أحمد محمد الحوفي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٧٩).

في مدينة فاس القديمة محلتان كبيرتان: الأولى اسمها عدوة الأندلسيين، والأخرى عدوة القيروانيين، وقد عمر هاتين العدوتين لاجئون جاؤوا من الأندلس والقيروان.

وكان من جملة المهاجرين الإفريقيين الذين التجأوا إلى فاس منذ بداية القرن الثالث الهجري محمد بن عبدالله الفهري القيرواني الذي توفي بعيد وصوله، وترك ثروة طائلة وخلف ابنتين هما فاطمة ومريم.

وقامت فاطمة أم البنين بمشروع بناء مسجد جامع في عدوة القرويين واشترت حقلاً، وكان بدء البناء في أول رمضان ٢٤٥ هجري الموافق ٣٠ نوفمبر سنة ٨٥٩ م. وهكذا بدأ مسجد عدوة القيروانيين، وتحرفت الكلمة على مرور الزمن وأصبح يُعرف بجامع القرويين وبذلك اشتهر. وفي سنة ٣٢٢ هـ قام الأمير أحمد بن أبي بكر الزناني بتوسيع هذا الجامع وترميمه لأنه أصبح لا يتسع لامتداد المدينة واتساعها.

وفي سنة ٥٣١ هـ في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين زيدت فيه مساحات واسعة حتى بلغت مساحته خمسة آلاف وثمانمائة وأربعة وستين متراً مربعاً أي قرابة ستة دونمات.

وهكذا ظلت القرويين معهد دراسة وعلم منذ اليوم الذي انتهت فيه أعمال البناء إلى وقتنا هذا، وبذلك جرى الاحتفال بمرور أحد عشر قرناً على تأسيسها وعلى أنها أقدم جامعة في العالم.

واستمرت جامعة القرويين تقوم بواجبها في نشر العلم والمحافظة على التراث الإسلامي وإحياء اللغة العربية وتقويتها طيلة هذه القرون. ولما بدأ الاستعمار في المغرب، اصطدم بجامعة القرويين، باعتبارها الحارس على التراث العربي والكيان الإسلامي، وأراد الفرنسيون ايصاد أبوابها بحجة ترقية البلاد، لولا أنهم بوغتوا بمعارضة المولى يوسف – رحمه الله – وكان أول سوء تفاهم شب بين القصر والمقيم الفرنسي بعد أن تربع مولاي يوسف على عرش المغرب بسبب "القرويين"، وقد أدت هذه الحال إلى ظهور طائفة متنورة بالقرويين اتجهت نحو بعث الحركة السلفية، وراحت تحارب الجمود والخرافات والخنوع للأجنبي، وذلك في شكل دروس تُعطى وأفكار تُذاع.

واستمر القرويين يؤدي رسالته ويلاقي العناية والإصلاح من أولي الأمر حتى فُتِحَ فيه فرع للجنس اللطيف، وتخرَّج أول فوج من خريجات ذلك المعهد العظيم في نوفمبر سنة ١٩٥٧. وقد قابلت عدداً من الخريجات وهن على جانب عظيم من العلم والأدب والثقافة.

سلطان الطلبة

ومن أطرف الأمور في جامعة القرويين ما يسمونه "سلطان الطلبة". وقد جرت هذه العادة من زمن المولى الرشيد، فقد قرَّر أن يمنح عطلة ربيعية للطلاب الذين رافقوه في المعركة ضد الإقطاعية، فأضافوها إلى العطل التي عرفوها، وأعطاهم حق تنصيب سلطان عليهم طيلة العطلة، ويرشح هذا السلطان نفسه من بين الطلبة بعد أن يشتري سلطنته "بالمزاد العلني".

يعيش سلطان الطلبة في هذا الجو مدَّة خمسة عشر يوماً على ضفاف وادي الجوهر من مدينة فاس، والحديث عن سلطان الطلبة جميل، والعادات التقليدية التي تجري بمناسبة تنصيبه تدلّ على مدى تكريم السلطة المركزية للمعاهد العلمية، فأنت تشهد سلطان الطلبة في جماعة من وزرائه وأعيان دولته، يستقبل عاهل البلاد الذي يزوره في حاشيته، ويتبادل الملكان التحية ولا تكاد أحياناً تميز بين ملك "الخمسة عشر يوماً" وبين الملك الحقيقي . . . وأخيراً يقفل العاهل إلى قصره بعد أن يقدم "للمملكة العلمية" أحمالاً من السكر والسميد وقوارير من الزبد والسمن، وأكياساً من النقود وقطيعاً من الغنم.

وقد عرضوا لنا فلماً في مدينة فاس عن سلطان الطلبة وكيف يُنصَّب وموكبه، وجميع ما يدور في تلك المملكة الخيالية كان غاية في الطرافة والظرافة.

وفي عهد دولة الموحدين وعهد المرينيين عرفت فاس أزهى عصورها المجيدة التاريخية، فقد كان يفد عليها الطلاب من جميع الأقطار الإسلامية ليتعلموا في مدارسها السبع التي يعد بناؤها آية من آيات الفن المعماري الأندلسي المغربي.

طقسها جميل جداً في الربيع والخريف، وفي الصيف حار إلا أنه جاف. وقد تفنّن الشعراء والأدباء في وصفها، وهي تشبه دمشق من حيث كثرة المياه وتوزيعها في البيوت

والمساجد والحارات والأزقة ومبانيها القديمة وحاراتها.

بلد أعارته الحمامة طوقها وكساه حلة ريشه الطاووس
فكأنما الأنهار فيه مدامة وكأن ساحات الديار كؤوس(٢)

أما التعليم بوجه عام فإنه يسير بخطوات سريعة وحكيمة في جميع مراحله، وقد جاء تأسيس جامعة الرباط ثمرة من ثمرات الاستقلال، فلم يكن للمغرب العربي تعليم جامعي مستقل في عهد الفرنسيين، باستثناء التعليم الديني في الجامعات الإسلامية.

وقد نصّ ظهير تأسيس جامعة الرباط الذي صدر بتاريخ ٢١ تموز سنة ١٩٥٩م على إنشاء جامعة مغربية بالرباط مهمتها نشر التعليم العالي والقيام بالبحث العلمي. كما نصّ على أن جامعة الرباط تشمل الكليات التالية:-

١) كلية الشريعة.

٢) كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية.

٣) كلية الآداب.

٤) كلية العلوم الرياضية والفيزيائية والطبيعية.

٥) كلية الطب والصيدلة.

ونصّ كذلك على إمكان إنشاء معاهد للأبحاث العلمية في مختلف أنواع الاختصاص وحدّد المرسوم المذكور مهمة كل كلية، فنصّ فيما يتعلق بكلية الشريعة على أن مهمتها القيام بالتعليم العالي والبحث العلمي في دائرة الدراسات الإسلامية، وتاريخ الأديان، والقانون المقارن، على أن تمنح الشهادات التالية:-

- بكالوريا في الشريعة.
- دبلوم الدراسات العليا الإسلامية.
- دكتوراه الجامعة.

---

(٢) هذا البيتان للشاعر الأندلسي أبي بكر محمد بن عيسى بن اللبانة الداني، قالهما في وصف جزيرة ميورقة (نفح الطيب، للمقرّي، ١/ ١٦٩، تحقيق: الدكتور إحسان عبّاس، ط. دار صادر، بيروت، ١٩٦٨)، وقد تمثّلهما لسان الدين بن الخطيب عندما وصف مدينة فاس (نفسه، ٦/ ٤٤٥، ٧/ ١٢٩)، وقد نُسِبَ البيتان لعدد من الشعراء.

- دكتوراه الدولة.

وحدّد كذلك مهمة الكليات الأخرى وخوّلها منح الليسانس والدبلوم العالي والدكتوراه؛ كل كلية في دائرة اختصاصها.

وملخص أهداف التعليم العالي هو:-

١) إمداد المغرب بتعليم جامعي حديث يساير الأنظمة الجامعية في العالم، ويمد المغرب بالإطارات العليا في مختلف أنواع الاختصاص.

٢) طبع هذا التعليم الجامعي بالطابع العربي بجعل اللغة العربية لغة التدريس.

٣) العناية بالدراسات والثقافة الإسلامية، التي أسهم المغرب في تكوين تراثها الضخم وجعل هذه الدراسات تحتل مكانتها البارزة في كليات الشريعة والحقوق والآداب.

٤) الربط بين الجامعة وبين الوسط المغربي، بجعل الدراسات متصلة بالبيئة المغربية في دائرة العلوم والجغرافية والتاريخ والقانون والآداب، لتكون الجامعة أداة فعّالة في خدمة المجتمع المغربي ورفع مستواه المادي والروحي، وإبراز شخصيته الفكرية، وخدمة التراث العربي المشترك بخدمة ناحية مهمة من نواحيه وهي الناحية المتعلقة بالمغرب والأندلس.

(٢)

الإسلام في المغرب

يرجع تاريخ المغرب إلى عهود ما قبل التاريخ، ويرجع أصل سكانه إلى الجزيرة العربية. وقد تعاقب على المغرب الفنيقيون، والقرطاجنيون، والرومان، ثم العرب. ففي النصف الثاني من القرن السابع بلغت طلائع الإسلام إلى إفريقية الشمالية ووصلت الشاطىء الأطلسي من المغرب، ومنذ ذلك العهد أصبح المغرب دولة إسلامية عربية تعاقبت على الحكم فيه عدة أسر مالكة هي:-

الأدارسة ١٧٢ - ٣٧٥ هـ ٧٨٨ - ٩٨٥م

بنو مغراوة ٣٧٥ - ٤٦٠هـ ٩٨٥ - ١٠٦٨م

المرابطون ٤٦٠ – ٥٤٠هـ ١٠٦٨ – ١١٤٦م

الموحدون ٥٤٠ – ٦٤٨هـ ١١٤٦ – ١٢٥٠م

المرينيون ٦٤٨ – ٩٥٥ هـ ١٢٥٠ – ١٥٤٩م

ثم بنو وطّاس وفي عهدهم كانت البلاد تعمها الفتن والقلاقل، وكان عهد هذه الدولة سيئاً مليئاً بالاضطرابات مدة قرن كامل؛ انتفضت فيه أطراف المملكة وانقض الإسبان على بني الأحمر في الأندلس فأتوا على البقية الباقية من المسلمين فيها فقضوا عليهم وطردوهم منها.

السعديون ٩٥٥ – ١٠٥٩هـ ١٥٤٩ – ١٦٤٩م

العلويون ١٠٥٩ – هـ ١٦٤٩ – م

والأسرة العلوية المالكة الآن هي أسرة شريفة يرجع نسبها إلى سيدنا علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه).

ظلّ المغرب على اتصال دائم مع دول الشرق والغرب، وظلّ محتفظاً بسيادته واستقلاله مدّة هذه القرون المتعاقبة، وبقيت له علاقات مثمرة مع العالم الإسلامي والعربي. وفي سنة ١٩١٢م في ٣٠ آذار فُرِضت الحماية الفرنسية على المغرب، واتفقت فرنسا مع إسبانيا على اقتسام البلاد، وظلّت الأحوال هكذا إلى أن نال استقلاله بعد كفاح طويل وجهاد دام من شعبه الجبار وعلى رأسه صاحب الجلالة الملك محمد الخامس، وتم الاعتراف باستقلال المغرب العربي في ٢ آذار من سنة ١٩٥٦م.

يقع المغرب في أقصى غرب إفريقيا الشمالية، ويحيط به شمالاً البحر الأبيض المتوسط بمساحة ٤٦٨ كيلو متر، وغرباً المحيط الأطلسي بمساحة ٨٥٣ كيلو متر، ومساحة المغرب ٩٠٠ ألف كيلو متر.

وتمتد سهول واسعة متكونة من أودية وهضاب فيما بين الشواطىء والجبال وهذه هي المنطقة التي يكثر فيها أوفر قسط من الثروة الزراعية في المغرب، وتقدّر المساحة الصالحة للزراعة بأربعة ملايين هكتار ونصف المليون.

أما سلاسل الجبال التي تشرف على هذه السهول، فهي تشمل الأطلس الكبير الذي يتممه شمالاً الأطلس المتوسط، وجنوباً الأطلس الصغير، ثم يتمم هذا الأخير سلسلة جبال باني.

وتوجد في شمال المغرب سلسلة جبال الريف التي هي مستقلة عن الأطلس وتوازي منحنى الشواطىء الشمالية.

وللأطلس الكبير تأثير قوي على طقس البلاد وثروتها الحيوانية والنباتية وإنتاجها، وذلك لأن فيه بعض القمم التي تبلغ ٤١٦٥ متراً، وبعضها ٣٧٥٠ متراً. ومع ذلك فإن هذه السلاسل لا تكون حاجزاً فعَّالاً أمام الرياح الشرقية القادمة من الجزائر، والرياح الجنوبية الآتية من الصحراء، إلاَّ أنها تلتقط الرطوبة الصاعدة من المحيط الأطلسي الممتد على السواحل الغربية. وهذا ما جعل الأطلس المتوسط والأطلس الكبير والريف عبارة عن خزانات كبيرة للمياه تنبع منها الأنهار التالية:-

"اللكوس"، "سبو"، "بورقراق"، "أم الربيع"، "تانسيفت"، "واد موسى"، وكلها تصب في المحيط الأطلسي.

ونهر "ملوية" وهو من أطول الأنهار المغربية ويصب في البحر الأبيض المتوسط.

تغطي الغابات مساحة ثلاثة ملايين ونصف مليون هكتار من أراضي المغرب، وهذه الغابات تحتوي على شجر الأرز، والبلوط، والعرعر، وشجر الفلين، وإنتاج المغرب من الفلين يأتي في الدرجة الثالثة في العالم.

وغابة الأرز يمكن الوصول إليها بواسطة طريق جيدة للغاية ترتفع ملتوية نحو الأطلس، وينتقل بها المسافر من ١٢٠٠ إلى ١٩٠٠ متر فوق مستوى البحر، وأشجار الأرز الموجودة في الأطلس تكوِّن مجموعة متنوعة من أرز لبنان، وتبلغ بعضها ٤٠ متراً طولاً، ودائرتها ١٨ متراً وذلك في مساحة ١٠٠ ألف هكتار.

وفي المغرب مناجم الفوسفات وهو مورد مهم من موارد ميزانية الدولة، وإن إنتاج المغرب من هذه المادة هو الأول في العالم.

وفي المغرب معادن أخرى مختزنة في طريقها إلى الاستخراج والتصنيع. وجبال المغرب كسهوله تعطي وتفيض بالعطاء فيها أجود أنواع الفاكهة، وفي سفوحها كما في

السهول زرع وضرع ومراع خصبة. وجميع مناطق المغرب الجبلية تتصل بما يجاورها اتصالاً وثيقاً بوساطة طرق طبيعية، وفجوات بين الجبال.

وهناك شبكة طرق للمواصلات من أجود الطرق في العالم ومنها طرق رئيسية كبرى بطول ثمانية آلاف كيلو متر، وطرق فرعية بطول ٣٢ ألف كيلو متر، تربط أنحاء المغرب شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً. وقد تجولنا في بعضها وكان على جانبي الطريق أشجار الكينا والزيتون وغيرها في معظم الطرق التي سرناها.

وفي المغرب ١٧٠٠ كيلو متر من السكك الحديدية وبواسطتها تتصل الجزائر بالمغرب. وهناك ثلاثة خطوط رئيسية:-

١) الدار البيضاء – مراكش.

٢) الدار البيضاء – وجدة.

٣) فاس – طنجة.

يُضاف إلى ذلك خط تطوان – سبتة، وخط وجدة كولوم بشار في الجزائر.

في المغرب من الأجانب المتوطنين ٤٠٠ ألف نسمة منهم ٣٠٠ ألف فرنسيون، ٩٠٪ من الأجانب في الدار البيضاء وأكثرهم فرنسيون، ثم إيطاليون وإسبان وبرتغال وأقليات أخرى.

ويوجد في المغرب ٣٠٠ ألف يهودي معظمهم في المدن، وبعضهم في الجبال و"درعة" و"السوس"، ولا تزال في المغرب قبائل تعيش على انتجاع الكلأ والماء.

يبلغ مجموع سكان المغرب زهاء عشرة ملايين نسمة وهناك من يقول أكثر ويسكن ٢٥ في المائة منهم بالمدن.

عاصمة المغرب الإدارية هي الرباط، وعدد سكانها ١٥٦٠٠٠ نسمة. ويرجع تاريخ بنائها إلى أيام الموحدين، لذلك يوجد فيها آثار بديعة منها ما يرجع إلى عهد بني مرين. وتوجد بجانب الرباط مدينة "سلا" الذائعة الصيت في تاريخ المغرب، ويفصل بينهما "وادي بورقراق"، وهي قريبة من "المهدية" التي كانت في غابر الأزمان مركزاً تجارياً للقرطاجنيين، مناخها متوسط، الحد الأعلى في الصيف ٢٨،٥ درجة، ومتوسط الحد الأدنى في الشتاء ٧،٩ درجة.

و"رباط الفتح" كما كانت تعرف بناها عبد المؤمن بن علي السلطان الموحدي العظيم في القرن السادس للهجرة ليجعل منها رباطاً لجيوشه على ساحل الأطلنطي المواجه للعدو من برتغال وإسبان، وقاعدة لأساطيله البحرية، ومنها غزا الأندلس فألحقها بمملكته التي كانت تجمع المغرب والجزائر وتونس.

التقسيم الإداري

يقسم المغرب في عهده الجديد إلى ١٢ إقليماً، وتقسم هذه الأقاليم إلى أيالات على رأس كل أيالة مرجع أعلى يدعى خليفة. من هذه الأيالات:-

١) فاس.

٢) مراكش.

٣) السوس.

وتقسم هذه الأيالات إلى عمالات، والعمالة منها ما هي بدرجة متصرفية ويطلق على رئيس هذه العمالة لقب "عامل"، ومنها ما هي بدرجة قائمقامية ويطلق على رئيسها لقب (باشا). والعمالة تقسم إلى نواحٍ ويُطلق على رئيس الناحية لقب (قائد)، ومرتبة (باشا) في مركز الأيالة والعمالة هي ما يسمى عندنا بأمانة العاصمة أو رياسة البلدية.

الصحافة، والنهضة النسائية

والصحافة العربية في المغرب في طريق الكمال، وهي على قسمين: حزبية ومستقلة، ففي الرباط تصدر ست جرائد بالعربية أهمها جريدة **العلم** يومية صباحية – وهي أهم الجرائد وأوسعها انتشاراً، وهي لحزب الاستقلال، ومدير إدارتها السيد عبد الجليل القباج.

وجريدة **العهد الجديد** شبه رسمية تصدرها وزارة الأنباء، وجريدة **المغرب** مسائية أيضاً مستقلة، وجريدتان أسبوعيتان: **المغربي** و **المطرقة**.

وفي الدار البيضاء تصدر جريدة الرأي العام - يصدرها السيد محمد العمروي، وهي لسان حزب الشورى والاستقلال. وجريدة منار المغرب - لسان جمعية مكافحة الأمية التابعة لحزب الاستقلال، والطليعة لسان حال الاتحاد المغربي للشغل.

وفي طنجة، جريدة الشعب - لصاحبها السيد مكي الناصري، وجريدة طنجة أسبوعية.

وفي تطوان تصدر سبع جرائد أهمها: جريدة الأمة - لسان حزب الاستقلال، وجريدة اليوم - لسان حزب الوحدة والاستقلال.

أما الجرائد الفرنسية فاثنتان في الرباط، واثنتان في الدار البيضاء.

وأما النهضة النسائية فترعاها سمو الأميرة عائشة. وهناك نشاط عظيم في مكافحة الأمية، وتعليم المرأة الشئون المنزلية، ورعاية الأطفال، والاهتمام بما يصلح شأنها كزوجة وربة منزل.

(٣)

المدن الكبيرة

الرباط مدينة واسعة الأرجاء في منبسط من الأرض، تزينها الشوارع ذات الظلال التي تنشرها أشجار النخيل وغيرها. والناظر إلى سعة رحابها المخضرة وحدائقها الزاهرة طيلة فصول العام لا يرى فيها مدينة من المدن، وإنما حديقة غناء وبستاناً جذاباً يمتلىء أشجاراً وهدوءاً واطمئناناً، ويضم بين جنباته المساكن الأنيقة ذات الورود والرياحين.

ولا أستطيع في هذه العجالة أن آتي على ذكر مدن المغرب بالتفصيل وكل ما رأيت، ولذلك سأقتصر على بعض المدن الكبيرة الشهيرة باختصار:

مدينة مراكش الحمراء: يرجع عهدها أو الفضل في ظهورها ليوسف بن تاشفين مؤسس أسرة المرابطين، وتقع في سفح جبل الأطلس المكتسي بالثلج الأبيض الذي ينعكس عليه لون المدينة الأحمر الزاهي، وأسوارها الذهبية التي تحتضن القباب الخضر فتجعل من مراكش مدينة مرصعة بأحجار الزمرد الكريمة، داخل إطار ذهبي تحيط به أشجار

النخيل التي تغطي مساحة ١٣٠٠٠ هكتار وفيها مائة ألف نخلة، هذا عدا ما يحيط بها من جنائن وحقول وأشجار فاكهة، وهي غنية بالآثار الجديرة بالزيارة.

مدينة تطوان: تقع بين جبلين في أقصى شمال المغرب وتقرب من شاطىء البحر الأبيض المتوسط بمسافة عشرة كيلو مترات، وتعتبر تطوان قلعة من قلاع المقاومة الوطنية ضد الاستعمار، وهي مركز إشعاعي ثقافي كبير منذ عشرات السنين نظراً للبعوث المختلفة التي أرسلتها إلى الشرق العربي، ولتطوان فضل كبير في المحافظة على الطابع المغربي الأصيل في المأكل والملبس ومختلف التقاليد والفنون، وهي تضم الكثير من العائلات الأندلسية التي أقامت بها منذ القرن التاسع للميلاد. ولا تبعد هذه المدينة عن "طنجة" و"سبتة" و"شفشاون" كثيراً، كما أن لها مصطافاً جميلاً يقع على شاطىء "وادي مرتيل" بجانب البحر الأبيض المتوسط.

وقد دخلنا تطوان وكلنا شوق إلى رؤيتها لأننا نسمع بها منذ أيامِ طفولتنا، وذلك من النشيد الذي حفظناه في السنوات الأولى من أيام دراستنا، وكنت أُردِّده ونحن داخلون تطوان:-

بلاد العرب أوطاني   من الشام لبغدان

ومن نجد إلى يمن   إلى مصر فتطوان

وبعد أن تناولنا طعام الغداء في دار الباشا على أنغام الموشحات الأندلسية، وهذا تقليد رأيناه في كل منزل دخلناه في المغرب العربي، والطعام الذي يقدَّم أيضاً هو الطعام المغربي المكون من الكسكسي، والبسطيلة، والدجاج، واللحم المشوي أو المحمر، والفاكهة والحلويات المغربية.

وبعد أن تجولنا في معالم المدينة وزرنا قصر الخليفة غادرناها إلى مدينة مكناس.

وإن مما يزيد في جمال تطوان موقعها الجغرافي الذي يضعها بين جبال بني حرمز وسهل "نيومارتين" الغني وتلال درسه، منظر لا تمله عين الزائر، ولا يزول عن ذهنه ولو طال البعد بينه وبين هذه المدينة التي اشتهرت إلى جانب الجمال الطبيعي بالمحافظة على الصور الناطقة التي تمثِّل حياة ماضٍ مجيد أروع تمثيل.

مدينة مكناس: كانت هذه المدينة الجميلة عاصمة لمولاي إسماعيل جد الأسرة المالكة، إذ كانت باباً للصحراء المغربية، وهي في مبانيها وفي حصونها تعطي فكرة عن أيام مزدهرة عاشها المغرب على عهد ذلك العظيم الذي يرجع له الفضل الكبير في طرد الأجنبي عن السواحل المغربية. وظلّ يشيد فيها القصور والمنشآت المختلفة طيلة حكمه الذي استمر خمساً وخمسين سنة.

وتحاط مكناس بأسوار ذات أبواب عديدة ناطقة بمظاهر العظمة والفخامة والمجد، وهي مبنية على ثلاثة مرتفعات تشرف على منظر بهيج من غابات الزيتون. وسكانها نحو ١٤،٤٠٠ نسمة، وارتفاعها عن سطح البحر ٥٢٢ متراً.

الدار البيضاء: هي عاصمة المغرب التجارية والصناعية، فهي تشتمل على سائر المرافق التي تحتاج إليها البلاد وبها ميناء يعتبر من أهم موانىء الشمال الإفريقي، وهي أكبر مدن المغرب وأوسعها تجارة، ويبلغ سكانها نحو المليون نسمة ومناخها معتدل. وتتمتع الدار البيضاء بمركز ممتاز جعل منها مركز الخطوط البحرية والجوية التي تصل بين أوروبا وإفريقيا وأمريكا. وإلى هذا الموقع يرجع الفضل الأكبر فيما هي عليه هذه المدينة الجميلة من نشاط وحركة. وهذه الحركة الحيَّة الصاخبة التي تملأ شوارعها التجارية هي التي تسبغ رداء الأناقة والرفاهية على أحياء السكن الأنيقة.

وشاطىء الدار البيضاء كله حيوية ومتعة ونشاط. وعلى بعد ٢٧ كيلو متر من الدار البيضاء توجد مدينة المحمدية التي كثيراً ما وصفوها بجنة صغيرة حبا الله بها هذه الأرض. وقد مكثت بها يومين زرت صديقاً لي كنا زميلين ندرس معاً في الأزهر، وكان قد مضى عليّ نحو عشرين عاماً لم أره، وأول ما فاجأته بالزيارة تمثَّل منشداً:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

ومنها سافرت إلى طنجة.

أما مدينة طنجة فهي صلة الوصل بين الشرق والغرب، وذلك لوجودها عند ملتقى هام للطرق البحرية العالمية. وتكوِّن طنجة بمنظرها نصف دائرة من المباني الشرقية التي تحيط بشاطىء للسباحة على شكل نصف دائرة يبلغ طوله أربعة كيلو مترات؛ رماله ذهبية اللون، وتخترق المدينة طرق ضيقة كما هي موجودة في القدس القديمة ودمشق

والقاهرة. وفجأة تظهر وراء هذه الديار الشرقية العمارات الشاهقة التي بنيت على أحدث طرز ومن ورائها مرتفعات الجبل ذات الأشجار الدائمة الاخضرار. ويوجد فيها جميع أسباب الراحة ووسائل الترفيه. وقد عرف طنجة قديماً الفنيقيون والقرطاجنيون والرومان ثم العرب، وهي الآن من أبرز موانىء ومدن المملكة المغربية. معدل الحرارة في الشتاء ١٤ درجة، ومعدل الحرارة في الصيف ٢٢ درجة، وتعتبر مركزاً مناخياً وسحرياً فريداً من نوعه فهي في ربيع دائم. وهي تفيد من هم في حاجة إلى العلاج النباتي كما تفيد طلاب العلاج البحري، وبذلك تعد أفضل مركز للمداواة بأشعة الشمس.

ومن مدينة طنجة ركبت البحر إلى جبل طارق والمسافة ساعتان في الباخرة ومنه إلى الأندلس، وحديث الأندلس حديث طويل وممتع أتركه إلى محاضرة أخرى واكتفي بما أوردت هنا.

وإني في الختام أتقدم بالشكر الجزيل إلى الحكومة المغربية، وأخص بالشكر المسئولين في وزارة التربية الوطنية المغربية لما قدموا لنا من حسن ضيافة وعناية فائقة وكرم. وإني لأرجو أن تتوثق العلاقات بيننا بشكل واسع، لنتعاون على خدمة بلدينا الأردن المجاهد، والمغرب العربي الأبي.

وأسأل الله تعالى دوام التقدم والتوفيق والازدهار، للأردن والمغرب في ظلّ حضرة صاحب الجلالة الملك الحسين المفدى، وحضرة صاحب الجلالة الملك محمد الخامس. والسلام.

الأنـدلـس

١٩٦٠م

كانت الرحلة إلى الأندلس أمنية غالية ما زلت أحلم بها من أول ما وعيت وقرأت أخبارها وسمعت عنها، ورأيت شيئاً من رسومها.

وظلّت الحمراء، وقاعة السباع، وقرطبة، وغرناطة في مخيلتي، وذِكرها على لساني أُردد ما قيل فيها من أشعار، وأتسقط أخبارها، وأروي أحاديثها.

وكم غمرت نفسي السعادة، وعمَّ قلبي السرور عندما أُتيحت لي زيارة المغرب في العام الماضي، وعملت خطتي أن أضرب عصفورين بحجر كما يقولون. وصممت على زيارة الأندلس بعد الفراغ من رحلتي في المغرب العزيز، وجعلت خاتمة المطاف في مدينة طنجة الجميلة ومنها ركبت البحر وقطعت مضيق جبل طارق، وزرت جبل طارق ذلك المكان التاريخي. وسرحت طرفي في تلك الصخرة الشماء الشامخة التي ترتفع في عنان السماء، وتجولت فيه ساعات وطفت في جميع معالمه، وقد لفت نظري فيه مجموعة من القردة مدلّلة ومرفهة، ولا يُسمح بمسّها أو أذاها، ولما سألت عن حكمة وجودها قيل لي إن الإنجليز يعتقدون بأن بقاءهم مرهون ببقاء هذه القرود، ولذلك فإنهم يحافظون عليها ويدللونها، فدعوت لهؤلاء القرود بالاستقلال. وغادرت جبل طارق إلى الجزيرة الخضراء و جزيرة طريف وهي أول بلد غزاه العرب من الأندلس. وهي بلدة صغيرة وفيها فندق فخم كان يعجّ بالسائحين الأجانب، وأمضيت فيه ليلة، وبعض النهار، ثم ركبت القطار وقصدت غرناطة، وسار بنا القطار يقطع الأودية، ويصعد في الجبال، ويزأر كلما دنا من نفق، وما أكثر الأنفاق فقد عددت نحو عشرين نفقاً دخلها بنا القطار لأن الطريق جبلية، وهي شبيهة ببلادنا كل الشبه وتكثر فيها الغابات والأشجار والمزارع والأنهار. أما الجو فإنه مثل جو بلادنا في الطبيعة والمناخ والتكوين، ووصلنا غرناطة بعد سفر دام سبع ساعات كاملة. وغرناطة الجميلة كان العرب يسمونها دمشق الأندلس، وهي بلدة فاتنة ساحرة في جوها وموقعها، ومناظرها، ومياهها وحدائقها. وسميت غرناطة تشبيهاً لها بالرمانة الناضجة.

فإن التلّين اللذين تقوم عليهما غرناطة يحكيان الجلد المتشقق، وتلك البيوتات التي يزخر بها الوادي الذي يتوسطها تشبه حبات الرمانة، وهي أشبه ما تكون برمانة متوجة نصف مفتوحة عن حباتها الملوّنة في أرض فضية.

وقد تفنن الأدباء والكُتَّاب في وصف غرناطة، والتغنّي بها وبموقعها، وجناتها. وكانت قصبة لمعظم البلاد، وقصبة لمملكة غرناطة العظيمة، والمركز التجاري الجليل، وملتقى للغرباء من جميع الأقطار، والحديقة الدائمة الثمر الذي سرعان ما يعقب بعضه بعضاً. ولا نستطيع في هذا الوقت الضيق أن نستعرض جميع ما قيل ولذلك اقتصر على شيء قليل مما قيل فيها. من ذلك قول لسان الدين بن الخطيب أديب عصره وابن غرناطة:(١)

بلد تحف به الرياض كأنه ... وجه جميل والرياض عذارهُ

و كأنما واديه معصم غادة ... ومن الجسور المحكمات سوارهُ

وقال أديب آخر:(٢)

غرناطة ما لها نظير ... ما مصر ما الشام ما العراق

ما هي إلاّ العروس تجلى ... والأرض من جملة الصداق

وموقع غرناطة وما يحيط بها من سهول وبساتين وجنات من أجمل المناظر التي تقع عليها العين وعلى مسافة منها ينهض جبل "نفادا" أو شلير كما كان يسميه العرب، يجلّله الثلج الأبيض طوال العام، وتنحدر منه المياه العذبة التي تروي تلك السهول والحقول، هذا مع نقاء الهواء ووفرة الحدائق، التي تضم مختلف النبات والأزهار، والريف المحيط بها من المناظر المبهجة للنفس، وهو ينافس غوطة دمشق الجميلة وينتشر في سهل خصيب، وهذا السهل يسمى "فحص غرناطة" أو مرج غرناطة.

وأنى اتجه المرء تبدو له القرى، والحدائق الجميلة، التي تزدان بها المباني الأنيقة، والأشجار والنباتات، وتجد التلال والجبال المحيطة تحدق بالسهل على شكل نصف

(١) ورد البيتان في كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة، للسان الدين بن الخطيب، ١/ ١١٥ (تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ١٩٧٣).

(٢) البيتان في نفح الطيب، للمقري، ١/ ١٤٨.

دائرة تقريباً تمتد مسافة أربعين ميلاً، وعند نهاية هذا السهل تقع مدينة غرناطة الساحرة الفاتنة.

إن اللغة لتعجز حقاً عن أن تصف ما يحسه الإنسان من سعادة وفتنة بطيب الهواء واعتدال المناخ، وتلك المناظر والأنهار الجارية، ويقسم المدينة "نهر حدرة" أو "حدارة" إلى قسمين، ثم يتصل بنهر شنيل ويروي ذلك السهل كله. وبعد أن يتزود بعدد عديد من النهيرات والجداول يصبح مجرىً عظيماً ويفيض إلى إشبيلية.

وقد كانت غرناطة وما يحيط بها في أيام العرب أجمل بكثير مما هي عليه الآن، فقد كانت عامرةٍ تعج بالناس، آهلة بالحياة، فكان في كل بيت حديقة قد غُرس فيها البرتقال والليمون والأُتْرُجّ، وشجر الغار والآس وغيرها من الأشجار والنباتات الأرجة التي تعطر الهواء بشذاها، وتكسب السكان صحة وتنعشهم وتدخل على قلوبهم السرور والحبور، والبيوت جميعها مزودة بالماء الجاري، وفي الشوارع نافورات الماء، وبالإجمال فإن كل ما يمكن أن يوفِّر الراحة والنعيم فهو موجود بوفرة في أحيائها وبيوتها وحدائقها، وكان ما يفيض من محاصيل القمح الكثيرة التي تجود بها تلك التربة الشديدة الخصب يُخزَّن في صوامع لا تحصى نُحتت في جوانب الجبال، وهذه الكهوف أصبحت مساكن للغجر الذين يكثرون في هذا الجزء من الأندلس، ويسمونه الآن: "ساكرومنتي" وهو أشبه ما يكون بمستعمرة للنمل وفي ذلك المكان وفي تلك الفجوات التي تظهر على سطح قطعة من الجبل يسكن (٣٠٠٠) من الغجر، وفي المستوى السفلي منها كهوف الراقصين الأغنياء منهم، وهي عبارة عن شقق فاخرة تتكون من غرفتين أو ثلاث غرف مجهزة بالكهرباء والراديو والثلاجات، وفي أوسع الغرف رُصَّت مقاعد صغيرة يجلس عليها السائحون الذين يرغبون في مشاهدة رقصة الفلامنكو. وحياة الغجر كما قال لي الدليل هناك: "إنهم يرقصون ويغنون حين لا يكون لديهم المال. أما إذا كان لديهم المال فإنهم لا يكفون عن الأكل والرقص والغناء".

وإذا لاحت منك التفاتة الى الجانب الشمالي من غرناطة رأيت منظراً عجباً، رأيت الحمراء وأسوارها، وأبنيتها المبهجة الممتعة الخلابة، ثم رأيت القصور الشامخة والأبراج السامقة، والمباني الفاخرة العظيمة، التي تشغل خاطر الناظر إليها دهشةً وإعجاباً.

ويحيط بغرناطة أنفس الحدائق وأرحبها، حيث تتكاثف الأشجار فتبدو وكأنها الأسوار ولكنها لا تقوى على أن تحجب منظر أبراج الحمراء الجميلة التي تتألق كالنجوم بين أوراق الأشجار.

وأول شيء عملته في صباح اليوم الثاني من وصولي إلى غرناطة أن طلبت من الموظف المسئول في الفندق أن يسهّل لي أمر ذهابي إلى الحمراء فاتصل بشركة من شركات السياحة، وجاءت سيارة وأخذتني من الفندق إلى قصر الحمراء. وهو يقع فوق الحافة الشمالية لتل منحدر قليلاً يطل على منظر ممتد فوق ريف جميل ويسمو بطلعته الجليلة فوق مدينة غرناطة.

وقد بُنيت معظم أجنحة الحمراء الملكية في القرن الرابع عشر في عهد السلطان أبي الوليد إسماعيل وولده يوسف أبي الحجاج، وابنه محمد الغني بالله. وتدين الحمراء بفخامتها الرائعة إلى السلطان يوسف أبي الحجاج، الملك الشاعر والفنان الموهوب(٣)، فقد زاد في القصر زيادة كبيرة، وأسبغ عليه روائع الفن والزخارف الداخلية الفخمة، وأنشأ البرج الشاهق الذي يقع في مدخل القصر الرئيسي، وهو المسمى "باب العدل" والذي ما زال يحمل تاريخ إنشائه (٧٤٩هـ - ١٣٤٨م).

وتقع أبنية الحمراء كما قدمنا فوق هضبة يبلغ طولها ٧٣٦ متراً، وعرضها نحو مائتي متر وتشغل نحو خمسة وثلاثين فداناً، ويحيط بالحمراء سور ضخم يتخلله ثلاثة عشر برجاً تهدم معظمه. وموقع الحمراء ذو جمال طبيعي نادر، فهي تشرف من الشمال والغرب إشرافاً شاملاً على المدينة وعلى فحص غرناطة، وتشرف من الشرق والجنوب على آكام جبال سيرانفادا أو "جبل شلير" كما يسميه العرب، ولم يبق من قلعة الحمراء التي كانت تشغل منحدراً لهضبة في الشمال الغربي، سوى أسوارها الخارجية وأبراجها، وأما القصر الملكي فقد بقيت معظم أجزائه. ويعتبر قصر الحمراء من أبدع الآثار الإسلامية التي أبقت عليها حوادث الزمن، وليس له مثيل في الحسن والروعة من حيث أعمدته الرخامية الرائعة، وحناياه وسقوفه ذات الزخرف البديع، ويغمره الضوء والهواء بوفرة ويبدو في مجموعه في منتهى الظرف والأناقة.

(٣) أوّل من توسّع في قصور الحمراء هو السلطان أبي الحجاج يوسف الأول، ثم ولده الغني بالله محمد الخامس، ومن بعدهما أبو الحجاج يوسف الثالث الذي كان شاعراً، وله ديوان شعر مطبوع بعنوان ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث.

فالردهات والقاعات والسقائف والعمد والعقود والفسيفساء والنباتات والأزهار البلسمية المختلفة الألوان، كل ذلك تراه خلال سديم رشاش النافورات هذا مع أشكال معمارية ساحرة تفتن الأفكار، والماء موفور في كل ناحية من نواحي القصر، زمام أمره في أيديهم يصعدونه أو يهبطون به، وحيناً يجلونه للعيون، وحيناً يخفونه حسبما يريدون. وأحياناً يفجرونه بالهواء يبدّد وخيم الأبخرة السابحة في الفضاء، ويجعل جفاف الطقس رخاءً، وأحياناً تراه منشوراً في وسط قاعة صفحة مستطيلة تبدو عليها مناظر الأبنية والنافورات والأشكال ثم السماء بزرقتها الصافية. وقد جُمِّلت حافاتها بالمرمر الأبيض تضم أحواضاً طويلة من الأزهار نُسِقت على الجانبين، وينساب فيها جدول جار لا ينقطع حتى تنتهي إلى طرف من أطرافها، ثم يخرج من طرف آخر تاركاً السطح المستوي استواء البلاط وكأنه أرض زجاجية، لا تحس فيه من رقة انسيابه وصفائه حتى ليخيل إلى الناظر أنه واقف من نعومته ورقته.

وفي كل جناح يجري تياران من الهواء في غير انقطاع، فهناك كوات قريبة من السقف يخرج منها الهواء الساخن الفاسد الذي يطرده الهواء النقي من أسفل إلى أعلى، فهي أشبه ما تكون بتكييف الهواء الاصطناعي وبتلك الأنابيب المبثوثة في الجدران، التي هي أشبه بالأقبية تحت الأرض ينتشر منها الدفء شتاءً في كل الأجنحة التي تعوزها الحرارة، أي شبيهة بالتدفئة المركزية.

وإن الزخارف العربية الموجودة والطلاء والفسيفساء التي تم صنعها في حرص ودقة تدل على عنايتهم واهتمامهم حتى بالأجنحة الصغيرة، فبدلاً من أن يغطوا الجدران بالورق أو بالخشب فقد غشوها بالزخرفة العربية التي صُبَّت في قوالب على هيئة فريدة، ثم ضم بعضها إلى بعض على حال لا يظهر معها أثر الانفصال. وهذه الزينات المنعطفة ملونة في تدرُّج سليم بالذهبي الناصل، ثم القرنفلي ثم الأزرق الصافي، ثم الأرجواني القاتم.

ولا تزال الحمامات سليمة بأناقتها، وزينتها، ومياهها وهي تعطي أعظم فكرة عن فن العرب في إنشاء تلك الغرف المترفة وإنارتها وتدفئتها. وعندما يدخل المرء ذلك القصر العظيم، ويتجوَّل بين ردهاته وقاعاته يؤخذ حقاً بهذا الفن الرائع الظريف الأخاذ، فليس البناء بناءً ضخماً كما هو في البنيان الأثري المألوف وإنما عمل فيه الذوق والفن والمهارة

حتى بدا في هذه الفتنة. والألوان لا تزال زاهية، والذي لم تعبث به يد الإنسان لا يزال كأنه انتهى أمس، ويظهر أن حساب المقاومة فيه قد أُحكِم إحكاماً كبيراً يوفي بالغرض، حتى إنك لا تجد جزءاً من الأجزاء في حال ما قد تزحزح عن مكانه أو غاص تحت ثقل ما يحمل.

يقول بعض الخبراء الأجانب من الذين شاهدوا البناء حديثاً: "إن الطابع الذي يسود البناء كلّه فريد في نوعه لا يشبهه أي بناء عرفناه أو رأيناه، وإن ما أثاره فيَّ من إعجاب وارتياح كفيل بأن يبعث في نفسي ألطف الذكريات فيما بقي لي من حياتي".

هذا إلى ما يوجد من الأشعار اللطيفة المعروضة في الأفاريز والعارضات والأشرطة سواء أكان بالخط الكوفي أو بالخط العادي الواضح الفني بألوانه، ومعظم هذا الشعر أو كلّه من نظم أحد وزراء بني الأحمر - الشاعر الأديب الرئيس ابن زمرك. من ذلك قوله: (٤)

فكم فيه للأبصار من متنزه	تجدّ به نفس الحليم الأمانيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به	ولم تك في أفق السماء جواريا
به البهو قد حاز البهاء وقد غدا	به القصر آفاق السماء مباهيا
و كم من قسي في ذراه ترفعت	على عمد بالنور باتت حواليا
فتحسبها الأفلاك دارت قسيها	تظل عمود الصبح إذ بات باديا
سواريَ قد جاءت بكل غريبة	فطارت بها الأمثال تجري سواريا
به المرمر المجلو قد شف نوره	فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
به البحر دفاع العباب تخاله	إذا ما انبرى وفد النسيم مباريا
يذوب لجين سال بين جواهر	غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا
تشابه جار للعيون بجامد	فلم أدر أياً منهما كان جاريا

(٤) أُنظر الأبيات في ديوان الحمراء، د. صلاح جرار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٩، ص ١٣١ - ١٤٠.

والحق أيها السادة أن اللغة لتعجز عن التعبير بوصف هذا الأثر العظيم الذي لا مثيل له، حتى الصور الفوتغرافية لا تعطي الحس والشعور عندما يكون الإنسان في وسطه يتجوَّل ويشاهد، فأرجو المعذرة إذا أطلت في الحديث عنه.

يتكون قصر الحمراء وهو مقام ملوك بني نصر السابقين من ثلاثة أبنية رئيسية تهدَّم أحدها وأضحى اليوم أطلالاً دارسة.

وأما الثاني فيتكون من "قصر قمارش" أو "بهو قمارش"، وهو المعروف ببهو السفراء، وقمارش هو المهندس الذي وضع تصميمه ووقف على بنائه. وهو المقام الرسمي لملوك غرناطة. وهو عبارة عن مربع طول ضلعه أحد عشر متراً ونصف، وعليه قبة خشبية فخمة ارتفاعها ثلاثة وعشرون متراً، حُفرت زخارفها على شكل النجوم، وزُخرِفت الجدران بنفس الطراز وبهو السفراء هذا هو أعظم أبهاء الحمراء، وكان به مجلس العرش.

ولهذا القصر فناء كبير على الطراز الأندلسي القديم، وفي وسطه حوض به نافورتان عند طرفه، وأخرى في وسطه، وتطلّ عليه أبواب ونوافذ لجناحين من أجنحة القصر، ويجاور بهو السفراء حمامات تمتاز بجدرانها المصقولة وسقوفها المقامة فوق أعمدة من الطراز القديم، وإلى جوار هذه الحمامات يوجد فناء آخر وحديقة. ومعظم هذه الأجنحة بناها السلطان محمد الغني بالله (٧٦٣ – ٧٩٣هـ).

ويتكوَّن البناء الثالث من قصر ملكي آخر يُعرف ببهو السباع وذلك بسبب الفناء الذي تقع فيه نافورة السباع المشهورة. وهذا القصر هو أحدث أبنية الحمراء. وهو عبارة عن فناء مستطيل طوله ٣٥ متراً وعرضه عشرون متراً، تحيط به مشرفية يحملها مائة وأربعة وعشرون عاموداً من الرخام الأبيض، وفي وسطه نافورة السباع المشهورة وهي عبارة عن حوض من المرمر، يحمله ١٢ أسداً صُنِعت من الرخام الأبيض تبدو فيها مخايل القوة والشجاعة، والهدوء والجلال.

ويقع جنوب كورة السباع، بهو بني سراج، وهو اسم الأسرة الغرناطية الشهيرة التي لعبت دوراً عظيماً في حوادث غرناطة الأخيرة. تتخللها من الدائرة السفلى عدة نوافذ، وقد زُيِّن سقفها بزخارف بديعة زرقاء وبنية ومذهبة.

ويقع في الناحية الأخرى، الناحية من ساحة السباع، بهو الأختين وفي وسطه نافورة أخرى.

ويحتوي قصر الحمراء فوق ما تقدَّم، على مجلس القضاة، ومتزين الملكة وهو بديع الزخرفة، وعلى عدة حمامات وغرف نوم، وعلى مقبرة تظللها الحنايا، وهي مقبرة ملوك بني نصر.

ويلحق بقصر الحمراء، قصر جنة العريف، وهو بناء مستقل يقع في الشمال الشرقي من القصر الكبير. وموقعه بهيج يواجه الحمراء، ويمتاز بجمال تنسيق حدائقه، ومجاري المياه، والنافورات المتقابلة المنظمة بفن وذوق، والأشجار الكثيفة والممرات الرائعة وتلك الخضرة الزاهية مما يجعل منه مكاناً كله فتنة وسحر. وكان مصيفاً لملوك غرناطة ومسرحاً للحبور والنعيم.

ولم ينج هذا الأثر الإسلامي العظيم، عنوان الحضارة الأندلسية الباهرة من يد العدوان والتشويه، فقد كان مثل بُناته المغلوبين ضحية للسياسة الإسبانية القديمة الغاشمة في الجهل بقيمته والهمجية. وقد اهمل مدة من الزمن، وخرب معظم القصر الشتوي، القديم، وبنى الامبراطور شارلمان مكانه قصراً جديداً ظهر بجانب الحمراء شاذاً باهتاً كأنه رقعة كبيرة قبيحة في ثوب جميل أنيق.

وبقي مهملاً إلى أواخر القرن التاسع عشر حتى أفاقت الحكومة الإسبانية من سباتها الطويل، وانتبهت إلى أن عندها كنزاً عظيماً لا يقدر بثمن. وبدأ الترميم والإصلاح فيه. ولقد كان سكان مملكة غرناطة أيام العرب ثلاثة ملايين، والآن لا يزيدون على سبعمائة ألف، وهم في نقص متزايد.

هذا وما زالت الحمراء بالرغم من كل هذا الإهمال وما لحقها من تخريب تعتبر أكمل نموذج للفن الأندلسي الرائع الساحر.

ويقول الدكتور جوستاف لوبون في كتاب حضارة العرب(٥): "ويتعذّر وصف الحمراء بوصف دقيق، وقلم الرسم وحده هو الذي يستطيع ذلك، وهو ما نستعين به، وما نشرناه في هذا الكتاب.

---

(٥) حضارة العرب، الدكتور غوستاف لوبون، نقله إلى العربية: عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٢٩٤.

وكل ما في قصر الحمراء عجيب، والمرء يقضي العجب من جدرانه المزينة بالنقوش العربية الأنيقة المحفورة المفرّضة، وأقواسه المصنوعة على رسم البيكارين، وقبابه ذات الزخارف الساحرة المتدلية، والمقرنصات المطلية فيما مضى باللازورد والأرجوان والإبريز.

والحمراء لا تشابه قصور أوربا، فهي عاطلة من المقدم، وتنحصر زخارفها في داخلها الذي ترى كل شيء فيها عجيباً، وإن كان صغيراً وليس فيه ردهات فخمة مملّة باردة مثل ردهات قصورنا الأوربية التي رُسمت ليعجب بها الزائرون لا لتلائم ساكنيها."

وقد أمضيت اليوم بكامله في قصر الحمراء أسرح الطرف في تلك القصور وأمتع النفس في مشاهدة ذلك الفن الرائع، والأبهاء الساحرة، والزخرفة التي تأخذ بمجامع القلوب وأنا أنشد قول شوقي رحمه الله:(٦)

وعظ البحتريَّ إيوانُ كسرى   وشفتني القصور من عبد شمس

قرطبة

وفي صبيحة اليوم الثاني توجهت إلى قرطبة، والمسافة نحو أربع ساعات في الباص، مررنا بالطريق على قرىً ومزارع، وغابات من الزيتون والحدائق والأنهار ووصلنا إلى قرطبة قرب الساعة الواحدة بعد الظهر.

وقرطبة اليوم هي ثاني مدن الأندلس، وهي أشبه بمروج على شكل نصف دائرة تقوم على الجانب الأيمن من الوادي الكبير، وهي تقع في سهل ممتد مخصب يطل عليها جبل العروس، أو جبال "مورينا" كما يسمونها الآن، وهي الآن مدينة عادية صغيرة، وقد كانت في أيام العرب أم المدن والقاعدة الكبرى لملك الأمويين، وعاصمة الخلافة، وداراً للعلوم والفنون والصناعة والتجارة، وفيها يقول أبو البقاء صالح بن شريف الرندي:(٧)

وأين قرطبة دار العلوم فكم   من عالم قد سما فيها له شان

---

(٦) الشوقيات، أحمد شوقي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، سنة ١٩٦١، ج٢/ ٤٧.

(٧) من قصيدته في رثاء الأندلس، ومطلعها:

لكلّ شيء إذا ما تمّ نقصان   فلا يغرّ بطيب العيش إنسان

والقصيدة في نفح الطيب، للمقرّي، ٤/ ٤٨٦ — ٤٨٨.

ويقول بعض علماء الأندلس:(٨)

بأربع فاقت الأمصار قرطبة　　منهن قنطرة الوادي وجامعها

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة　　والعلم أعظم شيء وهو رابعها

وقد انمحت آثارها جميعاً، فمدينة الزهراء أطلال دارسة لا يوجد فيها أي أثر، وقصر الزهراء لا وجود له، وكذلك مُحِيَت جميع القصور والمساجد والحمامات والمدارس، ولم يبق إلاَّ جامع قرطبة. ولا أريد أن أتعرض لوحشية الإسبان وهمجيتهم، ومجازرهم وسفكهم دماء العرب، وما عملوه على محو آثارهم فإنه ليس موضوع هذه المحاضرة. فقد أحرق رئيس الأساقفة الإسباني اكزيمينس ثمانين ألف كتاب وقتل الراهب الورع التقي بيلدا مائة ألف من المسلمين كانوا مهاجرين في قافلة إلى المغرب، هذا عدا عن وحشية محاكم التفتيش، وأمرائهم وملوكهم الأتقياء الورعين. كان سكان قرطبة مليون نسمة، والآن لا يزيدون على سبعين ألفاً، كان فيها نحو خمسة آلاف مسجد، والمدارس لا تحصى، والحمامات وغيرها من الحضارة والمدنية.

نزلت في قرطبة في فندق اسمه فندق "الزاهرة" نسبة إلى قصر الزاهرة الذي بناه المنصور بن أبي عامر أحد عباقرة حكام الأندلس، وبعد استراحة قليلة ذهبت إلى جامع قرطبة الأثر الوحيد الباقي من آثار العرب، ويا له من أثر عظيم، فقد كان كما يقول المؤرخون يفوق معابد الشرق قاطبة بعظمته وروعته، فترى ارتفاع مئذنته أربعين ذراعاً، وقبته الهيفاء تقوم على روافد من الخشب المحفور وتستند إلى ١٠٩٣ سارية من الأعمدة المصنوعة من مختلف الرخام على شكل رقعة الشطرنج، فيتألف منها تسعة عشر صحناً واسعاً طولاً وثمانية وثلاثون صحناً ضيقاً عرضاً، ولم يبق من أعمدته الآن إلاَّ نحو ثمانمائة عامود.

وترى في الوجه الجنوبي المقابل للوادي الكبير تسعة عشر باباً مصفحاً بصفائح برونزية عجيبة الصنع، خلا الباب المتوسط الذي كان مصفحاً بألواح من الذهب، ويُرى في كل من وجهه الشرقي الجانبي ووجهه الغربي تسعة أبواب مشابهة لتلك الأبواب.

---

(٨) ورد البيتان في نفح الطيب، ١/ ٦١٦ منسوبين لابن عطية.

ولا يزال هذا المسجد العظيم من الآثار الخالدة رغم ما أحدثه الإسبان فيه من التلف والفساد، ومع تلك الكنيسة الواسعة التي أقاموها فيه لتطهيره. ومما صنعه الإسبان أن كلسوا زخارف جدره وكتاباته، ونزعوا منه فسيفساء أرضه، وباعوا تحف سقفه الخشبية المحفورة المزوقة.

ويقوم سقف جامع قرطبة على أعمدة، ويتكوَّن من اجتماع هذه الأعمدة صفوف من الصحون المتوازية المؤدية إلى باحته، وتتقاطع هذه الصحون وصحون أخرى كتقاطع الأضلاع الذي ينشأ عنه زوايا قائمة، ويتألف من مجموع تلك الأعمدة غابة من الرخام والغرانيت، وتعلو تلك الأعمدة أقواس رائعة منضدة مصنوعة على شكل نعل الفرس.

ويرى الرائي في تنضد أقواسه، وتنوع زخارفه منظراً مبتكراً بديعاً قلما يجد مثله في مبانٍ أخرى. منظر فيه روعة وجلال لا يحسه الإنسان في مبنىً غيره.

وأما القطعة الفنية الرائعة التي لا يوجد لها مثيل، ولا تقع العين على منظر أجمل منه هو المحراب، فإن فيه من الفسيفساء المذهبة والزخرفة الملونة، والصنعة المتقنة ما يجعل منه قطعة فنية فريدة المثال، تبهر الناظرين، وتحيِّر المشاهدين.

وقد تنبّه الإسبان من نومهم العميق وبدأوا يعترفون بفضل العرب عليهم وعلى بلادهم، ويعتزون بعظمائهم؛ فقد أذاعت السفارة الإسبانية في عمّان أنه جرى في مدينة قرطبة خلال شهر ١٠/١٩٦١ الاحتفال بالذكرى الألفية لوفاة الخليفة العظيم عبد الرحمن الثالث، وقد أعدَّ برنامج الاحتفال كل من بلدية قرطبة، والأكاديمية الملكية الإسبانية. وقد حضر الاحتفال جمع غفير من الشخصيات الإسبانية، ومندوب عن وزارة الخارجية، والمدير العام للعلاقات الثقافية في وزارة الخارجية، ورئيس القسم السياسي والثقافي للعالم العربي، وسفراء كل من المملكة الأردنية الهاشمية، والمملكة العربية السعودية، والعراق والباكستان.

وأثناء الحفل أُزيح الستار عن لوحةٍ تذكارية لعبد الرحمن الخليفة وُضعت بالقرب من مئذنة مسجد قرطبة الكبير. وقد أُلقيت كلمات مناسبة في هذا الحفل تحدث فيها الخطباء عن عظمة قرطبة إبان الحكم في عهد الخليفة العظيم في القرن العاشر الميلادي.

وقد ألقى الشريف حسين بن ناصر سفير المملكة الأردنية الهاشمية الذي تكلَّم بالنيابة عن الشعوب الإسلامية والعربية الممثلة في مدريد بصفته أمين السلك السياسي المعتمد في إسبانيا (كلمة بهذه المناسبة).

إشبيلية

والمسافة بين قرطبة وإشبيلية ١٣١ كيلو متر يمر المسافر في طريق عامرة بالمزارع الواسعة يتخللها بعض خلجان الماء، وتكثر في هذه الطريق القرى الكبيرة، وكان العرب يسمون إشبيلية حمص تشبيهاً بها في عمرانها وحضارتها(٩)، وكانت أيام العرب من أحسن مدنهم عمراناً وثروة وعلماً وصناعة وخاصة في أيام المعتمد بن عباد، فقد كانت في زمنه عروس المدائن الأندلسية، والشمس التي تنبعث منها العظمة والنور والثروة. وهي الآن مدينة عظيمة جداً، ومن أجملّ المدن في إسبانيا تضارع باريس في جمالها.

ومن أهم آثار العرب الباقية إلى الآن في إشبيلية "المنارة" وهي التي يسمونها "لاجيرالدا" ومعناها لعبة الهواء. وهذه المنارة بناها المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن من الموحدين في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، وهي مربعة الشكل وكل ضلع من أضلاعها يبلغ ١٣،٦٠ متراً، وبناؤها من الطوب الأحمر وسمك حائطها متران ونصف، وفيها عدد كثير من الفتحات التي تسمح بنفاذ الهواء والنور إلى داخلها، وارتفاعها سبعون متراً، والصعود إليها بطريق مائل وهو طريق عريض يتسع إلى فارسين يسيران جنباً إلى جانب. وقد حُوِّلت هذه المنارة إلى جرسية للكنيسة التي حلَّت محل مسجد إشبيلية العظيم.

والأثر الثاني العظيم القصر وهو من قصور بني عباد، والقسم الباقي منه نحو نصفه، ويدخل إليه من بهو واسع مسقوف في وسطه صفان من أعمدة الرخام، ثم تنتهي إلى دهليز يوصل إلى باب في يمينه له حوش فيه بحيرة صغيرة من الرخام تحيط بها زهرية جميلة ومن دونها قاعة عالية مربعة الشكل كل ضلع منها طوله عشرة أمتار وارتفاعها نحو ١٥ متراً عليها قبة من الخشب الجميل الصنع، وحيطانها منقوشة من

(٩) سمّيت إشبيلية حمص الأندلس لأنّه نزلها أهل جند حمص أيام الهجرات الأولى إلى الأندلس، مثلما أطلقوا على غرناطة اسم دمشق الأندلس (أنظر: نفح الطيب، ١/ ١٥٢).

أعلاها بنقوش جصية فيها مقرنصات جميلة مختلفة الشكل، وفي أعلاها نوافذ متصلة بالجو مباشرة للنور والهواء.

وينتهي ذلك الدهليز بباب إلى حوش كبير، ومن جهته اليسرى باب عظيم من الخشب البديع الصنع يبلغ ارتفاعه نحو ثمانية أمتار. وواجهة هذا المدخل ١٥ متراً طولاً في ٢٥ متراً ارتفاعاً، وكلها محلاة بالنقوش الجصية الجميلة من مختلف الألوان الموشاة بالذهب مما جعل له منظراً في غاية الفخامة والذوق.

ومن وراء هذا الباب بهو بديع جداً فيه كثير من النقوش المختلفة وهو يفضي إلى حوض يكتنفه ممشى يحيط به أربعون عموداً من الرخام تحمل حنايا يقوم عليها سقف الممشى. وهنا تشاهد النقوش البديعة في السقف والحيطان. ومن هذا البهو باب يؤدي إلى قاعة الاستقبال، أو قاعة السفراء كما يسمونها، وهي مربعة الشكل وارتفاعها نحو عشرين متراً وكل ضلع منها لا يقل عن ١٢ متراً، عليها قبة من الخشب البديع الصنع، وهذه القاعة والقبة والأبهاء الثلاثة آيات من بديع الفن والزخرفة في جلالها وفخامتها وبديع صنعتها وجميل نقوشها الذهبية بألوانها المختلفة.

وأكتفي بهذا القدر من الوصف لأترككم ترون بأعينكم بعض صور هذه الآثار التي حدثتكم عنها، فإنها تنطق بذاتها عن جمالها وتعبرٌ بنفسها أحسن تعبير عن هذه البلاد الجميلة، وما اشتملت عليه من أبنية ساحرة وجنات فاتنة وحضارة سبقت كل حضارة في زمنها. أُخرِجَ منها العرب، وتركوها مقهورين مرغمين بسبب انقسامهم على بعضهم، وتفرّق كلمتهم، ومناحرتهم على المراكز، وقد حدث مثل هذه الكارثة في عصرنا وتحت بصرنا ألا وهي كارثة فلسطين، فهل اعتبرنا، وأفقنا من سباتنا، ورجعنا إلى أنفسنا نحاسبها، ونصلح أخطاءنا، نسأل الله تعالى أن يلم شعثنا ويجمع كلمتنا ويوحّد صفوفنا لنسترد فلسطين ونتعاون على حلّ مشاكلنا وما ذلك على الله بعزيز، والسلام عليكم.

ألمانيا

حزيران/ يونيو ١٩٦٤م

- ١ -

السَّفر أيها السادة أعظم كتاب يعلِّم الإنسان ويثقفه، ويوسع أفقه، ومنه يطل على هذا العالم الكبير الواسع، ويرى مختلف العادات، ويسمع الكثير، وينظر إلى هذا الإنسان وكيف تطورت حياته، وكثرت مطالبه، وكيف تمايزت الأمم، وتغاربت العادات واختلفت الطباع، ولكن مهما قيل في هذه الفروق، وتلك الاختلافات فإن الإنسان يظل هو هو، يحس ويفرح ويتألم ويحزن ويسر ويبقى كما قال الشاعر الصوفي:

"وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر"

وهذا العالم الأكبر أصبح اليوم عالماً صغيراً جداً، فإن الإنسان باستطاعته بساعات محدودة أن يدور الكرة الأرضية، بفضل هذه الوسائل الحديثة، فقد قربت المسافات ولم يبق في هذه الدنيا مكان بعيد.

في هذه المحاضرة أيها الحفل الكريم سأحدثكم حديثاً موجزاً عن بعض ما شاهدته في ألمانيا موضحاً ذلك بالصور الملونة.

وقبل البدء في حديثي لا بد من كلمة شكر أزجيها لمن كان لهم الفضل في توجيه الدعوة لهذه الزيارة، وأولاهم بذلك الأخ الكريم السيد مدحت جمعة سفيرنا في ألمانيا الاتحادية، وأنه يقوم بخدمة بلده وأمته على أحسن وجه وله مكانة مرموقة عند الحكومة الألمانية وبين زملائه في السلك الدبلوماسي.

وأُقدم الشكر الجزيل لمؤسسة التبادل الثقافي المعروفة بـ (DAAD) على ما لقيت من المسؤولين فيها من كرم عظيم وحفاوة بالغة. والشكر الجزيل لكل من قدم لي خدمة او مساعدة، وهل جزاء الإحسان إلاَّ الإحسان.

- ٢ -

ألمانيا بلاد واسعة جداً، فيها السهول الزراعية الواسعة، والجبال الغنية بالغابات، والأنهار الكبيرة، والبحيرات، والمصايف الجميلة، وهي بالإضافة إلى هذا كله بلد

صناعية غزت صناعتها العالم. والشعب الألماني جبار يتحمل المصاعب ويقوى عليها؛ فقد واجه في هذا القرن أفظع حربين عرفتهما البشرية ولم يكن في استطاعة أعظم الناس تفاؤلاً أن يتنبأ بأن ألمانيا التي هُزمت واستسلمت بلا قيد ولا شرط لقوات الحلفاء الغربيين والسوفييت ستنهض مرة أخرى على قدميها، وتصعد من السفح إلى القمة في الرخاء الاقتصادي وتستعيد مكانتها بين الأمم الكبرى، رغم أن معاهدة الصلح لم توقع معها حتى اليوم. وتعرف ألمانيا الغربية باسم جمهورية ألمانيا الاتحادية. وقد فرض المنتصرون على الرايخ الألماني بحدوده التي كانت معروفة سنة ١٩٣٧ تقسيماً لأراضية إلى أربع مناطق للاحتلال على الوجه التالي:-

منطقة بريطانية ومركزها ديسلدورف. ومنطقة أميركية ومركزها هايدلبرج. ومنطقة فرنسية ومركزها بادن بادن. وهذه كلها تقع في الغرب. ومنطقة سوفيتية تقع في الوسط والشرق.

وكذلك قسمت برلين الى أربعة قطاعات: ثلاثة للحلفاء الغربيين، والرابع للروس.

وفي الوقت نفسه نُزعت الولايات الشرقية منها وأُجلي عنها معظم سكانها، ووضعت تحت الإدارة البولندية. كما وضع جزء منها تحت الإدارة السوفييتية، وذلك الى أن تبرم معاهدة الصلح التي لا يعلم وقتها إلا الله.

وفي سنة ١٩٤٨ أُعيد النظر في تقسيم برلين فأُدمجت القطاعات الثلاثة: الفرنسية والبريطانية والأميركية في قطاع واحد أصبح يسمى "برلين الغربية"، وأصبح القطاع الباقي يُعرف باسم "برلين الشرقية"، وبعد عام واحد أي في سنة ١٩٤٩ أعلن ممثلو الولايات الألمانية في مناطق الاحتلال الغربية الثلاث تأسيس (جمهورية ألمانيا الاتحادية)، ولكن هذه الجمهورية لم تصبح دولة ذات سيادة إلاَّ في سنة ١٩٥٥ وهي تشمل الولايات الاحدى عشرة التالية:-

"شليزفيج هونشتاين"، "هامبورج"، "سكونيا السفلى"، "بريمن"، "نوردراي – فستفاليا"، "هيسن"، "رانيلاند – بالاتينات"، "بادن فرتمبورج"، "بافاريا"، "السار"، "برلين الغربية".

وعدد سكان هذه الولايات نحو سبعين مليوناً، وعدد سكان ألمانيا الشرقية نحو سبعة عشر مليوناً.

وبرلين الغربية تنفرد بمركز خاص لا تشاركها فيه الولايات العشر الأخرى؛ إذ إن برلين ليست خاضعة في الواقع لسلطة الحكومة الاتحادية الألمانية بالمعنى المفهوم فيما يتعلق ببقية الولايات، ولا يزال تطبيق الدستور الاتحادي الألماني فيها خاضعاً لعدد من القيود وفقاً للاتفاقية الرباعية التي أبرمت في عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٥.

ومما قدمت يتبين لكم أن ألمانيا كما يراها الألمان الغربيون ليست مجرد بلد مشطور إلى قسمين، كما هو الاعتقاد السائد في العالم الخارجي، بل هي مقسمة إلى ثلاثة أقسام منذ سنة ١٩٤٥ وهي:-

(١ -) الجمهورية الاتحادية لألمانيا الغربية وبرلين الغربية.

(٢ -) جمهورية ألمانيا الديمقراطية أو الشيوعية فيما يسمى "ألمانيا الشرقية"، وهي تسمية يعترض عليها الألمان الغربيون جداً.

(٣ -) الولايات الشرقية للرايخ الألماني، ويعنون بها الولايات التي وُضعت مؤقتاً تحت الإدارة البولندية والروسية المباشرة. وقد أصبح الألمان فيها الآن قلة قليلة بعد أن طرد منها نحو تسعة ملايين من الألمان بين سنة ١٩٤٤ — ١٩٤٦.

وترى الجمهورية الاتحادية أنها هي وحدها التي تملك أن تتفاوض باسم ألمانيا كلها باعتبارها الحكومة الوحيدة التي جاءت وليدة انتخابات حرة، واستكملت في نظر القانون الدولي مقومات "الدولة ذات السيادة".

أما الهدف القومي المنشود في ألمانيا الغربية فقد لخصوه في هذه العبارة: "توحيد ألمانيا بجميع أجزائها، في ظل الحرية، ومن طريق الوسائل السلمية".

- ٣ -

الحكم في ألمانيا الغربية حكم جمهوري ديمقراطي تكاد حرية الفرد فيه تطغى في قداستها على سلطة الدولة.

ورئيس الاتحاد هو رئيس الدولة، وينتخب لمدة خمس سنوات، وقد انتخب الرئيس الحالي الدكتور هنريخ لوبكه في تموز من سنة ١٩٥٩ وأعيد انتخابه في هذا العام ١٩٦٠.

أما رئيس الوزراء فيسمونه "المستشار" وهو يتمتع طبقاً للدستور الألماني بسلطة تكاد تكون مطلقة.

ومن النصوص الفريدة في الدستور الألماني أن مجلس النواب ويسمونه "البوندستاج" يستطيع أن يسحب الثقة من المستشار، ولكن المستشار لا يستقيل ولا يقال لمجرد سحب الثقة منه، بل يجب على مجلس النواب أيضاً أن يتفق مقدماً على اختيار خلف المستشار بالأغلبية البرلمانية، ويسمون هذا الشرط "شرط الفيتو الإنشائي" أي الإيجابي البناء؛ فلا تكون مهمة المجلس النيابي عزل رئيس الوزراء وكفى ... بل يجب أن يتحمل قبل العزل مسؤولية اختيار الخلف الذي يراه أصلح منه.

و"البوندستاج" أي مجلس النواب الاتحادي هو أعلى سلطة تشريعية وينتخب كل أربع سنوات. وعدد أعضائه (٥٢١) نائباً، منهم (٢٢) نائباً عن برلين الغربية لهم حق الحضور والاشتراك في المناقشات، ولكنهم لا يملكون حق التصويت أي أن أصواتهم تعد استشارية محضة.

والبرلمان الألماني يتألف من مجلس "البوندستاج" هذا ومن مجلس ثان يسمى "البوندسترات" أي المجلس الاتحادي، وعدد أعضائه (٤١) عضواً تعينهم حكومات الولايات العشر يُضاف إليهم أربعة مستشارين تعينهم الولاية الحادية عشرة، وهي برلين الغربية، ولا يملكون حق التصويت أيضاً. ويتناوب رياسة هذا المجلس عاماً بعد عام رؤساء حكومات الولايات. وهذه الولايات مستقلة استقلالاً داخلياً، لكل منها تشريعها الخاص، ولكل منها برلمان مكون من مجلسين، ويلاحظ الزائر كثيراً من الاختلافات – من ذلك العطل المدرسية وبدء الدراسة وبعض الاختلاف في الأنظمة والقوانين.

ويوجد في ألمانيا الغربية أربعة أحزاب هي: الحزب الديمقراطي المسيحي، والحزب الاشتراكي الديمقراطي، والحزب الديمقراطي الحر، والحزب الألماني، ولا يوجد حزب شيوعي لأن القانون هنا يمنع قيام هذا الحزب.

هذه معلومات وجيزة قدمتها ليأخذ السامع صورة سريعة واضحة عن ألمانيا الغربية وكيفية الحكم فيها وحالتها الحاضرة.

استغرقت رحلتي لألمانيا مدة شهر تجولت فيه بين بون وكولون وآخن، وميونيخ وبرلين، وهامبورج، واشتوتجارت، وهايدلبرج، وغيرها من الأماكن.

ويشعر الإنسان بمجرد دخوله تلك البلاد بجو غامر من الحركة والنشاط والبناء والتعمير والعمل والمرح يجعل من الصعب على المرء أن يصدق أن أولئك الذين راحوا يملأون جو البلاد بمظاهر تلك الحيوية الدافقة قد خرجوا هم وآباؤهم وأبناؤهم من حربين طاحنتين في خلال ثلاثين سنة، بعد أن خلفت من الدمار والبؤس والشقاء ما لم تخلفه أية حرب أخرى سجلها التاريخ.

والمهم أنهم بالعمل والجد والنشاط استطاعوا أن يقفوا في دنيا الرخاء حيث هم الآن، وهذا الرخاء الاقتصادي الذي يلمسه كل من يزور ألمانيا الغربية سببه الحرية التامة في السياسة الاقتصادية التي أصرت الحكومة الاتحادية على انتهاجها رغم جميع المخاوف. يقول البروفسور ايرهارد في كتابه **المنافسة طريق الرخاء**(١): "إننا إذا انتقلنا من اقتصاد محكوم موجه إلى اقتصاد حرٍّ قائم على احتياجات السوق، قمنا بما هو أكثر من مجرد إجراء اقتصادي، لأننا نضع بذلك قواعد جديدة لحياتنا الاجتماعية والاقتصادية. لقد كان حتماً علينا أن نهجر التعصب الفكري الذي هو مؤدٍّ في النهاية الى الطغيان الدكتاتوري. إننا نهدف إلى نظام قائم على الحرية وعلى إحساس عميق بالمسؤولية حتى نصل الى مجتمع عاقل معقول".

وقد جاهد البروفسور ايرهارد حينما كان نائباً لمستشار ألمانيا الغربية ورئيس مجلس وزرائها الاقتصادي حتى أثبت بالإحصائيات والتجربة الفعلية أن الحرية في دنيا الاقتصاد والمال دعامة كبرى في بناء الدولة الحرّة في عالم السياسة سواء بسواء، والبروفسور ايرهارد يسمونه صانع المعجزة الاقتصادية.

ويقول في كتابه أيضاً (٢): "إن ما تم في ألمانيا مما أصبح يسمى بالمعجزة الاقتصادية، إنما جاء نتيجة المجهودات النزيهة المخلصة لشعب بأكمله حرص على الحرية، وصان

---

(١) المنافسة طريق الرخاء، تأليف: البروفسير لودفج ايرهارد، نقله إلى العربية: محمّد محمود عمر، المطبعة العالمية، القاهرة.

(٢) نفسه، ص ١٣٢.

مبادئها، وأُعطي الفرصة لكي يبذل جهده، ويحقّق ذاته، وإذا كان للمثل الذي ضربته ألمانيا من قيمة فهي أنه أثبت للعالم كله بركات الحرية الاقتصادية، وأهم منها الحرية الفردية".

وهذه الكلمات ليست مجرد سطور من كتاب، ولكنها واقع حقيقي ملموس يحسه زائر ألمانيا الغربية إحساساً بارزاً قبل أن تنقضي على اختلاطه بالناس والمجتمع في تلك البلاد أيام معدودات.

- ٥ -

وصلت مطار برلين نحو الساعة الثانية عشرة ظهراً ووجدت السيد مدحت جمعة سفيرنا في ألمانيا والملحق العسكري، وذهبت معه بالسيارة رأساً إلى منزل السفير المغربي السيد مهدي بن عبد الجليل، حيث تناولنا طعام الغداء عنده وتجلى الكرم العربي واللطف والأنس؛ فقد كان هو وعقيلته في غاية الطرافة، وكانت جلسة عائلية ممتعة بصحبة السيد مدحت وعقيلته ونجله مازن. أمضينا فترة بعد الغداء تناولنا فيها شتى الأحاديث وكانت تلك الفترة من أمتع ما صادفته في رحلتي هذه بسبب هذا اللقاء الجميل والجلسة الأنيسة والحديث العذب.

وقد أمضيت في بون ومنطقتها أربعة أيام زرت فيها قسم الدراسات الشرقية والعربية في جامعة بون والمسؤول عنها البروفسور الدكتور سبيس، وأمضينا معه مدة في جلسة ممتعة طفنا فيها المكتبة وفيها قسم عامر للكتب العربية النادرة والحديثة.

وزرت عميد كلية الحقوق، وأمضيت يوماً كاملاً أتنقل في الجامعة من مكان إلى مكان، وقد أُعجبت بأولئك الأساتذة العظام الذين تفرغوا للبحث والتنقيب والدرس والتحصيل وكل همهم تحقيق رغباتهم في العلم والإفادة والوصول الى المثل الأعلى فيه. وهذا ما لمسته في جميع الجامعات ودور العلم التي زرتها.

وبون قرية صغيرة بدأ نجمها يلمع بعد الحرب العالمية الثانية حيث أصبحت مقرّ الحكومة الألمانية وهي قرية أديناور المستشار السابق، وبدأت الآن تتوسع وهي منطقة جميلة جداً بما فيها من أنهار وغابات وجبال وسهول ممتعة يؤمها السواح من كل ناحية.

وزرت مركز مؤسسة (D.A.A.D) وهي المؤسسة التي دعتني لزيارة ألمانيا، وقابلت الدكتور "شابية" وهو رجل لطيف جداً ومرح وقريب إلى القلب.

- ٦ -

ومن بون ذهبت إلى ميونخ بالطائرة والمسافة نحو أربعين دقيقة، وكان بانتظاري طالب أردني اسمه فاروق عبوشي يدرس الهندسة الميكانيكية والاقتصاد وهو نشيط جداً ويعرف تلك المنطقة معرفة تامة ويجيد اللغة الألمانية، وعنده سيارة صغيرة وبفضل تلك السيارة تجولنا في ميونخ وضواحيها، ومنطقة بافاريا الجميلة على ضفاف بحيراتها الفاتنة، ورؤوس جبال الألب الساحرة ومناظرها الخلابة.

وزرت في جامعة ميونخ قسم الدراسات العربية والمسؤول عنه البروفسور شبيلاتا وهو يجيد اللغة العربية قراءة وكتابة وحديثاً مع معلومات جمة باللغات السامية وبعض اللغات الأوربية، وهو متواضع جداً ومحدث ظريف، عرفت من حديثه أنه زار قسماً كبيراً من البلاد العربية وهو من المعجبين بالعرب ولغتهم وآدابها وقد كرس جزءاً كبيراً من حياته لدراستها وتعليمها والتنقيب عن أحسن المؤلفات فيها ونشرها.

وميونخ بلد عريق جداً وفيها أشياء كثيرة وأعظم شيء رأيته في ميونخ وأُعجبت فيه حقاً هو "المتحف الألماني"، وإنني لو لم أر في زياراتي لألمانيا الغربية سوى هذا المتحف لكفاني ذلك ولكنت من الرابحين. وأتمنى أن يتاح لي زيارات له.

وإنني بحسب معرفتي القليلة وما رأيت من المتاحف لا أظن أن لهذا المتحف مثيلاً في العالم أجمع، إنه معهد نادر المثال للأطفال والصبية والشبان والكهول والشيوخ. هذا المتحف يروي بالنماذج المجسمة المتحركة، العاملة بالأزرار الكهربائية قصة التطور التاريخي للعلوم والصناعات بأسلوب واضح بسيط مسلسل.

إنك تدخل المتحف لترى مثلاً تطور السفن، فإذا بك تسير بالفعل داخل السفن فضلاً عن رؤية مناظرها الخارجية، ولا تزال تتنقل من سفينة بدائية الى أخرى متطورة، وتدخل في أحدث صالات السفن الحديثة، حتى تجد نفسك بعد مسافة طويلة قد وصلت الى أحدث الغواصات التي استخدمت في الحرب العالمية الثانية، وقد شُطِرت شطرين بحيث يمكنك رؤيتها من الداخل بالتفصيل.

وتدخل قسم المناجم فلا يوجد شيء في عالم الفحم والمعادن لا تمرّ به تحت الأرض في قلب مناجم مجسمة تجسيماً يستوقفك عند كل خطوة تخطوها، حتى تكاد توجه الكلام إلى تماثيل العمال المسكين بمصابيحهم المختلفة من أقدم العصور حتى الآن. أما بقية الأقسام فإنها تحتاج إلى شرح طويل، ومهما شرحها الإنسان وصورها لا يمكن أن يوفيها حقها.

ولكي يزور المرء جميع أقسام هذا المتحف يجب أن يقطع في داخله مسافة خمسة عشر كيلو متر، ولذلك يحتاج إلى أكثر من زيارة حتى يستوعب الإنسان ما فيه.

زرت في ميونخ المركز الرئيسي لمعهد جوته، والتقيت بالدكتور كورن مدير معهد عمّان الحالي وكانت فرصة سعيدة بأن تشرفت بمعرفته هناك.

ومن الأشياء الطريفة واجهة بلدية ميونخ فيها تماثيل وعند حلول الساعة الحادية عشرة من كل صباح تقوم هذه التماثيل بحركات متنوعة على أنغام الموسيقى لمدة عشر دقائق، وترى الناس مجتمعين في تلك اللحظة يرقبون حلول الساعة الحادية عشرة ليشاهدوا ذلك المنظر الطريف.

وفي إحدى ضواحي ميونخ الجديدة زرت مدرسة ابتدائية حديثة البناء والشيء الطريف فيها أنها مدرستان – واحدة طائفية للكاثوليك ولها مدير، والأخرى مدرسة حديثة مختلطة ولها مديرة، ولا يزال هناك فئات في ألمانيا متعصبة للدين، ويصر الآباء على أن يكون أبناؤهم في مدارس طائفية، دينية. وهذه لا تزال إحدى المشاكل في ألمانيا.

- ٧ -

غادرت ميونخ إلى برلين في الطائرة والمسافة نحو ساعة وأربعين دقيقة، وقيل لي إن طالباً ألمانياً سيكون في مقابلتك في المطار. وصلت المطار فلم أجد أحداً وانتظرت مدة ثم ذهبت إلى مكتب الاستعلامات وأخبرت المسؤولة عن موضوعي، فأذاعت بالمكبر عندي فلان المدعو من المؤسسة الفلانية فيرجى من الشخص الذي جاء لاستقباله أن يحضر. وفي لحظات جاء شاب مسرعاً، واعتذر بأن الوقت الذي حُدِّد لوصول الطائرة

لم يحن بعد ولذلك تأخر، وكان هذا صحيحاً فإن الطائرة وصلت قبل الوقت المحدد لها. والألمان يتقيدون بالوقت بالدقيقة ويحافظون على المواعيد أشد المحافظة.

مكثت في برلين أربعة أيام تجولت في معظم معالم المدينة، وزرت الجامعة والتقيت بالدكتور براون وهو مستشرق زار عمّان العام الماضي، وألقى محاضرة باللغة العربية عن الأدب الجاهلي، وزرت كلية الهندسة وعميدها البروفسور شتارك وهو رجل عظيم جليل القدر، وأطلعني على سجل الطلبة وعدد الأردنيين عنده وأسمائهم. وتحدث عن مشاكل الطلبة، ودعاني على طعام الغداء وطلب مني أن أراجعه في أي وقت وانه مستعد لتقديم أي خدمة.

ومن الأشياء العظيمة التي رأيتها في برلين المدينة الرياضية، والبرلمان الحديث، ومن أهم شوارعها شارع "كورفور مستندام" وهو اسم طويل وصعب علينا نطقه، وهم يختصرونه فيقولون "كودام" وهو أجمل شارع في برلين الغربية، ويسمونه "برودواي برلين". وطريقتهم في استخدام "فترينات" مستقلة لعرض الملابس والحلي والعطور، وكل ما يباع في الحوانيت الجميلة المنسقة الواجهات على أحدث طراز تجعله يمتاز بظاهرة لا مثيل لها في أية مدينة أخرى.

وبرلين مدينة مقسمة إلى شطرين مثل مدينة القدس عندنا، ولكن الفرق بينهما أن سكان برلين في القسمين ألمان، ولا بد من حل مشكلتهم يوماً ما، ومشكلتها تختلف اختلافاً تاماً عن القدس.

وقد أقام الشيوعيون في أغسطس من سنة ١٩٦١ حائطاً طوله خمسة كيلومترات ليفصل برلين الشرقية عن برلين الغربية، والألمان في برلين الغربية يسمونه "حائط العار" وسبب بنائه ليمنع تيار الهجرة الجماعية لشعب ألمانيا الشرقية إلى الغرب من طريق المدينة التي تقع وسط ألمانيا الشيوعية.

وقد تجولت حول الحائط في برلين الغربية وأطلعني رفيقي على المآسي التي حدثت من جراء هروب بعض الشبان وكيف قتلوا برصاص الشيوعيين، ووضعت الزهور في تلك الأماكن إحياءً لذكراهم، ووقفت عند بوابة براندنبرغ التاريخية التي أصبحت من أكبر المعالم الفاصلة بين قطاعي الشرق والغرب، وتأملت في الجنود الروس وهم واقفون

وبنادقهم مصوبة نحونا كأنهم يرتقبون من يهاجمهم، ووقفت مرة أخرى عند البوابة في الجانب الشرقي وتعجبت من هذه الأوضاع المصطنعة، وقد أمضيت يوماً كاملاً تجولت فيه في برلين الشرقية، وطفت بمعظم معالمها، والفرق شاسع بين الطرفين: الغربية والشرقية، في الحياة والجو والمباني والتقدم. يلاحظ هذا كله الزائر لأول وهلة، ولما أردت الذهاب الى برلين الشرقية أرسلوا معي طالباً فارسياً، ولما سألت رفيقي الألماني لماذا لا تذهب أنت معي ؟ قال: "إن سكان برلين الغربية محرم عليهم دخول برلين الشرقية من دون سائر البشر وذلك محض تحكم من الروس وتعنت".

ومعظم الآثار والأماكن التاريخية والمسارح في برلين الشرقية كالجامعة ودار الأوبرا القديمة ذات طراز كلاسيكي. وعلى ذكر المسارح والتمثيل، فإن المسرح يؤدي دوراً كبيراً في حياة الشعب الألماني سواء أكان ذلك مسرحاً تمثيلياً أم مسرحاً غنائياً أم موسيقياً، والألمان يفاخرون بأن بلادهم أغنى بلاد أوروبا بالمسارح، وأن في كل مدينة ألمانية مسرحاً واحداً أو أكثر، فالمسرح عندهم الأداة الأولى في التعبير الفني عن عبقرية الشعب. والدولة تسهم في نفقات المسارح مساهمة كبيرة جداً، إذ تدفع نحو خمسة عشر مليوناً من الجنيهات سنوياً لإعانة المسارح وحدها، وتتحمل من أثمان التذاكر نحو النصف.

وقد حضرت في ميونخ تمثيلية لشكسبير في اللغة الألمانية، وكذلك أوبرا غنائية في دار الأوبرا الجديدة في برلين، لم أفهم شيئاً منها طبعاً، وقد دامت نحو ساعتين ونصف دون استراحة.

وزرت مدرسة ابتدائية حديثة وفيها روضة أطفال كأنها جنة، مدير المدرسة يداه الاثنتان مقطوعتان من نصف الساعد وقد عمل له يدان من الجلد، وله مساعدة، وهو في غاية النشاط والذكاء والخبرة، وكان مسروراً جداً بهذه الزيارة وطاف بنا في المدرسة وحضرنا درساً في اللغة الإنجليزية لطالبة من دار المعلمات ومعها المديرة وبعض زميلاتها، وكان درساً نموذجياً. تصوروا إنساناً يداه مقطوعتان يعمل مديراً لمدرسة نموذجية ولو كان هذا الرجل عندنا لرمي في داره ومات جوعاً.

من برلين ذهبت إلى هامبورج وهي مدينة عظيمة وكبيرة وجميلة جداً، سكانها نحو مليونين، وفيها ميناء ضخم واسع مع أنها تبعد عن البحر بمسافة مائة كيلو متر ويصلها

في البحر نهر "البا"، وفيها صناعة هائلة للسفن الكبيرة، تجولنا في هذا الميناء نحو ساعة كانت رحلة ممتعة ومفيدة.

منطقة ميناء هامبورج تشغل مساحة ١٠٠ كيلو متر مربع تقوم عليها منشآت صناعية ضخمة على جانبي نهر "البا"، وهو أضخم ميناء ألماني يكون حلقة اتصال بين أوروبا وأنحاء العالم.

قلائل من المدن في العالم عندها مثل هذا المركز للملاحة البحرية وصناعة السفن. تدخل هذا الميناء (٢٠،٠٠٠) ألف سفينة سنوياً من أكثر من خمسين دولة، وتنقل أكثر من ثلاثين مليون طن من البضائع المختلفة.

ثلاثة وثمانون ألف عامل يعملون في منطقة الميناء يومياً، وألف وثمانمائة قاطرة حديد و (٤٠٠٠) سيارة شحن، وحوالي (٨٠) معدية بحرية تصل الميناء يومياً لإنزال البضائع وتحميلها، ولا يتسع المقام لإعطاء تفصيلات أكثر مما ذكرت.

وزرت جامعة هامبرج واجتمعت بالبروفسور دكتور شبولر وهو يتقن اللغة العربية ويتحدثها بطلاقة، وزرت عميد كلية الحقوق البروفسور شمدت وهو أستاذ لطيف جداً ومحدث لبق وفي غاية البساطة والتواضع، تجولت معه في مكتبة الكلية ورأيت فيها عشرات الألوف من المجلدات في معظم اللغات ما عدا اللغة العربية.

من هامبرج ذهبت إلى شتوتجارت بالطائرة ومنها بالقطار إلى مدينة هايدلبرج وفيها أقدم جامعة ألمانية وأمضيت فيها أربعة أيام. وهي مدينة لطيفة صغيرة يتخللها نهر وحولها جبال مكسوّة بالغابات، والأمريكان يحبون هذه الجامعة، ويرسلون عدداً كبيراً من أبنائهم إليها، وفيها قصر قديم على رأس جبل يشرف على المدينة، وهو الآن محجة للسواح والزائرين.

وفي هايدلبرج انتهى البرنامج الرسمي للزيارة، ومنها عدت إلى شتوتجارت عروس ولاية بادن فرتمبرج وعاصمتها ذات البرج التلفزيوني الفريد من نوعه. وهي مدينة جبلية تشبه عمّان، ولكن بينهما فرقاً شاسعاً، فإن جبالها وسهولها خضراء مكسوّة بالأشجار ومملؤة بالحدائق الغناء، وهي منطقة صناعية ومن أكبر المصانع الموجودة فيها، مصانع مرسيدس بنز.

ويعتبر برج شتوتجارت من أروع الأعمال الهندسية والسياحية في ألمانيا كلها، وهو عبارة عن عمود من الإسمنت المسلح الأملس يقل محيطه تدريجياً مع الارتفاع حتى يصل إلى ما يسمونه (عش الغراب) وهي الأدوار الأربعة التي تقع فيها قاعة الإرسال التلفزيوني، والمطبخ والمطعمان، والطابقان اللذان يستخدمان لمشاهدة معالم المدينة من هذا الارتفاع الشاهق. وقد صعدت إليه بمصعد كهربائي وتناولنا القهوة في قاعته التي تتسع لجلوس مائة وستين شخصاً على موائد حول نوافذه، وإنه تحفة فنية رائعة.

ومن أطرف الأمور أن مرسيدس في الواقع اسم امرأة فرنسية أُطلق على مصانع السيارات المعروفة، وهي تسمية حدثت بعد الحرب العالمية الثانية فقد كان اسم الشركة (ديملر – بنز)، وعندما عثرت الشركة على وكيل لها في باريس لم يعجبه اسم الشركة واقترح تغييره، فقالوا له: فكِّر لنا أنت باسم جديد. فقال فوراً: إن زوجتي سيدة جميلة وجذابة، وتحمل اسماً موسيقياً رناناً فما رأيكم بإطلاقه على سيارتكم هنا. فقالوا له: وما هو اسمها؟ فقال: مرسيدس. ووافقوا على ذلك وأصبحت الشركة تعرف بعد ذلك باسم (مرسيدس بنز).

وقد تجولت في منطقة شتوتجارت فذهبت إلى الغابة السوداء - كما يسمونها – وهي من أجمل بقاع الدنيا وهي مرتاد للمصطافين من السواح وفي الشتاء للتزحلق على الجليد وفيها طرق معبَّدة، وفنادق في أي مكان يعجب السائح، وكأن لسان الحال ينشد: (٣)

ملاعب جنة لو سار فيها	سليمان لسار بترجمان
ولكن الفتى العربي فيها	غريب الوجه واليد واللسان

وزرت في تلك المنطقة قرية صغيرة اسمها "برتن" وهي التي ولد فيها "لوثر"، وعدد سكانها عشرة آلاف، قال لي رفيقي الألماني: "إن ثمانية آلاف من سكان هذه القرية يشتغلون، يعني أنه لم يبق إلاَّ الأطفال وطلاب المدارس والعجزة".

وإليكم في نهاية هذا الحديث بعض الإحصائيات:

---

(٣) البيتان للمتنبي، أُنظر ديوانه بشرح العكبري، ٤/ ٢٥١ – ٢٥٢.

١. إن ٨٠ ٪ من الشعب يعيشون في مستوى طيب جداً يسمح دخلهم بتغطية مصروفاتهم.

٢. ٤٠ ٪ من الشعب الألماني يزيد دخلهم على مصروفاتهم.

٣. ١٢ ٪ يقل دخلهم عن حاجاتهم الفعلية.

٤. متوسط دخل رب العائلة الذي يكفي لسد نفقاتها الشهرية نحو ٦٠٠ مارك.

٥. طلبة الجامعات – بلغ عدد الطلبة الذين سجلوا في جامعات ألمانيا الاتحادية وبرلين الغربية لسنة ١٩٦٣ (٢٢٨،٦٨٥) طالباً، و (٢٢١٦٨) طالباً أجنبياً.

٦. بلغت نسبة الإناث نحو ٥٢٪ في كليات الآداب، ونحو ١٧٪ في كليات الطب.

٧. يزيد عدد النساء على الرجال بأكثر من ثلاثة ملايين وثلث مليون امرأة وذلك من جراء الحرب العالمية الثانية.

ومن أصعب الأمور هناك أجور الخدم. إن أجر الخادم وهو عادة في النساء أجر يقصم الظهر، ومتوسط أجرة الخادم نحو أربعمائة مارك في الشهر، ويجب أن تتمتع بعطلة نهاية الأسبوع، والسبب في ذلك قلة الأيدي العاملة وارتفاع مستوى المعيشة العام.

ورغم كل هذا الإنتاج العظيم، فإنهم يشكون من ضيق الوقت، فقد قال لي مدير مصنع وهو يطوف بي في مصنعه: أتدري ما هو أعظم عدو للألمان ؟ فقلت: لا. قال: الوقت. فقلت له: تعال إلى بلادنا وخذ وقتاً قدر ما تريد فإن الوقت عندنا لا قيمة له وهو من أرخص الأشياء في بلادنا.

والألماني إلى جانب دأبه على العمل، يحرص كل الحرص على الراحة، والمستوى الطيب في المعيشة وهو الآن يعمل خمسة أيام في الأسبوع وينعم بالراحة يومي السبت والأحد من كل أسبوع. كما يطيب له أن يطلق لنفسه العنان إلى حد لا يخلو من الإسراف الشديد في بعض الأحيان ليستمتع بكل ما في الحياة من متع روحية ومادية على السواء.

والألماني في لهوه، وفي جدّه، في بيته وفي مكان عمله، عاطفي رغم أقنعة الجمود والعنف والرزانة التي يضعها على وجهه، أو تصنعها ظروف حياته كفرد أو كشعب في تقلبات التاريخ التي عصفت به، وهزت مادياته ومعنوياته بأعنف ما يتصوره العقل.

والكبار في ألمانيا اليوم يشكون من ميوعة النشء الجديد، وخروجه عن المألوف وفساده، وهي ظاهرة متفشية بشكل مروع، ولا يدرون إلى أين ستصل بهم هذه الحالة. فإنك في كثير من الحالات لا تدري الفتى من الفتاة، في الزي والحركات، وهناك قسم كبير من الألمان محافظون ومتدينون الى درجة التعصب وهذه الظاهرة الجديدة تؤذيهم، ولكن لا يستطيعون أن يأتوا بأية حركة والحرية مكفولة لكل إنسان، والفرد محترم، وما دام لم يخالف القوانين فلا سبيل لإنسان عليه.

هذه لمحة عابرة عن بعض ما رأيت وسمعت في رحلتي لألمانيا وأرجو أن لا أكون قد أطلت عليكم، والسلام عليكم ورحمة الله.

اليمن

تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٤م

في هذه الأيام كتب الله عليّ التنقل والرحلات وذلك أمر أحبه، فقد دعيت لزيارة ألمانيا لمدة شهر كامل، في شهر حزيران من سنة ١٩٦٤م، وكانت رحلة عظيمة زرت فيها خمس جامعات: هي جامعة بون، وجامعة ميونخ، وجامعة برلين، وجامعة هامبورج، وجامعة هايدلبرج، وقد اجتمعت في هذه الزيارة بنخبة من أساتذة الجامعات والطلاب، ورجال الأعمال، واستفدت فوائد جمة، وكتبت بعد زيارتي محاضرة ألقيتها في "معهد جوته" في عمّان، بينت فيها ما رأيت وبعض انطباعاتي عن ألمانيا وشعبها، وعرضت بعض الصور الملونة التي التقطتها في تلك المواقع الجميلة الساحرة.

وبعد تلك الزيارة بأربعة أشهر هيأ الله لي زيارة إلى اليمن، وذلك أن الجامعة العربية أرادت أن تبعث بعثة تطلع على أحوال الجنوب العربي وتدرس مشاكله، وترى ما استطاعت ما يجري هنالك من أحداث لعلها تساعد على حل المشكلة أو تعين بعض المنكوبين، ولم ترد أن تكون هذه الهيئة الذاهبة إلى هناك سياسية أو لها أية صفة سياسية، فدعت مندوبين من جمعيات الهلال الأحمر في العالم العربي لعقد اجتماع في القاهرة وحضر عدد من المندوبين، وبعد أن اجتمعنا في مقر الجامعة العربية قرر المجتمعون أن يذهب أربعة أعضاء منهم إلى اليمن، ومن هناك يطلعون أو يحاولون أن يطلعوا على ما يجري في الجنوب العربي من أحداث. ووقع الاختيار على مندوب الأردن، ومندوب الجزائر واسمه السيد محمد التريكي صيدلي من أهل تلمسان، والدكتور يحيى مرزوق عن الجامعة العربية، والدكتور محمد جلال موسى عن الهلال الأحمر في الجمهورية العربية المتحدة.

ذهبنا من القاهرة إلى صنعاء على متن طائرة من طيران المتحدة، وكانت المسافة خمس ساعات متواصلة وكان السفر ليلاً، ووصلنا صنعاء صباحاً، وأمضينا فيها يومين، وهي مدينة صغيرة ترتفع عن سطح البحر بألفين ومائة متر، موقعها جميل في منبسط من الأرض، يكتنفها جبال من عدة نواح وبعضها يرتفع عن سطح البحر بأكثر من ثلاثة آلاف متر، وهي مقسمة إلى ثلاثة أقسام: البلدة القديمة وفيها المتاجر القديمة وأكثر

أهل الحِرف، والحي الجديد وفيه قصور بعض الأمراء والأغنياء، وحي اليهود وهو خالٍ الآن لأن اليهود رحلوا من اليمن ولم يبق منهم أثر.

وقد استقبلنا شباب من أهل الجنوب ورحبوا فينا، وجلسنا معهم فترة غير قصيرة حدثونا عن بلادهم وأقسامها والمناطق التي يجري فيها القتال، وطلبوا منا أن نذهب إلى تعز حيث نقابل عدداً من اللاجئين الذين تركوا ديارهم حذر الموت والهلاك، وهروباً من ظلم الإنجليز، وفظائعهم، ووعدونا بأن يقدموا لنا بيانات خطية عن مناطق القتال، والمناطق التي دُمرت، وعدد اللاجئين، وما هي الأشياء التي يحتاجونها لإنقاذهم من الموت والمرض.

وفي صباح اليوم التالي ذهبنا إلى تعز بطائرة عسكرية، وركبنا فيها وقعدنا على مقاعد من حديد ولم نربط الأحزمة، ولا يوجد فيها أية خدمة. ومع أن الرحلة كانت مريحة والمسافة نحو ساعة ونصف ولكن لم نكن مرتاحين نفسياً وكنا في غاية القلق والانزعاج، وهبطت الطائرة بنا في "مطار الحديّدة" حيث أخذت بعض الجنود، والجو في "الحديّدة" حار جداً بينما كنا في صنعاء في جو لطيف، ومكثنا في الحديدة نحو الساعة ثم واصلنا السفر إلى تعز ووصلنا في حدود الساعة العاشرة صباحاً، واستقبلنا هناك عدد من الشباب، وذهبنا إلى مقر القائد العسكري المصري وهو رجل لطيف جداً وذكي ودمث الأخلاق سريع الملاحظة، وبعد أن جلسنا برهة، تناولنا فيها فنجاناً من القهوة، لاحظ القائد أننا غير مرتاحين وأراد أن يستفهم عن السبب فبادرته أنا وقلت له: "إننا جد جائعين". فقال: "إن الفطور جاهز وأنا أعلم أنكم خرجتم مبكرين ولم تفطروا". فذهبنا وأفطرنا فطوراً ممتازاً كأننا نفطر في أحسن بيت في القاهرة فالطباخ مصري، وجميع المأكولات من مصر حتى الخبز.

مكثنا في تعز ثلاثة أيام وتحدثنا إلى كثير من السكان، ومن أهل الجنوب اللاجئين، وتجولنا حول تعز وذهبنا إلى بلدة اسمها "إبّ" تبعد عن تعز بنحو ستين كيلو متر، وكانت الطريق جميلة جداً مررنا فيها بمزارع القات، والذرة، والبن. والبلاد جميلة وجوها ممتاز ومناظرها خلابة إلا أنها متأخرة جداً، ومعظم الأرض مهملة تحتاج إلى عمل والفقر بادٍ على الناس، والتأخر والجهل، مع أنهم أناس طيبون وأذكياء، وكنا نجد

الترحيب منهم والبشاشة، وتجولنا في بلدة إب ثم ذهبنا إلى مزرعة بن صغيرة وأخذنا فيها بعض الصور وعدنا إلى تعز.

الناس هنا في تعز يختلفون كثيراً عن أهل الشمال فإنهم أكرم نفوساً وأكثر بشاشة وترحيباً من أهل الشمال، ولاحظنا أنهم يرحبون في العهد الجديد، ومسرورون جداً من هذا التغيير الذي حدث، ولكن أهل اليمن جميعاً غير مرتاحين من تصرف المصريين، ولا يحبون أن يبقى المصريون في بلادهم.

والمصريون يبدو على وجوههم ذلك، والى الآن لا يستطيعون التجول خارج صنعاء بعد المغرب، وتراهم يأوون إلى معسكراتهم ليلاً ولا يخرجون منها إلا صباحاً.

ونحن في صنعاء لم يُسمح لنا بالخروج من المضافة بعد المغرب وحذرونا من ذلك، لأنه كثيراً ما جاء بعض الأشخاص وأطلق النار في الشوارع بدون تمييز فقتل كثير من الأهلين العزل...

وعلى كل حال فإن المصريين يجب أن يحلّوا هذه القضية ويخرجوا من اليمن، لأن بقاءهم يكلفهم كثيراً، وأصبح غير مفيد للثورة.

تعز بلد جميلة جداً، وجوها لطيف ومعتدل، وكل يوم مساءً تمطر مطراً خفيفاً، والخضرة فيها تخلب العيون، وإلى الجانب الغربي منها جبل مرتفع جداً ومنظره مثل أجمل المناظر في سويسرا وغيرها، وإذا رزقها الله الأمان والاستقرار واليد العاملة فإنها ستكون من أجمل المصايف وأحلى البلدان في العالم، وإنها الآن في غاية التأخر...

حالة سكان اليمن إجمالاً غير مرضية وما أظن أن هناك أناساً متأخرين مثلهم، فقد كانوا منعزلين عن العالم انعزالاً تاماً، ومحكومين حكماً دكتاتورياً استبدادياً لا مثيل له على وجه الأرض؛ فالجهل والمرض والفقر متفشّية بينهم بشكل مريع، وأعظم من هذه الثلاثة تفشي استعمال "القات"، جميع السكان يتناولونه ذكوراً وإناثاً، وتجدهم بعد الظهر إذا تناولوا طعام الغداء، جلسوا في بيوتهم حلقات يمضغون القات ويدخنون الأراكيل، ويأخذون بأطراف الأحاديث، وقد تمتد هذه الجلسة أحياناً إلى وقت متأخر من الليل، وهذا ديدنهم دائماً ولذلك تجدهم كسالى هُزلاً ناحلين، وفي حالة غير مرضية... فيجب على المسئولين أن يمنعوا هذا القات بكل شدّة.

قل أن تجد أحداً من الشباب أو الكهول إلاّ وفي وسطه خنجر ووراء الخنجر جيب فيه جميع أدواته من مقص أو سواك أو قلم إذا كان يكتب وهكذا... إلخ.

والناحية الخلقية سيئة جداً، والأمراض السارية متفشية بين السكان، والتدين الذي تراه ما هو إلاّ أمر ظاهري، ولكن المخفي أعظم. نسأل الله لهذا الشعب أن يهيء له من المسئولين المخلصين الداعين لإنقاذه مما هو فيه.

وبعد اجتماعات متعددة مع الشباب من أهل الجنوب العربي أخذنا معلومات كافية وزودونا بتقارير عن أحوال الجنوب وما يعاني من ظلم الإنجليز، وشراستهم وطغيانهم، وكتبنا تقريراً مفصلاً عن الرحلة وعن أحوال الجنوب العربي واللاجئين مزوداً بأرقام وتفصيلات واقتراحات لإعانتهم وقدمناه إلى الجامعة العربية، وقامت الجامعة وأرسلته لجميع الحكومات في العالم العربي، وأظن أنه لم يُلتفت إلى ذلك التقرير، ولم تُرسل المعونات الكافية ولا تزال الحالة هناك تتردى من سيء إلى أسوأ.

ودّعنا اليمن وغادرنا تعز إلى صنعاء ومنها إلى القاهرة، وعدنا والحمد لله سالمين، ولكنها كانت بالنسبة إليّ رحلة ممتعة حيث رأيت جانباً مهماً من تلك البلاد وتعرفت على قسم مهم من بلادنا، وإن حزنت مما رأيت وسمعت في تلك الديار وما يعانيه ذلك الشعب. أسأل الله تعالى أن يبعث فيه من ينقذه من حاله تلك ويرفع من مستواه، فإن اليمن بلاد غنية بطبيعتها وإنما تحتاج إلى مال ورجال عاملين.

عدت إلى القاهرة بعد العشرين من شهر تشرين الأول سنة ١٩٦٤م، وبعد أن مكثت فيها نحو أسبوع أدخلت ابني أنساً في كلية الهندسة في الجامعة الأزهرية، واطمأننت عليه، وعدت إلى الأردن، وبقيت أمارس أعمالي في دار المحاماة وهو مكتب أسسناه بعد تركنا الوزارة أنا والسيد عبد الوهاب المجالي، والسيد نزار الرافعي، وقد توفقنا والحمد لله فيه وسُررت جداً بالعمل الحر، وكذلك اشتركت مع السيد عبد اللطيف المجالي، والسيد عبدالله أبو مغلي في تأسيس مدارس خاصة باسم المدارس العربية، وسارت أعمالنا على خير ما يرام، وكان دخل المكتب مع التقاعد يغطي نفقاتنا، وعشنا ولم نحتج أحداً، ومضى علينا سنتان والعمل بتقدم ونجاح مستمر، وقلنا لقد استقر بنا المكان وسنمضي بقية حياتنا في هذا العمل، ولكن في أوائل سنة ١٩٦٥م دُعي السيد

وصفي التل ليشكل الوزارة فشكلها وأخذ معه الأخ السيد عبد الوهاب، وبقيت أنا والسيد نزار الرافعي في المكتب وذلك بالاتفاق مع عبد الوهاب. وسررنا جداً بعودة وصفي للحكم فإنه رجل معتدل، تستقر الأمور بوجوده، وتتقدم البلاد وتكثر فيها المشاريع.

وقد حاول وصفي أن يأخذ نزار لأحد المراكز المهمة في الدولة فامتنع نزار وأقنع وصفي وعبد الوهاب بأنه لا يفضل أي عمل على عمله في المكتب، وكذلك أنا فقد عُرض عليّ أكثر من منصب فأبيت وفضلت أن أبقى في عملي الحرّ لأني جد مرتاح فيه.

جامعة الدول العربية

الأمانة العامة　　　　　　　　　　　　٢٥ أكتوبر سنة ١٩٦٤

إدارة الشئون الاجتماعية والعمل

تقرير
البعثة الاستطلاعية التي أرسلتها جامعة الدول العربية إلى اليمن لتفقد منكوبي الاعتداء البريطاني على الجنوب المحتل

١ - في صباح يوم الأحد الموافق ١٨/١٠/١٩٦٤ استقلت الطائرة البعثة الاستطلاعية التي أرسلتها جامعة الدول العربية من بعض مندوبي جمعيات الهلال الأحمر العربي متوجهة إلى اليمن لبحث حالة أبناء الجنوب المحتل. وتكونت هذه البعثة من مندوب عن كل من الجزائر والأردن والجمهورية العربية المتحدة ومندوب من الجامعة العربية. ووصلت البعثة إلى صنعاء في الساعة الثامنة صباحاً وكان في استقبالها ممثلون عن الجبهة القومية لتحرير أبناء الجنوب المحتل ومعهم بعض الأعضاء من جيش التحرير لهذه المنطقة. وبعد قليل من الراحة تداولت الآراء في أحوال الجنوب المحتل مع بعض ممثليه، وكان الرأي المفضل أن تذهب البعثة إلى تعز لتحصل من هناك ومن الحدود المجاورة على المعلومات الدقيقة التي تبين حقيقة الموقف وما يجري في تلك المناطق من تشريد وقتل وتدمير.

وفي صباح يوم الإثنين التاسع عشر من الشهر الجاري وصلت البعثة إلى تعز في تمام الساعة السابعة ومكثت فيها ثلاثة أيام تجولت خلالها في بعض المناطق وقابلت عدداً من المنكوبين من ردفان والضالع والحواشب ويافع وغيرها من المناطق. وكذلك قابلت البعثة بعض المحاربين الذين لا يزالون يناضلون عن بلدهم وفي سبيل حريتهم واجتمعت إلى كثيرين من الهيئات يمثلون معظم تلك المناطق وبذلك حصلت على كل المعلومات الاستقصائية الشاملة عما يجري في ذلك الجزء من الوطن العربي.

وفي يوم الخميس ٢٢/١٠/١٩٦٤ غادرت البعثة تعز إلى القاهرة حيث وصلتها بعد الظهر من اليوم نفسه. وإن البعثة إذ تسطر هذا التقرير لتقدم الشكر الجزيل إلى

القيادة العسكرية في اليمن على ما قامت به من تقديم العون والتسهيلات ووسائل الراحة والتنقل لأعضاء البعثة في صنعاء وتعز وجميع المناطق التي زارتها مما ساعد على إنجاح مهمتها والحصول على المعلومات الهامة والصور المعبرة في ذلك الوقت القصير.

٢ - تتكون مناطق الجنوب المحتل مما يزيد على ٢١ سلطنة وإمارة ومشيخة (...) كالآتي:- مستعمرة عدن. سلطنة لحج. مشيخة العقربي. سلطنة الحواشب. مشيخة العلوي. مشيخة حلمين. مشيخة ردفان. إمارة الضالع. مشيخة الشعيبي. سلطنة يافع العليا. سلطنة يافع السفلى. سلطنة الفضلى. سلطنة العوذلي. ولاية (...) سلطنة العوالق العليا. سلطنة العوالق السفلى. إمارة بيحان. سلطنة القميطي. سلطنة الكثيري. سلطنة المهرة. سلطنة الواحدي. إمارة الشقي.

وأغلب السلطنات والإمارات السابقة دخلت اتحاد الجنوب العربي الذي كونته بريطانيا وأنشأته في فبراير سنة ١٩٥٩ وتبلغ مساحة المنطقة ١٢٠٠٠ ألف ميل مربع ويسكنها حوالي ١,٥ مليون نسمة جميعهم عرب عدا مدينة عدن التي توجد فيها جالية من آسيا وإفريقيا.

٣ - **جبهات القتال في المنطقة**

أ) بدأت ردفان ثورتها ضد المستعمرين البريطانيين في ديسمبر سنة ١٩٦٣ وقد اتسع نطاق العمليات إلى أن شمل ردفان جميعها مما اضطر البريطانيين إلى فرض حصار على المنطقة لمنع وصول الأغذية والمعونات إلى الثوار مما ألجأ قبائل ردفان إلى الهجرة إلى مناطق يافع العليا والسفلى وتوجد أغلبية المهاجرين في يافع السفلى، وأهم قبائل ردفان هي:

القطيبي. الظنيري. البكري. داعري الحارثي. الغماري. داعري. بنا. داعري الحجف. الحجيلي. أهل الشيخ.

ب) داثينة والعواذل والفضلى: بدأت الثورة بهم منذ حوالي شهر وقد فشل الإنجليز في فرض حصار عليها. وأهم قبائلها هي:

بني علي. النخاعية. أهل عرول. أهل حنش. أهل ديان. أهل قحطان. أهل زامل.

جـ) الضالع: بدأت ثورتها منذ حوالي شهر. وأهم قبائلها هي:

الأزارق. الشعار. الأحمدي. المحرابي. آل عداس. الأشراف. زبيد.

د) وقد امتدت الثورة إلى أماكن أخرى شملت مناطق عديدة هي:

حالمين. الشغيب. الصبيحة. لحج. عدن. بيحان. الحواشب.

٤ - إن هذه المناطق التي ورد ذكرها والتي تشتمل على السلطنات والإمارات والمشيخات وما فيها من سكان لا يوجد فيها طرق معبدة مطلقاً سوى طريق طوله ١٦ كيلو متر بين عدن ومدينة لحج. ولا يوجد في كل هذه البلاد مدارس ثانوية ولا مستشفيات سوى مستشفيين أحدهما في لحج والآخر في الفضلى ويتسع كل واحد منهما لثلاثين سريراً فقط أي ان كل ٢٠٠،٠٠٠ ألف نسمة يخصهم سرير واحد تقريباً. والشعب هناك يعيش بشكل بدائي تام ما عدا مدينة عدن علماً بأنه قد احتله الإنجليز منذ ١٢٦ عاماً وقد أبقى الإنجليز هذه المناطق على حالتها المتأخرة وجعلها بلاداً معزولة عن العالم لا يسمح بدخولها بسهولة.

ولقد هالت أعضاء البعثة ما سمعته وتبينته من الأعمال والأساليب التي ترتكب في ذلك الجزء من العالم العربي، فقد شرد شعب بأكمله من منطقة ردفان وسكن في شعاب الجبال والكهوف والأودية وتحت الأشجار بوادي يهر بيافع السفلى ويبلغ تعداده حوالي ٣٠،٠٠٠ ألف. وقد اضطر هذا الشعب إلى ترك موطنه ودياره من الأعمال التعسفية والغارات الجوية المتلاحقة التي زادت على ١٠٠٠ غارة دمرت جزءاً كبيراً من القرى والمنازل وقتلت الكثير من النساء والأطفال والشبان والعجزة والمواشي وأتلفت المزروعات وحوصر الأهالي حتى لا تصل إليهم المؤن والأغذية مما أدى إلى موت كثير من الأطفال نتيجة سوء التغذية وعدم وجود الملابس والأغطية الضرورية.

ويقوم البريطانيون الآن بتطويق المدن والقرى في عملية يسمونها "فيجا فيف"، وتتلخص بتطويق القرية وقتل شبانها وإرغام النساء والأطفال والشيوخ لمغادرتها وقتل المواشي وإتلاف المحاصيل والمؤن الموجودة في تلك القرى. ومن أمثلة تلك القرى قرية المسقة والجورمول وجبل القضاة بحالمين والمحرابي بالضالع.

٥ - وقد تمكن أعضاء البعثة من الحصول على الصور المعبرة عن الأعمال غير الإنسانية التي تثبت صحة ما ورد في هذا التقرير وتبين أهمية مبادرة الدول العربية

جميعها لمد يد العون فوراً وبدون تأخير لمساعدة وإنقاذ اؤلئك المنكوبين من الأطفال والنساء والشيوخ الذين أصبحوا في العراء وتحت الأشجار بدون مأوى ولا غذاء. والمبادرة أيضاً بالشكوى إلى هيئة الصليب الأحمر الدولية لتتدخل فوراً وترسل مندوبين حياديين ليطلعوا بأنفسهم على ما يجري في تلك المناطق من الأعمال الوحشية في هذا القرن والتي تعتبر امتهاناً لحقوق الإنسان. كما ترى اللجنة أهمية إشراك العالم بأجمعه ولفت نظره إلى هذه القضية الإنسانية الهامة.

٦ – وقد قدمت إلى البعثة من هيئة تحرير الجنوب كشوف مفصلة لحوالي ٤٢٥٦١ من المنكوبين والمرجح أن عددهم يبلغ نحو ٦٠،٠٠٠ ألفاً وينتظر أن يزيد هذا العدد لأن أعمال العنف لا تزال جارية.

وعلى ضوء هذه المعلومات وبعد البحث مع مختلف الجهات هناك وجد أن أفضل ما يمكن عمله هو إقامة مخيمات لتؤوي هؤلاء المنكوبين حتى يمكن العناية بهم والإشراف عليهم من جميع النواحي. وبعد أخذ رأي ممثلين من هيئة التحرير والمسئولين في الجمهورية اليمنية وعدد من المنكوبين ومراعاة وصول التموين إليهم تبين أن هناك أربعة أماكن في الجنوب وعلى القرب من الحدود وهي: قعطبة وجند وماوية والبيضا. وأن أنسب مكان من هذه المواقع هو بلدة قعطبة لأنها متوسطة بين هذه الأماكن وتبعد عن تعز بنحو ٨٠ كيلو متراً تصلها السيارة في مدة ٦ ساعات. وأجمعت آراء ممثلي تحرير الجنوب المحتل وغيرهم من أبناء الجنوب على أن حق الأولوية في أية مساعدات فورية هم المنكوبون من ردفان لأنهم يشردون عن موطنهم والقتال لا يزال منذ عام دائراً بينهم وبين الإنجليز وهذه البلدة أقرب من البلدان الأخرى لردفان واتضح أنه يوجد نحو ٧٠٠ طالب من أهل ردفان بها وهم في حاجة إلى إغاثة سريعة ومدرسين. وهناك مكان آخر بالإضافة إلى قعطبة هو بلدة الجند وهي قريبة من تعز حيث تبعد عنها بنحو نصف ساعة بالسيارة في طريق ممهد وهذا المكان أنسب للمناطق الأخرى مثل الحواشب والصبيحة وكلاهما بدأ فيهما القتال منذ شهر وينتظر زيادة عدد المنكوبين والمشردين. وقد صرف النظر عن عمل مخيم في مدينة البيضا لبعدها عن تعز ولأن الرحلة إليها من تعز تستغرق بالسيارة نحو ١٨ ساعة في طريق غير ممهد مما يجعل وصول التموين إليها غير متيسر ويزيد التكاليف في النقل.

وقد علمت البعثة من مذكرة هيئة تحرير الجنوب المحتل المرفقة بهذا التقرير أن هناك حوالي سبعين معتقلاً في سجن عدن وما لا يقل عن خمسين معتقلاً في كل إمارة. كما أنه يوجد ١٩٥ من آباء الشباب المناضلين كرهائن عند المستعمرين وأن المعتقلين يعاملون معاملة سيئة حتى أن بعضهم أشرف على الموت. وطلبت الهيئة في مذكرتها مناشدة الصليب الأحمر في محاولة الاتصال بالمسئولين لعمل زيارة لهؤلاء المعتقلين ولزيارة المناطق التي شرد أهلها منها والاطلاع على ما يجري فيها وانقاذهم مما يحل بهم من ضيم وتعسف وهلاك.

٧ - وإن البعثة في ختام هذا التقرير تقترح ما يأتي:

أ) إنشاء مخيمات للاجئين في قعطبة وجند.

ب) إرسال الأغذية والملابس والأغطية بأسرع وقت ممكن لأن عدداً كبيراً من المنكوبين يموت يومياً من الجوع ولأن فصل الشتاء قد أوشك الآن فإمدادهم السريع واجب إنساني يجب أن يشترك فيه العالم بأسره.

جـ) إبلاغ الصليب الأحمر الدولي ليرسل مندوبين للاطلاع على تلك المناطق وللمساهمة في إنقاذ المشردين والمنكوبين ولاتخاذ ما يلزم للمحافظة على المدنيين ومعاملة المعتقلين معاملة إنسانية والإفراج عن الذين لم تثبت ضدهم أي تهم.

والبعثة في الختام تهيب بالمسئولين جميعاً أن يبادروا فوراً بأسرع وقت لإجراء ما يلزم لوضع حد لهذه المهازل والأعمال الوحشية التي تتعارض مع وثيقة حقوق الإنسان ومع التعايش السلمي وحتى لا تتكرر مأساة فلسطين.

مندوب الهلال الأحمر الأردني	مندوب الهلال الأحمر الجزائري	مندوب الهلال الأحمر ج.ع.م	مندوب الجامعة العربية
إبراهيم القطان	محمد التريكي	محمد جلال موسى	يحيى مرزوق

إندونيسيا

آذار/ مارس ١٩٦٥م

رجعت إلى عملي ومضيت أُزاول العمل صباحاً في مكتب المحاماة أنا والسيد نزار الرافعي، وانضم إلينا اثنان من الشباب يعملان في المكتب، ومضى العمل سائراً على ما يرام إلى أوائل شهر آذار.

[إلى بيروت]

وفي ذات يوم بينما أنا جالس في مكتبي وإذا بمكالمة تلفونية من الأخ عبد الوهاب المجالي وبعد التحية قال لي: "هل تحب أن تسافر في رحلة بعيدة؟" فقلت له: "أنا سيد من سافر". فقال: "السفر غداً صباحاً". فقلت له: "إني على أتم الاستعداد.. إلى أين؟" فقال: "إلى إندونيسيا". "إندونيسيا" !.. صحت بملء فمي، فقال: "نعم". فقلت: "نعم أنا مستعد". فقال: "اذهب إلى مكتب طيران "بان أميركان" وخذ تذكرة الطائرة وحضّر نفسك لأن تغادر عمان إلى بيروت غداً صباحاً". وكان ذلك، فذهبت حالاً إلى مكتب الطيران وأخذت التذكرة وسألت عن سير الطائرة وما هي البلاد التي ستمر عليها، وأخذت المعلومات الكافية عنها، وذهبت إلى بيتي وأعددت أغراضي، وما جاء المساء إلاّ وكل شيء جاهز، وعلمت بعد المغرب أن زميلي في السفر السيد إبراهيم زيد الكيلاني، وأن السفر لحضور المؤتمر الإسلامي الآسيوي الإفريقي. وفي الصباح غادرنا عمّان إلى بيروت، ووصلنا إلى بيروت في حدود الساعة العاشرة صباحاً، وكان في استقبالنا بعض موظفي السفارة الأردنية، وقنصل إندونيسيا، وعدد من موظفي السفارة الإندونيسية.

وبعد أن جلسنا في استراحة المطار برهة قصيرة، ذهبنا إلى بيروت ونزلنا في "فندق فينيسيا" لأن الطائرة إلى "بانكوك" تقوم ليلاً بعد الساعة العاشرة. وأعلمنا قنصل إندونيسيا انه أعدّ لنا غداء في بيته نحن ووفد لبنان، وفي تمام الساعة الواحدة ذهبنا إلى بيته واجتمعنا بوفد لبنان وكان مؤلفاً من الشيخ أحمد العجوز والسيد محمود (...)(١) رئيس محكمة صيدا. وبعد أن تناولنا الغداء وتحدثنا فترة طويلة عدنا إلى

(١) غير واضح في الأصل المخطوط.

الفندق وأخذنا استراحة قصيرة، ثم ذهبنا إلى السوق تجولنا قليلاً واشترينا بعض الأغراض، ثم عدنا إلى الفندق ننتظر وقت ذهابنا إلى المطار.

[إلى بانكوك]

أقلعت الطائرة بنا ليلاً بعد التاسعة من بيروت إلى كراتشي في مدة أربع ساعات، وتوقفنا في مطار كراتشي نحو نصف ساعة، وكان الجو حاراً والمطار متواضعاً جداً، ثم واصلت الطائرة سيرها إلى بانكوك ووصلنا صباحاً في حدود التاسعة، وكان علينا أن نمضي اليوم بكامله في "بانكوك" وإنها لفرصة عظيمة، فبعد أن استرحنا في الفندق، استأجرنا سيارة بالاشتراك مع الأخوين اللبنانيين وذهبنا نطوف بالبلد نتفرج على معالمها وذهبنا إلى القصر الملكي وهو آية في الفن والزخرفة، والبناء الغريب البديع، وأمضينا فيه ساعات، ثم إلى المعبد الكبير وفيه تمثال ضخم لبوذا نائماً على جنبه.

وأخذنا بعض الصور، وطلبت إلى كاهنين بوذيين صغيري السن أن أتصور معهما فوقفا وأخذت صورة معهما. وبعد أن طفنا في المعبد تركناه إلى معبد آخر صغير ولكنه كله من المرمر الصافي، وهو بديع جداً بزخرفته وفن بنائه. وبعد أن تجولنا طويلاً في البلدة، وهي جميلة جداً ولكن جوها حار، عدنا إلى الفندق وانتظرنا وقت ذهابنا إلى المطار.

بانكوك عاصمة "تايلند" التي كان اسمها "سيام" قديماً. عدد نفوس هذه المملكة أكثر من ثلاثين مليوناً، غالبيتهم بوذيون، ويوجد نحو ثلاثة ملايين مسلم، أغلبهم غير متعلم وحالتهم غير حسنة، يحتاجون إلى مساعدة لتعليم أبنائهم وتعليمهم مبادىء دينهم، (وقد) تعرفنا على بعض المسلمين من خريجي الأزهر.

"تايلند" بلاد مستقلة، ولكنها تحت النفوذ الأمريكي فإنك تجد الأمريكان في كل مكان، وهي بلاد على حدود "فيتنام"، والأمريكان يشغل بالهم حرب فيتنام والشيوعية في هذه الأيام، ولذلك أينما ذهبت تجد الجنود الأمريكان والخبراء والضباط... إلخ.

البلاد جميلة وخصبة تنتج الرز بكثرة والسكر، وجوها حار ماطر لم أطق فيها لبس العمامة من شدة الحر، فاضطررت إلى خلعها وغيرت ملابسي وبقيت كذلك طوال هذه الرحلة، لأن إندونيسيا جوها نفس هذا الجو الحار الرطب.

[إلى جاكارتا]

وفي حدود الساعة الثامنة مساءً أقلعت بنا الطائرة من "بانكوك" إلى "جاكارتا" عاصمة إندونيسيا، ووصلنا بعد سفر دام نحو ثلاث ساعات. وصلنا إندونيسيا ليلاً، وفي جاكارتا نزلنا في فندق "إندونيسيا" وهو على طراز بناء فنادق "هيلتون": فندق فخم جداً، ومنظم ونظيف والخدمة فيه من الدرجة الأولى.

وأمضينا تلك الليلة فيه. وفي الصباح تحركنا إلى باندونج كل وفد في سيارة أو أكثر، وكل سيارة مكتوب عليها بخط كبير اسم الوفد الذي فيها. وكانت قافلة من السيارات كبيرة جداً. وقطعنا الطريق بين جاكارتا وباندونج في نحو أربع ساعات، والمسافة نحو مائتي كيلو متر والطريق جبلية جميلة جداً على طول هذه المسافة مزارع وغابات وحدائق كأنها جنات لا يرى الإنسان فيها إلاّ الخضرة، وجمال الطبيعة الساحر من مزارع الشاي إلى مزارع الرز وغابات جوز الهند، وغيره من الأشجار التي نعرفها والتي لا نعرفها بلاد حباها الله بالجمال، وألبسها حلة خضراء دائمة. وكان الناس يحيوننا على طول الطريق بتحيات حارة، وكثيراً ما سمعنا التحيات باللغة العربية، ورأينا اللوحات كُتب عليها الترحيب والسلام باللغتين العربية والإندونيسية.

سكان إندونيسيا أكثر من مائة مليون، أغلبهم مسلمون أي بنسبة خمسة وتسعين بالمائة مسلمون، ومذهبهم واحد حيث كلهم يتبعون مذهب الإمام الشافعي وكلهم سنيون، وهذا قلَّ أن يوجد في العالم مجتمع بكامله على مذهب واحد. ينقصهم التعليم الديني وتعليم اللغة العربية. يتعلمون القرآن قراءة بدون فهم معناه، وتجد الطلاب في المدارس الابتدائية قد كتبوا على ألواحهم القرآن الكريم ويقرأونه قراءة متقنة دون أن يفهموا المعنى.

وهناك جمعيات لتحفيظ القرآن وتعليم اللغة العربية، ولكنها قليلة بالنسبة لعدد السكان.

حضرت احتفالاً كبيراً في باندونج لتخريج عدد من حفظة القرآن وتجويده على الطريقة المصرية، وقرأ عدد من المتخرجين قراءة متقنة بأصوات شجية وألحان مطربة، وكان كثير منهم يقلدون مشاهير القراء في مصر مثل عبد الباسط عبد الصمد وغيره.

باندونج

وصلنا باندونج ظهراً وكان في استقبالنا جماهير الناس يتقدمهم موظفو الدولة وطلاب وطالبات الجامعات، وعند مدخل الفندق اصطفت الطالبات على الجانبين يحيين الضيوف وطالبتان تمشيان أمام الوفود تنثران الزهور على الأرض، وحقاً إنه كان استقبالاً رائعاً ومنظراً جميلاً.

وباندونج مدينة جميلة جداً فوق ما يتصوره الإنسان، ولا يمكن مهما أوتيت من بلاغة أن أُعبر عن جمال تلك المدينة الساحرة الخلابة في مناظرها الطبيعية وتنسيق أبنيتها وشوارعها وحدائقها ؛ فهي مدينة جبلية تحيط بها الجبال والغابات من كل جهة، وحيث ما أدرت بصرك تجد الخضرة والجمال الأخاذ الجمال الطبيعي الساحر، والحدائق المنسقة، والأزهار من كل لون ونوع. ومعنى باندونج في لغتهم "مدينة الزهور" وحقاً إنها مدينة الزهور.

وقد بنى الهولنديون أحياء فيها تحتوي على أجمل البيوت: البيوت المنفصلة عن بعض، وكل بيت له حديقة واسعة غناء، وبينها شوارع وطرق واسعة على جانبيها اصطفت الأشجار الباسقة. وكلما أدرت نظري في تلك المناظر أذكر قول ابن الرومي:(٢)

حيَّتكَ منا شَمالٌ طاف طائفها	بجنة، نفحت رَوْحاً و ريحانا
هبت سُحيراً، فناجى الغُصنُ صاحَبهُ	مُوسوساً، وتنادى الطير إعلانا
وُرْقٌ تغني على خضرٍ مُهدلةٍ	تسمُو بها و تمس الأرض أحيانا
تخال طائرها نشوانَ من طرب .	و الغُصنَ من هَزِّهِ عطفيه نشوانا

يقول الإندونيسيون: "إن مدينة باندونج "باريس الشرق"، ويسميها الناس بلغتهم الشعرية "زهرة العسل"، وهي جديرة حقاً بكل اسم ينطوي على معنى الجمال، والذوق، والروعة..

---

(٢) ديوان ابن الرومي (ستة أجزاء)، شرح وتحقيق: عبد الأمير علي مهنّا، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٩١ (٦/ ٢٠٩).

باندونج اسم لمدينة ولإقليم، والمدينة عاصمة الإقليم بل هي عاصمة جاوى الغربية باعتبار أن جاكرتا نفسها عاصمة الجمهورية كلها لا عاصمة إقليم معين أو جهة محدودة.

مساحة إقليم باندونج (١١٧٥) ميلاً مربعاً، وسكانه نحو مليون ونصف، وعاصمته "باندونج" تقع فوق هضبة على ارتفاع نحو ألفي قدم، أعدها الهولنديون لتكون مصيفاً ومكان راحة واستجمام لعائلاتهم، فشوارعها واسعة نظيفة، وبيوتها مشيدة على طراز هندسي هولندي، والغابات تكتنفها من جميع نواحيها، والحدائق تتخللها والمياه تجري فيها بغزارة.

نساء إندونيسيا ناعمات لطيفات، لكن نساء باندونج على الخصوص يمتزن بأناقتهن ورشاقتهن الفائقتين ... وإذا وجدت بعض الجمال فيكون مزيجاً مع أجنبي غالباً، ولكنهن عوضن عن ذلك بنعومتهن وأناقتهن ورقة حديثهن.

الحياة الاجتماعية في باندونج لا مثيل لها في أية مدينة إندونيسية أخرى، تزينها نساء المدينة الفاتنات، بأزيائهن الزاهية، وابتساماتهن الحلوة، وذلك الحديث الذي برعت فيه المرأة في باندونج في إثارته وتوجيهه، كلما وُجدت في حلقة تضم نساء أخريات، أو تجمع الجنسين معاً.

والمرأة في باندونج تتحكم في الأزياء في إندونيسيا كلها، ومن مدنيتها تخرج الابتكارات الجديدة، وتشع الآراء والأفكار الجديدة، لا في الشئون المتعلقة في المرأة فقط، بل في كل شأن يهم البلاد ويمس نهضتها.

وأهل باندونج رجالاً ونساءً، يباهون بمدينتهم، ولا يملون التحدث عنها، وحق لهم ذلك فهي جديرة بكل مدح وكل حديث عذب لطيف.

وتروى أساطير كثيرة عن مدينة باندونج وما حولها، والمدينة نفسها يصفها الإندونيسيون بأنها مدينة الذكريات أيضاً، ويروون بهذا الصدد أسطورة تقول: إن أميراً أحب أميرة في تلك البقاع وأراد أن يفوز بها في حرب لكي تكون مكافأة له على انتصاره، فأغار بجيشه على إمارتها، وقاومت الحسناء بشجاعة وسقطت في الميدان صريعة وانتصر الشاب... ولكن انتصاره على جيش الإمارة أفقده الأميرة التي من

أجلها سار إلى الحرب. وبعد تلك المأساة التي نغصت عليه حياته، استسلم الأمير إلى الأحزان، وقضى عمره وسط الذكريات... الذكريات التي من أجلها سُمي ذلك المكان، أو البلدة التي قامت فيه "مدينة الذكريات".

وقد سمعنا أساطير كثيرة لا أستطيع سردها في هذا المكان، فإن إندونيسيا من أغنى بلاد العالم بأساطيرها القديمة والحديثة، المستمدة من معتقدات سكانها الأولين، ومن مناظر الطبيعة، ومظاهر القوى الكامنة فيها.

وإقليم باندونج على الخصوص يشغل بقعة من الجبال تغطيها الغابات، وتنتشر فيها البساتين والمزارع، وتكثر فيها البراكين والأنهار والبحيرات، ولكل بركان ولكل نهر ولكل بحيرة بل لكل غابة ولكل منحنى في تلك الجبال الخضرة أسطورة، أو قصة، يرجع عهدها إما للعصور التي كانت فيها الوثنية تعم البلاد، وإما إلى القرون الأخيرة في خلال الحكم الاستعماري.. وبعضها من نسيج الخيال، في عصرنا الحاضر.

وخيال الإندونيسيين، إذا ما أُطلق من عقاله، لا يعرف صعوبة ولا يقف عند حد في انطلاقه.

سمعنا كثيراً من هذه الأساطير حدثنا بها بعض الأهلين من الجنسين، ورأينا الكثير منها في الحفلات تمثيلاً، ورقصاً جميلاً معبراً، وقد عرضوا ذلك علينا في حفلات عديدة سأتحدث عن بعضها، وعن أروع ما عندهم من نشاط ولطف وفن وأناقة وظرف.

والطرقات بين باندونج والجهات الأخرى تخترق غابات من أجمل غابات الدنيا، تتزاحم فيها أشجار المطاط، والنارجيل، والشاي، والسنديان، ونبات الغاب أو الخيزران، وأنواع لا عد لها من الأزهار والرياحين، ترتع بينها الحيوانات البرية، وتموج أغصانها بأسراب الطيور المختلفة الأشكال والألوان، وتمتد هذه الطرقات عادة في جزء من مسافتها، بجوار الأنهار المنحدرة من الجبال والأودية السحيقة، نحو شاطىء البحر.

في باندونج كلية للهندسة تابعة لجامعة إندونيسيا، ومن هذه الكلية تخرج الدكتور أحمد سوكارنو المهندس رئيس الجمهورية الإندونيسية، والذي سأتحدث عنه في فصل خاص.

وفيها معهد "باستور" وهو يمد إندونيسيا كلها بما تحتاج إليه من مصل ولقاح. ومدارس باندونج وكلياتها من أرقى مدارس الجمهورية. وتلميذات هذه المدارس على جانب وافر من الرشاقة والأناقة. أتحدث ذلك لأن كل وفد كان معه عدد من التلميذات للاستعلام وإعطاء المعلومات والمرافقة، وجميع الحفلات التي أُقيمت لنا كانت تحييها التلميذات من غناء ورقص وتمثيل مع طلاب الجامعة.

ويخترق باندونج نهر صغير تندفع مياهه من الجبال المحيطة بها. وقد يكون سكان باندونج أكثر سكان إندونيسيا ميلاً إلى المزاح، وأبعدهم عن الكآبة والبحث عن المتاعب، ففي باندونج الضاحكة نساء ضاحكات، والشوارع والمقاهي والحدائق، والأماكن العامة على مختلف أشكالها، كلها غاصة دائماً بأفواج من النساء والفتيات اللاتي يأخذن من الحياة أجمل ما يمكن أن يأخذ الإنسان منها، ويقابلن ما يجري حولهن، وما يقع عليه نظرهن، بابتسامة حلوة.

وباندونج، المدينة المرحة، ركن من الجنة في بقعة تعد من أجمل بقاع الجزر الخضر.

وسأعود إلى الحديث عن إندونيسيا وجزرها ومدنها وشعبها، بعد أن أتكلم عن رحلتنا والأيام التي قضيناها، والمهمة التي جئنا من أجلها.

المؤتمر الإسلامي

دعا سوكارنو إلى مؤتمر إسلامي إفريقي آسيوي يُعقد في إندونيسيا، ويظهر أنه حصره في إفريقيا وآسيا لأن معظم الأقطار الإسلامية في هاتين القارتين. ولست بباحث عن سبب انعقاد هذا المؤتمر، وإنما أظن أن سوكارنو بعد انفصاله عن هيئة الأمم، وتعاونه مع العالم الشرقي، أصبح الغربيون ويشايعهم كثير من الهيئات الإسلامية في بلاده وغيرها يتهمونه بأنه شيوعي أو أنه يترامى في أحضان الشيوعية، فأراد من هذا المؤتمر أن يبرهن للناس بأنه مسلم يعتز بالإسلام، وقد لمّح لهذا كثيراً في خطبته في افتتاح المؤتمر، وفي خطبه في كثير من الاحتفالات التي أُقيمت لأعضاء المؤتمر.

وعلى ذكر المؤتمر الإسلامي، فإن المؤتمرات كثُرت في هذا الموضوع وتعددت، وعُقِدت في القدس والقاهرة والصومال، وكراتشي، وفي مكة. وقد حضرت هذا المؤتمر الذي

عُقد في باندونج، ومؤتمر مكة، ولا أقول إن لا فائدة من هذه المؤتمرات، بل هناك فوائد جمة من عقدها ويكفي أن يتعرف الإنسان على عدد كبير من المسلمين البارزين، ولو أنها وُحدت – كما اتُخذ قرار قيم في مؤتمر باندونج - بالعمل على توحيد الجهود والاتصال في جميع الهيئات والدول القائمة على هذه المؤتمرات لتعمل معاً في صف واحد وبرنامج موحد؛ فلو نُفذ هذا القرار لكان للمؤتمرات الإسلامية نتيجة باهرة، ومفعول عظيم، وتأثير فعّال، ولآتت أكلها وأدت المطلوب منها على أحسن وجه.

ولكن الآن جميع القرارات التي أُخِذت في هذه المؤتمرات ظلَّت حبراً على ورق، ولم يُنفذ منها شيء، وما هي إلا اجتماعات تُعقد، وقرارات تؤخذ، وتتكرر دون تنفيذ. ولعل الله يجمع هذه القلوب، ويوحِّد بينها، ويتنبه كثير من المسئولين للم شعث هذه المؤتمرات، وتوحيد برامجها ودمجها في مؤتمر واحد فعّال، وليس ذلك على الله بعزيز.

وصلنا باندونج ونزلنا في فندق عظيم نظيف، وفي صبيحة اليوم الثاني ذهبنا إلى قاعة المؤتمر، وإذا بها قاعة كبيرة ضخمة، وهي التي أُعدت لمؤتمر باندونج الذي عُقد في أواخر شهر نيسان من سنة ١٩٥٥، وهي قاعة ضخمة مرتبة مجهزة بكل الوسائل الحديثة من سماعات ومقاعد، وأمكنة للمترجمين، وكانت اللغات المستعملة أربع: العربية، والإندونيسية، والإنجليزية، والفرنسية؛ وتسمع اللغة التي تفهمها من هذه اللغات الأربع حالاً بدون تأخير.

جلست الوفود، وجاء الرئيس أحمد سوكارنو وافتتح المؤتمر بخطاب ارتجالي طويل ممتع بدأه بالقرآن الكريم، وبدأ يتكلم باللغة الإنجليزية، واستمر نحو ساعة كاملة، شرح فيها سياسة إندونيسيا ورحب بالضيوف ترحيباً حاراً، وحث المؤتمرين أن يكونوا مخلصين لدينهم، وهو خطيب مرتجلٍ مفوَّه. وبعد ذلك انفض المؤتمر على أن يتابع بعد الظهر جلساته لإلقاء كلمات الوفود، وأُعطينا برنامج الزيارات والدعوات لكل المدة التي سنقيمها في باندونج، وكان أول برنامج حفلة غداء في بيت محافظ باندونج.

ذهبنا إلى الغداء ودخلنا قصراً كبيراً، وكان في استقبالنا المحافظ وعدد كبير من المسئولين، وجاء الرئيس سوكارنو، وتناولنا الغداء على أنغام الموسيقى الإندونيسية، وهذه ظاهرة كانت موجودة في كل حفلة حضرناها، يحضر الموسيقيون الإندونيسيون

ومعظم آلاتهم من الخشب والنحاس، وموسيقاهم شرقية ناعمة جداً، فيها كثير من الأنغام الخلابة، وكذلك غناؤهم، وأحياناً توجد موسيقى غربية حديثة تتخلل الموسيقى الإندونيسية، وفي بعض الحفلات جيء ببعض الفتيات وغنين قسماً من الأغاني العربية لأم كلثوم وغيرها بلغة صحيحة وأداء ظريف وأصوات عذبة لطيفة.

وبعد أن انتهى الغداء وأخذ الضيوف أمكنتهم في قاعة متوسطة جاءت الموسيقى من إندونيسية وغربية، وبدأ المغنون يغنون، ثم قامت فتاة صغيرة لا تتجاوز التاسعة من العمر، وشرعت تغني بصوت رخيم جميل ساحر، فقام سوكارنو وصار يشاركها بالغناء، مع بعض الشباب، ثم أخذ يراقصها فترة من الزمن، ثم صار يغني غناءً مرتجلاً، ويرد عليه شاب ذكي ذو صوت عذب. وأخذ ذلك وقتاً غير قليل.

وبعد ذلك جعل سوكارنو يطلب من الضيوف أن يغنوا بعض أغاني بلادهم، فقام أولاً سفير ألمانيا، ثم تبعه عدد كبير من السفراء والضيوف إلّا العرب فإنه لم يقم واحد منّا، وكلنا ننظر إلى بعض بشيء من الجمود والخجل المصطنعين وتمنيت لو أني أعرف شيئاً من الغناء لقمت، ولكن مع الأسف.. وقام شاب باكستاني اسمه عبد الخالق أستاذ في جامعة سيدني بأستراليا وغنى مقطوعة من أغنية محمد عبد الوهاب: "أخي جاوز الظالمون المدى"؛ فشكرته على ذلك.

وأخيراً رأيت سوكارنو يدعو امرأة جليلة القدر جميلة أن تقوم وتغني فقامت وغنت أغنية إندونيسية، وأغنية غربية، وكان صوتها رخيماً وغناؤها متقناً، وبعد أن انتهت، سألنا عنها فقيل لنا انها زوجة وزير الخارجية.

كل هذه الوفود الموجودة قام عن كل وفد ممثل وتبرع بالغناء بكل رحابة صدر وبدون تزمت إلّا العرب نحن العرب، فقد بدا موقفنا شاذاً غريباً ولا أدري لماذا كل هذا التزمت الذي لا لزوم له، وهذا الوقار المصطنع، ولا أستطيع تعليل هذه الظاهرة... لعل ذلك لأن الموجودين كانوا من طبقة المشايخ، ولا أدري لو أن نوعيتهم اختلفت ماذا يكون موقفهم. وإنما الذي ألاحظه من تصرفاتنا، أننا غير أحرار في تفكيرنا، وحديثنا وتصرفنا مع الغير، ويغلب علينا الجد والتزمت، واصطناع الوقار في أغلب الأحيان.

انتهت الحفلة ورجع كل منا إلى فندقه، وفي اليوم الثاني استأنفنا جلسات المؤتمر،

وألقى رؤساء الوفود كلمات قصيرة عبروا فيها عن سرورهم بحضور هذا المؤتمر ولقائهم لهذا الجمع الغفير من إخوانهم في الدين الذين جاؤوا من أقصى الأرض، وكانت فرصة طيبة في هذا اللقاء المبارك. ثم بعد انتهاء إلقاء الكلمات الذي استمر يومين متواليين، وُزع الأعضاء على لجان متعددة، وشرعوا في مباحثاتهم نحو أسبوع ثم خرجوا بقرارات ممتازة جداً، وحملها الوفود إلى دولهم، وحُفظت القرارات كما حُفظ كثير غيرها من المقررات، والتوصيات.

لو أن عُشر هذه القرارات نُفذ لكان فيه الخير الكبير والنصر الأعظم للمسلمين، ولكان فيه شيء من جمع الشمل، وإصلاح الحال بقدر ما يمكن، ولكن مع الأسف تُعقد هذه المؤتمرات، ولا تفيد إلا في شيء قليل جداً من التعارف الذي يحصل بين بعض الوفود، وبعض الأفراد.

الحفلات

كثرت الحفلات نهاراً وليلاً، فقد دعانا وزير الخارجية الدكتور سوباندرير لحفلة سمر مساءً في الفندق الذي ننزل فيه، وكانت حفلة رائعة أحياها طلاب وطالبات الجامعات، والمدارس الثانوية، تخللها عدد من الفصول التمثيلية، وكثير منها مأخوذ من حياتهم من الغابات، والأرض، والفلاحة، وفيها كثير من الفن المحلي المنتزع من صميم حياتهم العملية.

ثم أنواع كثيرة من الرقص الوطني، منه المنفرد، ومنه الجماعي، ورقصهم مأخوذ من الرقص الوثني المعبِّر عن الحياة، وأحياناً تكون الرقصة قصة، ويشبه كثيراً الرقص البوذي في المعابد الوثنية. والتخت الإندونيسي مكون من آلات موسيقية لا شبيه لها في الآلات الشائعة في البلدان العربية. ومعظمها مصنوع من النحاس أو الخشب المجوّف، تنبعث منها رنات وأصوات قوية صارخة. ولعل الآلة الوحيدة التي لها ما يقرب منها شكلاً بين آلات التخت العربي، هي الدربكة، ولكنها كبيرة الحجم بالنسبة إليها.

والموسيقى مثل الرقص، لا تزال متأثرة بالأنغام المتوارثة من قديم الزمان، فهي في الأصل ألحان دينية من نوع التراتيل والتسابيح، كانت تُعزف في الهياكل والمعابد، وفي حلقات الصلاة في العراء، يوم كانت الوثنية سائدة شائعة في إندونيسيا، وبقيت هذه

الموسيقى كما هي وطبعاً أُدخِل عليها بعض التعديل في خلال الأجيال التي تعاقبت على هذه الجزر الخضراء، في عهد البوذية ثم في عهد الإسلام.

وكما أن هناك الأساطير الراقصة، والأقاصيص الراقصة؛ فإن هناك أيضاً الأساطير والأقاصيص الملحنة، تُروى على السامعين بالغناء على أنغام موسيقاهم، وفي معظم الأحيان يرتدي المغنون مثل الراقصين والراقصات، أزياء خاصة تساعد على توفير الجو الذي تكون القصة أو الأسطورة قد وقعت فيه. وسنعود في حديث خاص عن الرقص والموسيقى والفنون الشعبية.

استمرت حفلة وزير الخارجية إلى وقت متأخر من الليل، وكانت حفلة رائعة فقد طلب الرئيس سوكارنو من زوجة وزير الخارجية أن تغني فقامت وغنت بالإندونيسي وقطعة من الغناء الأوربي.

وقد طلب من الضيوف أن يشاركوا في الحفلة، فكان أبرز من شارك فيها وأبدع فريق من الوفد الصيني. لقد كان الوفد الصيني مؤلفاً من نحو اثني عشر شخصاً معهم بعض الفتيات، ومن هذه الفتيات فتاة جميلة جداً فنانة، ويظهر أنهم أتوا بها خصيصاً لمثل هذه المواقف؛ فقامت هذه الفتاة وهي مسلمة من طشقند، وقام فتى رشيق القوام وأدَّيا رقصة وطنية كانت أجمل ما حدث في تلك الحفلة، رقصة جميلة وغريبة، وبإيقاعات بارعة وفن متقن يلفت النظر ويأخذ بالألباب. ثم غنت الفتاة بصوت عذب رخيم أغنية وطنية، ثم غنت باللغة العربية بلكنة أجنبية لطيفة ينطبق عليها قول الشاعر:(٣)

منطق صائب وتلحن أحيانا وخير الحديث ما كان لحنا

وقد أُخِذ الحاضرون جميعاً بهذه الفتاة والفتى وما قدماه من فن جميل يدل على براعة وإتقان، وذوق، حتى كان مثار الحديث مدة وجودنا في باندونج.

انتهت الحفلة بعد منتصف الليل، ومن ثم أعقبتها حفلات (أخرى) وكانت كلها على هذا المنوال: رقص وغناء وتمثيل وأشياء مسلية. وإن الشعب الإندونيسي شعب طيب يحب الفن ويعشقه، ويحب المرح والضحك والتسلية، ولا يمل من الحديث.

---

(٣) البيت لمالك بن أسماء بن خارجة الفزاري (أُنظر: لسان العرب، مادة: لحن).

الفنون الجميلة

الفنون الجميلة عريقة متأصلة في نفوس الإندونيسيين من قديم الزمان، منذ العصور التي كانت فيها البلاد تعيش في كنف الطبيعة، وبين أحضان الوثنية، يؤمن أهلها بالخرافات ويستسلمون لأهواء الآلهة التي يقدمون لها القرابين، ويرقصون ويغنون ويرتلون لاسترضائها.

فقد كانت الأساطير في ذلك الزمن تملأ حياة سكان الجزر وتملي عليهم معتقداتهم، وترسم لهم سبل السير والعمل. ولم تتمكن الأديان التي توالى انتشارها بين السكان على كر الأجيال، أن تنتزع من نفوسهم تلك الأساطير التي تغلغلت فيها حتى الأعماق حتى ولا الإسلام مع انتشاره ومع أن معظم السكان مسلمون.

والإندونيسيون مجبولون بالفطرة على حب الفن في جميع أنواعه، ومختلف مظاهره، وقد تشبعت نفوسهم بما توارثوه من قديم الزمان، جيلاً عن جيل، وفنهم مختلط بالأساطير وممتزج بالخرافات ومطبوع بطابع الوثنية.

وبقي حب الفن هذا راسخاً في نفوسهم، وحافظوا عليه خلال التقلبات المتوالية التي شاهدتها جزرهم الخضراء؛ فهم يمارسونه ويرتاحون إليه كما كان يمارسه أجدادهم في الماضي ويرتاحون إليه.

الرقص

الرقص الإندونيسي يشبه من بعض الوجوه الرقص الهندي والسيلاني ومعظم الرقص في البلاد الشرقية، وله قواعد وأصول ترجع إلى العصور الماضية جامدة لا تتغير، في خطوطها الرئيسية، وإن كان الفنانون والفنانات يدخلون عليها من وقت لآخر حركات جديدة، أو تعبيرات مبتكرة، تزيدها بهجة في نظر المشاهدين بدون أن تؤثر في كنهها ومعناها.

فهناك الرقص القومي الذي يمارسه الناس في أعيادهم ومواسمهم أو فلنسمه الرقص الشعبي الذي يجيده الرجال والنساء والأطفال بوجه عام.

من ذلك رقصة يشترك فيها راقصون وراقصات، وتمثل أسطورة "ارجونا ويواها" وتتلخص في كفاح الإنسان لتحقيق أمانيه في الحياة، فتعترضه الروح الشريرة،

وتصارعه ويصارعها، حتى يتغلب عليها. ومغزى هذه الرقصة أن الإنسان قادر على الفوز بما يريد، إذا عرف كيف يستخدم دهاءه وذكاءه لهذا الغرض، مهما يكن خصمه جباراً قوياً.

وروح الكفاح هذه تبدو في معظم الرقصات التي قدموها أمامنا وشاهدناها، ويمتزج روح الكفاح دائماً بالأمل في بلوغ الهدف، والرغبة في جعل الحياة سعيدة هنيئة.

وهناك الرقص المنطوي على مظاهر ومعاني دينية، تقوم بها الراقصات أمام الجمهور اليوم، كما كانت تقوم بها من قبل في داخل المعابد أو على أبوابها.

ومن أنواع الرقص الذي يُعجب به الغريب في إندونيسيا ذلك النوع الذي يمكن أن نسميه "القصة الراقصة" والذي تروي فيه الراقصة بحركاتها وسكناتها إحدى قصص الغرام، أو الانتقام، أو التضحية الكثيرة في تراث إندونيسيا الأدبي والفني، وهذا النوع قريب من نوع "الأساطير الراقصة" أو هو فرع من فروعه العديدة.

ولكل من الجزر والأقاليم نوع خاص من الرقص والأنغام التي ترافقه الآلات الموسيقية التي تُعزف عليها الأنغام، وإن كان هناك ما هو عام شامل مشترك بين جميع الأقاليم والجزر. ولكن أشهر الراقصين والراقصات بل أروع ما يُقدم من رقص ديني أو أسطوري أو تصويري أو توقيعي، هو الخاص بجزيرتي جاوى وبالي.

ومن ألطف ما شاهدناه في إندونيسيا، إقبال السيدات على الرقص القومي بالأزياء الوطنية، في المواسم والأعياد، وعندما يستقبل الرسميون الإندونيسيون ضيوفاً من الأجانب.

الموسيقى والغناء

قدمت في حديثي عن الحفلات كلاماً مفصلاً عن الموسيقى والغناء، وأن التخت الموسيقي الإندونيسي يجلس المشتركون فيه على الأرض، ومعظم آلاتهم من الخشب المجوّف والنحاس.

والموسيقى والغناء يهتم بها الإندونيسيون اهتماماً كبيراً في المدارس، وكذلك الرقص، وهي تدخل في نطاق التمرينات الرياضية والفنية، على غرار ما يجري في

جميع مدارس العالم الآن. والطلبة والطالبات في إندونيسيا يقبلون على ممارسة الفنون الثلاثة إقبالا ينم عن غريزة متأصلة في نفوس هذا الشعب الوديع المرح، منذ الصغر، ومن قديم العصور.

ومعظم الألحان الموسيقية في إندونيسيا على وتيرة واحدة، وهي لا تطرب السامع الأجنبي كثيراً، فهي لا تطرب إلا من يستسيغها أو يفهمها، وشأنها من هذا القبيل كشأن كل موسيقى محلية، خاصة ببلد معين، لا يدرك معانيها ولا يطرب لها غير أهلها.

والراقصون المتبارزون يستخدمون في رقصهم ومبارزتهم سلاحاً يدعى "تنجات" وهو يشبه السيف القديم الذي كان يستعمل في القرون الوسطى، وسلاحاً آخر كالمنجل، بل هو في الواقع منجل كبير مشدود إلى قبضة من الخشب يبلغ طولها نحو مترين أو أقل، وسلاحاً ثالثاً يدعى "دولك" وهو سيف شكله كالصليب.

الرسم والحفر

للإندونيسيين قدرة عجيبة في رسم المناظر الطبيعية التي تمتاز بها بلادهم الجميلة الخضراء، بما فيها من غابات وأثمار وأزهار وأنهار وطيور وكل ما يمكن أن يفيد الرسام في توزيع ألوانه على لوحته. فقد علمهم جمال طبيعة بلادهم أو أوحت إليهم وطبعت في نفوسهم حسن الذوق والفن الرفيع. والحكومة تهتم اهتماماً خاصاً بهذا النوع من الفنون بالنظر إلى ما فيه من فائدة مادية وأدبية لمن يمارسونه وللبلاد بوجه عام.

وما يُقال عن الرسم يُقال أيضاً مضاعفاً عن فن الحفر وصنع التماثيل الخشبية؛ فإن للفنانين الإندونيسيين في هذا المضمار براعة عجيبة، وأناملهم الساحرة تخرج من الأخشاب الثمينة التي تعج بها غاباتهم تماثيل متفاوتة الأحجام والأشكال، للآلهة الأقدمين، وللأبطال الخالدين، وللطيور والحيوانات على أنواعها.

وأشهر صانعي التماثيل الخشبية في جزيرة "بالي" العجيبة. وبالرغم من أن دين الأكثرية الآن هو الإسلام، فإن الفنانين الذين يصنعون التماثيل والتحف الصغيرة والقطع المنوعة من الخشب أو العظم أو العاج أو الجلد، لا يستوحون غير الماضي الوثني البعيد، ولا يصنعون شيئاً مما ينتسب إلى معتقداتهم الحالية.

وفي إندونيسيا نوع من الفن الشعبي يشبه الأراجوز، وتصنع له دُمى كبيرة الحجم أحياناً، كريهة المنظر، بشعة الشكل، مُعدَّة لتخويف الناس لا للترفيه عنهم. وأحياناً تصنع الدُّمى صغيرة مهذبة الشكل والمنظر، يفرح بها الكبار والصغار في المقاهي وعلى قارعة الطريق..

وفي إندونيسيا صناعات يدوية كثيرة، هي في الواقع من أنواع الفن الدقيق كصناعة الأسلحة الصغيرة، والآنية الخزفية، والرسم على الأقمشة المنسوجة في البلاد، وتزيين جدران المنازل وأماكن العبادة والمحلات العامة، وصناعة أدوات الشاي الجميلة، وصناعة الحلي من الخزف والخشب، والحجارة النادرة والفضة، وصناعة مختلف الأدوات المنزلية.

جزيرة بالي

أعجب الجزر الإندونيسية، وقد تكون أجملها، جزيرة بالي، وهي ليست كبيرة بحجمها ومساحتها وعدد سكانها، ولكنها تحتل مكانة تحسدها عليها أكبر الجزر وأوسعها، من الناحية التاريخية ومن الناحية الروحية، ومن حيث المحافظة على التقاليد والمعتقدات القديمة.

تقع بالي إلى شرق جزيرة جاوى الكبيرة، طولها (١٢٠) كم، وعرضها (٧٠) كم. مساحتها (٥٥٧٥) كم٢. عدد سكانها مليون ونصف أو يزيدون قليلاً. يفصلها عن جاوى مضيق يحمل اسمها: مضيق بالي. ويسميها بعض المؤرخين والجغرافيين "صقلية الشرق".

إذا طفت في جزر إندونيسيا كلها، وشاهدت كل ما تحويه من عجائب وغرائب خلف ثوبها الأخضر، ولم تزر جزيرة بالي فإنك لم تعرف عن إندونيسيا كل ما يجب أن تعرفه.

وإذا ذهبت إلى بالي، فإنك تجد فيها العجب العجاب، وإن عينك تقع فيها على ما لا يمكن أن تقع عين على مثله في أي بلد من بلدان الدنيا. وفيها من الخيرات والمعادن والثروات الدفينة ما لا يمكن حصره.

وبالي من الجزر التي يفد عليها السائحون بكثرة، فهي من الأماكن التي تستحق أن يقصدها الناس من أقصى أنحاء العالم، وهذا ما يفعلونه في الواقع. وقد وفرت الحكومة أسباب الراحة للسائحين، فبنت الفنادق الفخمة والبيوت الرحبة، والأماكن الجميلة للراحة والاستجمام.

وفي هذه الجزيرة تقيم البقية الباقية من الإندونيسيين الذين لا يزالون محافظين على ديانتهم الأولى، ومعتقداتهم الأصلية.

وديانتهم مزيج من البوذية والبرهماتية، تغلب عليها تعاليم "سينا" الأقنوم الثالث من الثالوث الهندي، الذي يهدم ويبني ويقتل ليُحيي.

وفي بالي هياكل باقية على ما كانت عليه منذ إنشائها، ومعابد ونُصب قديمة، وتماثيل وآثار ترجع إلى العهود الماضية، وتحتفظ بمظهرها في الداخل والخارج، وأثاثها وتماثيلها وأدوات الصلاة فيها، وهي أيضاً مزيج من الفن المعماري البوذي والبرهمي.

وكل يوم عند الفجر وعند الغروب، تخرج فتيات بالي القائمات بخدمة كل هيكل من الأماكن التي يقمن فيها، ويسرن في صف طويل، بثيابهن الزاهية، وقاماتهن القصيرة، وخصورهن الضامرة، وخطواتهن المتئدة، نحو السلم المؤدي إلى مدخل المعبد، وهو دائماً مرتفع عن سطح الأرض، وعلى رؤوسهن السلال المصنوعة من القش الملون، أو الخوص اللين، وقد ملأنها بالثمار المنوعة، من كل لون ثمرة، ومن كل نوع واحدة... يقدمن هذه الثمار قرابين للآلهة. وهكذا تُقدم هذه القرابين محمولة في سلال زاهية على رؤوس عذارى بالي الجميلات. ونساء بالي على العموم يمتزن بجمال رائع، جمال لا تصنع فيه ولا مساحيق تبرز ناحية من نواحيه وتخدع العين الناظرة إليه — كجمال البدويات التي قال فيهن المتنبي:(٤)

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها ... مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

حُسن الحضارة مجلوب بتطرية ... وفي البداوة حُسن غير مجلوب

(٤) شرح ديوان المتنبي، لأبي البقاء العكبري، ١/ ١٦٨ — ١٦٩ (ضبطه وصححه ووضع فهارسه: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة ، بيروت).

جمال أغدقه الخالق بلا حساب، فجعل الجزيرة وسكانها آية من آيات الإبداع بين البلدان وبني البشر.

وتسير المرأة في بالي وليس على جسمها غير القليل من الثياب، وكأنها شبه عارية، تلف الجزء الأسفل من جسمها بقطعة القماش الزاهي وتبرز الجزء الأعلى، بصدره وكتفيه، لأعين الناظرين.

والفنون على أنواعها مزدهرة بجزيرة بالي، فصناعة التماثيل الخشبية والعاجية والعظمية في بالي بلغت من الإتقان حداً كبيراً، وكذلك فن النحت وتحويل ألواح الخشب وعظام الحيوانات وغصون الأشجار وقطع العاج إلى تماثيل متفاوتة الأشكال والأحجام، ورسم مناظر الطبيعة، وتزويق الهياكل، والرقص الديني والتوقيعي على أنغام الموسيقى، كل هذا يمارسه سكان بالي رجالاً ونساءً، ويفعلونه كفنانين أصليين، امتزج حب الفن بروحهم منذ الصغر.

وهياكل بالي متناثرة في السهول والجبال، بعضها رابض بين الحقول والحدائق، وبعضها منتصب فوق قمم الجبال أو قابع في بطن الأودية، وكلها تثير في النفس مزيجاً من الرهبة والإعجاب.

وحول الهياكل في الطرقات التي تخترق الغابات، أو السهول المزينة بالأزهار والرياحين، تمرح أسراب من القرود الطليقة، تحوم حولك إذا مشيت على قدميك، وإذا كنت في داخل سيارة تقفز على النوافذ وتحاول الدخول عليك لكي تداعبها أو تقدم لها قطعة من الحلوى أو الفاكهة.

وعلى كل فإن بالي جزيرة سعيدة، وأهلها سعداء، وقرودها تأخذ نصيبها من هذه السعادة العامة الشاملة.

الأحزاب

الأحزاب في إندونيسيا كثيرة متعددة متباينة، وقد بلغ عدد الأحزاب (٢٥) حزباً. وكل هذه الأحزاب تتأثر بعاملين أساسيين قويين: العامل السياسي، والعامل الديني.

وهذه الأحزاب تعمل أحياناً متفرقة، وأحياناً متعاونة متكتلة، حسب الظروف والأحوال.

وإندونيسيا بلد إسلامي، فلا غرابة في أن تتألف فيها أحزاب قوامها وعمادها ورائدها الدين الإسلامي.

وفي مقدمة هذه الأحزاب تأتي هيئتان تزدادان قوة ونفوذاً مع الأيام: هي حزب ماشومي الإسلامي، والحزب الوطني. وهذا الأخير كان يرأسه الدكتور أحمد سوكارنو رئيس الجمهورية الإندونيسية، وهو قائم على (أساس) سياسي قومي. كان هدفه في عهد الاحتلال استقلال إندونيسيا وطرد الهولنديين من البلاد، وبعد أن تم له هذا أصبح الهدف استكمال السيادة ودعم الاستقلال والسير بإندونيسيا في ركب الحضارة جنباً الى جنب مع الدول الكبرى.

وحزب ماشومي الإسلامي يضع تعاليم الإسلام في صلب مبادئه، وهو تقدمي ولكنه يقاوم الشيوعية ويعدها ضارة بالبلاد. والصراع شديد بينه وبين الحزب الشيوعي، الذي أنشيء في إندونيسيا على أثر إعلان الاستقلال. واسمه مكوّن من الحروف الأولى لكلمات "حزب الشورى الإسلامي الإندونيسي" بلغة البلاد.

وللعلماء في إندونيسيا حزب يحمل اسمهم، يدعى " نهداثول أولاما " أي "نهضة العلماء"، ويلاقي هذا الحزب تأييداً كبيراً من رجال الدين الإسلامي عامة، ومن الفلاحين، وطلبة المدارس الدينية، وهو أشد صلابة في التمسك بالمبادىء الدينية من حزب ماشومي التقدمي.

وبعض الأحزاب الإندونيسية لا يخرج عن كونه هيئة أو جمعية دينية كجمعية المسلمين الإندونيسية مثلاً، وحزب الله الإسلامي، وهو من أوفر الهيئات الإسلامية نشاطاً وأكثرها ميلاً إلى العنف، وهو يقاوم في آن واحد الشيوعية والاستعمار الغربي، ولهذا الحزب منظمة عسكرية سببت للحكومة المركزية بعض المتاعب.

وهناك حزب أو جماعة باسم "دار الإسلام" وهي في الواقع منظمة ثورية لها متطوعوها ومقاتلوها، ودعوتها تنطوي على المطالبة بإقامة حكومة دينية إسلامية في إندونيسيا، تأخذ بتعاليم القرآن وتطبق أحكامه تطبيقاً حرفياً، أي حكومة قائمة على الشرع فقط.

وتألفت في جزيرة "سيليب" وهي التي تدعى الآن "سولاديسي" جمعية باسم "جمعية سيليب الإسلامية" على غرار هيئة دار الإسلام ونشب خلاف بين الهيئتين، على أثر تأسيس الثانية. ولكنه انتهى فيما بعد بالصلح وبقيام شبه اتحاد بينهما.

ومن الأحزاب التي تثبت وجودها في ميدان النشاط السياسي والقومي: حزب الشعب الوطني، وحزب إندونيسيا الكبرى، وجمعية إندونيسيا الكبرى، وحزب الشعب الإندونيسي، وجمعية الشعب الأندونيسي، وحزب العمال، والحزب الاشتراكي.

وهناك للمسيحيين حزب الجمهورية الإندونيسية الكاثوليكي، وحزب إندونيسيا المسيحي.

والأحزاب المسيحية السياسية عادة على وفاق مع الأحزاب المعتدلة، وعلى الخصوص مع الحزب الوطني الذي تولى الحكم في مطلع عهد الاستقلال.

وهناك أحزاب للمسلمين وهيئات أخرى كثيرة غير التي ذكرناها تعمل في دوائر ضيقة في مختلف الجزر والأقاليم.

والخلاف بين الحزب الوطني ومؤيديه، وحزب ماشومي والأحزاب الإسلامية، أن جماعة الحزب الوطني تنادي بإقامة نظام مدني بحت في إندونيسيا، لا علاقة للدين فيه ولا أثر.

أما الفريق الثاني الإسلامي فإنه ينادي بإقامة نظام تكون قوانينه ولوائحه وأحكامه مستمدة من القرآن.

والمسلمون أنفسهم من أعضاء الأحزاب الدينية ومؤيديها وأنصارها منقسمون إلى فرق تتفاوت آراؤها في هذا الموضوع، ولا غرابة في أن يحتدم الجدل ويتشعب الخلاف بين الأحزاب الإندونيسية، وأن يتزايد عددها وتتصادم غاياتها وأهدافها. فإنها ككل أمة فتية جديدة خرجت من نير الاستعمار البغيض ونالت استقلالها، فلا بد من هذا الخلاف والصدام، ولا بد من دفع ثمن للاستقرار، وهي سائرة في طريق التقدم ومسايرة الزمن، وتشييد كيانها بقدر المستطاع.

وفعلاً قد قطعت شوطاً كبيراً في مضمار العلم والصناعة والبناء والتعمير، مع العلم أن هولندا عندما كانت مستعمِرة لها ومسيطِرة لم تترك فرصة للشعب الإندونيسي أن

يتعلم، حتى إنها لما تركت إندونيسيا لم يكن فيها مهندس ولا طبيب ولا خبير في أية ناحية من النواحي العلمية أو الفنية. والآن وبعد عشرين سنة نجد كثيراً من أبنائها المتعلمين والجامعات تزخر بطلاب العلم والحركة فيها تبشر بخير.

وسلاح المستعمر - كما نعلم - هو إبقاء الأمة على جهلها، وفقرها ليستعبدوا أفرادها وجماعاتها، وبعدم معالجة الفقر وبإبقاء الجهل، وإذكاء روح التفرقة، (ما) استعان (به) الهولنديون في إندونيسيا على حكم البلاد حكماً مباشراً كان لهم فيه كل الغنم، ولأهل البلاد كل الغرم.

وبدأت النهضة التعليمية الحقيقية بعد الاستقلال منذ سنة ١٩٤٥.

الصحافة

الصحافة في إندونيسيا تتقدم الآن بسرعة، فهي تعتبرها من المرافق العامة ومظاهر النهضة الشاملة، تنطلق في سبيلها بعد أن زالت العراقيل وتحطمت القيود.

لم يكن لإندونيسيا صحافة وطنية في عهد الحكم الهولندي الرهيب، فالصحف كانت قليلة العدد، محدودة الصفحات، ضعيفة الإيراد، ضعيفة الانتشار، مرهقة بالنفقات والضغط والرقابة الصارمة.

وعندما جاء اليابانيون أغدقوا الإعانات على الصحف الوطنية وعطلوا الصحف الهولندية، وذلك ليستغلوا الصحف المحلية لتكون أبواقاً للدعاية لهم.

وفعلاً كان لهم ما أرادوا، ولكن الصحافة الإندونيسية جنت بعض الفوائد من جراء هذه السياسة التي سار عليها اليابانيون، فقد تحسنت بفضل المال الوافر طرق الطباعة وأسلوب الكتابة، واتسع نطاق التوزيع، واحتلت اللغة الإندونيسية لغة البلاد المكانة الأولى، وفُتح أمام حملة الأقلام آفاق جديدة، زادت اتساعاً لما رحل الحكام الأجانب جميعهم وبقيت البلاد لأهلها.

وقد مرت الصحافة الإندونيسية بظروف حرجة وتقلبات متوالية وخرجت في النهاية رابحة منتصرة.

وقد كان يصدر في سنة ١٩٤٩ (٧٥) صحيفة يومية فارتفع هذا العدد إلى (١٠٣) صحف في سنة ١٩٥٣.

وفي سنة ١٩٥٥ كانت تصدر في إندونيسيا بانتظام جرائد يومية كثيرة، ومجلات أسبوعية، وشهرية، ونشرات للأنباء، منها (٢٣) جريدة يومية في العاصمة جاكرتا وحدها، وأوسعها انتشاراً جريدة كينغو.

وفي العاصمة ثلاث وكالات للأنباء معترف بها من الحكومة: وكالة "أنيتا"، ووكالة "أنتار"، ووكالة النشر العربي.

ومن الصحف الكبرى الجرائد الآتية: **بادومان – هاريان رعيه. أبادي. مرويكا. هندونيسيا رايا. بيجا ندانجان.** وغيرها. وتصدر جرائد أخرى باللغة الهولندية، واللغة الإنجليزية. وتصدر مجلتان باللغة العربية، بخلاف نشرة الأخبار: مجلة الإذاعة واسمها **صوت إندونيسيا** ومجلة **الشئون الإندونيسية**. وقد زاد عدد الصحف الآن وزاد انتشارها.

الدّين

سكان إندونيسيا الآن مسلمون على مذهب الشافعي، وهناك أقلية ضئيلة وثنية وبعض الجاليات الصينية، ويوجد أقلية مسيحية من بعض الأوروبيين الذين استوطنوا إندونيسيا وبعض الإندونيسيين الذين أخذوا الدين من المستعمرين، لأن المستعمرين كانوا يستعملون الدين من أجل غاياتهم الاستعمارية. ولهم كنائسهم ومدارسهم ومعاهدهم المختلفة، والفاتيكان ممثل في جاكرتا يرعى شئون المسيحيين الروحية بواسطة رجال الدين. وروح التسامح في إندونيسيا لا مثيل لها في أنحاء العالم كله، فلا يوجد أي مشاكل أو اضطرابات أو حزازات بسبب العقائد الدينية.

وحاول الهولنديون مراراً أن يفرقوا بين الإندونيسيين تفرقة قائمة على العقائد الدينية لكي يضعفوا فيهم الروح القومية ويحولوا الحركة الوطنية عن هدفها الصحيح، ولكنهم فشلوا في تلك المحاولات، وظل صوت المؤذن يرتفع في آن واحد مع دقات الأجراس. وظل المسلمون والمسيحيون والبوذيون يصلون إلى الله في مساجدهم وكنائسهم وهياكلهم.

وقد رأيت بعض المسيحيين متزوجين من مسلمات وبالعكس، ورأيت كثيراً من المساجد إلى جانب الكنائس، وقد صورت فلماً كاملاً عن مساجد إندونيسيا ومناظرها الجميلة وغاباتها وأنهارها ولكنه لم ينجح وانحرق كله مع الأسف.

ويوجد في إندونيسيا نحو خمسين ألف مسجد كبير، ونحو (١٣٥) ألف مسجد صغير، ونحو خمسة عشر ألف معهد ديني.

ويوجد نحو ستة آلاف وخمسمائة كنيسة، وعدد المسيحيين نحو ثلاثة ملايين، ونحو مليوني بوذي وهندوسي وبراهمي.

والمساجد مبنية على عدة أنواع من الهندسة فهناك الطراز العثماني، والطراز العربي الأندلسي، والطراز الهندي، والطراز المصري الحديث، والطراز العباسي، والإيراني.

والمساجد في غاية النظافة ومفروشة بالسجاجيد النفيسة، المعطرة بالعنبر، ورائحتها زكية ومنعشة.

ويوجد وزارة للشئون الدينية. وقد حدد المرسوم الصادر بإنشاء هذه الوزارة أن اختصاصها ما يأتي:

١. السهر على حرية كل فرد في اعتناق الدين الذي يرتضيه وقيامه بمراسيم عقيدته.

٢. حماية العبادة وتشجيعها وتقويتها.

٣. مراقبة الثقافة الدينية في المدارس الحكومية وتقويتها.

٤. صيانة أماكن العبادة وتحسينها بصرف النظر عن دين أصحابها.

[من رحلة الهند (•)]

مدينة أجرا

إنَّ مدينة "أجرا" تعتبر أهم مدينة تاريخية في الهند، وهي تقع على جانب نهر جامونا، وتبعُد عن مدينة دلهي بمسافة "١٢٧" ميلاً، أي ما يعادل مائتي كيلو متر وأربعة كيلو مترات. وهي مدينة قديمة. بدأ نجمها يلمع وتربعت على عرش المجد في حكم المغول المسلمين في الهند. وقد أصبحت عاصمة ومقراً للحكام المغوليين في أيام بابار سليل تيمور. ولما حكم السلطان "أكبر" العظيم اعتنى بها عناية كبيرة وأضفى عليها من عظمته، وحلاها بعدد من الأبنية الجميلة بما فيها القلعة المشهورة فيها الآن. وفي القرن السابع عشر ميلادي جاء الامبراطور "شاه جهان" فخلّد "أجرا" ببنائه "تاج محل" تلك الدرة اليتيمة، والأثر الخالد على مر العصور، والذي يعتبر أجمل تذكار للحب والإخلاص لزوجة محبوبة في العالم.

تاج محل

بناء من أجمل الأبنية في العالم، ويُطلق عليه الهنود "حلم في المرمر". وقد صمم بمهارة فائقة، وكأنه قصيدة شعرية من الرخام الأبيض. وفي الهند أبنية أكبر منه وأضخم ولكن الفن الذي فيه، والسحر المشع من ذلك البناء الفريد من نوعه يجعله منفرداً بذاته، لا يضارعه أي بناء. ويبقى هو المثل العالي للفن الإسلامي في الهند.

لقد أقام هذا الضريح الجميل الامبراطور "شاه جهان" تخليداً لذكرى زوجته الجميلة المحبوبة التي ملكت عليه مجامع قلبه "ممتاز محل". وقد بدأ العمل فيه سنة ١٦٣١م بعد سنة من وفاة تلك الزوجة، واستمر العمل فيه "٢٢" سنة. وقد جمع له المهندسين والفنيين من أجناس متعددة.

وتاج محل مبني على شرفة من الرخام أو ما نسميها تسوية مساحتها قرب مائة وعشرين متراً مربعاً، وهو فوق ذلك على مرتفع من الأرض يطل على نهر "جامونا"، وهو بناء يتوسطه قبة عظيمة ارتفاعها ثمانون قدماً، يحيط بها أربع قباب صغيرة، وفي

(•) لم نجد تعييناً محدداً لتاريخ هذه الرحلة.

كل قرنة من ذلك البناء العظيم على مسافة منه مئذنة. وتحت القبة العظيمة وفي الوسط قبران من الرخام الأبيض مطعمان بالجواهر والمعادن الثمينة الملونة بنقوش يحار فيها النظر، ويكاد يقول رائيها إنها ليست من صنع الإنسان(١). ويحيط بهذين الضريحين غلالة أو ستر مخرم بأشكال عجيبة مدهشة أيضاً من الرخام الأبيض. وإن صنع الرخام وتخريمه وحفره وتلوينه الذي في الداخل ليس له مثيل في بناء موجود في العالم. إن النقوش والتخاريم والأشكال الهندسية الموجودة في قصر الحمراء معمولة بالجص وملونة وفيها فن مدهش وصنعة رائعة فريدة في مثالها، ولكنها سهلة العمل إذا قيست بهذا الرخام المنقوش المخرم المطعم بالأحجار الكريمة الموجود على الضريحين وعلى الستارة التي تحيط بهما داخل قبة تاج محل. وفي هذين الضريحين يرقد الامبراطور "شاه جهان" وزوجته المحبوبة "ممتاز محل" رحمهما الله.

وهذا السحر الأخاذ المشع من ذلك النصب التذكاري الجميل المبني من المرمر الأبيض النقي مدين لتلك الأجواء المحيطة به التي أوحت بها الألوان المتنوعة، وهندسة البناء الرائعة وتصميمه المدهش.

وقد جمَّل تاج محل فوق جماله الهندسي، وشكله الرائع بحديقة أنيقة منمقة منسقة تزيد بجمال منظرها ذلك المكان الهادئ بهاءً وحسناً يعجب الناظرين. وجعل أمامه بركة يمدها عدد من النوافير وهي مستطيلة الشكل وحولها أشجار المرجان المصفوفة وقد انعكست صورة البناء الجميل فيها فأصبح منظراً عجيباً.

وإذا رأيت تاج محل في ليلة مقمرة تخيلت نفسك كأنك في حلم جميل أمام ذلك المنظر البهي لا تحب أن تنتهي. وكنت أردد قول البحتري وأنا أمشي في جوانبها:(٢)

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها ... والآنسات، إذا لاحت مغانيها
كأنما الفضة البيضاء، سائلةً ... من السبائك، تجري في مجاريها
إذا علتها الصبا، أبدت لها حُبُكاً ... مثل الجواشن، مصقولاً حواشيها

---

(١) ليس يدري: أصنع إنس لجنّ ... سكنوه أم صنع جنٌ لإنسي

(٢) ديوان البحتري (أربعة مجلدات)، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف بمصر، ١٩٦٣، (٤/ ٢٤١٦ – ٤١١٨).

فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها ... وريق الغيث أحياناً يباكيها

إذا النجوم تراءت في جوانبها ... ليلاً حسبت سماءً ركبت فيها

وإني لا أحب أن أترك الكلام عن ذلك المكان الساحر ولا أستطيع أن أوفيه حقه مهما أوتيت من القدرة على الوصف والكتابة، ويجب أن يُكتب عنه مجلدات ومجلدات.

القلعة

هناك مكان آخر نفيس تكسوه المهابة والجلال ذلك هو القلعة والقصر الذي بداخلها، وقد بُني بزمن الامبراطور "أكبر" وصلح وحسن في زمن الامبراطور "شاه جهان". ترتفع أسوارها بعلو نيف وواحد وعشرين متراً. تمتد تقريباً في هندسة ممتازة نحو ميل ونصف دائرة حول القلعة. ويحتوي هذا السور على عدة أبراج ضخمة مثمنة الأضلاع، تضم آثاراً جميلة فاخرة.

وهناك داخلها مكان يعرف "بالديوان الخاص" هكذا يسمونه، وهو طبعاً في هذا المعنى ديوان الملك، وكذلك القصر، والأبنية العديدة الفاخرة كلها من بناء الحكام المغول المتعاقبين، وتعرف بـ: جاهانجري محل.

في أحد أبهاء القصر قاعة كبيرة مفروشة بالرخام وهي كلها عبارة عن رقعة شطرنج، وكان الملوك يلعبون الشطرنج فيها وحجارتها عبارة عن الجواري الحسان، يصفونهنّ ويأمرونهنّ بالتحرك على حسب مجريات اللعبة، وتصور رقعة من الشطرنج حجارها الغيد الحسان كم تكون هذه اللعبة شائقة، وكم تحوي من معاني البذخ والترف، وأنه لأغرب من الخيال. وعندما وقفت أتأملها قلت في نفسي: لم يستطع مؤلف ألف ليلة وليلة أن يرقى خياله إلى هذه الحقيقة، ولو أن هؤلاء الملوك صرفوا عنايتهم إلى نشر الإسلام في تلك الأوقات، وكرسوا كل هذه الأموال والجهود للدعوة الإسلامية لما بقي في الهند دين آخر، ولأصبحت تلك القارة كلها مسلمة. ولكن لا راد لقضاء الله، والتوفيق من الله.

وإذا نظرت إلى مدينة أجرا من عِبر النهر تلوح كأنها هيكل مجنح لسفينة حربية حمراء صدئة، عليها قباب بيض، يتخللها مساحات واسعة كأنها ساحات مسجد ويرتفع على جوانبها أبراج صغيرة.

فتح أكبر زكري

مدينة فتح أكبر تقع على بعد ستة وثلاثين كيلو متر من أجرا. وقد كانت عاصمة للامبراطور فتح أكبر، وهو يعتبر أعظم الملوك المسلمين الذين حكموا الهند.

هذه المدينة مدينة النصر كما كانوا يسمونها، وهي مدينة جميلة بما فيها من مبانٍ كالقصر الفاخر العظيم، ومسجدها الزاهر، وما فيها من فن باهر تظل شاهداً صامتاً...

ومدينة أكبر الحمراء لا تزال إلى الآن محتفظة برونقها وجمالها كما تركها (بُناتها)، بما فيها من الفن الإسلامي الباهر الخالد الغني بحيويته وجماله وسحره.

وهناك أيضاً تذكاران عظيمان، يمر بهما الزائر وهو في طريقه من دلهي إلى أجرا وهما: ضريح اعتماد الدولة والد الامبراطورة نور جهان، عبر النهر، وضريح أكبر المؤثر المحرك للعواطف عند مرآه، وهما على بعد خمسة أميال من أجرا.

القسم الثّالث

الملاحـق

مروراً بصداقة (٢٧) سنة
مع المجمعي والدبلوماسي إبراهيم القطان

بقلم: د. عبدالهادي التازي

كان علينا أن نحضر المؤتمر الثقافي العربي الرابع في الإقليم السوري من الجمهورية العربية المتحدة في أواخر "غشت" آب ١٩٥٩م، وبوصولنا إلى دمشق عرفنا أن اللقاء تأجل إلى اليوم الخامس من "شتنبر" أيلول، وهنا وردت علينا فكرة القيام برحلة للمملكة الأردنية الهاشمية لزيارة بيت المقدس أنقذه الله من الرجس.

وبما أننا ننتسب إلى أسرة التعليم فقد فكّرنا في أن نؤدي الزيارة بادئ الأمر لوزارة التربية والتعليم في عمان.

أُحاول أن أعرف اليوم البناية التي دخلناها والتي كانت تحتضن قادة التعليم ورؤساء الأقسام على ذلك العهد، لكني لم أنجح في الوقوف على آثار تلك المنطقة ... إن عمّان اليوم غدت عملاقاً عظيماً تتلاشى معه وأمامه سائر صور الماضي.

كان الأستاذ إبراهيم القطّان أول من استقبلنا قبل أن ندخل لمكتب سماحة الشيخ محمد أمين الشنقيطي، ومنذ اللحظات الأولى شعرنا أننا أمام أخوة لنا كأننا كنا على معرفة سابقة قديمة بهم.

ما أزال أذكر عرض الأستاذ القطّان عن حالة التعليم بالمملكة — آنذاك - وحماسته في إعطائنا صورة كاملة عن الحالة التربوية في البلاد.

وقبل أن نودع الوزارة إلى فندق فيلادلفيا قدّم لنا أعضاء الوفد الأردني للمؤتمر الذي سيُعقد في دمشق، وكان يتألف من الأساتذة: محمد نوري شفيق، وفائز الغول، وطلعت السيفي ؛ فعل ذلك ليكسبنا أصدقاء في المؤتمر قبل الموعد.. أطرف من هذا أنه ذكر لنا اسماً أردنياً رابعاً قال: " إنه سيلتحق بكم من القاهرة ضمن وفد الأمانة العامة لجامعة الدول العربية" ، ولم يكن هذا الأردني غير الدكتور ناصر الدين الأسد الذي ما يزال أمام عيني إلى الآن في عنفوان الشباب تعلو رأسه وفرة غدافية اللون!

لقد كان أجمل معروف قدمه لنا الأستاذ القطّان تسهيل زيارتنا إلى المسجد الأقصى ... الأمر الذي تم في أحسن الظروف، حيث كان في استقبالنا الشيخ مصطفى الأنصاري رئيس سدنة المسجد الأقصى آنذاك. ولقد كان من أبرز ما سجلته ذلك اليوم الأربعاء ٢٨ صفر الخير ١٣٧١هـ "سبتمبر" أيلول عام ١٩٥٩م؛ ما يتصل بالتحفة المغربية الثمينة التي توجد في خزانة المتحف الإسلامي بالقدس الشريف، ويتعلّق الأمر بالمصحف الذي وقفت عليه هناك؛ مما خطّه بيده أحد ملوك المغاربة في العصر الوسيط.

إنه من الواجب عليّ أن أعترف هنا بأنني منذ ذلك التاريخ وأنا أعيش مع الشيخ القطان كلما فتحت صفحة البحث حول تاريخ ذلك المصحف وتحقيق القول فيه ومقارنته مع المصاحف المماثلة المرسلة لجهات أخرى من العالم الإسلامي.

سيظلّ ما كتبته عن هذا الأثر الشريف طوقاً في عنقي أُدين به للشيخ القطان أسبغ الله عليه من رحماته ...

نحن نعلم أن المغاربة ظلوا عبر تاريخهم الطويل على صلة بهذه البقاع: علماؤهم ومرابطوهم ومجاهدوهم ظلّوا يحنون إلى أداء واجبهم هناك، وقد كان من الهدايا التي كانت ترسل من أقصى بلاد المغرب مصاحف نفيسة خُطَّت بعناية ودقة ...

وحتى يعبِّر ملوك المغرب أنفسهم عن تعلقهم بتلك الرحاب قاموا بنسخ مصاحف كبرى بخط أيديهم ليجعلوها في خزائن تلك العتبات المقدسة تذكيراً بأهمية التربة وتعبيراً عن التشبث بها.

وهكذا؛ فبعد المصاحف الجليلة التي أُهديت إلى الحرمين الشريفين(١)، قام السلطان أبو الحسن عام ٧٤٥هـ (١٣٤٥-١٣٤٦م) بانتساخ مصحف برسم أن يكون خاصاً بالمسجد الأقصى، وكتبه بيده وجمع الوراقين لتنميقه وتذهيبه، ووضع له (ربعة)(٢) أي ظرفاً مصنوعاً من الأبنوس والعاج والصندل وغشاء بصفائح الذهب،

---

(١) لقد قام سلطان بني مرين أبو يعقوب (٦٨٥-٧٠٦هـ) بإرسال مصحف إلى مكة المكرمة كان بخط ابن حسني، ثم قام السلطان أبو الحسن بكتابة مصحف، بذات يده، وحبسه على المسجد النبوي بالمدينة المنورة.

(٢) الربعة : الظرف من خشب.

وغلفه من فوق برقاع من الحرير والديباج ... وبعثه مع أبي المجد: نجل أبي الفضل محمد بن أبي مدين السابق قبل أن يبتدئ بنسخ خاص لمقام إبراهيم الخليل أكمله بعده ابنه السلطان أبو عنان.

وقد وهم ابن خلدون عندما ذكر أن أبا الحسن أدركته وفاته قبل الفراغ من نسخ المصحف المقدسي، فقد بعث بهذا المصحف الجميل بواسطة أحد سفرائه اللامعين هو أبو الحسن المذكور.. لكن النسخة التي لم يتمها هي النسخة التي كانت برسم المقام الخليلي(٣).

وقد ذكر المقري، صاحب **نفح الطيب**، أنه رأى المصحف الذي ببيت المقدس ورأى ربعته وهي في غاية الصنعة(٤).

وقد استمر هذا المصحف ببيت المقدس إلى السنوات الأخيرة حيث وقفت عليه يوم الأربعاء ٢٨ صفر ١٣٧١هـ كما أسلفت.

لقد كان المصحف المريني المقدسي- ويدعى بالربعة المغربية- يتكون من ثلاثين جزءاً وهو على ما يؤكد الأستاذ السيد مروان أبو خلف والأستاذ نظمي أمين الجعبة، أمين المتحف الإسلامي، من أروع المصاحف التي يحتضنها المسجد الأقصى، حيث إن معظم أجزائه مكتوبة على رق الغزال ومجلَّدة أيضاً بجلد سميك من رق الغزال، وعلى كلا الوجهين هناك زخارف هندسية وكتابية، وكل وجه محاط بشريط زخرفي عبارة عن خيوط ذهبية وفضية متداخلة محددة من الخارج والداخل بزوجين من الخطوط الفضية. أما الوسط ففي داخله دائرتان فضيتان متحدتا المركز، وأن كلا من الشريط والدوائر يحتوي على زخارف كتابية، وقد كان مما كتب في الشريط الزخرفي ما يلي:

"كتب هذه الربعة وبخطه ووقفها على التلاوة ببيت المقدس شرفه الله عبد الله علي أمير المسلمين بن أمير المسلمين أبي سعيد بن أمير المسلمين أبي يوسف بن عبد الحق، وكملت في أواخر ذي الحجة خمسة وأربعين وسبعمائة فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم".

---

(٣) ابن خلدون: كتاب العبر، المجلد السابع، دار الكتاب اللبناني، ص ٥٤ . ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن، ص ٤٧٧.

(٤) المقري: نفح الطيب. نشر: إحسان عباس، مجلد ٤ ص ٤٠٠.

وقد نصت الكتابة التي على الصفحتين الأخيرتين على ما يلي:

"كمل الجزء الأول من هذا المصحف الكريم المجزأ ثلاثين جزءاً (٥) وكتبت جميعها بخط عبد الله علي أمير المسلمين بن أمير المسلمين أبي سعيد عثمان بن أمير المسلمين أبي يعقوب بن عبد الحق ملك المغرب نفعه الله ووقفها على التلاوة فيها بالمسجد الأقصى شرفه الله كم يجب فيه من ثواب الله نفعه الله وغفر له ولوالديه ولمن دعا لهما بالرحمة آمين، وذلك في أواخر ذي الحجة سنة خمس وأربعين وسبعمائة بحضرة فاس حرسها الله والحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما".

لقد شعرت منذ ذلك التاريخ بآصرة رحم ربطتني بأخي إبراهيم، وهكذا فلم تمضِ سنة على لقاء عمّان حتى تم لنا لقاء ثانٍ ولكن على أرض مدينة فاس العاصمة الأولى للإسلام بالمغرب الأقصى.

هناك وفي شهر أكتوبر من عام ١٩٦٠ م كان لنا موعد مع الاحتفال بذكرى مرور أحد عشر قرناً على ميلاد جامعة القرويين التي تعتبر من أقدم الجامعات الإسلامية في العالم.

لقد كان على المغاربة وعلى رأسهم المغفور له الملك محمد الخامس- أن يؤدوا بعض ما عليهم من واجبات نحو هذا المعهد العظيم الذي نقدر جيداً دوره في الحفاظ على الحرف العربي بالغرب الإسلامي، وكان من الطبيعي أن تشاركنا فرحتنا بهذا العيد سائر الدول التي كان لنا صلة معها من قريب أو بعيد.

وقد كان في صدر هذه الدول المملكة الأردنية الهاشمية التي أوفدت إلينا الشيخ إبراهيم القطان الذي أبى إلا أن تكون تحيته لجامعة فاس قصيدة شعرية رفيعة بعنوان: "مواكب المجد" قوطع إنشادها بعاصفة من التصفيقات:

عيد الفخار و عيد العلم و الأدب خفت إليك وفود الغرب و العرب

جاءوا لجامعة كالنجم عالية شابت نواصي الليالي وهي لم تشب

---

(٥) جرت عادة المغاربة على توزيع تلاوة المصحف حزبين كل يوم، أحدهما يتلى صباحاً والثاني مساءً.

أفنت قروناً و مرت في حوادثها تزري بهن ولم تسأل عن النوب

مواكب المجد في أرجائها احتشدت في مسمع الدهر لم تخفت و لم تغب

يا أيها الحرم الزاهي بأنجمه تلألأ المجد في أرجائك الرحب

وقفت حرباً على الباغي بصادقة من العزيمة و التصميم و الدأب

وحلت بين الذي يبغيه من ضرر للدين واللغة الفصحى و من كرب

من موطن الوحي في الأقصى وصخرته أرض النبوة والإسراء و الحسب

مهد الخليل وعيسى في قداسته جئنا بأشواقنا للمغرب العربي

نهدي التحيات والأشواق لاهبة إلى بني عمنا و الأخوة الغلب

و قد تركنا نفوساً كلها أمل يهزها الشوق لم تيأس و لم تخب

نحمي الحدود بعزم ما دق(*) ؟؟ ويد على الجهاد لصد الغاشم الكلب

يا أهل فاس لقد فزتم بمكرمة تاهت على الكون في الدنيا من العجب

فزتم بجامعة كالشمس مشرقة قد خلدتكم مدى الأزمان و الحقب

سقياً لشعبكم سقيا لجامعكم سقيا لموطنكم من موطن خصب

لقد كان عطاء الشيخ إبراهيم في هذا اللقاء عطاءً جزلاً.. فعلاوة على قصيدته التي تركت صداها، قدم إلينا كلمة تاريخية أسهم بها سماحة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي وزير التربية والتعليم في الأردن، وكانت تحمل عنوان: **جامعة القرويين بين القديم والحديث.**

وإن الذين يعرفون- كما أسلفت – عن دور هذا الجامع في سائر الجهات التي تقع جنوب المغرب ليدرك معنى ودلالة حديث الشيخ الشنقيطي بالذات عن إشعاع جامعة فاس؛ لا سيما والشيخ الشنقيطي يمثّل أسمى فكرة أن لا حدود بين أفراد المجموعة الإسلامية !!

(*) من الفعل مَدَقَ بمعنى كسر.

ولقد أتبعنا الشيخ القطان الكرامة حيث قام بتغطية المهرجان في مجلة هدى الإسلام الأردنية.

(وقد افترقنا وكأننا على موعد في القاهرة في يناير ١٩٦١م لحضور اجتماعات الدورة الرابعة عشرة للجنة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية)، كانت هناك فرصة أخرى لصلة الرحم بالشيخ إبراهيم القطان الذي اجتمعنا به هذه المرة صحبة طائفة من رجال الفكر وأقطاب العلم.

لقد ارتفعت الكلفة بيني وبين الشيخ، وكان في الإمكان أن نظل هكذا على اتصال؛ بيد أنه في الوقت الذي كانت الأقدار تدخر له مقاماً طويلاً في المغرب بمناسبة تعيينه سفيراً لبلاده ١٩٦٧ - ١٩٧٣م، وفي هذا الوقت بالذات حكمت الأقدار بأن أرحل عن المغرب إلى الشرق لأمثّل بلادي أيضاً في بلاد الرافدين..

ومع ذلك فقد ظللنا على مراسلات منتظمة تناولت مختلف الموضوعات، وكان فيها ما يحتوي على المفاكهة في القول والمباسطة في الخطاب وهذا جانب طريف في حياة الفقيد ينم عن أريحية وكرم نفس، وقد كان من أبرز تلك المراسلات ما يتصل بالتعليق والتعقيب على ما نتهاداه من بحوث ومؤلفات.. وما أزال أذكر إيثاري بإهدائي النسخة الأولى من كتابه **عثرات المنجد في الآداب والعلوم والأعلام.**

لقد كانت النظرة الأولى على هذا الكتاب مدعاة للإشادة بهذا العمل الفذ الذي ينم عن اطلاع واسع، وعلى علم جم، إلى جانب الدأب والنفس الطويل، بالإضافة إلى ما يعبر عنه من غيرة زائدة على العربية وحرص كبير على سلامة المعلومات المقدمة لأجيالنا الصاعدة.

لقد بلغ عدد المفردات التي حقّقها أو ضبطها أو أوضحها إلى ألفين وأربعمائة وأربع وثلاثين مادة، كما بلغت صفحات الكتاب ستمائة وأربعاً وستين صفحة، إنه منجد آخر!!

وقد حبّب إليّ وأنا بالمغرب أن أقوم بجرد للائحة المفردات التي تصف بلادي المغرب مما كان حظه في المنجد على غير ما ترتضيه الحقيقة المنشودة... مثل ما ورد عن مدينة (آسفي) بأنها بكسر الهمزة وما ورد عن الأشراف العلويين من أنهم حسينيون

مع أنهم حسنيون..! وما ورد عن (الجزولي) و(حزب البحر) و(مولاي بوشتي) وأنه شفيع الموسيقيين.

لم يكن ذلك أول ولا آخر بحث عرفته لقاضي القضاة الذي كان حركة لا تنضب، فقد أتحفني بعمله الجليل الذي قام به تحية لمطلع القرن الخامس عشر الهجري تيسير التفسير، الذي جعل له مقدمة ينبغي أن يجعلها المهتمون بدراسة القرآن الكريم ورقة عمل يعتمدونها قبل المضي في محاولة استكشاف معاني كتاب الله: "إن استخدام آيات القرآن لتأييد الفرق والمذاهب والخلافات المذهبية، واستنباط العلوم الكونية والمعارف النظرية الحديثة من بعض الآيات، وكذلك حمله على مذهب اقتصادي معين ... كل هذه المحاولات مما ينبغي أن ينزه القرآن عنها، فلندع للقرآن عظمته وجلاله ولنحفظ عليه وعلى قدسيته ومهابته" – يقول الشيخ القطان.

إن المقدمة التي تعمّد الأستاذ القطان أن يجعلها بين يدي القارئ كانت نتيجة، دون شك، لحضور دائم للشيخ في المؤتمرات التي عالجت الموضوع أو في المؤلفات التي أخذت تتناول مثل هذه المعلومات.

ولقد شاءت الأقدار أن تجمعني به علاوة على مجمع اللغة العربية بالقاهرة، انتماؤنا إلى مؤسسة واحدة هي مؤسسة آل البيت: المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية.

وقد كان آخر لقاء لي بالفقيد العزيز في القاهرة عندما حضرنا الاحتفال الخمسيني لميلاد مجمعنا الموقر حيث ظلَلت معه على صلة مستمرة، وكان آخر يوم ودعته فيه هو الذي تناولت معه طعام الغذاء على مائدة واحدة في فندق ضخم قريب من منطقة الأهرام ...

رحم الله الزميل العزيز أبا اياد، لقد كان يملأ المجالس بعلمه ويغمرها بفضله وكانت خطواته مُسخَّرة لخدمة الناس وخدمة العالم العام.

كانت خِلاله، رحمه الله، نسيج وحدها، ولذلك فانه إذا كان لي ما أرجوه فهو أن يهتم أبناؤه وزملاؤه بما خلّفه من مذكرات ومؤلفات.. لا أقصد هنا فقط نتاجه الفقهي واللغوي والأدبي، ولكن أقصد كذلك ما حرّره، أو على الأصح بعض ما حرره مما يتصل بحياته الدبلوماسية فما كان لي أن أبحثه في وزارة الخارجية الأردنية في تقاريره، ولا

في تحليلاته للأحداث من منظوره هو ... ولكني مؤمن بأن السفير إذا كان يتوفر على رصيد أدبي وعلمي وفقهي في حجم ما كان يتوفر عليه الشيخ القطان فإن تقاريره وتحليلاته ستكتسي حلّة أخرى قشيبة، وستكون مثلاً في الرأي الراجح والإدراك المتزن، كما أنها ستكون من جهة أخرى عامل بناء في طريق العلاقات، وليس عامل هدم أو تثبيط، وستكون، كما أعتقد، لبنة في مدّ الجسور بين الناس وليس إلى نسفها..

لقد كان مثلاً في دماثة الخلق وفي حصافة الرأي ... وإنه فعلاً جدير بتكريم المملكة الأردنية له، فقد كان ابنها البار الذي أعطى وما بخل، والذي ظلّ إلى آخر لحظة من حياته وفياً لرجالها وقادتها ومبادئها ... وإن دولة تحتفي بعلمائها على هذا النحو، وتجيب عن ذلك الولاء بالوفاء، وتستقبل تلك اللوذعية بهذه الأريحية لجديرة بأن تظلّ دولة شامخة في سماء الخلق الرفيع، وجديرة أن تعد في صدر الأمم الواصلة التي تعرف كيف تحافظ على استمراريتها بإنصاف الذاهبين والإغداق على العاملين وتمهيد الطريق للناشئين، إن الدولة بذلك تبرهن على أصالة ومصداقية في الرسالة وثقة بالمستقبل.

إن مثل هذه الالتفاتات مع الراحلين هي التي تجعل منهم قوماً خالدين وهي التي تفتح الآفاق للحاضرين ليمضوا في خطواتهم آمنين مطمئنين.

سَماحَة المغفور له الشيخ (إبراهيم القطان)
كما عرفته: جَاراً وصديقاً وزميلاً! (•)
١٩١٦ - ١٩٨٤

من قلم: روكس بن زائد العزيزي(••)
مجمع اللغة العربية الأردني

طراز خاص من الناس، وجه سمح، فيه إنسانية متميزة، نقاوة قلب، طيب سريرة، محبة للناس، استعداد فطري لمساعدة كل محتاج إلى مساعدته. فعينان هادئتان مطمئنتان، تنم نظراتهما عن ألمعيّة وذكاء؛ يزينه علم جمّ، ليس علم الساعة، وتواضع لا غضاضة فيه، بعيد عن كل عجب وازدهاء.

انسجام تام بين مظهره الأنيق، ومخبره الأشد أناقة، صادق الوعد إذا وعد، شديد الاحترام لكلمته. ما لجأ إليه أحد – على حد ما أعلم – في ضيق إلاّ سعى إلى مساعدته، واسع الآفاق النفسية، يكره الجمود والتعصُّب، يؤمن بالتجديد، ولا يخاف من التطور، ويترجم أقواله أفعالاً. جاء في مقدمة كتابه تيسير التفسير رداً على من لا يدرك عظمة القرآن الكريم، وعلى كل من يخاف التجديد، ويحارب التطور. يقول المغفور له: "فلندع لِـ (القرآن) عظمته وجلالته، ولنحفظ عليه قدسيته ومهابته. لنعلم أنّ ما تضمّنه من الإشارة إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة، إنما قصد منه الحث على التأمل والبحث والنظر، ليزداد الناس إيماناً مع إيمانهم. وحسبنا أن (القرآن) لم يصادم حقيقة من حقائق العلوم، تَطمئن إليها – العقول (١) ".

ثم يقول ما حرفه: "ليس معنى هذا أن نبقى جامدين لا نتحرك، نقف عند ما قاله الأولون، ولا نبتغي بالقديم بديلاً، إن هذا منافٍ لروح الإسلام وتعاليمه. يأباه الدين

(•) نُشر هذا المقال في المجلة الثقافية التي تصدرها الجامعة الأردنية، العدد العشرون (٢٠) جمادى الآخرة ١٤١٠هـ، كانون الثاني (يناير) ١٩٩٠م.

(••) روكس بن زائد العزيزي (١٩٠٣ – ٢٠٠٤م) : أُنظر ترجمته في **قاموس المؤلفين في شرقي الأردن**، كايد مصطفى هاشم، المطابع العسكرية، عمان، ١٩٩٥.

(١) مقدمة تيسير التفسير الصفحة الـ ١١ (قام بضبطه والإشراف على طباعته عمران أحمد أبو حجلة، ط١، مطابع الجمعية العلمية الملكية، عمّان، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).

كما يرفضه العقل. إنّنا نرحّب بكل ما ينفع الناس، ونشجع البحث العلمي والاكتشافات. وكيف لا نفعل ؟ والأفكار في تجدُّد والثقافات تتلاقح، والحياة تتطور، والعلم يأتي كل يوم بشيء جديد. إن البقاء على ما قاله الأولون دون تجديد وابتكار، لهو جمود وتخلُّف، وأما الاقتدار على التحرك والتصرف، وتمييز الغث من السمين، وتنازع البقاء وبقاء الأصلح، فهي علامة الحياة، ومنطق الوجود وسنة الله في خلقه (٢) ".

• • •

لقد كان – بلا مبالغة – علاَّمة حجة في علوم الدين وعلوم اللغة العربية، وحسبه كتابه النفيس (**تيسير التفسير**) في أجزائه الأربعة، التي نيّفت على (٢٧٦٠) ألفين وسبعمئة وستين صفحة من القطع الكبير، جاء فيها بما يرضاه الخاصة ويفهمه العامة، لأنه تحامى الاصطلاحات الجافة، والخلافات الكثيرة التي لا تخدم المعنى، تحاشاها في الأجزاء الأربعة واكتفى بلباب اللباب، فاستحق الثناء الطيّب من كل منصف.

أما كتابه النفيس (**عثرات المنجد**) – في **الأدب والعلوم والأعلام** – في (٦٦٤) ستمائة وأربع وستين صفحة من القطع الكبير، الذي نقد فيه (٢٤٣٤) ألفين وأربعمائة وأربعاً وثلاثين مادة وردت مخطوءاً فيها في طبعات هذا الكتاب الثلاث (٣)... فتردد صدى هذا العمل في الأندية العلمية، فانتخب سماحته طيب الله ثراه من أجل عمله هذا عضواً لمجمع اللغة العربية في (القاهرة)، ثم انتخب عضواً لمجمع اللغة العربية الأردني، ثم اختير عضواً لمجمع اللغة العربية في (العراق).

• • •

ولأن المغفور له كان مطبوعاً – غير مخيرٍ – على حب الحقيقة والاعتراف بها – أثنى في جلساته الخاصة على (**المنجد في الأدب والعلوم والأعلام**) في طبعاته الخالية من الأخطاء التي تتبعها في طبعاته الثلاث. أما ثناؤه الطيب على (**المنجد اللغوي**) تأليف المرحوم الأب (لويس المعلوف) – الذي ظهرت طبعته التاسعة والعشرون، وكان الآباء اليسوعيون يؤلفون لكل طبعة جديدة لجنة من كبار اللغويين للإشراف على كل

---

(٢) مقدمة (تيسير التفسير) الصفحة الـ ١١.

(٣) (عثرات المنجد) الطبعة الأولى ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢م.

كلمة – فقد قال عليه المغفور له: "إن المنجد في طبعاته الجديدة أضحى من أحسن المعاجم العربية، لما فيه من دقة وضبط للكلمات ولا سيما ضبط عين الفعل المضارع، ولما اشتمل عليه من لوحات وخرائط ملونة، وطبع جذور المادة بالمداد الأحمر وفق هذا التنبيه على أصول الكلمات الأعجمية التي عُرِّبت في كل العصور، فلا يكتفي بالقول: إن الكلمة أعجمية، بل يذكر من أية لغة أُخذت. كقوله مثلاً:

أ- الأرغن – يونانية،

ب- الأستاذ – فارسية،

ج- الإسربّ – الرصاص – فارسية،

د- الاسطرلاب – يونانية،

هـ- الإسمنت – لاتينية،

و- الإشنان – والعامة تقول – "الوشنان" – يونانية،

ز- البالون – المنطاد – فرنسية

ح- البلاط – بمعنى القصر – لاتينية.

إلى غير ذلك، وهو كثير.

• • •

أعود فأقول إن سماحة المغفور له كان يقول: إن المنجد اللغوي تحفة من التحف لا يعلو عليه معجم عربي إتقاناً وتيسيراً. ولم تأسره المقولة التي روجها بعضهم: "المنجد لا ينجد نفسه" مقولة أطلقت على طبعة (المنجد) اللغوي الأولى التي برزت سنة ١٩٠٨ وكنا قد نقدناها – على قلّة بضاعتنا – سنة ١٩٢٩ عندما كنّا في (السلط)، ونشرنا نقدنا هذا في مجلة الإخاء لصاحبها المرحوم الأستاذ (سليم قبعين) فتنبه إلى ذلك الفذ الاستيام الحجّة الأب (أنستاس ماري الكرملي) فأشار إلى تلميذه العلامة المعروف (مصطفى جواد) أن يرد على ذاك النقد الذي استمر فيه النقاش كل سنة المجلة (٤).

---

(٤) مقولة المنجد لا ينجد نفسه تنسب إلى المغفور له جلالة الملك عبدالله الشهيد قالها على الطبعة الأولى من المنجد التي صدرت سنة ١٩٠٨ يوم سأل من في ديوانه عن فعل مضارع صيغةً وهو ماض فعلاً، وتلك من طرائف اللغة العربية، فلم يكن في الديوان من يجيب، فقال: – طيب الله ثراه – "إنه فعل يُرَنَّأ" بمعنى صبغ لحيته باليُرَنَأ – الحناء – فظل الناس يرددون. نحن نطالع الطبعة التاسعة والعشرين وهي بشهادة سماحة المغفور له من خير الطبعات في معاجم العرب الميسرة.

وقد كان سماحة المغفور له، يعجب بـ (الجاحظ) الذي يلقب بـ (فولتير العرب) ولإعجابه به، استعار منه ست جمل بحروفها من مقدمة البيان والتبيين من جزئه الأول، يوم كثر الثّناء الطيب على تيسير التفسير. فلتواضعه قال: "اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلّف لما لا نحسن، كما نعوذ بك من العُجب بما نحسن. ونعوذ بك من فضول الكلام والهذر (٥)، كما نعوذ بك من العي والحصر".

قلت إنه كان علامة في علوم الدين واللغة، متواضعاً. فليسمح لي القاريء الكريم بأن أعزز قولي بما قاله علامة حجة هو الأستاذ الدكتور (ناصر الدين الأسد) وزير التعليم العالي، ورئيس مؤسسة آل البيت لبحوث الحضارة الإسلامية، فهو لا يلقي الكلام على عواهنه. يقول: "كانت إطلالة طلعته، وحسن بزّته، ووقار سمته، وتمكن جلسته وعذوبة بسمته، أول ما يطالعنا منه، فتستقر النفوس وتهدأ، ونحاول أن نسايره في بعض حاله، ونقلده في بعض شأنه. كأنما نخجل أن نبدو على خلاف ما يبدو عليه من الهدوء والثبات. وما يكاد جليسه يحدثه بسريرته ويكشف له عما يستبد به – مهما يكن موضوع الحديث مثيراً للقلق داعياً إلى الإزعاج، في نفس المتحدث والسامع معاً – حتى ترى نظرته الهادئة الخافية باقية كما كانت، لا يصيبها من الغشاوة واضطراب الحركة ما يصيب عادة من يدهشه ما يسمع أو يحيره، فيكون ذلك ثاني ما يطالعنا منه، فتزداد النفوس طمأنينة".

ويقول أستاذنا (أبو البشر): "ما سمعناه مرة مجابهاً لأحد بتأنيب، أو مواجهاً له بتعنيف، ولم نره قط مُربدّ الوجه من أثر الغضب أو الملاحاة، ولم نشهده في مجلس يشتدٌ في الجدال والخصام مشاركاً في شيء منه، فإن استطاع أن يفصل في الأمر بالقول اللين والكلمة الطيبة فَعَل، وإلا آثر الصمت، كأنما يخشى أن يصدر منه ما يؤذي سمع جليسه أو يجرح نفسه".

---

(٥) الجملة الأخيرة هي في مقدمة البيان والتبيين: "ونعوذ بك من السلاطة والهذر".

أرأيت الخلق المصفّى، والأدب المنزّه عن كل شائبة؟ أرأيت التواضع المهذب الذي لا غضاضة فيه؟ كل هذه بعض المكونات لشخصية المغفور له (أبي إياد)! (٦).

• • •

ولد — المغفور له — طيب الله ثراه، وجعل أعلى علّيين مأواه — في (عمّان) عام ١٩١٦ وأتم دراسته إلى نهاية المرحلة الإعدادية في مدارس عمَّان. وعلّمه معظم العلوم الشرعية المرحوم الشيخ (محمد الخضر الشنقيطي). وبعد ذلك التحق بكلية الشريعة في الأزهر الشريف، إلى أن نال (الليسانس) في الشريعة عام ١٩٣٩. وفي عام ١٩٤١ منح شهادة العالمية والتخصص بالقضاء الشرعي. فلما عاد الى الوطن عين رئيساً لكتاب المحكمة الشرعية في (عمّان). وهنا يجب أن نقول: إن همته العصامية سمت به متدرجاً من كاتب الى أسمى المراتب. إذ عين قاضياً لمحكمة (الكرك) الشرعية، وبعد نحو خمسة أعوام نقل الى وزارة التربية والتعليم مفتشاً لعلوم الدين واللغة العربية. وبعد نحو أربعة أعوام نقل مديراً للمحاكم الشرعية. ومن مديرية المحاكم الشرعية عين قاضياً للقضاة، ووزيراً للتربية والتعليم. وبعد أن استقالت الوزارة عمل محامياً. وفي أيار سنة ١٩٦٥ عين رائداً لصاحب السمو الملكي الأمير (الحسن) — ولي العهد الأمين — بدرجة سفير بوزارة الخارجية. وبقي مع صاحب السمو الملكي في (أكسفورد) إلى نهاية شهر تموز عام ١٩٦٧.

وفي السنة نفسها أي ١٩٦٧ في شهر أغسطس عين سفيراً للمملكة الأردنية الهاشمية في المملكة المغربية، وسفيراً غير مقيم لدولة (موريتانيا) إلى آخر شهر آذار عام ١٩٧٣. وفي تموز من عام ١٩٧٣ عين سفيراً للأردن في دولة (الكويت) إلى أن نقل إلى المركز في (عمان) فعمل محاضراً في كلية الشريعة بالجامعة الأردنية بموضوع مقارنة الأديان إلى آخر عام ١٩٧٤.

وفي أوائل عام ١٩٧٥ عين سماحته سفيراً للأردن في (باكستان) وسفيراً غير مقيم

(٦) من مقدمة الأستاذ العلامة الدكتور (ناصر الدين الأسد) للجزء الرابع من تيسير التفسير صفحة (ت) وصفحة (ث).

في (ماليزيا) وظل يشغل هذا المنصب إلى أن عين قاضياً للقضاة في أوائل شهر حزيران عام ١٩٧٧، وظل يشغله إلى أن لقي ربه راضياً مرضياً.

• • •

وللمغفور له مشاركة في نحو ثلاثين كتاباً مدرسياً ما عدا مشاركته لكاتب هذه السطور في كتاب **المبتكر لتعليم اللغة العربية** المصوَّر بالألوان ومرشده لتعليم صف البستان، والصف الأول الابتدائي، وما عدا تفضله بوضع فصل خاص بكتاب **المنهل في تاريخ الأدب العربي** لتعليم الصفوف الثانوية وقَفَه على القرآن الكريم والحديث الشريف. أما الفصل الخاص بالقرآن الكريم والحديث الشريف في الجزء الثالث من **المنهل في تاريخ الأدب العربي** فوضعه – متفضلاً سماحة العلامة الدكتور (محمد عبد المنعم خفاجي).

ولسماحته ستة مؤلفات قيِّمة مخطوطة تنتظر الطبع:- غير ما سلف من المطبوع.

أ- مجلدان يشتملان على المحاضرات والمقالات، التي نشر بعضها في الصحف والمجلات.

ب- مجلدان لمجموعتين. إحداهما مختارات من النثر طيبة، فيها الحكم والأمثال. والثانية تضم أطرب الشعر، فيها نحو خمسة آلاف بيت مختارة من أعصر الأدب العربي كلها، وقطع من الشعر العالمي.

ج- مجلد يحتوي على ما ألقى سماحته من محاضرات في المقارنة بين الأديان على طلابه في الجامعة الأردنية.

د- مجلد يتناول سيرته الشخصية، ومن خلال هذه السيرة الخصبة تطرَّق – رحمه الله – إلى تاريخ (عمّان) وإلى جانب كبير من الحياة الأدبية في الديار المصرية، إبان طلبه للعلم في (الأزهر الشريف). ولعل هذا المجلد يدل دلالة واضحة على ما طبع عليه سماحته من الحرص على الوقت والاستفادة منه، فهو بهذا قدوة، لا بل مدرسة للعصامية الراقية والهمة العالية.

هـ- مجلد في أدب الرحلات، يشتمل على أوصاف دقيقة للبلاد التي زارها، وعلى انطباعاته ومشاهداته. وفي هذا المجلد إمتاع خاص.

و- مجلد يشتمل على خمس وعشرين (خطبة جمعة) من الخطب التي ألقاها في مساجد (عمّان) خلال تولّيه - بجدارة فائقة - منصب قاضي القضاة.

ولعل الذي أعانه على كل ما أتى به من الأعمال الخيرة هو حياته الهانئة في أسرة هادئة مستقرّة، إذ وهب له الباري زوجة فضلى غرست في قلبه احترام المرأة. رزقه الله منها أربع بنات مهذبات وولدين فاضلين هما:-

١ - الأستاذ الأديب (إياد) الذي كان يكنى به.

٢ - والأستاذ المهندس الراقي (أنس) (٧).

• • •

عرفته - طيب الله ثراه - غيوراً على تحقيق العدالة، منتصراً للحق، ولو أدّى ذلك إلى تعطيل مصالحه. فأنا أعرف معرفة دقيقة أردنياً بارزاً تحامل عليه الحاقدون، فاختلقوا مشكلة شائكة ليدمروه اجتماعياً، وكادت ألاعيبهم تنجح، لو لم يقيض الله لهذه المشكلة سماحة المغفور له (الشيخ القطان) الذي بيّن زيف ما يدعي الخصوم، ولم يتوقع حمداً ولا شكوراً.

• • •

أما احترامه للجار، فحدث عنه ولا حرج، إذ كان شعاره: "لقد وصاني (جبريل) بالجار حتى ظننت أنه سيورثه". كان لدار سماحته في (جبل عمان) طريقان:

أ- طريق شمالي يشارك فيه جاره،

ب- وطريق جنوبي يمر من (شارع البحتري) خاص به، فاتفق أن مر سماحته - في يوم ماطر- من الطريق الشمالي، فرأى مياه المطر تتجمع بفناء دار جاره إلى حد يجعل الوصول إلى مدخلها صعباً، فمن غير أن يسأل جاره، أحضر عمّالاً، وأمرهم أن يشقوا قناة في حوش جاره لتصريف المياه. وترك تلك الطريق لجاره، فكأنه قد ورّث الجار نصيباً في ملكه من غير أن يمن، أو يذكر ذلك لأحد.

• • •

(٧) من مذكراتي المخطوطة.

كانت الزيارات بيننا متصلة، فكنت ألتقي رجلاً ممن أدركتهم حرفة الأدب عند سماحة المغفور له، في يوم معين من الشهر، فأدركت ان (أبا إياد) – يرحمه الله – يبر هذا الإنسان بشيء معلوم، ثم علمت أن له حسنات لمحاويج مستورين. وأعتقد يقيناً أن أسرته لا تعرف الكثير من هذا، لأنه من الناس الذين لا تعرف شمالهم ما تصنع يمينهم.

• • •

بقي لي أن أقول: إن تكريم سماحة المغفور له (أبي إياد) واجب. وخير تكريم له هو طبع مؤلفاته المخطوطة. ولعل وزارة الثقافة والتراث القومي لا تبخل بذلك. أقول هذا، وإن كان شيخنا المغفور له قد كتب اسمه في سجل الخلود بأعظم ما تعجز عنه مجموعة علماء. أعني به تيسير التفسير.

• • •

كيف عرفت الشيخ القطّان(•)

بقلم: جعفر الخليلي

لو تصدّى الكُتّاب أو بعضهم لوصف أول التقائهم المرموقين أو أول معرفتهم بهم لحصلنا على قصص شائقة رائعة تكشف لنا عن أساليب جديدة من علم النفس، وتجلو لنا الصور التي تزيدنا معرفة بالناس والمرموقين منهم خاصة، إضافة الى المتعة الحاصلة من سرد قصص التعريف عن كثب بهذه الثلة من الناس.

حين انتشرت الطبعة الجديدة من المنجد في اللغة والأدب والعلوم بعد أن كان المنجد مقتصراً على اللغة وحدها الذي أشرف على تأليفه المرحوم (لويس معلوف) وتولى بعد ذلك توسعته المرحوم الأب فردينان توتل، كان ذلك بمثابة الفتح الكبير في الثقافة العربية لا سيما ما بذل هذا الأب من جهود في جمع المصادر، والاستعانة بالموسوعات الأجنبية فيما يخص الجغرافيا وتراجم الرجال المبسطة، والقضايا التاريخية العامة. ولما كان مثل هذا العمل من الخطورة بحيث يصعب أن يسلم الكتاب من الأخطاء والسهاء فقد أخذ عليه بعض النقاد بعض ما وقع في طريقهم من الأغلاط والاشتباهات، وأنا نفسي كتبت للأب توتل بشيء قليل مما رأيت، فرد عليّ بأنه هكذا وجد الأمر في المصادر التي اعتمدها، ولربما كان هذا نفس الجواب الذي كان يجيب به ناقديه على ما علمت، ولما كان كتابٌ كهذا سيكون له شأنه في مراجعة اللغة والأدب والعلوم فقد كان الواجب يفرض على العلماء وأرباب الاختصاص التصدي لغربلة ما وقع فيه الأب توتل من أغلاط لا يجوز السكوت عليها، ولكن لم ينبرِ أحد لذلك.

وتمرّ الأيام وتظهر مجلة العربي الكويتية بنقد واسع مستند إلى المصادر، ومدروس درساً عميقاً وافياً وكافياً لم يترك فيه شيئاً لم يشر إليه باسم كاتبه إبراهيم القطان، وقد كان هذا الرجل هو الذي تولى الأمر نيابة عن أئمة العلوم العربية، وقيل لي إنه جمع بعد ذلك ما نشره في العربي في كتاب مستقل لم يُكتب لي أن أراه، وكل ما رأيت وقرأت هو هذا النقد البارع الموزون الدال على اطلاع واسع، وقدرة وافية في البحث والاستقصاء المنشور في مجلة العربي على ما أذكر.

(•) جريدة الرأي، عمّان، الجمعة ٥/ ١٠/ ١٩٨٤م.

وهنا أسمع باسم إبراهيم القطان لأول مرة وأتوق إليه ولكن أهو هذا الأديب العالم؟ لا أدري، ولم يمر بعض الوقت حتى أقامت حكومة الباكستان احتفال تكريم لذكرى الشاعر المتصوف الكبير (أمير خسرو) ونهجه في دنياه، ومذهبه في تصوفه وأدبه، وطلبت إلى البعض إعداد محاضرة كاملة بوجهة أنظارهم في جانب معين من جوانب هذا الشاعر الإسلامي الكبير، ولم تكن لي بالباكستان أية صلة أو ارتباطات رسمية أو غير رسمية لأعزو إليها السبب في دعوتي والإصرار بأن أكون من المحاضرين في هذا الاحتفال، وهكذا كان بإلحاح من السفارة الباكستانية ببغداد؛ فسافرت الى (روالبندي).

وفي يوم الافتتاح كانت القاعة الكبرى تعج بالحاضرين من الوزراء وعلى رأسهم المرحوم علي بوتو، والسفراء، وكبار المدعوين من الخارج والداخل، وافتتح الحفل قارىء باكستاني بهر الحاضرين بحسن أدائه وترتيله الآيات القرآنية، وقد قيل إنه القارىء الذي فاز على جميع قراء القرآن في المسابقة.

وكان بين الحاضرين قبل افتتاح الحفل وبعده رجل طويل القامة يعلو وجهه شيء غير قليل من الوقار في لحية خفيفة محببة تستر رأسه كوفية تنزل ذؤابتاها من وراء الكتفين إلى ما بعد نهاية الصدر كما لو كانت (يشماغاً) إلاّ أنها بيضاء وبدون أن يعلوها (عقال) وقد شبهته بالشيخ حسن آل الشيخ وزير التعليم العالي في السعودية الذي يلبس الكوفية البيضاء بدون عقال، تواضعاً منه وانكسار نفس، فظننت هذا الرجل من السعوديين المدعوين للحفل، أو أنه السفير السعودي في الباكستان يسير على سيرة المتواضعين من السعوديين، وكل هذا الظن مقيس على الشيخ حسن آل الشيخ البعيد عن التباهي.

وكان سفير العراق في الباكستان يومذاك الأستاذ عبد الملك الزيبق وقد تفضل بتكريمي في حفلة غداء دعا إليها سفراء الدول العربية، وإذا بصاحب الكوفية البيضاء أمامي هناك، وإذا به الشيخ إبراهيم القطان وأنه سفير حكومة الأردن في الباكستان، وأفهم أنه شيخ أدب وعلم ودين لا شيخ قبيلة وزعيم عشيرة، وأنه يرتدي السترة والبنطلون تُسدل عليهما جبة طويلة قد تبلغ الكعب بما يقل عن الشبر، وأنه هو صاحب ذلك النقد القيم لكتاب (المنجد) فيما كتبه الأب توتل، ولا تسل عن فرحتي به، ويدور

هناك الحديث حول المنجد ويشارك الحاضرون من السفراء في الموضوع سواء الذين كانوا يعلمون شيئاً عنه أو الذين لا يعلمون، كما دار الحديث عن محاضرتي عن الشاعر (أمير خسرو) التي لم تخل من نقد لجوانب من سلوك (أمير خسرو) ومناقشة تصوفه التي سببت شيئاً من الهياج أراد الشيخ إبراهيم القطان أن يعرف سبب الهياج عند الباكستانيين وعدم الرضا عند البعض من السذج.

وأحسست وأنا أكلم الشيخ القطان بأني أمام رجل دمث الأخلاق، لين العريكة، يزن الكلمة قبل أن ينطق بها، وله جاذبية من طلاقة الوجه وبهجته تبعده عن ذلك الصنف المتحذلق المتزمّت من بعض المشايخ الذين اعتادوا أن يعقّدوا مناهج الدين السهلة اليسيرة، وقد فرحت به كثيراً ولم يسعني أن أراه بعد ذلك، وعدت إلى بغداد ولم أسمع عنه شيئاً، وإذا لم يكن من المعيب القول إني نسيته فقد نسيته، والمعذرة هي أنني أنسى الشيء الكثير إذا لم يتكرر على ذهني في العراق.

ومرت سنين لا أعرف كم هي اقتضى في أثنائها أن أُعالج عيني وقلبي بعمّان ولم يكن لي يومذاك منزل وإنما كان ملتقاي عند الصديق روكس العزيزي، وهنا يتفضل الشيخ إبراهيم بزيارتي، ويتفضل معه رهط أعتز بتعريفي إليهم وجاهاً لأول مرة، أذكر منهم الشاعر الكبير حسني فريز، وقاضي الاستئناف الأستاذ ماجد غنما (نائب المدعي العام اليوم)، والصديق الدكتور عيسى الناعوري الأمين العام لمجمع اللغة العربية الأردني، وإذا بتلك الكوفية البيضاء التي كانت تغطي رأس السفير الأردني قد تحولت إلى عمامة بيضاء ذات طيات يخسأ الشيطان أن يختفي بين طية منها، وإذا بالدبلوماسية تتحول عند الشيخ إلى التشريع ويصبح قاضي القضاة، وتصبح عمامته رمزاً للصلاح ومقتدى للمعممين الصالحين.

أقول وقد عجَّ المجلس في تلك الليلة وضجَّ بالأدب وحديث الأدباء وتجلت موهبة الشيخ القطان بما فاض به من مختلف الأحاديث والتعليقات بين الحُضّار من حملة الأقلام، وكثرت بعد ذلك اللقاءات بيني وبينه بعمّان سواء في بيته الكريم أو في أندية المجمع اللغوي وفي مواسم محاضراته، ويكبر الرجل في عيني أكثر وأكثر.

ولكن مدى بلوغ موهبته يظل مجهولاً عندي حتى صدر له الجزء الأول والثاني من تيسير التفسير للقرآن الكريم.

والتيسير هذا يعني (الإيجاز) في (البديع)، وإذا علمنا أن بلاغة القرآن وسحره ومعجزته البيانية منحصرة (بالإيجاز) علمنا مدى أهمية الإيجاز في الأدب العربي ولغته، ولقد سعى قبل الشيخ القطّان كثيرون من المفسِّرين أن يفسروا القرآن ويوجزوا أمثال الشيخ الطوسي في تفسيره، والجلالين في تفسيرهما، والبيضاوي، وعشرات غيرهم، فكان عدد الذين أحسنوا الإيجاز مع حفظ المعنى قليلاً، وكان الشيخ القطّان من هذا القليل، ولقد والله غبطته بل تمنيت — على ضآلة قدري — لو شاركته في هذا العمل، فقد كانت تجمعني وإياه العقيدة في حصيلته من مختلف التفاسير . . . باستثناء البعض من المبهمات من قبيل تفسير صدور السور من أمثال (كهيعص) و (حم عسق) و (ألم) وغيرها الذي حاول الدكتور بهاء الوردي الاهتداء إلى تفسيرها عن طريق دراسة الأعداد واللغة السومرية والفرعونية، وقد كاد يصيب في البعض إن لم يصب في الجميع، إلى غير ذلك من الاختلاف بيني وبين القطان في إسرائيل، واليهود على الأخص، وفيما يخص القراء السبعة أو العشرة إن أردت الزيادة على الأخص الأخص.

وهنا بانت موهبة الشيخ القطان ومكانته العلمية، وإحاطته الأدبية بأجلى صورها، وبدأ اليقين يؤكد لنا أننا أمام مجموعة مزودة بكل ما تريد الشريعة الإسلامية والأدب الرفيع من العلماء والمجتهدين، لذلك كانت خسارة الدين والأدب العربي بفقد القطان فادحة كبيرة وجد كبيرة.

ولست أدري من أين جاء بهذه الثقة التي أغدقها عليّ ونعتني بالعلامة وكوني من أساتذته حتى وإن يكن متواضعاً وفي غاية التواضع فأنا أدرى بنفسي منه ودرايتي عن يقين بأنني من آخر الصف إذا صُفَّ القراء والكُتَّاب، فأين أنا من الأساتذة والأعلام والعلاَّمَات ؟ فحين كتبت له تعليقتي على الجزء الأول من تيسير التفسير اقتطف من تعليقتي جانباً وأدرجه في آخر الجزء الثاني من التيسير وعلق عليه قائلاً:

"ويقول أستاذنا الجليل الباحث الكبير جعفر الخليلي حفظه الله في رسالته القيمة التي أفاض فيها وأشاد، وأبدى ملاحظات قيمة اقتطف منها بعض الجمل".

وحين أورد المقتطفات من رسالتي في آخر الجزء الثاني ختمها بقوله:

"حفظ الله أستاذنا العلامة الجليل جعفر الخليلي وأبقاه لنا سنداً وذخراً" !!

رحم الله القطان فقد كان من الأفذاذ خلقاً، وعلماً، وأدباً، وكان نسيج وحده سلوكاً بين رجال الدين وبين الناس، ولصاحب السمو الملكي ولي العهد المعظم الأمير حسن بن طلال البقاء وطول العمر الذي لولاه لظلّ هذا التفسير النفيس الكثير الفائدة مطموراً مغموراً، وقد حقق سموه القول المأثور القائل: "لا يعرف الفضل إلاّ ذووه – أو إلاّ أهله". وقد عرف سموه فضل القطان قبل غيره، حفظه الله للناس ولرعاية الأفضال.

مصادر التّحقيق ومراجعه

١. **الآثار الكاملة للملك عبد الله بن الحسين**، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٩.

٢. **إبراهيم المبيضين: حياته وشعره**، تأليف: حسن علي مبيضين وفوزي فلاح الخطبا، مطابع دار الإيمان، عمّان، ١٩٨٧.

٣. **الإحاطة في أخبار غرناطة**، للسان الدّين بن الخطيب (٤ج)، تحقيق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ١٩٧٣.

٤. **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، المقدسي، محمد بن أحمد، حرّرها وقدّم لها: شاكر لعيبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٣.

٥. **١٤ يوماً في المغرب**، محمد رضا شرف الدين، بغداد، مطبعة النجاح، ١٩٥٨.

٦. **أدب السّيرة والمذكرات في الأردن** (ملتقى جامعة آل البيت الثقافي الثاني ١٩٩٨)، منشورات جامعة آل البيت، المفرق، الأردن، ١٩٩٩.

٧. **الأعلام**، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٩، ١٩٩٠.

٨. **الأُنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، مجير الدين الحنبلي، عبد الرحمن بن محمد العليمي، مكتبة المحتسب، عمّان، ١٩٧٣.

٩. **تاريخ ابن خلدون**، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣.

١٠. **تاريخ الإدارة العثمانية في شرق الأردن ١٨٦٤ - ١٩١٨**، أحمد صدقي شقيرات، عمّان، ١٩٩٢.

١١. **تربية سلامة موسى**، تأليف: سلامة موسى، ط. سلامة موسى للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٥٨.

١٢. **جولة بين الآثار**، للشيخ حمزة العربي، تحقيق: الدكتور تركي أحمد المغيض، مطبوعات اللجنة الوطنية العليا لإعلان عمّان عاصمة للثقافة العربية، ودار الكندي/ إربد، ٢٠٠٢.

١٣. حضارة العرب، الدكتور غوستاف لوبون، نقله إلى العربية: عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٦.

١٤. الحلّة السيراء، لابن الأبّار القضاعي، تحقيق: حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣.

١٥. حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، تأليف: الشيخ عبد الرزاق البيطار، حقّقه: محمد بهجة البيطار، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦١.

١٦. خطط الشام، تأليف: محمد كرد علي، مكتبة النوري، دمشق، ط٣، ١٩٨٣.

١٧. ديوان ابن الرومي (٦ج)، شرح وتحقيق: عبد الأمير علي مهنّا، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٩١.

١٨. ديوان أبي تمام، ضبط معانيه: إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١.

١٩. ديوان البحتري (٤مج)، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣.

٢٠. ديوان حافظ إبراهيم، دار العودة، بيروت، ١٩٩٦.

٢١. ديوان الحمراء، الدكتور صلاح جرار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩٩.

٢٢. ديوان الخليل، نظم: خليل مطران، دار المعارف ودار الهلال، القاهرة، ١٩٤٨ – ١٩٤٩.

٢٣. ديوان شوقي، توثيق وتبويب وشرح وتعقيب: الدكتور أحمد محمد الحوفي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٧٩.

٢٤. ديوان مجنون ليلى، شرح: الدكتور يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٢.

٢٥. الرافعي وميّ، تأليف: عبد السلام هاشم حافظ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، ١٩٦٤.

٢٦. **رحلات بيركهارت في سورية الجنوبية** (ج٢)، ترجمة: أنور عرفات، دائرة الثقافة والفنون، عمّان، ١٩٦٩.

٢٧. **رحلة إلى بلاد العرب وما حولها**، كارستن نيبور، ترجمة: الدكتور مصطفى ماهر، المطبعة العالمية، مصر، ١٩٧٧.

٢٨. **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تحقيق: الدكتور إحسان عبّاس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨١.

٢٩. **رسائل إخوان الصفا وخلّان الوفا**، إعداد وتحقيق: الدكتور عارف تامر، منشورات عويدات، بيروت وباريس، ط١، ١٩٩٥.

٣٠. **زبدة كشف المسالك**، غرس الدّين الظاهري، باريس، ١٨٩٤.

٣١. **شرح ديوان امرىء القيس**، لأبي جعفر النحّاس (ت ٣٣٨هـ)، تحقيق: الدكتور عمر الفجاوي، وزارة الثقافة، عمّان، ٢٠٠٢.

٣٢. **شرح ديوان حسّان بن ثابت**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٣. **شرح ديوان المتنبي**، لأبي البقاء العكبري، ضبطه وصحّحه ووضع فهارسه: مصطفى السقّا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت.

٣٤. **الشوقيات**، لأحمد شوقي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٦١.

٣٥. **صور من البطولة**، سليمان موسى، ط٢،منشورات وزارة الثقافة والتراث القومي، عمّان، ١٩٨٨.

٣٦. **طبقات فحول الشعراء**، لابن سلاّم الجمحي، شرح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٤.

٣٧. **عامان في عمّان**، خير الدين الزركلي، عني بنشره: يوسف توما البستاني، المطبعة العربية، القاهرة، ١٩٢٥.

٣٨. **الغربال**، ميخائيل نعيمة، ط٦، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٠.

٣٩. **قاموس المؤلّفين في شرقي الأردن وآثارهم المطبوعة ما بين سنتي ١٨٩٩ – ١٩٤٨م**، تأليف: كايد مصطفى هاشم، المطابع العسكرية، عمّان، ١٩٩٥.

٤٠. **لسان العرب**، ابن منظور.

٤١. **المختار من أقوال التجاني**، اختارها: إبراهيم القطان، مجلة الفتح، لمحبّ الدين الخطيب، القاهرة، العدد ٣٨٨، الخميس ٦ ذي الحجة ١٣٥٢هـ، العام الثامن، ص ٤-٥ وص٨.

٤٢. **المسالك والممالك**، لابن خرداذبّة، ط. بريل/ ليدن، ١٨٨٩.

٤٣. **معجم البلدان**، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٤. **معجم الحضارة المصرية القديمة**، جورج بوزنر وسيرج سونرون وجان يويوت وأ.أ.س ادواردز وف.ل ليونيه وجان دوريس، ترجمة: أمين سلامة، مراجعة: د. سيد توفيق، ط.٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة ومهرجان القراءة للجميع)، القاهرة، ١٩٩٦.

٤٥. **مقصورة ابن دريد**، شرح: التبريزي، تحقيق الدكتور فخري الدين قباوة، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩٤.

٤٦. **من أعلام الفكر والأدب في الأردن**، محمد أبو صوفة، مكتبة الأقصى، عمّان، ط١، ١٩٨٣.

٤٧. **من أعلام الفكر والأدب في فلسطين**، يعقوب العودات (البدوي الملثم)، وكالة التوزيع الأردنية، عمّان، ط١، ١٩٧٦.

٤٨. **المنافسة طريق الرخاء**، تأليف: البروفسور لودفيج ايرهارد، نقله إلى العربية: محمّد محمود عمر، المطبعة العالمية، القاهرة.

٤٩. **المنجد في الأعلام**، بإشراف فؤاد افرام البستاني، ط٢، دار المشرق، بيروت، ١٩٦٩.

٥٠. **مي زيادة في حياتها وآثارها**، وداد سكاكيني، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩.

٥١. **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، لأبي العبّاس المقّري، تحقيق: الدكتور إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨.

٥٢. **وجوه وملامح**، ج١، سليمان موسى، وزارة الثقافة والشباب، عمان، ط١، ١٩٨٠.

٥٣. **وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام**، لشمس الدين السخاوي (ت ٩٠٢هـ)، تحقيق: بشّار عوّاد معروف وعصام فارس الحرستاني والدكتور أحمد الخطيمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٥.

٥٤. **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، لابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (٦٠٨ – ٦٨١ هـ)، تحقيق: الدكتور إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨.

الكشافات

كشاف الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(ه)

(و)

(ي)

كشاف المواقع

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

ملحق الصور



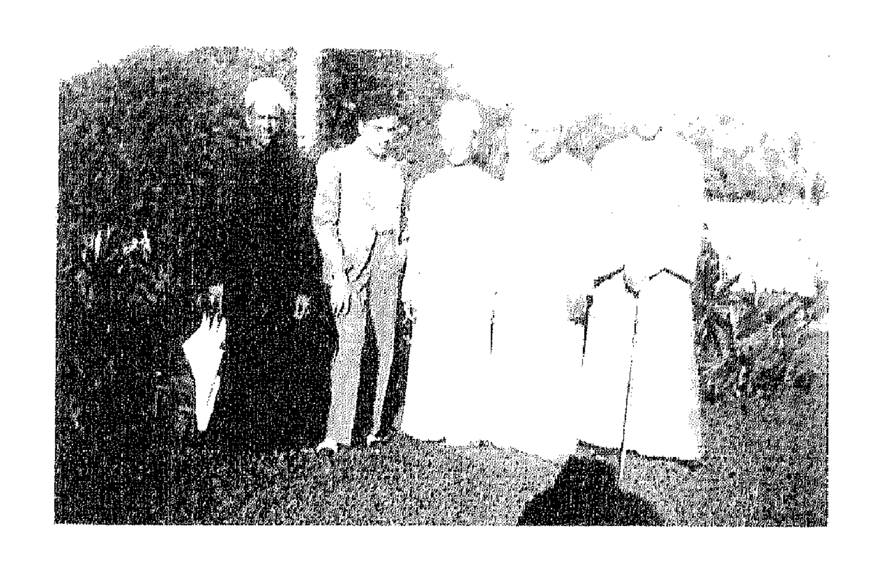
إبراهيم القطان في مدرسة عمان الابتدائية ١٩٢٣



مع قريبه عزات الحكواتي في دمشق ١٣٤٢



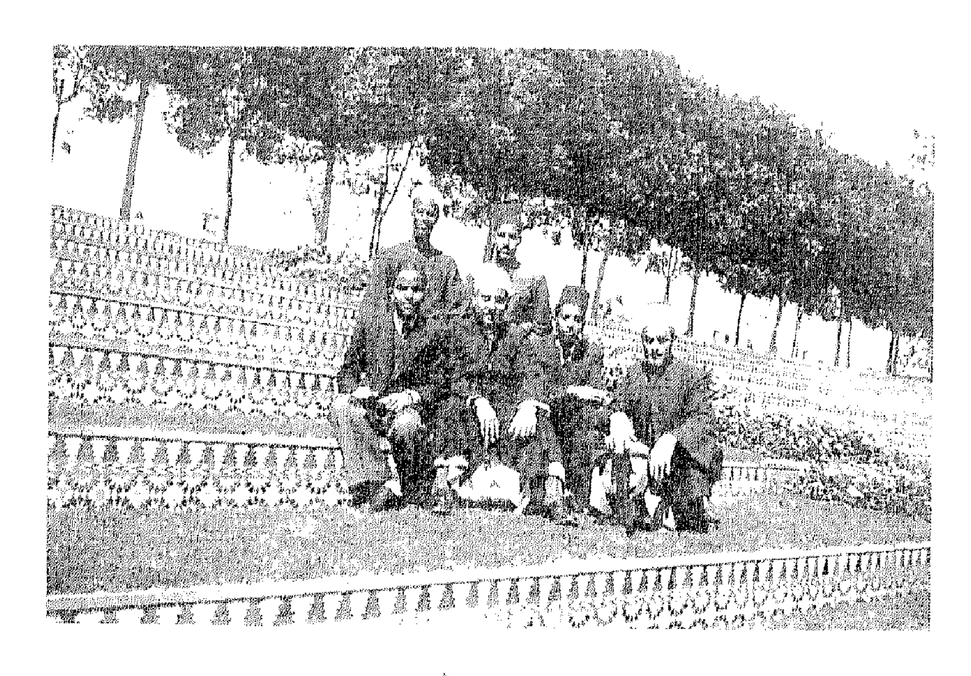
طالب في الازهر



طالب في الأزهر



طالب في الأزهر



طالب في الأزهر



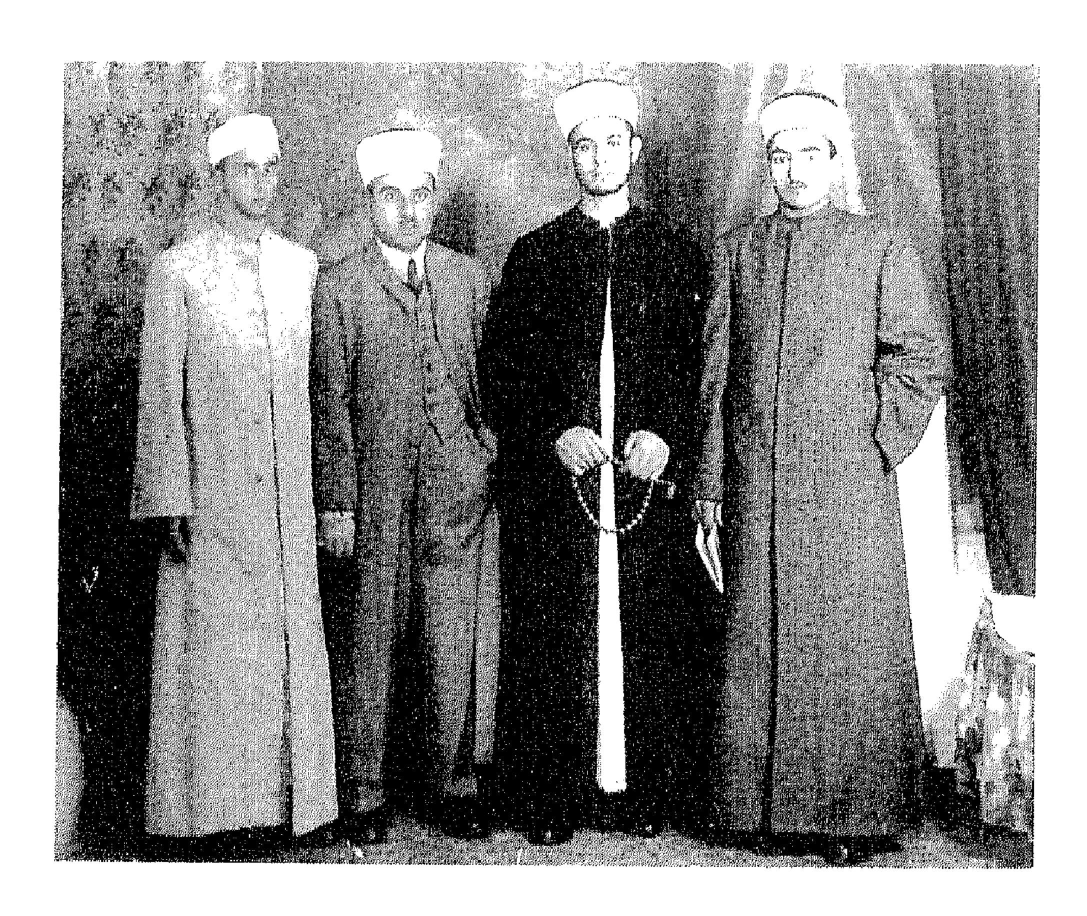
طالب في الأزهر



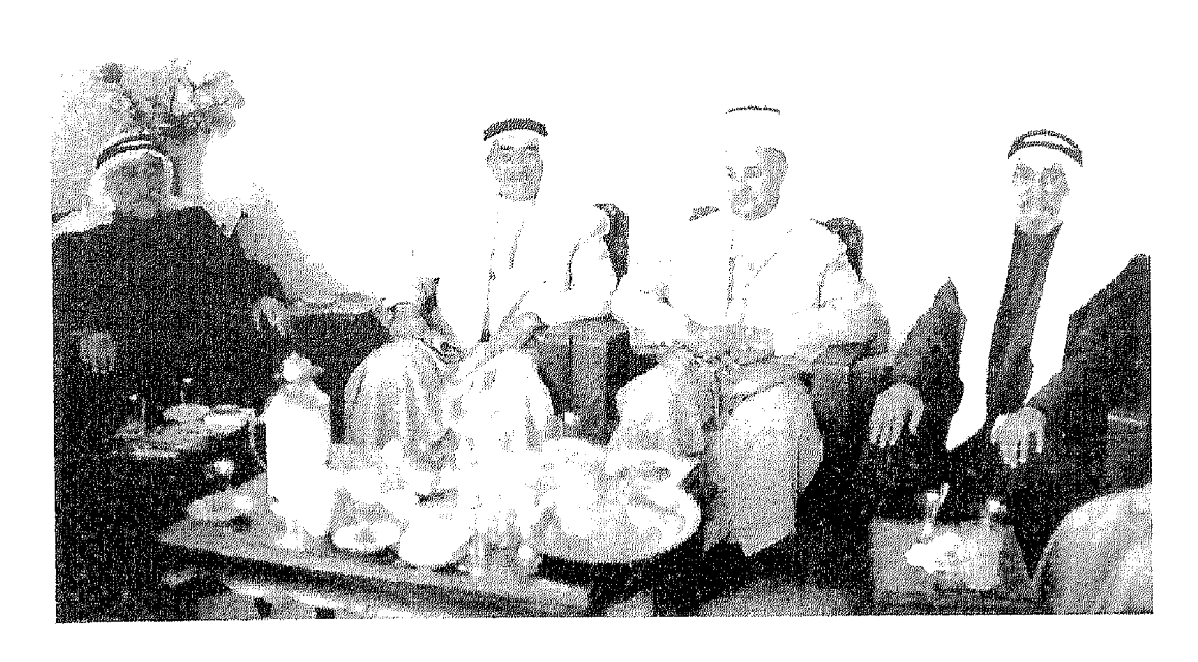
طالب في الأزهر



طالب في الأزهر



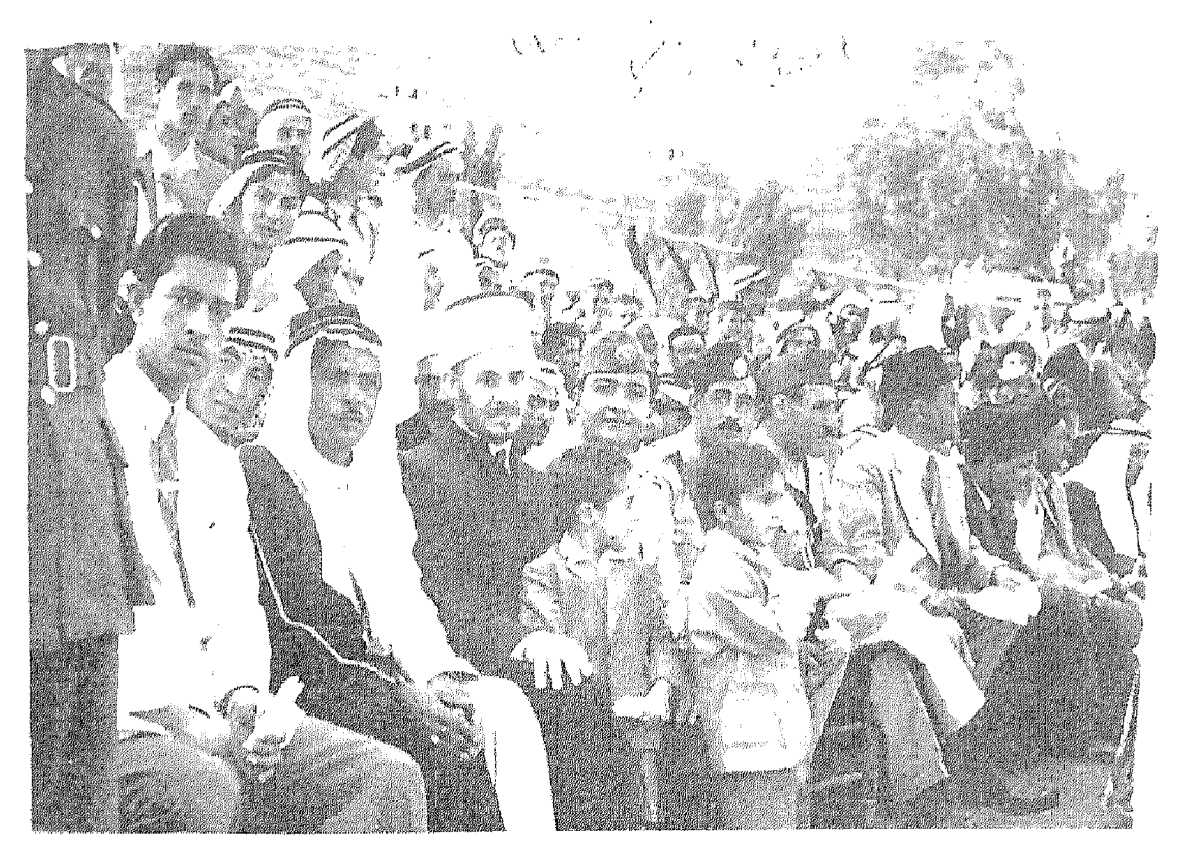
طالب في الأزهر



مع والده الحاج ياسين القطان وأعمامة عبدالكريم وجودت قطان



منزل الشيخ في جبل عمان



المهرجان الرياضي ١٩٥٠ ويبدو في الصورة أولاده اياد وآنس



في منزل الأستاذ قدري طوقان في نابلس وتظهر في الصورة الشاعرة فدوى طوقان

مع ميخائيل نعيمة في مدرسة راهبات الوردية



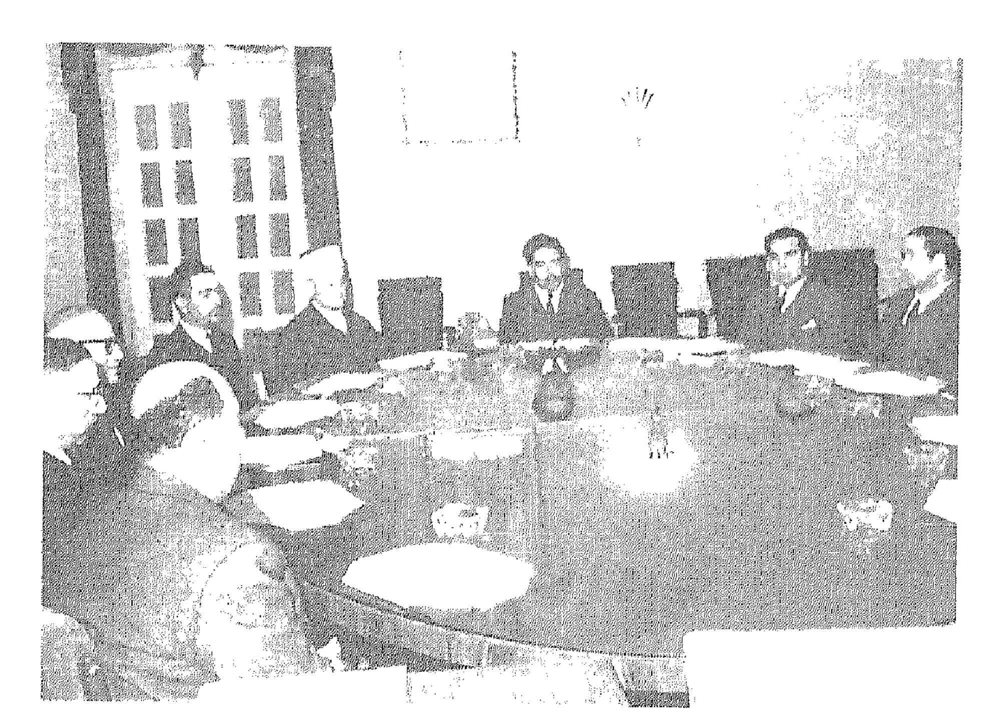
في المنتدى العربي – عمان



في احدى مدارس البنات وتظهر في الصورة المربية فاليريا شعبان والأستاذة بيان نويهض



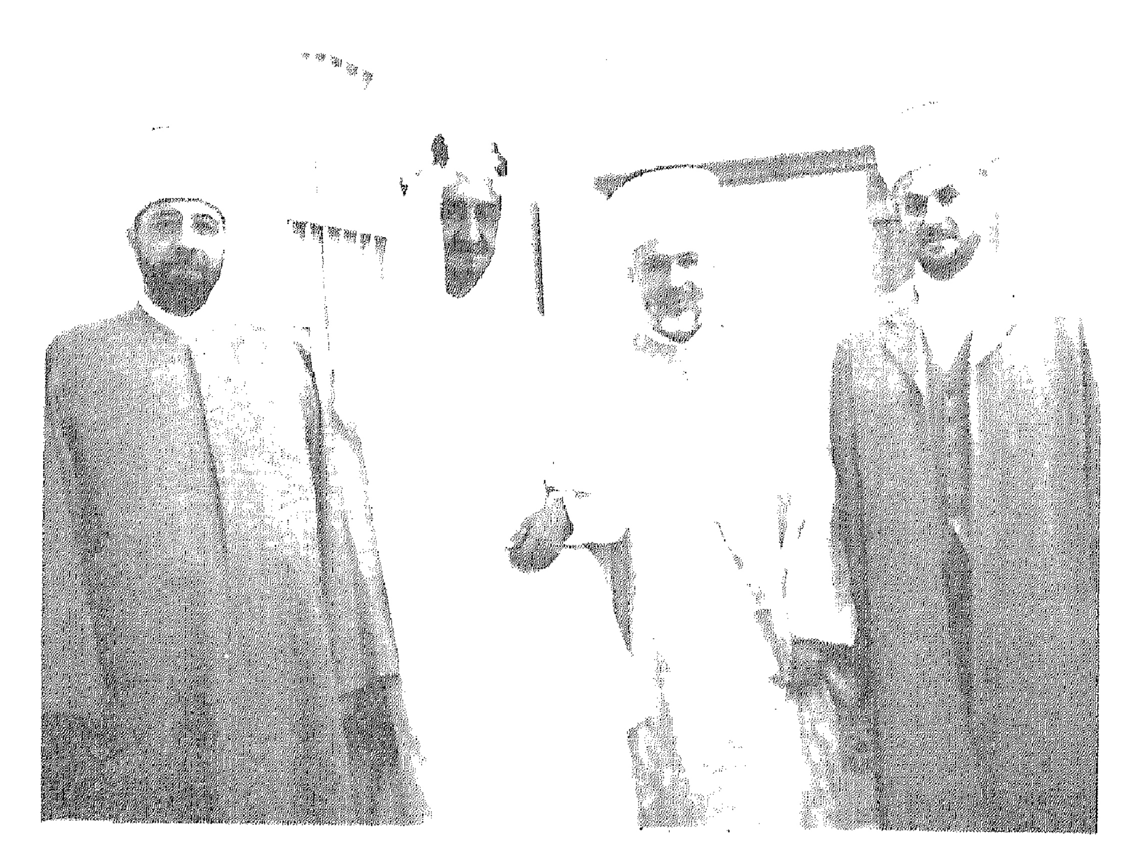
حفل تخريج احدى المدارس الخاصة



جلسة مجلس الوزراء



مع الشهيد وصفي التل



رحلة الخليج مع الأمير فيصل

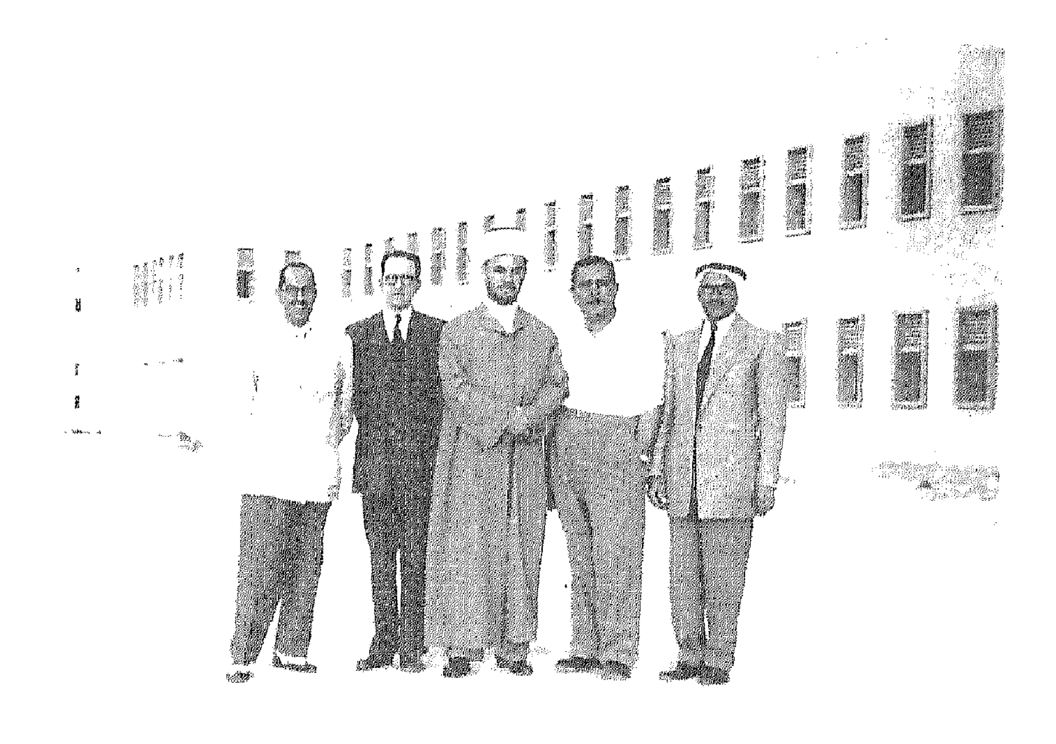


مسجد قباء



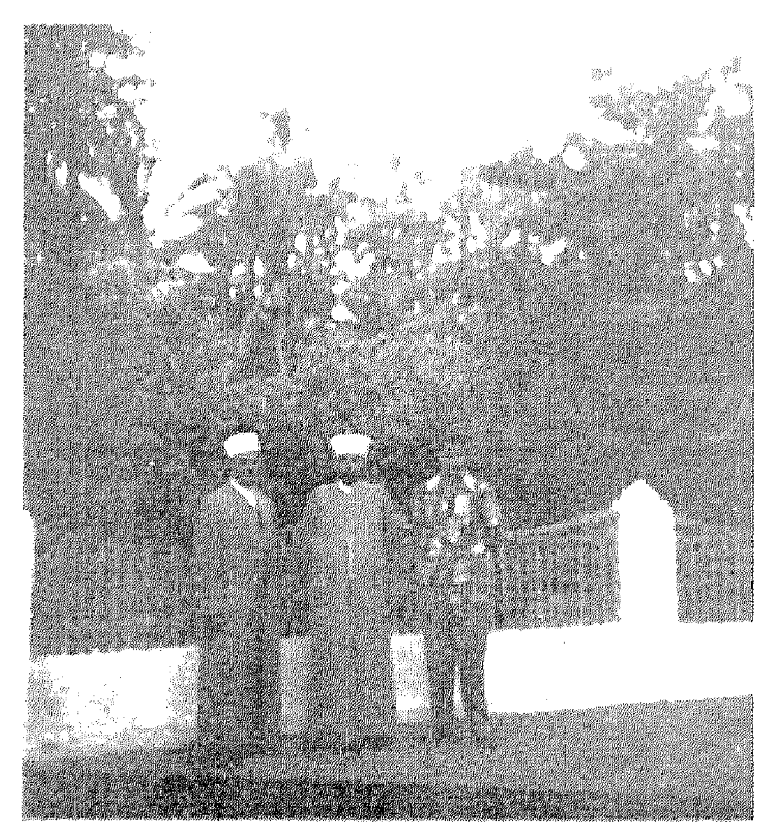
بئر زمزم

مع الأمير عبدالله الجابر – الكويت



مدرسة الشويخ الثانوية – الكويت

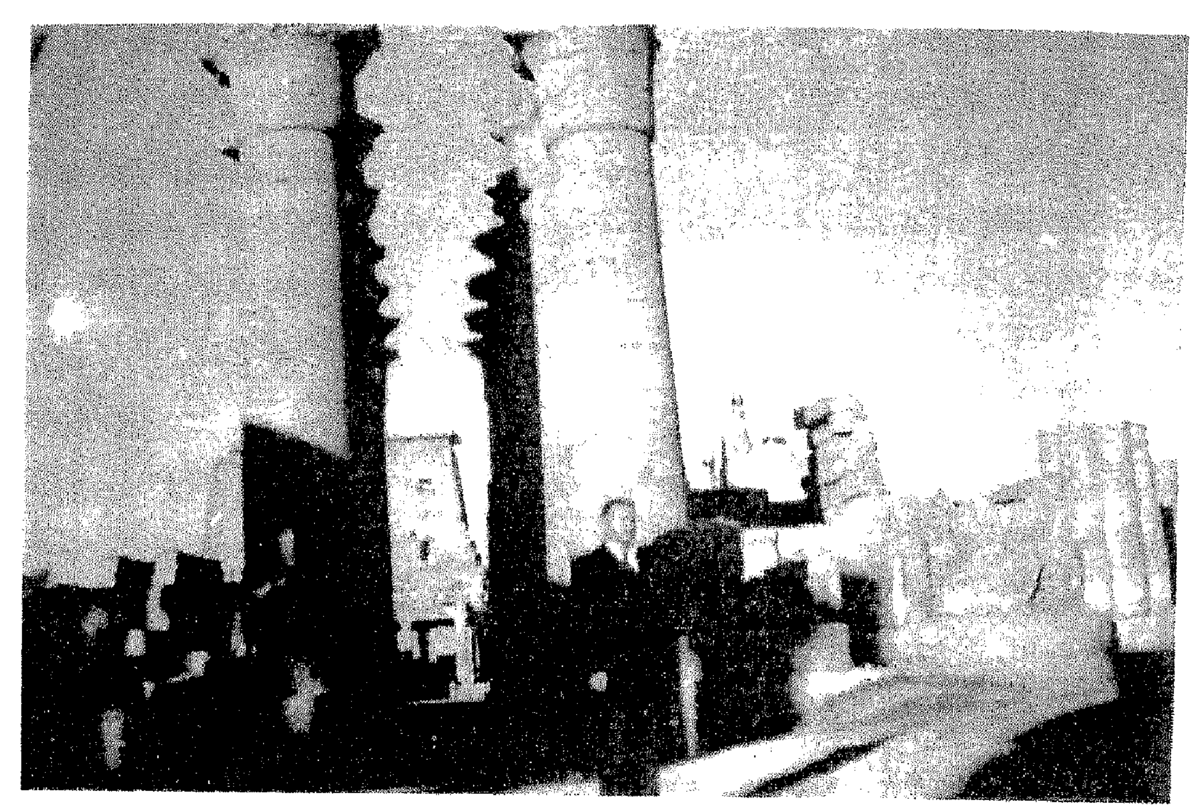
في زيارة لمدير أرامكو – الظهران



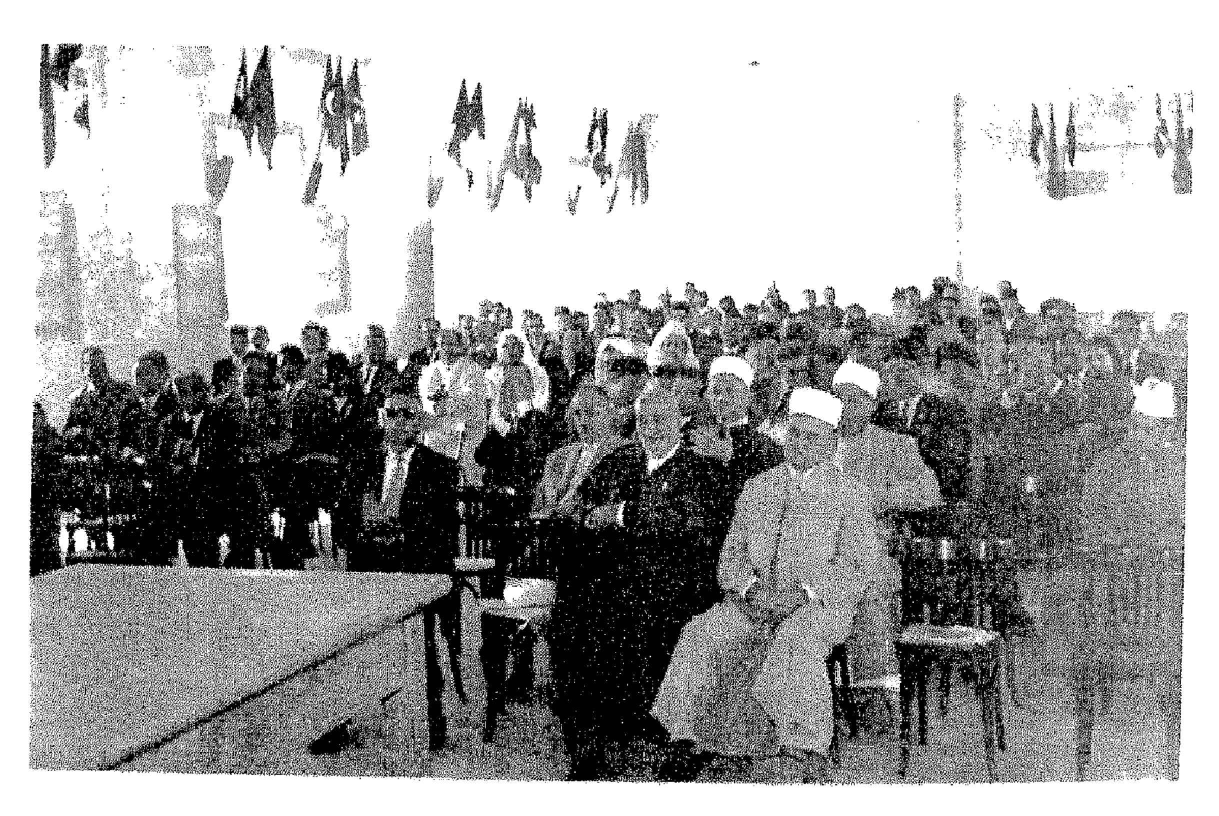
عين عذارى – البحرين



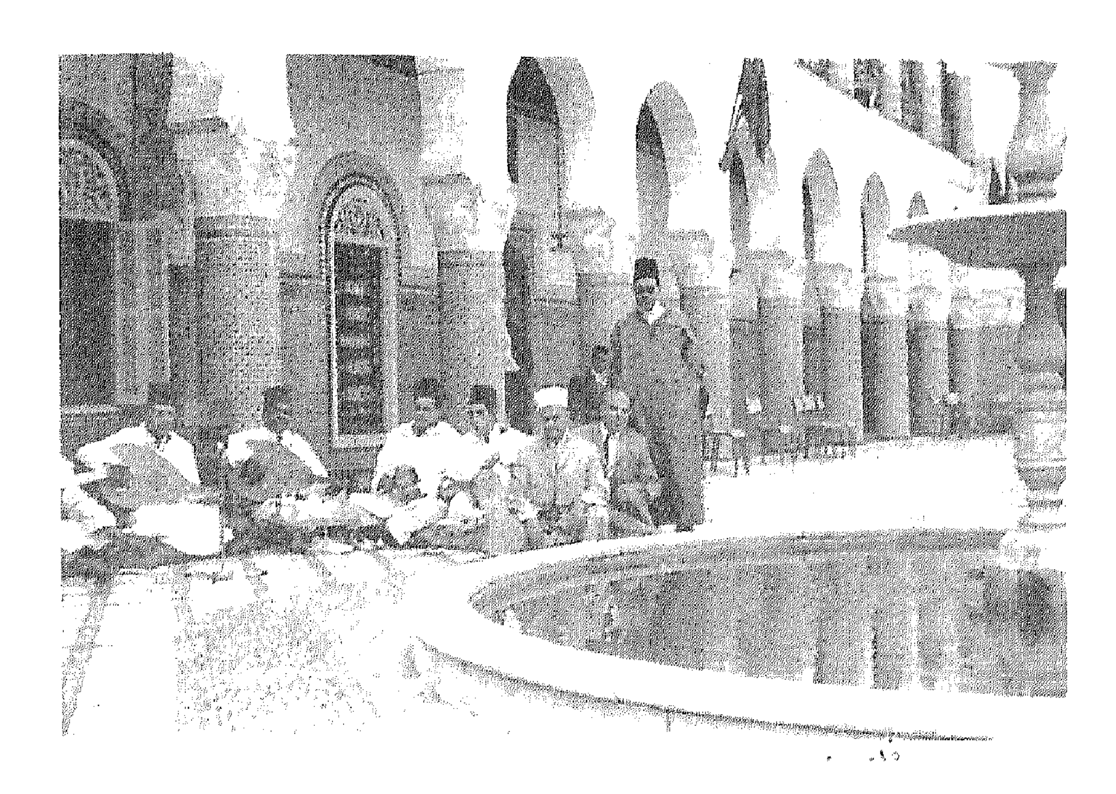
رحلة النوبة – معبد أبو سنبل



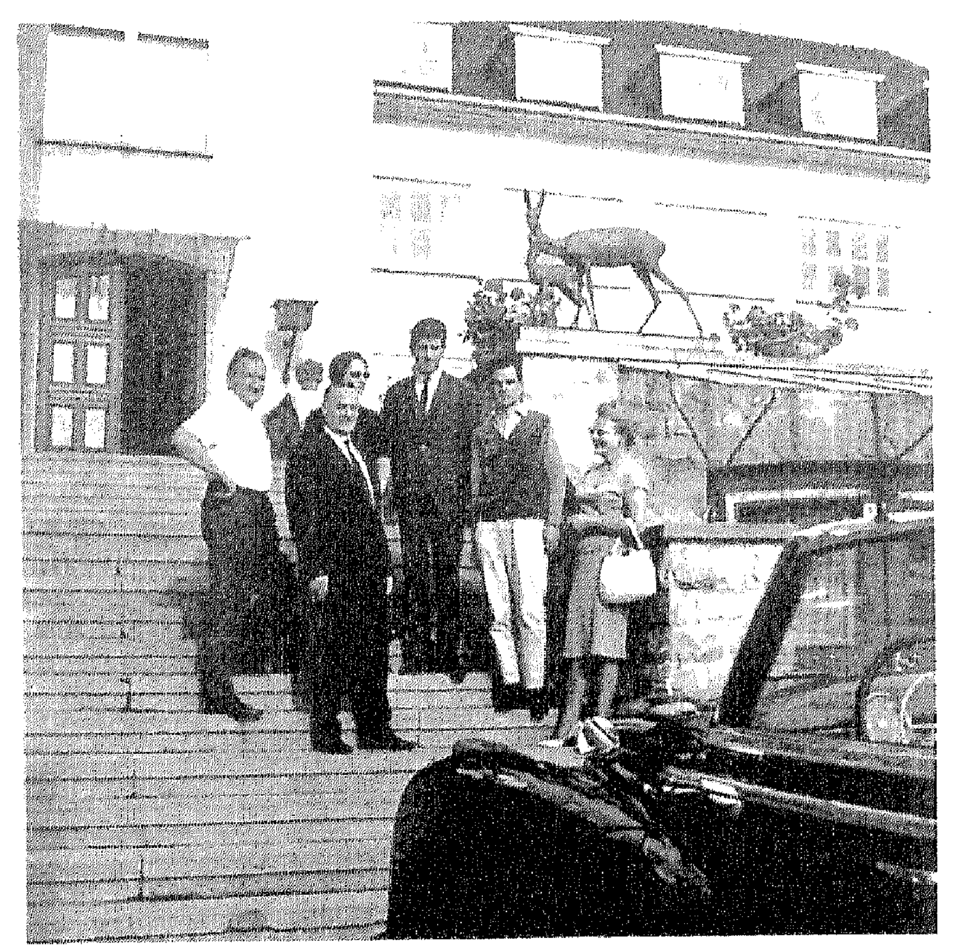
معبد الكرنك



رحلة المغرب – جامعة القرويين – حفل الافتتاح



فاس



رحلة ألمانيا



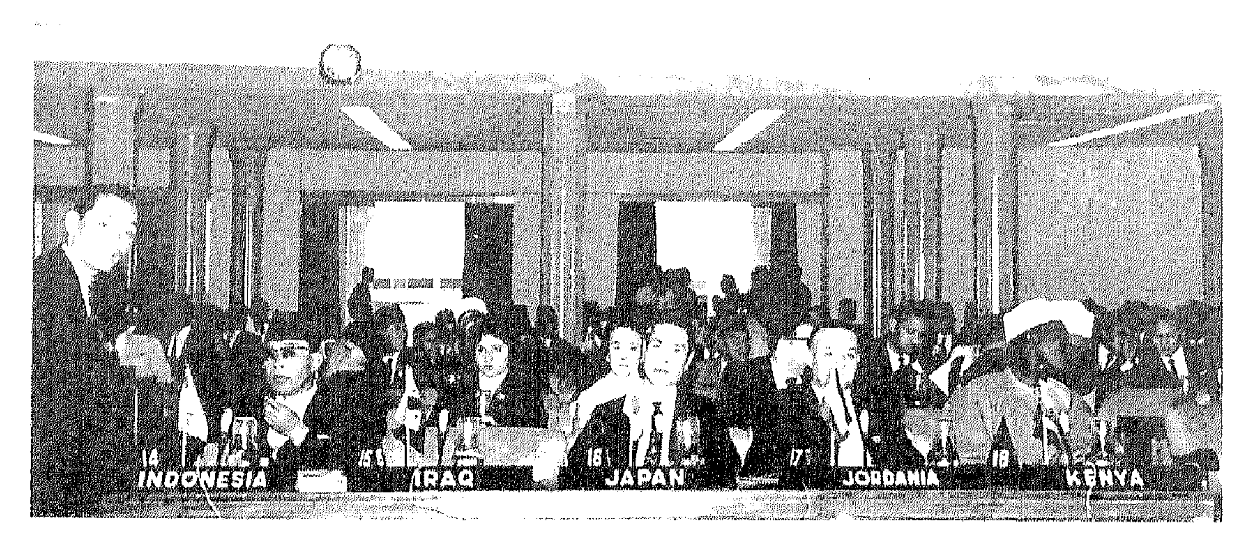
رحلة اليمن — تعز



معبد في بانكوك ١٩٦٥

مع جلالة الملك الحسين المعظم

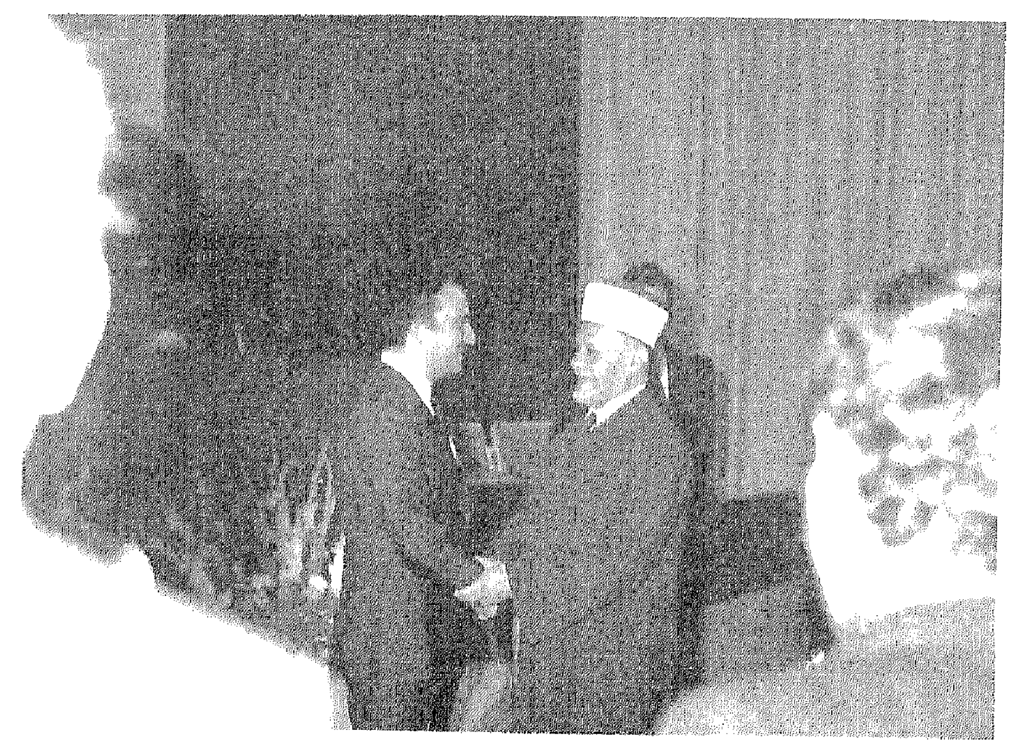




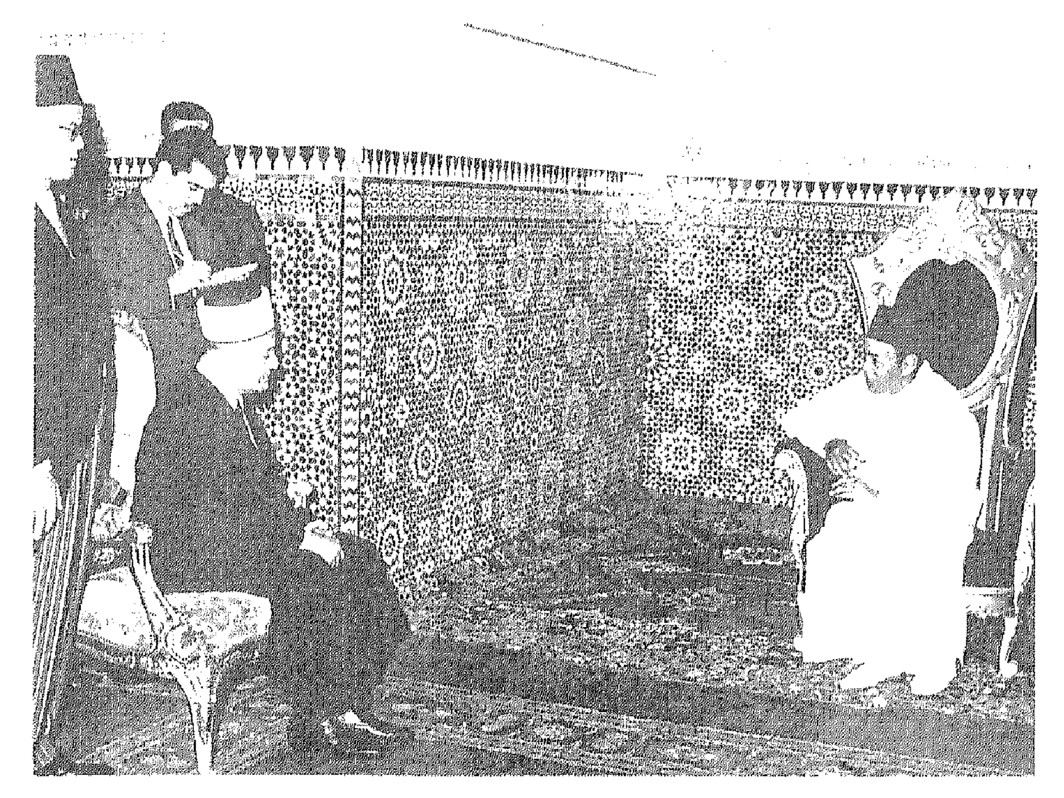
المؤتمر الاسلامي في باندونج — اندونيسيا



مع سمو الأمير الحسن المعظم والدكتور ناصر الدين الأسد



مع سمو الأمير الحسن



تقديم أوراق اعتمادة لجلالة الملك الحسن الثاني – المملكة المغربية



مع الأستاذ علال الفاسي – المملكة المغربية



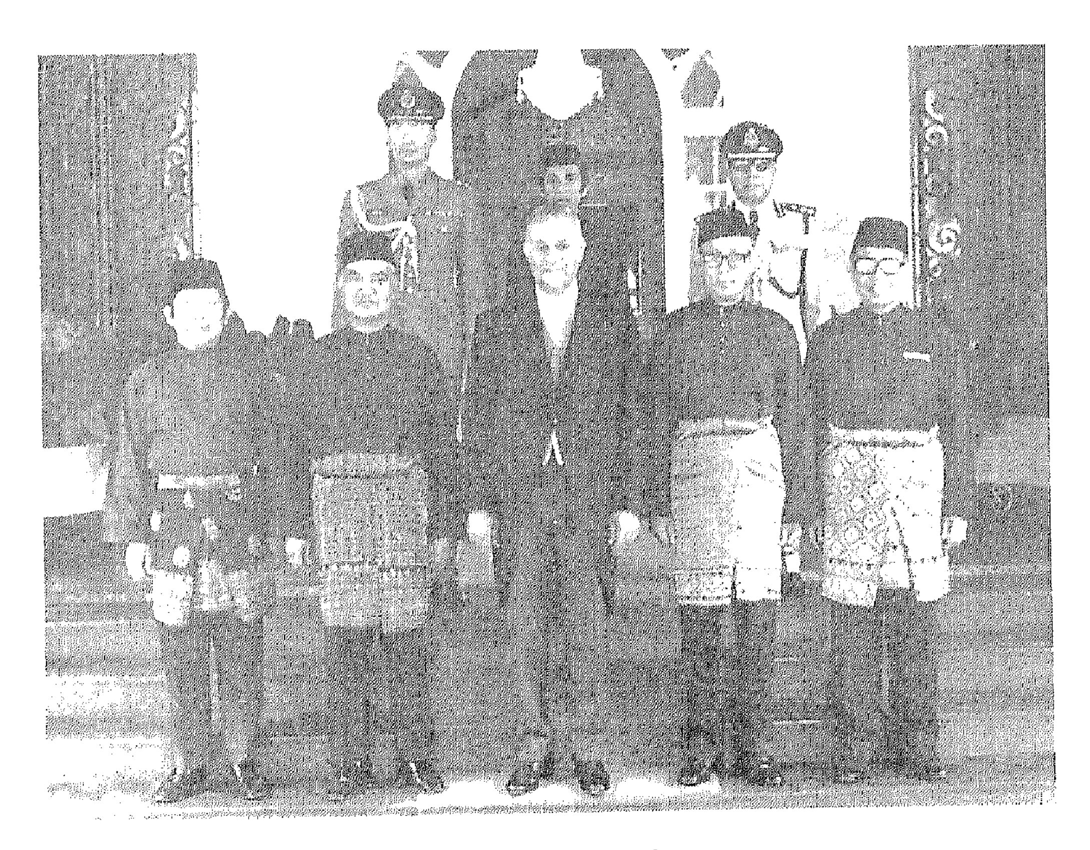
تقديم أوراق الاعتماد في الكويت



مع رئيس الوزراء ضياء الحق وبعض السفراء العرب في اسلام أباد



مع الأستاذ المودودي في الباكستان ١٩٧٥



تقديم أوراق الاعتماد في ماليزيا

منشورات وزارة الثقافة: سلسلة كتاب الشهر

رقم السلسلة	اسم الكتاب	المؤلف	سنة الطبع
١ -	دراسات في تاريخ الأردن الحديث	سليمان الموسى	١٩٩٩
٢ -	روكس بن زائد العزيزي	د. عبد الله رشيد	١٩٩٩
٣ -	عدي بن الرقاع العاملي: حياته وشعره	تحسين محمد الصلاح	١٩٩٩
٤	أدب الأطفال في الأردن	أحمد المصلح	١٩٩٩
٥ -	معجم أسماء الأدوات واللوازم في التراث العربي	نايف النوايسة	١٩٩٩
٦ -	حسني فريز شاعراً وأديباً	عبد الله مسلم الكساسبة	٢٠٠٠
٧ -	الفن التشكيلي الأردني	وزارة الثقافة	٢٠٠٠
٨ -	الحركة الشعرية النسوية في فلسطين والأردن	د. أسامة شهاب	٢٠٠٠
٩ -	في تحليل المفاهيم	د. أنور الزعبي	٢٠٠٠
١٠ -	نظرية التشكيل الاستعاري في البلاغة والنقد	د. نواف قوقزة	٢٠٠٠
١١ -	محمود سيف الدين الإيراني: سيرته وأدبه	وزارة الثقافة	٢٠٠٠
١٢ -	الرسالة والصورة: قضايا معاصرة في الإعلام	فاروق جرار	٢٠٠٢
١٣ -	فضاءات سينمائية	يوسف يوسف	٢٠٠٢
١٤ -	رسائل إلى ولدي "خالد"	يعقوب العودات	٢٠٠١
١٥ -	خصوصية الإبداع النسوي	وزارة الثقافة	٢٠٠١
١٦ -	الشعر في الأردن	وزارة الثقافة	٢٠٠١
١٧ -	ترجمة الكاتب في آداب الصاحب	علي نيب زايد	٢٠٠١
١٨ -	التباين وأثره في تشكيل النظرية اللغوية العربية	د. وليد العناني	٢٠٠١
١٩ -	The Jordanian Novel	فهد سلامة	٢٠٠٢
٢٠ -	Novels and Novelites From Jordan	نزيه أبو نضال	٢٠٠٢
٢١ -	قضايا النهضة والتنوير	مجموعة باحثين	٢٠٠٢
٢٢ -	القوس والوتر	د. حسين جمعة	٢٠٠٢
٢٣ -	القصة القصيرة في فلسطين والأردن	د. محمد عبيد الله	٢٠٠١
٢٤ -	شرح ديوان امرئ القيس لأبي جعفر النحاس	د. عمر الفجاوي	٢٠٠٢
٢٥ -	أبو هلال العسكري ناقداً	أمل المشايخ	٢٠٠٢
٢٦ -	اللغة نشأتها وتطورها في الفكر والاستعمال	حسن سعيد الكرمي	٢٠٠٢
٢٧ -	الأمواج: صفحات من رحلة الحياة	عبد المنعم الرفاعي	٢٠٠٢
٢٨ -	مستقبل الثقافة العربية في عالم متغير (ما بعد العولمة)	حسن العايد	٢٠٠٢
٢٩ -	الأدب في الصحافة الأردنية	د. شكري حجي	٢٠٠٢
٣٠ -	عيسى الناعوري: شطحات مع الآداب الأجنبية	تيسير النجار	٢٠٠٢
٣١ -	أقنعة الراوي: دراسات في الخطاب الروائي العربي	د. إبراهيم خليل	٢٠٠٢
٣٢ -	المجموعات القصصية السبع	محمود الريماوي	٢٠٠٢
٣٣ -	في تحليل المفاهيم (٢)	د. أنور الوعبي	٢٠٠٢
٣٤ -	الفضاء الروائي: الرواية في الأردن نموذجاً	د. عبد الرحيم مراشدة	٢٠٠٢
٣٥ -	الأردن في موروث الجغرافيين والرحالة العرب	المهدي عيد الرواضية	٢٠٠٢

٣٦-	قراءات: مقالات ونصوص ثقافية	د. زياد الزعبي	٢٠٠٢
٣٧-	الاتجاهات النقدية عند شرّاح ديوان المتنبي القدماء	د. عدنان عبيدات	٢٠٠٢
٣٨-	المفضل في شرح المفصّل (باب الحروف)	د. يوسف الحشكي	٢٠٠٢
٣٩-	شعر الملك عبد الله الأول بن الحسين (جزءان)	خلف إبراهيم النوافلة	٢٠٠٢
٤٠-	الصحافة في شرقي الأردن	شفيق عبيدات	٢٠٠٢
٤١-	المحاولات التمثيلية في فلسطين وفي الأردن	د. عبد الرحمن ياغي	٢٠٠٢
٤٢-	أوراق بيضاء: الكتاب الأول من تاريخ المسرح الأردني	عادل لافي	٢٠٠٢
٤٣-	هامش النص الشعري	عز الدين المناصرة	٢٠٠٢
٤٤-	محمود درويش شاعر المرايا المتحولة	د. علي الشرع	٢٠٠٢
٤٥-	حركة التعريب في الأردن	عبد الرؤوف خرويش	٢٠٠٢
٤٦-	إحسان عباس بين التراث والنقد الأدبي	د. عباس عبد الحليم عباس	٢٠٠٢
٤٧-	الرواية في الأردن: فضاءات ومرتكزات	د. نبيل حداد	٢٠٠٢
٤٨-	سداسية الأيام الستة: الرؤية والدلالة والبنية الفنية	د. حسني محمود	٢٠٠٢
٤٩-	السّجل المصور للتراث الشعبي الكركي	فراس دميثان المجالي	٢٠٠٢
٥٠-	الشوبك: الأرض والإنسان	محمد إسماعيل الرواشدة	٢٠٠٢
٥١-	أوهام معاصرة: دراسة نقدية في مصنّفات الشعر العربي المعاصر	إبراهيم السامرائي	٢٠٠٢
٥٢-	غالب هلسا وببلوغرافيا مصادره الكتابية	نزيه أبو نضال	٢٠٠٢
٥٣-	الصورة الفنية في شعر الشمّاخ	محمد علي ذياب	٢٠٠٣
٥٤-	عزلة الفراغ: فنون تشكيلية	محمد العامري	٢٠٠٣
٥٥-	الأعمال الكاملة: نديم الملاح (١-٣)	زياد أبو لبن/ سمير اليوسف	٢٠٠٣-٢٠٠٥
٥٦-	شاشات العتمة.. شاشات النور	ناجح حسن	٢٠٠٣
٥٧-	عروش الروح	رابطة الكتاب الأردنيين	٢٠٠٣
٥٨-	خفايا ما بعد الحداثة ودور الكسندر كوجيف فيها: شادية دروري	ترجمة: د. موسى الحالول	٢٠٠٥
٥٩-	الببليوغرافيا الأردنية الفلسطينية في القرن العشرين ١٩٠٠-١٩٧٨ (جزءان)	محمود الأخرس	تحت الطبع
٦٠-	الإعلام والمجتمع: دراسات في الإعلام الأردني والعربي والدولي	د. عصام الموسى	٢٠٠٣
٦١-	تشكيل السياسات الثقافية	مجموعة باحثين	٢٠٠٣
٦٢-	الأعمال الروائية (أربع روايات)	جمال ناجي	٢٠٠٣
٦٣-	من الظواهر اللغوية في الشعر العربي المعاصر	د. فريد العمري	٢٠٠٤
٦٤-	الثقافة والتنمية	وزارة الثقافة	٢٠٠٥
٦٥-	استلهام التاريخ في المسرح الأردني	محمود إسماعيل بدر	٢٠٠٣
٦٦-	مصارع العشاق لجعفر السراج	د. بسمة الدجاني	٢٠٠٤
٦٧-	قاموس العادات واللهجات والأوابد الأردنية (ثلاثة أجزاء)	روكس بن زائد العزيزي	٢٠٠٤
٦٨-	التراث الشعبي الأردني	وزارة الثقافة	٢٠٠٥
٦٩-	المدينة في الشعر العربي الحديث	عبد الله رضوان	٢٠٠٣

٧٠ -	كراسات في السينما العالمية	حسن الدباس	٢٠٠٣
٧١ -	القلق في الثقافة	محمد سعيد الجنيدي	٢٠٠٣
٧٢ -	شعر المرأة في الأردن	باسم الخطايبه	٢٠٠٣
٧٣ -	ذاكرة المدينة (الجزء الثاني)	محمد رفيع	٢٠٠٣
٧٤ -	الحسّ القومي في شعر حيدر محمود	أروى محمد ربيع	٢٠٠٥
٧٥ -	Islam and Contemporary Issues	عز الدين الخطيب التميمي	٢٠٠٤
٧٦ -	خليل السكاكيني: حياته مواقفه وآثاره	يوسف أيوب حداد	٢٠٠٤
٧٧ -	تعريب الألفاظ و المصطلحات	د. سميح أبو مغلي	٢٠٠٣
٧٨ -	رحلات في الديار المقدسة (جزءان)	فيصل أديب	٢٠٠٥
٧٩ -	التقنيات العلمية لفن الخزف	د. علي حيدر	٢٠٠٣
٨٠ -	ملحمة يفغيني أوينغين للكسندر بوشكين	عبد الهادي الدهيسات	٢٠٠٣
٨١ -	لواء البتراء: الأرض و الإنسان	محمود محمد النوافلة	٢٠٠٤
٨٢ -	الباراسايكولوجي- الإدراك المتفوق	د. كمال خليل النجار	٢٠٠٤
٨٣ -	السرد الغرائبي و العجائبي في الرواية و القصة القصيرة في الأردن	سناء الشعلان	٢٠٠٤
٨٤ -	الحسين بن علي ملكاً في المنفى	بكر خازر المجالي	٢٠٠٤
٨٥ -	الكرك عبر العصور: تاريخ الكرك القديم	د. جمعة محمود كريم	٢٠٠٤
٨٦ -	الكرك عبر العصور: تاريخ الكرك في العصور الإسلامية	د. أحمد عبد الله الحسّو	٢٠٠٤
٨٧ -	الكرك عبر العصور: تاريخ الكرك الحديث	د. محمد سالم الطراونة	٢٠٠٤
٨٨ -	أطباء من التاريخ: الأسرار وتقويم الأدلة	د. محمود الزعبي	٢٠٠٥
٨٩ -	سيكولوجية المرأة العاملة الأردنية	د. حنان جميل هلسا	٢٠٠٤
٩٠ -	أعمال المساحة في شرق الأردن	أحمد عويدي العبادي	٢٠٠٥
٩١ -	التعليقة على المقرَّب	د. جميل عويضة	٢٠٠٥
٩٢ -	جولات في النقد الأدبي	د. عبد الرحمن ياغي	٢٠٠٥
٩٣ -	جدل الإبداع و الثقافة	عزمي خميس	٢٠٠٤
٩٤ -	خوذة كنعان و التوراة	يوسف يوسف	٢٠٠٥
٩٥ -	القصة النسوية المعاصرة في الأردن وفلسطين	د. أسامة شهاب	٢٠٠٥
٩٦ -	عام على الرحيل: سنوية مؤنس الرزاز	رابطة الكتاب الأردنيين	٢٠٠٤
٩٧ -	الشعر الحديث في الأردن	أحمد المصلح	٢٠٠٥
٩٨ -	تراث البدو القضائي	د. محمد أبو حسان	٢٠٠٥
٩٩ -	العبور إلى الحاضرة	د. سليمان الأزرعي	٢٠٠٥
١٠٠ -	مرايا وظلال: قراءات ومراجعات نقدية	د. إبراهيم الكوفحي	٢٠٠٥
١٠١ -	التجليات الملحمية في رواية الأجيال العربية	د. مريم جبر	٢٠٠٥
١٠٢ -	عمان كما يراها المثقفون	رابطة الكتاب الأردنيين	٢٠٠٥
١٠٣ -	يوسف العظم شاعراً	محمد أحمد الحمايدة	٢٠٠٥
١٠٤ -	أقحوان على ضفاف النهر (الرحلة و القيثارة)	يوسف حمدان	٢٠٠٥
١٠٥ -	الاغتراب و المقاومة في الرواية العربية في فلسطين و الأردن	د. حسن عليان	٢٠٠٥
١٠٦ -	نهاد الموسى وتعليم اللغة العربية: رؤى منهجية	د. وليد العناني	٢٠٠٥
١٠٧ -	أخبار ووثائق أردنية في صحيفة فلسطينية ١٩٣٣-١٩٤٦ - الجزء الثاني	د. جورج طريف / د. زهير غنايم	٢٠٠٥

١٠٨-	مؤنس الرزاز / عبد الرحمن منيف	إعداد: رابطة الكتاب الأردنيين	٢٠٠٥
١٠٩-	فصول في نقد النقد	د. إبراهيم خليل	٢٠٠٥
١١٠-	سجل العلامات الصادرة من حاكم الحقوق المنفرد بدمشق - سجل الكرك	د. محمد خريسات / د. جورج طريف	٢٠٠٥
١١١-	بلاغة السرد: قراءات مختارة في القصة القصيرة الأردنية	د. محمد عبيد لله	٢٠٠٥
١١٢-	الخطاب الصوفي في الشعر المعاصر	د. راشد عيسى	٢٠٠٦
١١٣-	البنية الزمنية في روايات غالب هلسا من النظرية إلى التطبيق	د. محمد القواسمة	٢٠٠٦
١١٤-	أقانيم الوجود: المتلقي والنص والمعنى	د. خالد الجبر	٢٠٠٦
١١٥-	James Joyce and Munis al Razzaz	د. ريما مقطش	٢٠٠٦
١١٦-	الأعمال الكاملة: الروايات القصيرة	د. أحمد الزعبي	٢٠٠٦
١١٧-	القائد الديناميكي المنتج الفعّال: الخدمة، الواجب، المسؤولية	شوكت سعدون	٢٠٠٦
١١٨-	أ. د. هاشم ياغي / أ. د. عبد الرحمن ياغي	إعداد: رابطة الكتاب الأردنيين	٢٠٠٦
١١٩-	نوافذ مأهولة: متتاليات نصية حول أعمال فنية	خالد الحمزة	٢٠٠٦
١٢٠-	عام على الرحيل / الدكتور إحسان عباس	إعداد: وزارة الثقافة	٢٠٠٧
١٢١	شرح المغني في النحو	تحقيق: د. علي الشوملي	٢٠٠٧
١٢٢	Poetic creativity in arabic literary criticism	د. جهاد المجالي	٢٠٠٧
١٢٣	مستقبل الثقافة والفنون (مؤتمر الثقافة الوطني الأردني) ١-٣/٦/٢٠٠٤	رابطة الكتاب الأردنيين	٢٠٠٧
١٢٤	المذكرات والرحلات للشيخ إبراهيم القطان	د. صلاح جرار، كايد هاشم، ريم القطان	٢٠٠٧

المذكرات والرحلات

للشيخ إبراهيم القطان

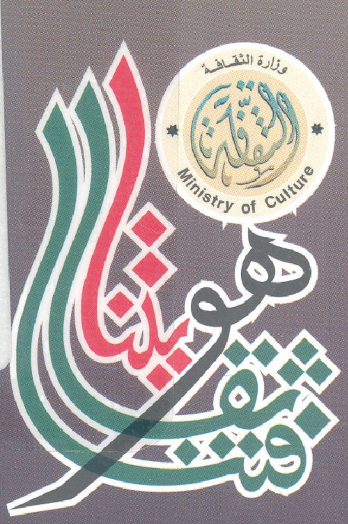
تحقيق

أ. د. صلاح جرار

كايد هاشم

ريم القطان





IBRAHIM
IBRAHIM TARAWNEH

وزارة الثقافة-شارع وصفي لتل

عمان / الاردن. ص ب : ٦١٤٠

هاتف: ٥١٩٦٢١٨، ٥١٩٦٥٨٨، ٥١٩٧٦٨٧، ٤٦٠٧٣٥٩

فاكس: ٥١٩٦٥٩٨